



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الكتاب والسنة
شعبة التفسير

أدب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع الخلق في القرآن الكريم

رسالة مقدمة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التفسير

إعداد الطالب

عبد الله بن أحمد بن غرم الله الغامدي

إشراف فضيلة الدكتور

محب الدين عبد السبحان واعظ

أستاذ التفسير المشارك بقسم الكتاب والسنة بكلية الدعوة وأصول الدين

العام الجامعي : ١٤٢٩هـ - ١٤٣٠هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ملخص البحث باللغة العربية

- هذا بحث مقدم لنيل درجة الماجستير من جامعة أم القرى في تخصص التفسير بعنوان : (أدب الأنبياء مع الخلق في القرآن الكريم) وقد تم تقسيمه إلى : مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة أبواب رئيسة ، وخاتمة ، جاءت كما يلي :
- المقدمة : وذكرت فيها أسباب اختيار الموضوع وأهميته ، وخطة البحث ، ومنهج الباحث .
- التمهيد : وفيه مطلبان :
- المطلب الأول : حقيقة الأدب ومنزله وأنواعه (بإيجاز) .
- أ- معنى الأدب لغة واصطلاحاً . ب- منزلة الأدب ومحاسنه ووسائل تحقيقه . ج- أنواع الأدب وأصوله ومصادره .
- المطلب الثاني : حقيقة النبوة والأنبياء :
- أ- معنى النبوة ، والفرق بينها وبين الرسالة . ب- منزلة الأنبياء وخصائصهم . ج- أنواع أدب الأنبياء في القرآن .
- الباب الأول : أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مع الموافقين ، وفيه تمهيد وثلاثة فصول :**
- التمهيد : من هم الموافقون .
- الفصل الأول : أدبهم - عليهم الصلاة والسلام - بعضهم لبعض . وفيه ثلاثة مباحث :
- المبحث الأول : الاحترام والتعظيم . المبحث الثاني : الاقتداء واتباع المنهج . المبحث الثالث : التواضع وتراحمهم على بعضهم .
- الفصل الثاني : أدبهم - عليهم الصلاة والسلام - مع خاصتهم وأتباعهم من قومهم . وفيه مبحثان :
- المبحث الأول : مع ذوي القربى . المبحث الثاني : مع الأتباع من أقوامهم ومن غيرهم .
- الفصل الثالث : أدبهم - عليهم الصلاة والسلام - في دعوتهم للموافقين . وفيه ثلاثة مباحث :
- المبحث الأول : مشورتهم في أمر العامة . المبحث الثاني : التخول بالموعظة والمناصحة . المبحث الثالث : الصبر والصفح عن المقصرين .
- الباب الثاني : أدبهم - عليهم الصلاة والسلام - مع المخالفين . وفيه تمهيد وفصلان :**
- التمهيد : من هم المخالفون .
- الفصل الأول : أدبهم في المعاملة . وفيه مبحثان :
- المبحث الأول : مع المشركين من ذوي القربى . المبحث الثاني : مع المشركين من أقوامهم .
- الفصل الثاني : أدبهم في الدعوة . وفيه أربعة مباحث :
- المبحث الأول : البلاغ والجدل بالحسنى . المبحث الثاني : الحرص على الهداية .
- المبحث الثالث : الرفق في الأقوال والأفعال . المبحث الرابع : الشجاعة والجرأة في الحق .
- الباب الثالث : أدبهم مع غير البشر ، وأثر أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - . وفيه فصلان :**
- الفصل الأول : أدبهم مع غير البشر . وفيه ثلاثة مباحث :
- المبحث الأول : مع الملائكة . المبحث الثاني : مع الجن . المبحث الثالث : مع الحيوان .
- الفصل الثاني : أثر أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - . وفيه مبحثان :
- المبحث الأول : أثره على الموافقين . المبحث الثاني : أثره على المخالفين .
- الخاتمة :** وفيها أهم ما توصلت إليه من النتائج والتوصيات والمقترحات التي خرجت بها من البحث .
- الفهارس :** وتشتمل على الفهارس التسعة التالية :
- ١- فهرس الآيات القرآنية . ٢- فهرس الأحاديث النبوية . ٣- فهرس الآثار . ٤- فهرس الأعلام . ٥- فهرس الكلمات المشروحة .
- ٦- فهرس الأماكن والبلدان . ٧- فهرس أبيات الشعرية . ٨- فهرس المصادر والمراجع . ٩- فهرس المحتويات .

الطالب : عبدالله أحمد الغامدي

الرقم الجامعي : ٤٢٤٨٠١١٢

ملخص البحث باللغة الإنجليزية Summary

This research is submitted for a master's degree from the University of Umm Al-Qura in a discipline of interpretation, entitled "Literature with the creation of the prophets in the Quran" has been divided into an introduction and a preface, conclusion, three key sections were as follows

Introduction: According to the reasons for selecting the topic and its importance, and the research plan and the methodology of the researcher. Boot : In a perpetually:

The first requirement: the fact that literature and its status and types of (briefly). **A-** The meaning of literature, language and idiomatically. **B-** The status of literature, advantages and means of achieving it. **C-** Types of literature and its assets and its sources.

The second requirement: the fact of prophecy and the prophets: **A-** The meaning of prophecy, and the difference between them and the message. **B-** The status of the prophets and their characteristics.

C- Types of Literature of the Prophets in the Koran.

Part I: Literature of the prophets - peace be upon them - with those who approved, and the boot and three chapters:

Preface: Who are the conformists. Chapter I: their own literature - peace be upon them - some for some. In which three Investigation: First topic: The respect and veneration.

The second topic: modeling and follow the curriculum.

The third topic: humility and mercy to each other.

Chapter II: their own literature - peace be upon them - with the elite and their followers from Their people. And involves two issues: First topic: with relatives. The second topic: with followers of their own people and others. **Chapter III:** their own literature - peace be upon them - in calling them to agree. In which three sections: First topic: their advice is in the Assembly.

The second topic: Altjul Bmoazp and Almnasahp.

The third topic: patience and forgiveness for defaulters.

Part II: their own literature - peace be upon them - with the offenders. And the boot and two classes: Preface: Who are the offenders.

Chapter I: their own literature in the transaction. And involves two issues: First topic: with the infidels from the kin.

The second topic: with the infidels from their people.

Chapter II: their own literature in the invitation. With four topics:

First topic: the communication and the debate nicely.

The second topic: Keeping the guidance.

The third topic: kindness in words and deeds.

Fourth topic: the courage and boldness in the right.

Part III: non-humans with their own literature, literature and the impact of the prophets - they pray And peace -. And the two classes:

Chapter I: towards their non-humans. In which three sections:

First topic: with the angels.

The second topic: with the jinn.

The third part: with the animal.

Chapter II: the impact of literature of the prophets - peace be upon them -. And involves two issues:

First topic: the impact on those who agree.

The second topic: the impact on offenders.

Conclusion: I will mention the most important of its findings and recommendations and proposals in studying research, in sha Allaah.

Indexes: The indexes include the following nine:

1- Index of Quranic verses.

2- Index of the hadith.

3- Index of the effects.

4- Index of the flags.

5- Index of the words described.

6- Index of places and countries.

7- Index of verses of poetry.

8- Index of sources and references. 9- Table of Contents.

Student: Abdullah Ahmed Al-Ghamdi

University ID: 42480112

المقدمة

المقدمة

الحمد لله الواحد الخلاق ، فاطر السبع الطباق ، ومقسم الآداب والأرزاق ، الهادي لأحسن الخلاق .

أحمده على آلائه الكثيرة التي تملأ الآفاق ، وأشكره على نعمائه الجزيلة التي تطوق القلوب والأعناق .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة أدخرها ليوم المساق . وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله المبعوث ليتمم مكارم الأخلاق ، الداعي إلى الله تعالى بأقواله وسلوكه وآدابه على بصيرة وإرفاق .

اللهم صلّ وسلم وزد وبارك على هذا النبي الكريم ، الذي طابت سيرته ، وحمدت سيرته ، الذي أنقذت به الناس من ضلال الجاهلية ، وأظهرت به على الدين كله الملة الحنيفية ، فكان رحمة للبشرية ، وهادياً وبشيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً .

صلى الله عليه وعلى آله وصحابه أجمعين ، وأزواجه أمهات المؤمنين ، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين .

أما بعد . .

فإن أمر الآداب والأخلاق في شرعة الإسلام عظيم شأنه ، عالية مكانته ومنزلته ، بلغ به الحال في الاهتمام والكمال ، أن كان قرين العقائد في تنزل القرآن ، ولذلك نال العناية الكبرى والحظوة العالية القصوى ، في دلالة واضحة على سمو منزلة هذا العلم في هذه الملة الحنيفية المصطفاة المرتضاة .

وحيث أن شرائع الله السماوية جاءت لتقرير الأصول الإيمانية وتزكية الأنفس البشرية ، بالآداب والمكارم الأخلاقية ، فلا بد أن يعنى القرآن العظيم عناية عظيمة بالمبادئ الأخلاقية من أول الطريق إرشاداً وتربية وتعليماً ، حيث أنزل الله - ﷻ - من أول ما أنزل على رسوله الكريم محمد - ﷺ - سورة المدثر ، وأوجب على رسوله - ﷺ - القيام بتبليغ

رسالة الله تعالى إلى خلقه ، وأن يتدرع بمكارم الآداب والأخلاق في نفسه ، حتى ينهج على منواله ، ويقتفي أثره من بعده أتباعه ، فقال تعالى في مطلع هذه السورة التي أنزلت على رسول الله - ﷺ - بالبعثة والرسالة .

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَمُنَّ تَسْتَكْبِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ ﴾ (١) .

فترى أن مكارم الآداب من الطهارة ، وترك المنكر ، وعدم المن ، والتحلي بالصبر ، هيمنت على مهمة البعثة بعد توحيد الله تعالى .

ولا شك أن الأنبياء والرسل مشاعل النور ، ومصايح الهداية ، انتظمت بهم طريق الحياة الطويلة ، هداية للعباد ورشاداً للخلق ، فكان لهم القدح المعلى ، والحظ الأسنى في رفيع الأقوال والأفعال ، فحفظت سننهم ، وسجلت مآثرهم ، وغدت سيرهم وآدابهم مثلاً يحتذى ، ونبراساً يقتدى ؛ إذ هم صفوة البشر وخيارهم ، قسم لهم الحظ الأوفر من الأدب الرفيع ، والخلق الجميل ، واصطفاهم الله لحمل رسالته ، وتبليغ شرعته ودعوته ، فكانوا على أوج الكمال الأخلاقي ، وأعظم الخلق الإنساني ، حتى يكونوا موثمين لما بعثوا به ، مبينين له بسلوكهم وأقوالهم وأحوالهم ، فنشأوا على عظيم الخلق ، وكريم السجايا ، أزكيا الروح ، طاهرين الأردن (٢) ، أنقياء السريرة ، شغوفين بمعالى الأمور ومكارمها ، بعيدين عن دنيا الأخلاق وسفاسفها ، لم تعرف لهم صبوة ، ولم تحفظ لهم زلة ، ولا عثر لهم هفوة .

ولما كانوا على ذلك الحال من الكمال والعظمة الذي فطرهم الله عليه ، كانوا قد ترشحوا لتلقي الوحي السماوي والشرع الإلهي ، فاصطفاهم الله تعالى بذلك ليكونوا رحمة للعالمين ، مبشرين ومنذرين وداعين إلى الهدى والدين .

(١) سورة المدثر ، آية رقم (١ - ٧) .

(٢) الأردن : جمع رُؤْدُن ، وهو : مقدم كم المقيص ، ويكنى به عن النزاهة والعفة واصفاء الظاهر والباطن .

انظر : لسان العرب (١٣/١٧٧) .

ومع ما كانوا عليه من ذلك الكمال الأدبي والأخلاقي ، فإن تلك الشرائع السماوية والآداب الربانية قد أضفت على كمالهم الخلق كمالاً ، وعلى جميل آدابهم جمالاً ، وعلى زكاء أنفسهم تزكية ونقاء ، وذلك بتوجيههم لكل خير ، وإرشادهم لكل معروف ، ودالتهم على كل فضل ، وتعليمهم ما لم يعلموا ، وكانوا عليهم الصلاة والسلام سريعي الامتثال لتلك الآداب والأخلاق الشرعية السماوية ، متحلين بآدابها ، متمثلين لأخلاقها ، مطبقين لأحكامها ، حتى أضحوا موضحين لتلك الشرائع ، يترجمون أخلاقها وأحكامها وتعاليمها كأوفى ما يكون البيان ، بالأقوال والأفعال والجنان حتى غدت في شخوصهم كامنة ، وفي ذاتهم وسلوكهم مترجمة وافية .

وحيث إن القرآن الكريم قد عني عناية كبرى بأخبار الأنبياء وأحوالهم ، وذكر قصصهم وما فيها من آداب وأخلاق عظيمة ، كان لا بد من تتبع واستقراء تلك الآداب والشمائل النبوية الكريمة في القرآن الكريم ؛ حتى تتم الهداية به على النحو الذي يرضي الرحمن - ﷻ - .

ولما لم يكن هذا المراد محققاً على شكل كتاب جامع يجوي آداب الأنبياء وأخلاقهم وتمثلها وتطبيقها حتى يتم النفع بها في كل آن ، على وجه يعم نفعه بني الإنسان ، وانطلاقاً من هذا وشبهه ، رأيت أن أتناول موضوعاً طالما تردد في نفسي ، وقويت به عزمي ، ألا وهو (أدب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع الخلق في القرآن الكريم) وهو موضوع مهم ، جدير بالعناية والبحث ، إذ أن الغاية من إرسال الرسل هي دعوة الخلق وهدايتهم ، وهذا لا يتأتى معرفته إلا بدراسة الجانب الذي يتناول تعامل الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مع الخلق ودعوتهم إلى الله تعالى ، ومن هذا تبرز أهمية هذا الموضوع .

وحيث لم يكن أحد قام بذلك - فيما أعلم - كان عليّ وأنا أدرس كتاب الله ، وأنشر هديه ، وأقتني أثره ، أن أنتهز فرصة دراستي في جامعة أم القرى العريقة - حفظها الله ، وأدام ظلها ، وارفاً في أرجاء العالم - أن أقوم بهذه المهمة ، وأجمع تلك الآداب في كتاب واحد ، يغني عن تشتت الذهن ، ويختصر الجهد لدى الباحثين ، وهي المهمة التي طالما نشدتها وينشدها كل داعية وطالب مثقف ومحِب للمعرفة ؛ وذلك في

إطار (١) دراسي العليا بقسم الكتاب والسنة في مرحلة (الماجستير) ، فتقدمت بعد استشارة وإشارة بعض أساتذتي ومشايخي الفضلاء الذين وجدت منهم التحفيز والتشجيع إلى قسم الكتاب والسنة بهذا الموضوع بعنوان : (أدب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع الخلق في القرآن الكريم) وذلك لدراسة خطته المقترحة ، مشفوعاً بالأسباب الداعية إلى الكتابة فيه .

أسباب الكتابة في هذا الموضوع وأهميته :

- ١- دراسة سير الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ومعرفة أحوالهم ، خاصة فيما يتعلق بجانب الآداب .
- ٢- إبراز تلك الآداب بصورة تحقق مفهوم الاقتداء بهم .
- ٣- حاجة المكتبة الإسلامية إلى مصنفات تعنى بجانب أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ، مستمداً من القرآن الكريم .
- ٤- عدم وجود من كتب في هذا الموضوع ودرسته دراسة علمية مستقلة ، وإفراده في بحث مؤصل - على حد علمي القاصر - .
- ٥- كثرة ما ورد في القرآن من قصص وأحوال الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مع أقوامهم .
- ٦- رغبي في معرفة أدب الأنبياء في القرآن بشيء من التفصيل ، ومعرفة أبعاده وآثاره .

وتأتي أهمية دراسة هذا الموضوع من الجوانب الآتية :

- ١- أن هذا الموضوع يتناول أفضل البشر وأكملهم أدباً على الإطلاق ، وهم الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - .

(١) الإطار : كل ما أحاط بالشيء من خارج ، وجمعه : أطر . المعجم الوسيط (٢٠/١) .

٢- أن طرح موضوع كهذا في الساحة الإسلامية له أثره في نفوس المقتدين ؛ لأن إبراز القدوة الصالحة للخلق يعينهم على المضي في طريق الهدى والاستقامة .

٣- أن دراسة جانب الأدب عند الأنبياء - ﷺ - هو الجوهر المقصود ، واللـب المطلوب للعمل والاقتداء بهم .

ولما كانت هذه الأسباب حقيقة حقاً ، ووجيهة صدقاً ، تقدمت بها إلى قسم الكتاب والسنة في كلية أصول الدين ، ورأى أعضاء المجلس الموقرين في القسم والكلية أهمية الموضوع وجدارته بالكتابة فيه في هذه المرحلة ، فوافقوا عليه وعلى خطته التالية ، التي شملت ثلاثة أبواب تسبقها مقدمة ومدخل ، وتقفوها خاتمة ، كما أبينها في الآتي :

خطة البحث :

وتشتمل على مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة .

المقدمة : وذكرت فيها أسباب اختيار الموضوع وأهميته ، وخطة البحث ، ومنهج الباحث .

التمهيد : وفيه مطلبان :

المطلب الأول : حقيقة الأدب ومنزله وأنواعه (بإيجاز) .

أ- معنى الأدب لغة واصطلاحاً .

ب- منزلة الأدب ومحاسنه ووسائل تحقيقه .

ج- أنواع الأدب وأصوله ومصادره .

المطلب الثاني : حقيقة النبوة والأنبياء :

أ- معنى النبوة ، والفرق بينها وبين الرسالة .

ب- منزلة الأنبياء وخصائصهم .

ج- أنواع أدب الأنبياء في القرآن .

الباب الأول : أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مع الموافقين ، وفيه تمهيد
و ثلاثة فصول :

التمهيد : من هم الموافقون .

الفصل الأول : أدبهم - عليهم الصلاة والسلام - بعضهم لبعض . وفيه ثلاثة
مباحث :

المبحث الأول : الاحترام والتعظيم .

المبحث الثاني : الاقتداء واتباع المنهج .

المبحث الثالث : التواضع وتراحمهم على بعضهم .

الفصل الثاني : أدبهم - عليهم الصلاة والسلام - مع خاصتهم وأتباعهم من
قومهم . وفيه مبحثان :

المبحث الأول : مع ذوي القربى .

المبحث الثاني : مع الأتباع من أقوامهم ومن غيرهم .

الفصل الثالث : أدبهم - عليهم الصلاة والسلام - في دعوتهم للموافقين . وفيه ثلاثة
مباحث :

المبحث الأول : مشورتهم في أمر العامة .

المبحث الثاني : التحول بالموعظة والمناصحة .

المبحث الثالث : الصبر والصفح عن المقصرين .

الباب الثاني : أدبهم - عليهم الصلاة والسلام - مع المخالفين . وفيه تمهيد

وفصلان :

التمهيد : من هم المخالفون .

الفصل الأول : أدبهم في المعاملة . وفيه مبحثان :

المبحث الأول : مع المشركين من ذوي القربى .

المبحث الثاني : مع المشركين من أقوامهم .

الفصل الثاني : أدبهم في الدعوة . وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : البلاغ والجدل بالحسنى .

المبحث الثاني : الحرص على الهداية .

المبحث الثالث : الرفق في الأقوال والأفعال .

المبحث الرابع : الشجاعة والجرأة في الحق .

الباب الثالث : أدبهم مع غير البشر ، وأثر أدب الأنبياء - عليهم الصلاة

والسلام - . وفيه فصلان :

الفصل الأول : أدبهم مع غير البشر . وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : مع الملائكة .

المبحث الثاني : مع الجن .

المبحث الثالث : مع الحيوان .

الفصل الثاني : أثر أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - . وفيه مبحثان :

المبحث الأول : أثره على الموافقين .

المبحث الثاني : أثره على المخالفين .

الخاتمة : وسأذكر فيها أهم ما توصلت إليه من النتائج والتوصيات والمقترحات التي يفرزها البحث إن شاء الله تعالى .

الفهارس : وتشتمل على الفهارس التسعة التالية :

- ١- فهرس الآيات القرآنية .
- ٢- فهرس الأحاديث النبوية .
- ٣- فهرس الآثار .
- ٤- فهرس الأعلام .
- ٥- فهرس الكلمات المشروحة .
- ٦- فهرس الأماكن والبلدان .
- ٧- فهرس الأبيات الشعرية .
- ٨- فهرس المصادر والمراجع .
- ٩- فهرس المحتويات .

ولقد شمرت عن ساعد الجد ، مستعيناً بالله تعالى ، متوكلاً عليه ، ضارعاً إليه في أن يسدد خطاي ، ويوفقني لجمعه وإخراجه على النحو الذي يليق بشرف الموضوع ، وشرف متعلقه ، وكان أمني فيه كبيراً في الاستجابة ، وقد تحقق بفضل الله وحوله وقوته ما دعوت به ، ورجوته منه ، وذلك بأن وفقني - وله الحمد والمنة - إلى إخراجه على هذا النحو ، الذي سرت فيه على المنهج التالي .

منهج البحث :

كان المنهج الذي سرت عليه في إعداد هذا البحث على النحو التالي :

١- جمع ما ورد في القرآن الكريم من نصوص تشير إلى أدب الأنبياء تصريحًا أو تلميحًا ، وبيان ما ذكره أئمة التفسير في معانيها ومدلولاتها التي تتكلم عن الأدب النبوي .

٢- الآيات : أذكر أرقامها وأعزوها إلى سورها .

٣- الأحاديث : ما ورد في الصحيحين أو أحدهما أكتفي به في التخريج ، وما لم يكن فيهما أخرجه من الكتب الستة المشهورة والسنن .

٤- الأعلام : أترجم لغير المشهورين منهم ، وعليه فلا أترجم لعموم الصحابة المشاهير ولا الأعلام المعاصرين .

٥- أعرف ما يحتاج إلى شرح وبيان من المصطلحات والغريب .

٦- المراجع : أذكر في الحاشية الكتاب والصفحة والجزء إن وجد ، وقد أذكر بما اشتهر ، وفي الفهرس أعطي بيانًا واضحًا له ، وقد أذكر لبعض المراجع اسم مؤلفه أو كنيته عند الحاجة خشية اللبس أو الجهالة .

٧- عزوت الأقوال إلى قائلها وبينت مصادرها ، وحرصت على إيراد الأقوال والتركيز عليها دون الأشخاص ؛ لأن العبرة إنما هي لآراء والأفكار لا الأشخاص ، إلا إذا كان علمًا أو رائدًا لفكرة ما ، فإن التناول للفكرة وقائلها .

كان هذا هو المنهج الذي توخيته جهدي أثناء إعداد هذا البحث وجمعه ، حتى تكامل نصابه ، واستوفى مباحثه ، واكتسى حلة يليق بشرف موضوعه ، وأرجو من الله العليّ القدير أن يكون هذا الجهد خالصًا لوجهه الكريم ، ونافعًا لي يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

كما لا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل لفضيلة الدكتور محب الدين عبد السبحان واعظ الذي أشرف على كتابة هذا البحث ، وكان له الفضل بعد فضل الله وتوفيقه على

إتمامه وإخراجه بهذا الشكل ، وقد أعطاني من وقته الثمين ، وتوجيهاته المسددة ، وعلمه المبارك ، فجزاه الله عني كل خير على جهده ومعروفه .

ويجدر بي في هذا المقام أن أقول : إنني بذلت في جمعه وتحريره جهدي ، وهو جهد العاجز الضعيف ، وتوخيت فيه السداد طاقتي ، وهو توخي الناقص الفقير ، فإن كان ما جمعته وحررته صواباً فذلك بتوفيق الله ، وله الفضل والمنة والثناء الحسن ، وإن كانت الأخرى فذلك من نقصي وتقصيري ، وأتوب إلى الله وأستغفره ، وحسبي أني بذلت جهدي .

ولا شك « أن المنصف يهب خطأ الخطئ لإصابته ، وسيئاته لحسناته ، ومن ذا الذي يكون قوله كله سديداً ، وعمله كله صواباً ؟ وهل ذلك إلا للمعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ، ونطقه وحي يوحى » (١) .

ورحم الله القائل :

اعلم بأن المرء لو بلغ المدى من العمر لاقى الموت وهو مقصر
فإذا ظفرت بزلة فافتح لها باب التجاوز فالتجاوز أجدر
ومن الخال بأن يرى أحد حوى كُنه الجمال وذا هو المتعذر
غير الحبيب المصطفى الهادي الذي يفنى الزمان وفضله لا يحصر (٢)

غير أني أسأل الله أن يقيض لي من يقوم عملي ، ويصلح خللي ، ويرشدني في أمري ، فيؤجر ويشكر ، وأدعو له بظهر الغيب دعوة خير إن شاء الله تعالى ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .



(١) روضة الحبين لابن القيم ص (١٤) .

(٢) تعزى هذه الأبيات للقاسم بن محمد الأندلسي من إنشاده . انظر : ذيل نزهة الحفاظ لمحمد الأصهباني المدني

(ت : ٥٨١ هـ) ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٠٦ هـ ، ص (١١٢) .

التمهيد

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : حقيقة الأدب ومنزله وأنواعه (بإيجاز) .

أ- معنى الأدب لغة واصطلاحاً .

ب- منزلة الأدب ومحاسنه ووسائل تحقيقه .

ج- أنواع الأدب وأصوله ومصادره .

المطلب الثاني : حقيقة النبوة والأنبياء .

أ- معنى النبوة ، والفرق بينها وبين الرسالة .

ب- منزلة الأنبياء وخصائصهم .

ج- أنواع أدب الأنبياء في القرآن .

التمهيد

المطلب الأول

حقيقة الأدب ، ومنزلته ، وأنواعه

أ- معنى الأدب لغة واصطلاحاً :

ذكر ابن فارس (١) أن الأدب هو دعاء الناس إلى طعامك ، والأدب هو الداعي إلى المأدبة ، ثم قال : « واشتقاق الأدب من ذلك ، كأنه أمر قد أجمع عليه وعلى استحسانه » (٢) .

أما الفيروز آبادي (٣) فقد عرف الأدب بقوله : « الظرف وحسن التناول » (٤) .

وعرفه المرتضى الزبيدي (٥) بأنه : « هو الذي يتأدب به الأديب من الناس ؛ سمي به لأنه يأدب الناس إلى المحامد وينهاهم عن المقابح » . وذكر أن أصل الأدب الدعاء ، ونقل

(١) ابن فارس (٣٢٩ - ٣٩٥ هـ / ٩٤١ - ١٠٠٤ م) هو : أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي ، أبو الحسين ، من أئمة اللغة والأدب ، قرأ عليه البديع الهمداني ، والصاحب ابن عباد وغيرهما ، من أعيان البيان ، أصله من قزوين ، وأقام مدة في همدان ، ثم انتقل إلى الري فتوفي فيها ، وإليها نسبته ، من تصانيفه : (مقاييس اللغة) ، و (المحمل) ، و (الصحاح) . انظر : الأعلام (١ / ١٩٣) .

(٢) جمل اللغة (١ / ٩٠) .

(٣) الفيروز آبادي (٧٢٩ - ٨١٧ هـ / ١٣٢٩ - ١٤١٥ م) هو : محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم ابن عمر ، أبو طاهر ، مجد الدين الشيرازي ، الفيروز آبادي ، من أئمة اللغة والأدب ، انتشر اسمه في الآفاق ، حتى كان مرجع عصره في اللغة والحديث والتفسير ، وتوفي في زبيد ، من أشهر كتبه : (القاموس المحيط) ، و (المغنم المطابة في معالم طابة) . انظر : الأعلام (٧ / ١٤٧ - ١٤٦) .

(٤) القاموس المحيط (١ / ٣٦) .

(٥) المرتضى الزبيدي (١١٤٥ - ١٢٠٥ هـ / ١٧٣٢ - ١٧٩٠ م) هو : محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الرزاق الحسيني ، الزبيدي ، أبو الفيض ، الملقب بمرتضى ، علامة باللغة والحديث والرجال والأنساب ، من كبار المصنفين ، أصله من واسط في العراق ، ومولده بالهند في بلجرام ، ومنشأه في زبيد باليمن ، توفي بالطاعون في مصر ، من كتبه : (تاج العروس في شرح القاموس) ، و (إتحاف السادة المتقين في شرح إحياء العلوم للغزالي) . انظر : الأعلام (٧ / ٧٠) .

عن شيوخه أن الأدب ملكة تعصم من قامت به عما يشينه (١) .

وجاء في المعجم الوسيط أن « الأدب هو رياضة النفس بالتعليم والتهديب ، والأديب هو الآخذ بمحاسن الأخلاق » (٢) .

وعرف الأدب أيضاً بأنه : اجتماع خصال الخير في العبد ، ومنه المأدبة وهي الطعام الذي يجتمع عليه الناس (٣) ، وحقيقته : استعمال الخلق الجميل (٤) .

ومن خلال استعراض المعنى اللغوي لكلمة الأدب نجد أن معناها ينحصر بين الدعاء بصورة عامة والدعاء إلى الطعام بصورة خاصة ، والظرف وحسن تناول ، وما يتأدب به الأديب من الناس ، ورياضة النفس بالتعليم والتهديب ، والملكة التي تعصم من قامت به عما يشينه .

أما تعريف الأدب اصطلاحاً فهو : « فن من الفنون الجميلة ، ينبع من الموهبة ، ويفيض من الفطرة ، ثم تسدده علوم الأدب وتهدى خطاه » (٥) . فهو علم يحرز به عن الخلل في كلام العرب لفظاً أو كتابة .

وهو علم إصلاح اللسان والخطاب ، وإصابة مواقعه وتحسين ألفاظه ، وصيانتها عن الخطأ والخلل ، وهو شعبة من الأدب العام (٦) .

يلاحظ أن المعنى الاصطلاحي للأدب يختص بالأدب كعلم ودراسة ، وهذا يخرج عن نطاق هذا البحث .

(١) تاج العروس (١٢/٢١) .

(٢) المعجم الوسيط (٩/١) .

(٣) صور من أدب السلوك الاجتماعي في الإسلام لإبراهيم العلي ص (١١) .

(٤) المرجع السابق .

(٥) من بلاغة القرآن لأحمد بدوي ص (٢٢) .

(٦) صور من أدب السلوك الاجتماعي في الإسلام ص (١١) .

ب- منزلة الأدب ومحاسنه ووسائل تحقيقه :

الأدب بالنسبة إلى الإنسان عنوان سعادته وفلاحه ، وقلّة الأدب عنوان شقاوته ووباره ، فما استجلب خير الدنيا والآخر بمثل الأدب ، ولا استجلب حرمانها بمثل قلّة الأدب (١) .

ويمكن توضيح ذلك من خلال بعض القصص التي وردت في الحديث النبوي .
فإخلال جريح في أدبه مع أمه للتعبد والإقبال على الصلاة ، امتحنه بهدم صومعته ، وضرب الناس له ، ورميه بالفاحشة (٢) .

أما غاية الأدب الأساسية في الإسلام فهي حفظ الدين ، فحين نبحت عن المقصد الأساسي للتأصيل لأخلاقيات الذوق الرفيع ، فإننا سنجد الغاية والهدف الأساس هو حفظ دين الإنسان المسلم ، وتقريبه من خالقه سبحانه ، وعدم التفريط بأي حق من حقوقه سبحانه ، وعدم التفريط بأي حكم من أحكام الدين في سبيل كسب محبة الناس ، فالقاعدة الذهبية هي المتمثلة بهذه العبارة - « دينك دينك ؛ فإنه هو لحمك ودمك » (٣) - ، وهي إحدى العبارات الجميلة التي تضمنتها وصية للإمام الحسن البصري (٤) - رحمته - وهو يوصي بها المسلم أن يحافظ على دينه ، ويحرص عليه ، حرصه على دمه ولحمه ، يلتزم أوامره ، ويجتنب نواهيه ، ويدافع عنه .

لقد تنبه السلف الصالح إلى منزلة الأدب ومحاسنه ووسائل تحقيقه ، ووردت عنهم

(١) صور من أدب السلوك الاجتماعي في الإسلام ص (١٣) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب المظالم ، باب إذا هدم حائطاً فليين مثله (١٣٧/٣) برقم (٢٤٨٢) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب البر والصلة ، باب تقدم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها (١٥٦٨/٤) برقم (٢٥٥٠) .

(٣) حلية الأولياء (١٤٥/٣) .

(٤) الحسن البصري (٢١ - ١١٠هـ / ٦٤٢ - ٧٢٨م) هو : الحسن بن يسار البصري ، أبو سعيد ، تابعي ، كان إمام أهل البصرة ، وحرر الأمة في زمنه ، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان التّسّاك ، ثقة فقيه فاضل ، أدرك جماعة من الصحابة . انظر : طبقات الحفاظ للسيوطي ص (٣٥) برقم (٦٤) ، والأعلام (٢٢٦/٢) .

مجموعة من الآثار التي تدل على ذلك ، ومن أمثلة اهتمامهم به : أنهم رأوا أن الأدب في العمل أهم من العمل نفسه ، فقد قال رويم بن أحمد البغدادي (١) لابنه : « يا بني اجعل عملك ملحاً ، وأدبك دقيقاً » (٢) ، أي : استكثر من الأدب حتى تكون نسبته في سلوكك من حيث الكثرة ، كنسبة الدقيق إلى الملح الذي يوضع فيه عند عجنه لصنعه خبزاً ، وكثير من الأدب مع قليل من العمل الصالح ، خير من كثير من العمل مع قلة الأدب .

والتزام الأدب ضروري في الظاهر والباطن ، فقد قال بعضهم : « الزم الأدب ظاهراً وباطناً ، فما أساء أحد الأدب في الظاهر ، إلا عوقب ظاهراً ، وما أساء أحد الأدب باطناً إلا عوقب باطناً » (٣) .

وقال عبد الله بن المبارك (٤) - رحمته - : « من تهاون بالأدب ، عوقب بحرمان السنن ، ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض ، ومن تهاون بالفرائض ، عوقب بحرمان المعرفة » ، وقيل أيضاً : « الأدب في العمل ، علامة قبول العمل » (٥) .

وحين نبحت عن أمر يعيننا على تجاوز الصعاب والمشاق في سبيل التخلق بالآداب الإسلامية ، فإن من أعظم هذه الأسباب علو الهمة (٦) ، والهمة في مدلولها ومعناها تعني توجه القلب وقصده ، وأصحاب الهمم العالية من راموا بكليتهم سبيل الحق ، فعكفت قلوبهم على الله ، وجمعوا هممتهم عليه ، وفرغوا القلب لمحبتة ، والإنابة إليه ، والتوكل عليه ،

(١) هو : رويم بن أحمد بن يزيد بن رويم ، صوفي شهير ، من جلة مشايخ بغداد ، من كلامه : (الصبر ترك الشكوى ، والرضى استلذاذ البلوى) . توفي سنة (٣٣٠هـ) . الأعلام (٣٧/٣) .

(٢) الفروق في أنوار البروق للقراي (٩٦/٣) .

(٣) صور من السلوك الاجتماعي في الإسلام ص (١٣) .

(٤) عبد الله بن المبارك (١١٨ - ١٨١هـ / ٧٣٦ - ٧٩٧م) هو : عبد الله بن المبارك ، الحنظلي بالولاء ، التميمي ، المروزي ، أبو عبد الرحمن ، الحافظ ، شيخ الإسلام ، المجاهد ، التاجر ، صاحب التصانيف والرحلات ، أفنى عمره في الأسفار حاجاً ومجاهداً وتاجراً ، وجمع الحديث والفقهاء والعربية وأيام الناس والشجاعة والسخاء ، كان من سكان خراسان ، ومات بيهث (على الفرات) منصرفاً من غزو الروم ، له كتاب في الجهاد - وهو أول من صنف فيه - والرقاق . توفي سنة (١٨١هـ) . الأعلام (١١٥/٤) .

(٥) صور من أدب السلوك الاجتماعي في الإسلام ص (١٣) .

(٦) المرجع السابق ص (٢٩) .

والاشتغال بمرضاته ، دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له (١) .

ج- أنواع الأدب وأصوله ومصادره :

يمكن تصنيف أنواع الأدب إلى الأنواع الآتية :

١- أدب السلوك مع الله (الأدب مع الله تعالى) :

ويمكن تعريفه بأنه : حسن الصحبة مع الله بإيقاع الحركات الظاهرة والباطنة ، على مقتضى التعظيم والإجلال والحياء ، كحال مجالسة الملوك ومصاحبتهم (٢) .
ومن الأمثلة على هذا الأدب : الإخلاص في العبادة ، وإرضاء الله ولو أسخط الناس ، والثقة بما عند الله ، وأن يكون حق الله أحق من كل حق ، وتقوى الله ومراقبته .

٢- أدب السلوك مع النفس تهذيباً وتربية :

إن من فقه السير إلى الله حسن سياسة النفس حتى تستمر على انطلاقها إلى الله تعالى ، ولذلك فإن للنفس حالتان :
الأولى : حالة النشاط والقوة ، والثانية : حالة الفتور والإدبار . ولكل منهما فقه خاص للتعامل مع النفس (٣) .

ومن الأمثلة على هذا النوع من الأدب : التوبة النصوح ، الأخلاق التي تكسب الفرد المكانة والوجاهة ، إصلاح النفس وعدم عيب الغير ، التواضع للحق والخضوع له ، عدم شراء الدنيا بالدين ، التجرد من مطامع النفس ، ترك الحرام ، الصدق ، تعويد اللسان النطق بالحق ، سلامة الصدر على الناس ، قول الحق والعمل به .

(١) صور من أدب السلوك الاجتماعي في الإسلام ص (٢٩) .

(٢) المرجع السابق ص (٤١) .

(٣) المرجع السابق ص (٧٧) .

٣- أدب السلوك مع الآخرين :

وهو الأدب مع الخلق ، ويمكن تعريفه بأنه : معاملتهم على اختلاف مراتبهم بما يليق بهم ، فلكل مرتبة أدب ، والمراتب فيها أدب خاص : فمع الوالدين أدب خاص ، ولأب منهما أدب هو أخص به ، ومع العالم أدب آخر ، ومع السلطان أدب يليق به ، وله مع الأقران أدب يليق بهم ، ومع الأجانب أدب غير أدبه مع أصحابه وذوي أنسه ، ومع الضيف أدب غير أدبه مع أهل بيته ، وهكذا (١) .

ويمكن أن يطلق على هذا النوع من الأدب : أدب التعامل ، أو أدب السلوك الاجتماعي الراقى ، وهو من الأمور التي حرص الإسلام على ترسيخها في نفوس أتباعه ، فقد جاءت الآيات القرآنية الكثيرة ، والأحاديث النبوية الصحيحة ، والتطبيق العملي لأجيال الخير من السلف السابقين ، مبينة وموضحة لهذا السلوك (٢) .

ومن أكثر المواطن وضوحاً في بيان هذا الأدب في القرآن الكريم : سورة الحجرات ، والتي اشتملت على كثير من الأخلاق ، إضافة إلى غيرها من آيات القرآن وسوره (٣) .

لقد حرص النبي - ﷺ - على ترسيخ أدب التعامل في نفوس الصحابة - رضوان الله عليهم - من خلال القول والتطبيق والسلوك العملي ، والتزم الصحابة والسلف - رضوان الله عليهم جميعاً - بهذا السلوك ، فطبّقوا ما جاء في الآيات القرآنية ، والتزموا الأخلاق النبوية ، فأثّر ذلك دستوراً راقياً في التعامل ، محدد المعالم ، واضح القسّمات والتعاليم ، ولذلك تتابعت كلمات أهل الحكمة في تحديد معالمه ، وذلك من خلال ما تعلموه من سنة النبي - ﷺ - ، وما عاشوه من سلوكياته التي كان أفضل وصف لها قول عائشة - رضي الله عنها - : « **فإن خلق نبي الله - ﷺ - كان القرآن** » (٤) .

(١) صور من أدب السلوك الاجتماعي في الإسلام ص (١٢٣) .

(٢) المرجع السابق ص (١٤) .

(٣) المرجع السابق .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب صلاة المسافرين ، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض

(٤٣٢/١) برقم (٧٤٦) ، وأخرجه أبو داود في سننه ، كتاب الصلاة ، باب في صلاة الليل برقم =

وقد ورد عن السلف الصالح عبارات ووصايا تصلح لكي تكون مواد لدستور أدب التعامل ، وأصولاً للأدب ، وجامعاً للأخلاق الفاضلة ، وهي ما يمكن أن يطلق عليها اسم : جوامع الأدب .

فمن ذلك : أن معاوية بن أبي سفيان جلس ذات يوم ومعه عمرو بن العاص - رضي الله عنه - ، فمر بهما عبد الملك بن مروان (١) ، فقال معاوية : « ما آدب هذا الفتى وأحسن مروءته » فقال عمرو بن العاص : « يا أمير المؤمنين إن هذا الفتى أخذ بخصال أربع وترك خصالاً ثلاثاً : أخذ بحسن الحديث إذا حدث ، وحسن الاستماع إذا حدث ، وحسن البشر إذا لقي ، وخفة المؤونة إذا خولف وترك من القول ما يعتذر منه ، وترك مخالطة اللئام من الناس ، وترك مازحة من لا يوثق بعقله ولا مروءته » (٢) .

ومن الأمثلة على الأدب عند السلف الصالح : تكريم العلم ، ويدل على ذلك خبر البخاري (٣) بعد عودته إلى بخارى (٤) ، حين بعث والي بخارى إليه أن احمل إليّ كتاب الجامع والتاريخ وغيرهما لأسمع منك ، فقال محمد بن إسماعيل لرسوله : أنا لا أذل العلم ولا أحمله إلى أبواب الناس ، فإن كانت لك إلى شيء منه حاجة فاحضري في مسجدي أو في داري ، وإن لم يعجبك هذا فأنت سلطان فامنعي من الجلوس ؛ ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة ؛ لأني لا أكتم العلم ؛ لقول النبي - صلى الله عليه وسلم - من سئل عن علم فكتمه أجم بلجام من

= (١٣٤٢) ، والنسائي في سننه ، كتاب قيام الليل برقم (١٦٠١) .

(١) هو : عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية ، أبو الوليد ، الأموي ، أمير المؤمنين ، ولد سنة (٢٦هـ) ، وبويع له بالخلافة سنة (٥٦هـ) في حياة أبيه في خلافة ابن الزبير ، وبقي على الشام ومصر مدة سبع سنين وابن الزبير على باقي البلاد ، ثم استقل بالخلافة على سائر البلاد والأقاليم بعد مقتل ابن الزبير ، وكانت وفاته بدمشق في نصف شوال سنة (٨٦هـ) ، وكان عمره يوم مات (٦٠) سنة ، صلى عليه ابنه الوليد ولي عهده من بعده . البداية والنهاية (٧٦/٩) ، وتهذيب الأسماء (٣٠٩/١) ، وشذرات الذهب (٩٧/١) .

(٢) الطبقات (٢٢٤/٥ - ٢٢٥) .

(٣) البخاري (١٩٤ - ٢٥٦هـ / ٨١٠ - ٨٧٠م) هو : محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري ، أبو عبد الله ، حبر الإسلام ، والحافظ لحديث رسول الله ، ألف كتابه الصحيح من حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى . الأعلام (٣٤/٦) .

(٤) تاريخ بغداد (٣/٢) .

نار « (١) .

ومن الأمثلة على الأدب عند السلف الصلح أيضاً : مكافأة المعروف بالمعروف ، فقد قال ابن عباس - رضي الله عنه - : « ما رأيت رجلاً لي عنده معروف إلا أضاء ما بيني وبينه » ، وقال - رضي الله عنه - أيضاً : « أربعة لا أقدر على مكافأهم : رجل بدأني بالسلام ، ورجل وسع لي في المجلس ، ورجل اغبرت قدماه في المشي في حاجتي ، فأما الرابع فما يكافئه عني إلا الله - عز وجل - » قيل : ومن هو ؟ قال : « رجل نزل به أمر فبات ليلته يفكر فيمن يقصده ثم رأني أهلاً لحاجته فأنزله بي » (٢) .

ومن الأمثلة الأخرى على هذا النوع من الأدب : بر الوالدين ، الأدب مع العلماء ، النصح للمسلمين ولو على حساب ماله ، اختيار الزوج الصالح ، أدب الزوجات مع أزواجهن ، حسن الظن بالآخرين وإقالة عثراتهم ، حسن الجوار ، انتقاء الأصحاب ورعاية ودهم ، إقامة الحق على القوي والضعيف ، العفو ، المسامحة والسخاء ، التعامل الحسن مع النمامين وسيئي الخلق .



(١) طبقات السبكي (٢٣٢/٢ - ٢٣٣) .

(٢) وفيات العيان (٦٣/٣) .

المطلب الثاني

حقيقة النبوة والأنبياء

أ- معنى النبوة ، والفرق بينها وبين الرسالة :

يقول الخليل بن أحمد الفراهيدي (١) : « نبأ : النبأ مهموز : الخبر ، وإن لفلان نبأ : خبراً ، والفعل نبأته وأنبأته واستنبأته ، والجمع : الأنباء ، والنبي ينبئ الأنبياء عن الله - ﷻ - ، والنبي يقال للطريق الواضح يأخذك إلى حيث تريد » (٢) .

ويقول ابن فارس : « النبي : من النبوة والنباوة وهي الارتفاع ، والسني الطريق ، ويكون من ذلك اشتقاق اسم النبي - ﷻ - » (٣) .

ويقول الجوهري (٤) : « النبأ : الخبر ، ومنه أخذ السني ؛ لأنه أنبأ عن الله تعالى » (٥) .

ويقول ابن منظور (٦) : « السني هو المخبر عن الله - ﷻ - ؛ لأنه أنبأ

(١) الخليل بن أحمد (١٠٠ - ١٧٠هـ / ٧١٨ - ٧٨٦م) هو : الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي اليمحمدي ، أبو عبد الرحمن ، من أئمة اللغة والأدب ، وواضع علم العروض ، وهو أستاذ سيبويه النحوي ، ولد ومات في البصرة ، وعاش فقيراً صابراً . انظر : الأعلام (٣١٤/٢) .

(٢) العين (٣٨٢/٨) .

(٣) مجمل اللغة (٨٥٣/٣) .

(٤) هو : إسماعيل بن حماد الجوهري ، أبو نصر ، أول من حاول الطيران ومات في سبيله ، لغوي ، من الأئمة ، وخطه يذكر مع خط بن مقلة ، أشهر كتبه الصحاح ، توفي سنة (٣٩٣هـ) . الأعلام (٣١٣/١) .

(٥) الصحاح (٧٤/١) .

(٦) ابن منظور (٦٣٠ - ٧١١هـ / ١٢٣٢ - ١٣١١م) هو : محمد بن مكرم بن علي ، أبو الفضل ، جمال الدين ، ابن منظور ، الأنصاري ، الرويفعي ، الأفريقي ، صاحب لسان العرب ، الإمام اللغوي ،

الحجة ، من نسل رويغ بن ثابت الأنصاري ، ولد بمصر سنة (٦٣٠هـ) وقد ترك بخطه نحو خمسمائة مجلد ، وعمي في آخر عمره ، أشهر كتبه : (لسان العرب) ، جمع فيه أمهات كتب اللغة ، فكاد يغني عنها

جميعاً ، ومن كتبه : (مختار الأغاني) ، و (مختصر مفردات ابن البيطار) ، توفي سنة (٧١١هـ) . الأعلام (١٠٨/٧) .

عنه « (١) ، « والنبي هو الذي أنبأ عن الله ، فترك همزه » (٢) ، والنبي : العلم من أعلام الأرض التي يهتدى بها ، قال بعضهم : ومنه اشتقاق النبي ؛ لأنه أرفع خلق الله ؛ وذلك لأنه يهتدى به « (٣) ، قال ابن السكيت (٤) : « النبي هو الذي أنبأ عن الله ، وإن أخذت النبي من النبوة ، والنبوة وهي الارتفاع من الأرض ؛ لارتفاع قدره ، ولأنه شرف على سائر الخلق ، فأصله غير الهمز ، وهو فعيل بمعنى مفعول » (٥) .

ويقول الفيومي (٦) : « أنبأته الخير بالخبر ونبأته به : أعلمته ، ونبي على فعيل ، مهموز ؛ لأنه أنبأ عن الله تعالى ، أي : أخبر » (٧) .

ويقول الفيروز آبادي : « ونبأ ، وأنبأ : أي أخبر ، ومنه اشتق اسم النبي » (٨) .

ويقول أيضاً : « النبأ : الخبر ، النبيء المخبر عن الله ، وترك الهمز المختار ، ونبأ كمنع نبأً ونبوءاً ارتفع ونبأ عليهم طلع ، ومن أرض إلى أرض خرج ، وقول الأعرابي عن الرسول : (نبيء الله) بالهمز ، أي : الخارج من مكة إلى المدينة ، والنبيء : الطريق الواضح والمكان المرتفع المحدودب كالنابئ » (٩) .

(١) لسان العرب (٣/٥٦١) .

(٢) المصدر السابق (١٥/٣٠٢) .

(٣) المصدر السابق (١٥/٣٠٢) .

(٤) ابن السكيت (١٨٦ - ٢٤٤هـ / ٨٠٢ - ٨٥٨م) هو : يعقوب بن إسحاق ، أبو يوسف ، ابن السكيت ، إمام في اللغة والأدب ، ولد سنة (١٨٦هـ) ، أصله من خوزستان (بين البصرة وفارس) ، تعلم ببغداد ، واتصل بالمتوكل البعاسي ، فعهد إليه بتأديب أولاده ، وجعله في عداد ندمائه ، ثم قتله لسبب مجهول ، توفي ببغداد سنة (٢٤٤هـ) ، من كتبه : إصلاح المنطق . انظر : الأعلام (٨/١٩٥) .

(٥) لسان العرب ، (١٥/٣٠٢) .

(٦) الفيومي (. . . - ٧٧٠هـ / . . . - ١٣٦٨م) هو : أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي ، أبو العباس ، لغوي ، اشتهر بكتابه : (المصباح المنير) ، توفي سنة (٧٧٠هـ) . انظر : الأعلام (١ / ٢٢٤) .

(٧) المصباح المنير ص (٥٩١) .

(٨) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٥ / ١٤) .

(٩) القاموس المحيط للفيروز آبادي ص (٦٧) .

ويذكر الفيروز آبادي أيضاً : « النبي كغني : الطريق ، والنبوة هي : ما ارتفع من الأرض كالنبوة النبي ، وأنبأه الخبر وبالخبر : أخبره ، والنبأ محرّكة : الخبر ، أنبأه إياه وبه : أخبره كنبأه ، واستنبأ النبأ : بحث عنه ، ونبأه ونبأه : أنبأ كل منهما صاحبه » .

وقال الصاغاني (١) : « نابأت الرجل ونابأني إذا أخبرته وأخبرك . ونابأت أنبأ نبأ ونبوءاً : إذا ارتفعت ، وكل مرتفع نابئ ، والنبي أي : المكان المرتفع » (٢) .

ويلاحظ أن كلمة : النبي ، قد تكون مأخوذة من الفعل (نبأ) ، ونبأ ونبو بمعنى : ارتفع وظهر (٣) « بغير همزة ، وهي من النبو والنبوة بمعنى : العلو والارتفاع عن الأرض ، أي : أنه أشرف على سائر الخلق » (٤) .

وقد تكون مأخوذة من الفعل (نبأ) ، والنبأ « بمعنى : الخبر ، والجمع : أنباء » (٥) ، وبذلك تكون همزة كلمة نبي مخففة .

قال الكسائي (٦) : « يجوز أن يكون نبي من أنبأت مما ترك همزه ؛ لكثرة الاستعمال ، وعلى هذا المعنى يكون النبي اسم فاعل بمعنى المخبر عن الله » (٧) .

(١) الرضى الصاغاني (٥٧٧ - ٦٥٠ هـ / ١١٨١ - ١٢٥٢ م) هو : الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر العدوي العمري ، الصاغاني ، الحنفي ، رضي الدين ، أعلم أهل عصره في اللغة ، وكان فقيهاً محدثاً . انظر : الأعلام (٢ / ٢١٤) .

(٢) القاموس المحيط ص (٦٧) .

(٣) المصدر السابق ص (٦٧) ، والمعجم الوسيط (٢ / ٨٩٦) .

(٤) مجمل اللغة لابن فارس (٤ / ٣٧٣) ، ولسان العرب (٣ / ٥٦١) .

(٥) مجمل اللغة (٤ / ٣٧٣) ، ولسان العرب (٣ / ٥٦١) ، والقاموس المحيط ص (٦٧) ، والمعجم الوسيط (٢ / ٨٩٦) .

(٦) الكسائي (. . . - ١١٨٩ هـ / . . . - ٨٠٥ م) هو : علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي بالولاء ، الكوفي ، أبو الحسن ، الكسائي ، إمام في اللغة والنحو والقراءة ، من أهل الكوفة ، ولد في إحدى قراها وتعلم بها ، وقرأ النحو بعد الكبر ، وهو مؤدب الرشيد العباسي ، وأخباره مع علماء عصره كثيرة ، له تصانيف منها : (القراءات) ، و (نوادر) ، و (مختصر في النحو) ، و (المتشابه في القرآن) ، و (ما يلحن فيه العوام) . انظر : الأعلام (٤ / ٢٨٣) .

(٧) لسان العرب (١٥ / ٣٠٣) ، وأصول الدين الإسلامي لقحطان عبد الرحمن ص (٢٠٤) .

لقد اختلف العلماء في أصل كلمة (نبي) ، ففي المغني عن كلمة (نبي) : « أنه يفيد الرفة ، وهي مأخوذة من النبوة والنباوة » (١) .

أما الراغب الأصفهاني (٢) في مفرداته (٣) : فيرى أن النبأ بمعنى الخبر ، وقيدته بعدة قيود ، فقال : « النبأ : خبر ذو فائدة عظيمة ، يحصل به علم أو غلبة ظن » (٤) .

وأشار ابن تيمية (٥) عند بحثه للنبوة إلى كلا المعنيين - أي (النبأ) . بمعنى : الإخبار ، و (النبوة) . بمعنى : الارتفاع - فقال : « والتحقيق أن من أنبأه الله وجعله منبأً عنه فلا يكون إلا رفيع القدر علياً » (٦) .

وبذلك يرد علماء اللغة هذه الكلمة إلى أحد أصليين : إما أن تكون من النبأ . بمعنى الخبر ، حيث أن النبي مخبر عن الله تعالى ، ويبدو أنهم أكثر ميلاً إلى هذا الأصل ، أو أنها من النبوة ، وهي المرتفع من الأرض ، والتي يكون الطريق فيها واضحاً ؛ وذلك لأن النبي له شرف وعلو ومنزلة على الناس بما فضله الله من النبوة ، وقد يكون الأول أقرب ، مع صحة معنى الثاني ؛ لأن قصد النبوة هو التبليغ عن الله ، ومن لوازمه ارتفاع المنزلة ، والقصد أولى بأن يكون أصلاً من لازمه (٧) .

- (١) المغني في أبواب العدل والتوحيد لعبد الجبار المعتزلي (١٤/١٥) .
- (٢) الراغب الأصفهاني (. . . - ٥٠٢ هـ / . . . - ١١٠٨ م) هو : الحسين بن محمد بن المفضل ، أبو القاسم الأصفهاني (أو الأصبهاني) ، المعروف بالراغب ، أديب ، من الحكماء العلماء ، من أهل أصبهان ، سكن بغداد ، واشتهر ، حتى كان يقرون بالإمام الغزالي ، من كتبه : (محاضرات الأدباء) ، و (الذريعة إلى مكارم الشريعة) ، و (الأخلاق) . انظر : الأعلام (٢٥٥/٢) .
- (٣) المفردات للراغب الأصفهاني ص (٤٨٢ - ٤٨٣) ، وعمدة الحفاظ للسمين الحلبي ص (٥٩٩) .
- (٤) عمدة الحفاظ (٥٥٩) .
- (٥) هو : الإمام العلامة ، الحافظ الناقد ، الفقهية المجتهد ، المفسر البارع ، شيخ الإسلام ، علم الزهّاد ، نادرة العصر ، تقى الدين ، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني ، ولد سنة (٦٦١ هـ) ، كان من بحور العلم في الحديث والفقه والتفسير والعقائد وغير ذلك ، وكان من الزهّاد والأذكياء المعدودين ، له مؤلفات عدة ، توفي سنة (٧٢٨ هـ) . انظر : تذكرة الحفاظ للذهبي (١٤٩٦/٤) ، وطبقات الحفاظ للسيوطي ص (٥٢٠) برقم (٩١٤٣) .
- (٦) درء تعارض العقل والنقل (١٧٩/١) ، والنبوات ص (٢٢٣) .
- (٧) المواقف بشرحه لعضد الدين الإيجي (٣٣٢/٣) ، والمقاصد للفتازاني (٥/٥) ، ونخفة المرید شرح =

وعلى هذا ، فالمعنيان يعضد أحدهما الآخر ويؤيده .

وفي القرآن الكريم ورد أصل لفظة النبوة بلا اشتقاق في خمسة مواضع (١) دلت جميعها على أن معناها هو : المنزلة الرفيعة ، وأما أصل لفظة نبأ فورد في ست وثلاثين (٢) اشتقاق ، ودلت كلها على معنى الإخبار ، فهي من نبأ وأنبأ أي : أخبر .

وقال أبو البقاء الكفوي (٣) : « كل نبأ في القرآن فهو الخبر إلا ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (٤) ، فإن المراد الحجج ، والنبأ لم يرد في القرآن إلا لما له وقع وشأن عظيم » (٥) .

وقال - أيضاً - : « والحق أنه مهموز اللام ، من النبأ ، وهو الخبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن » (٦) .

وقد تكون كلمة (النبي) من النبيء ، الذي هو الطريق الواضح ؛ لأن الأنبياء هم الطرق الموصلة إلى الله تعالى (٧) .

وعلى ذلك فالنبي لغة قد يكون مأخوذاً من النبوة وهي الارتفاع ؛ وذلك لارتفاع مكانة النبي وسموها عند الله والناس ، وقد يكون مأخوذاً من النبي وهو الطريق ؛ لكونه هو الطريق الذي يصل الخلق من خلاله إلى الحق سبحانه ، وقد يكون مأخوذاً من النبأ وهو

= جوهرة التوحيد للبيجوري ص (٧) .

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص (٦٨٧) .

(٢) المصدر السابق ص (٦٨٥ - ٦٨٦) .

(٣) أبو البقاء (. . . - ١٠٩٤هـ / . . . - ١٦٨٣م) هو : أيوب بن موسى الحسيني ، القريمي ، الكفوي ، أبو البقاء ، صاحب الكلبيات ، كان من قضاة الحنف ، عاش وولي القضاء في كفه بتركيا ، وبالقدس ، وبغداد ، وعاد إلى استانبول فتوفي بها ، ودفن في تربة خالد ، وله كتب أخرى بالتركية . انظر : الأعلام (٣٨/٢) .

(٤) سورة القصص ، آية (٦٦) .

(٥) الكلبيات ص (١٨٦ - ٢٠٠) .

(٦) المصدر السابق ص (٩٠٠) .

(٧) أصول الدين الإسلامي لقحطان الدوري ص (٢٠٤) .

الخبر ؛ لأنه يخبر عن ربه .

أما معنى النبوة والنبى اصطلاحاً : فيورد العلماء في كتبهم عدة تعريفات ، ومن هذه التعريفات :

النبى : من أوحى الله إليه بملك أو ألهم في قلبه أو نبه بالرؤيا الصالحة (١) .

النبوة : تحمل الإنسان لما يتحملة عن الخلق بلا واسطة (٢) .

النبى : هو المبعوث لتقرير شرع من قبله (٣) .

النبى : إنسان أوحى الله إليه بواسطة جبريل أن يبلغ عامة الناس ، أو فئة منهم أمراً من قبل الله - ﷻ - (٤) .

النبوة : فضل إلهي وهبة ربانية ، يهبها الله لمن يشاء من عباده ، ويختص بها من يشاء من خلقه ، وهي لا تدرك بالجد والتعب ، وإنما هي بمحض الفضل الإلهي ، فهي اصطفاء واختيار ، ولا تكون إلا لمن اختاره الله - تبارك وتعالى - لها من أهل لحمها (٥) .

النبوة : اصطفاء الله عبداً من عباده بالوحي إليه (٦) .

والمقدار المتفق عليه من هذه التعريفات ، هو أن النبوة هي الاختصاص بالوحي .

وأما معنى لفظة الرسول لغة : فهذه اللفظة مأخوذة من (الرسل) .

قال ابن فارس : « جاء القوم أرسالاً ، يتبع بعضهم بعضاً » (٧) ، وقال ابن منظور :

(١) التعريفات للجرجاني ص (١٢٥) .

(٢) الإصباح على المصباح في معرفة الملك الفتاح ص (١١٠) .

(٣) الرسل والرسالات لعمر الأشقر ص (١٥) .

(٤) كبرى اليقينات الكونية للبوطي ص (١٩٦) .

(٥) النبوة والأنبياء للصابوني ص (٨) .

(٦) العقديّة الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن حبنكة (٤٠/٢) .

(٧) مجمل اللغة لابن فارس (٣٧٦/١) .

« الرسل : القطيع من كل شيء ، والجمع أرسال » (١) ، « والرسل : اللبن ، يقال : كثر الرسل العام أي : كثر اللبن » (٢) .

وعلى ذلك تكون لفظة الرسول مأخوذة من معنيين هما :

الأول : الذي يتابع أخبار بعثه ، أخذًا من أقوالهم : جاءت الإبل رسلاً أي : متتابعة (٣) .

الثاني : الذي يتتابع عليه الوحي ، من رسل اللبن إذا تتابع دره (٤) .

وأما الرسالة فهي مأخوذة من الإرسال وهو التوجيه ، والرسول المرسل ، ويستوي فيه المذكر والمؤنث ، والواحد والجمع (٥) ، وتجمع أيضاً على رسل .

وقال الجرجاني (٦) : « الرسول في الفقه هو الذي أمره المرسل بأداء الرسالة بالتسليم أو القبض » (٧) .

وأما معنى الرسول اصطلاحاً : فقد اختلف العلماء بالنسبة إلى تعريف النبي والرسول ، وهل هما بمعنى واحد أو بمعنيين مختلفين إلى طائفتين :

الأولى : أنهما بمعنى واحد ، فالنبي هو الرسول ، والرسول هو النبي ولا فرق بينهما ،

(١) لسان العرب (٢٨٢/١١) .

(٢) المصدر السابق (٢٨٢/١١) .

(٣) المصدر السابق (٢٨٤/١١) .

(٤) أصول الدين لابن طاهر البغدادي ص (١٥٤) .

(٥) القاموس المحيط ص (٦٧) .

(٦) عبد القاهر الجرجاني (. . . - ٤٧١هـ / . . . - ١٠٧٨م) هو : عبد القاهرة بن عبد الرحمن بن محمد

الجرجاني ، أبو بكر ، واضع أصول البلاغة ، كان من أئمة اللغة ، من أهل جرجان (بين طبرستان

وخراسان) ، له شعر رقيق ، من كتبه : (أسرار البلاغة) ، و (دلائل الإعجاز) ، و (المغني في شرح

الإيضاح) ، و (إعجاز القرآن) وغيرها . انظر : الأعلام (٤٨/٤ - ٤٩) .

(٧) التعريفات للجرجاني ص (١١٥) .

فلا فرق بين النبي والرسول في الاصطلاح (١) ، وعزاه ابن الهمام (٢) إلى بعض المحققين ، وعليه جمهور المعتزلة (٣) ، وذكره القرطبي (٤) عن بعض العلماء وأنهم استدلوا بأن « معنى (نبي) أنبأ عن الله - ﷻ - ، ومعنى : أنبأ عن الله - ﷻ - الإرسال بعينه » (٥) .

وقد اعترض القائلون بالترقية بين النبي والرسول على هذا الرأي بأن الله تعالى فصل بين النبي والرسول بقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ (٦) ، وهذا العطف بينهما يستوجب التفريق ، فدل على أن النبي غير الرسول .

وأجيب على هذا الاعتراض بأن مجرد الفصل لا يدل على اختلاف الجنس ؛ بدليل أنه تعالى فصل بين نبينا وبين غيره من الأنبياء ، ولم يكن في ذلك الفصل دلالة على أن نبينا ليس من الأنبياء ، وكذلك فصل الله تعالى بين الفاكهة والنخل والرمان ، ولم يدل الفصل على أن النخل والرمان ليسا من الفاكهة ، فكذلك هنا .

(١) شرح الأصول الخمسة لعبد الجبار المعتزلي ص (٥٦٧) .

(٢) ابن الهمام (٧٩٠ - ٨٦١ هـ / ١٣٨٨ - ١٤٥٧ م) هو : محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد بن مسعود ، السيواسي ثم الإسكندري ، كمال الدين ، المعروف بابن الهمام ، إمام ، من علماء الحنفية ، عارف بأصول الديانات والتفسير والفرائض والفقه والحساب واللغة والموسيقى والمنطق ، أصله من سيواس ، ولد بالإسكندرية ، ونبغ في القاهرة ، وأقام بحلب مدة ، وجاوز بالحرمين ، ثم كان شيخ الشيوخ بالخانقاة الشيخونية بمصر ، وكان معظماً عند الملوك وأرباب الدولة ، توفي بالقاهرة ، من كتبه : (فتح القدير في شرح الهداية) ، و (التحرير في أصول الفقه) ، و (المسيرة في العقائد المنجية في الآخرة) . انظر : الأعلام (٢٥٥/٦) .

(٣) أصول الدين الإسلامي لقحطان الدوري ص (٢٠٦) .

(٤) القرطبي (. . . - ٦٧١ هـ / . . . - ١٢٧٣ م) هو : محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي ، أبو عبد الله ، القرطبي ، من كبار المفسرين ، صالح متعبد ، من أهل قرطبة ، رحل إلى الشرق واستقر بمنية ابن خصيب في شمالي أسبوط بمصر ، وتوفي فيها ، من كتبه : (الجامع لأحكام القرآن) يعرف بتفسير القرطبي ، و (الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) ، و (التذكار في أفضل الأذكار) ، و (التذكرة بأحوال الموتى وأحوال الآخرة) ، و (التقريب لكتاب التمهيد) ، وكان ورعاً متعبداً ، طارحاً للتكلف ، يمشي بثوب واحد وعلى رأسه طاقية . انظر : الأعلام (٣٢٢/٥) .

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٨٦/٢١) .

(٦) سورة الحج ، آية (٥٢) .

ومما يدل على اتفاق الكلمتين في المعنى أنهما يثبتان معاً ويزولان معاً في الاستعمال ، حتى لو أثبت أحدهما ونفي الآخر لتناقض الكلام ، وهذا دليل على أن الكلمتين متفتحتان في المعنى (١) .

الثانية : أن بين النبي والرسول اختلافاً في المفهوم ، وهؤلاء استندلوا فيما ذهبوا إليه عن الاختلاف بين النبي والرسول إلى أدلة من الكتاب والسنة .

فمن الكتاب : قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىَ الْقَى الشَّيْطَانُ فِى أَمْنِيَّتِهِ ﴾ (٢) ، قالوا : إن هذه الآية عطف النبي على الرسول ، والعطف يقتضي المغايرة ، ولو كانا بمعنى واحد ما عطف أحدهما على الآخر .

وأما السنة (٣) : فقد ورد في رواية أبي ذر - رضي الله عنه - التي رواها أحمد (٤) في مسنده قال : أتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو في المسجد فجلست فقال : « يا أبا ذر : هل صليت ؟ » قلت : لا . قال : « قم فصل » قال : فقمت فصليت ثم جلست ، فقال : « يا أبا ذر تذكر تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن » قال : قلت : يا رسول الله ، وللإنس شياطين ؟ قال : « نعم » قلت : يا رسول الله : الصلاة . قال : « خير موضوع من شاء أقل ومن شاء أكثر » قالت : قلت : يا رسول الله ، فما الصوم ؟ قال : « فرض مجزئ وعند الله مزيد » قلت : يا رسول الله ، فالصدقة ؟ قال : « أضعاف مضاعفة » قلت : يا رسول الله ، فأيتها أفضل ؟ قال : « جهده مقل أو سر إلى فقير » قلت : يا رسول الله : أي الأنبياء كان أول ؟ قال : « آدم » قلت : يا رسول الله ، ونبي كان ؟ قال : « نعم نبي

(١) شرح الأصول الخمسة لعبد الجبار ص (٥٦٨) .

(٢) سورة الحج ، آية (٥٢) .

(٣) أصول الدين الإسلامي لقحطان الدوري ص (٢١٢) .

(٤) هو : الإمام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني ، أبو عبد الله ، الإمام الشهير ، صاحب المسند والزهد والورع وغير ذلك ، كان من كبار الحفاظ الأئمة ، ومن أحبار هذه الأمة ، قال عنه الذهبي : شيخ الإسلام وسيد المسلمين في عصره ، الحافظ الحجة ، ولد سنة (١٦٤) ، وتوفي سنة (٢٤١ هـ) ، وله (٧٧) سنة . انظر : تذكرة الحفاظ (٣٤١/٢) ، والطبقات ص (١٨٩) ، وقد أفرد له ابن الجوزي كتاباً مطبوعاً اسمه مناقب الإمام أحمد .

مكلم» قال : قلت : يا رسول الله ، كم المرسلون ؟ قال : « ثلاث مائة وبضعة عشر جمًّا غفيرًا ، وقال : مرةً خمسة عشر » قال : قلت : يا رسول الله ، آدمُ أنبيُّ كان ؟ قال : « نعم نبيُّ مكلم » قلت : يا رسول الله ، أيما أنزل عليك أعظم ؟ قال : « آية الكرسي ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (١) » (٢) .

ففي الحديث دليل على التغاير بين الرسول والنبي .

وقد اختلف هؤلاء فيما بينهم على أقوال :

فقال بعض العلماء المحققين : « إن الرسول من الأنبياء من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه ، والنبي غير الرسول من لم ينزل عليه كتاب ، وإنما أمر أن يدعو الناس إلى شريعة من قبله » (٣) .

وبعبارة أخرى : الرسول هو : « الرجل المبعوث من الله إلى الناس بشريعة ، والنبي من أوحى الله إليه بإصلاح أمر قوم بحملهم على شريعة سابقة أو بإرشادهم إلى ما هو مستقر في الشرائع كلها » (٤) .

فالرسول هو من جمع مع المعجزة كتاباً منزلاً عليه كالتوراة بالنسبة لموسى ، والإنجيل بالنسبة لعيسى ، والقرآن بالنسبة لمحمد - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - .

والنبي من لا كتاب له ، كيشوع وغيره من بني إسرائيل ، فهم بمثابة المساعدين للرسول (٥) .

فكل منهما مأمور بالتبليغ إلا أن الرسول صاحب كتاب وشرع جديد ، أما النبي

(١) سورة البقرة ، آية (٢٥٥) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٢١/٧) .

(٣) المقاصد للفتنازاني (٥/٥) .

(٤) التحرير والتنوير (٢٩٧/١٧) .

(٥) بين الفلاسفة والمتكلمين لمحمد عبده (٥/٢ - ٦) .

فلا كتاب له يخصه ، كأن يبلغ شريعة من قبله من الرسل .

ورجح الإمام الرازي (١) في تفسيره (٢) القول أن « الرسول هو الذي أرسل إلى الخلق بإرسال جبريل - عليهما السلام - عياناً ، والنبي الذي تكون نبوته إلهاماً أو مناماً ، وينسب القرطبي (٣) هذا القول إلى البغوي (٤) » .

ومنهم من ذهب إلى أن الرسول كل صاحب شريعة جديدة موحى بها عن طريق الوحي ، ويكون مأموراً بتبليغها إلى الناس ، وأن النبي من اختص بشرع من عند ربه للتعبد به في نفسه ولم يكن مأموراً بتبليغها (٥) .

والفرق بينهما على هذا الرأي : أن الرسول والنبي كلاهما صاحب شريعة ، إلا أن الرسول مأمور بالتبليغ .

وقيل : بينهما عموم وخصوص من جهة ، الرسول عام من جهة إطلاقه على الملك والبشر ، والنبي لا يطلق إلا على البشر ، فيكون خاصاً من هذه الجهة .

ومن ناحية أخرى فالرسول خاص من جهة أنه يأتيه الملك بالوحي ، والنبي عام من هذه الجهة ؛ لأنه مما يوحى إليه في المنام ويأتيه الوحي كالرسول (٦) .

(١) هو : الإمام المفسر محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري الرازي ، أوجد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل ، له مؤلفات كثيرة منها : (التفسير الكبير) المسمى مفاتيح الغيب ، و (الأربعون في أصول الدين) ، وغيرها كثير ، توفي سنة (٦٠٦ هـ) . انظر : الأعلام (٣١٣ / ٦) .

(٢) مفاتيح الغيب (٢٦٣ / ٢٣) .

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٨٦ / ١٢) .

(٤) البغوي (٤٣٦ - ٥١٠ هـ / ١٠٤٤ - ١١١٧ م) هو : الحسين بن مسعود بن محمد ، الفراء ، أو ابن الفراء ، أبو محمد ، ويلقب بمحبي السنة ، البغوي ، فقيه ، محدث ، مفسر ، نسبته إلى بغا ، من قرى خراسان ، بين هراة ومرو ، له (التهذيب) في فقه الشافعية ، و (شرح السنة) في الحديث ، و (لباب التأويل في معالم التنزيل) في التفسير ، و (مصابيح السنة) ، و (الجمع بين الصحيحين) ، وغير ذلك ، توفي بمرو الروذ . انظر : الأعلام (٢٥٩ / ٣) .

(٥) الفتوحات المكية لابن عربي (١٢ / ٢) .

(٦) تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس للديار بكري ص (٧) .

وأشهر الأقوال ، والذي عليه جمهور العلماء هو : أن النبي إنسان من البشر ، أوحى الله تعالى إليه بشرع (أي أحكام) ، سواء أمر بتبليغه والدعوة إليه أم لا ، فإن أمر بذلك فهو نبي رسول ، وعلى هذا فالفرق بينهما بالتبليغ وعدمه (١) .

وقد بدأ ابن تيمية تعريفه للنبوة بالتفريق اصطلاحاً بين النبي والرسول ، ويظهر من مجمل عباراته : أن النبي هو من أنبأ بخبر السماء دون إرسال إلى الخلق ، وأما الرسول فـ « هو المبلغ عن الله طاعته ، وأمره ونهيه ، وتحليله وتحريمه ، فهو واسطة بين الله وبين خلقه في تبليغ أمره ونهيه ، ووعدده وووعيده » (٢) .

فهو نبي أمر بتبليغ رسالة الله إلى الخلق ، وعلى ذلك فإن « النبوة داخلة في الرسالة ، فكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولاً » (٣) ، فالنبي هو الذي ينبت الله ، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول ، وأما إذا كان يعمل بالشرعية قبله ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول ، وأما إذا كان يعمل بالشرعية قبله ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله ، فهو نبي وليس برسول » (٤) .

وقد حكى السفاريني (٥) الإجماع على أن « الرسول أفضل من النبي ؛ لتميزه بالرسالة

(١) انظر : التعريفات للجرجاني ص (٥٨ ، ١٢٥) ، وشرح الفقه الأكبر للملا علي القاري ص (١٣٣) ، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني (٤٩/١ - ٥٠) .

(٢) منهاج السنة لابن تيمية (٤٧١/١) .

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٠/٧ ، ١١٨) .

(٤) انظر : النبوات لابن تيمية ص (١٨) ، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ص (١٢١) ، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني ص (٤٩) ، وروح المعاني للألوسي (١٥٦/١٧ - ١٥٧) .

(٥) السفاريني (١١١٤ - ١١٨٨ هـ / ١٧٠٢ - ١٧٧٤ م) هو : محمد بن أحمد بن سالم السفاريني ، شمس الدين ، أبو العون ، عالم بالحديث والأصول والأدب ، محقق ، ولد في سفارين من قرى نابلس ، ورحل إلى دمشق فأخذ عن علمائها ، وعاد إلى نابلس فدرس وأفتى ، وتوفي فيها ، من كتبه : (الدراري المصنوعات في اختصار الموضوعات) ، و (كشف اللثام شرح عمدة الأحكام) ، و (غذاء الألباب شرح منظومة الآداب) ، و (لوائح الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية المضية في عقد أهل الفرقة المرضية) . انظر : الأعلام (١٤/٦) .

التي هي أفضل من النبوة . . . ، ووجه تفضيل الرسالة ؛ لأنها تثمر هداية الأمة ، والنبوة قاصرة على النبي ، فنسبتها إلى النبوة كنسبة العالم إلى العابد « (١) .

ب- منزلة الأنبياء وخصائصهم :

لقد أعطى الله ﷺ منزلة خاصة للأنبياء ، فإذا كان أولياء الله هم أفضل البشر ؛ فإن الأنبياء هم أفضل الأولياء .

يقول ابن تيمية - رحمه الله - : « أفضل أولياء الله هم أنبيأؤه ، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم ، وأفضل المرسلين أولو العزم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد - صلى الله عليهم وسلم - ، قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (٢) « (٣) .

فالنبوة هي أعظم درجات الولاية ؛ لأنها أعظم مراحل الطاعة والقربة لله - جل وعلا - .

ويتميز الأنبياء عن بقية الأولياء في الشرع الإسلامي بوجوب قتل من سبهم .

قال ابن تيمية : « ومن سبَّ نبياً من الأنبياء قتل باتفاق الفقهاء ، ومن سبَّ غيرهم لم يقتل . . . » (٤) .

كما يتميز الأنبياء عن بقية الأولياء بالعصمة ، وعند التعرض لقضية عصمة الأنبياء لا بد من التفريق بين عصمة الأنبياء فيما يبلغونه عن الله من الشرع والدين ، وبين عصمة الأنبياء من الوقوع في الذنوب الكبيرة أو الصغيرة ، فقد قال ابن تيمية : « الناس متفقون

(١) لوامع الأنوار البهية ص (٤٩ - ٥٠) .

(٢) سورة الشورى ، آية (١٣) .

(٣) مجموع الفتاوى (٦٢/١١) .

(٤) الصارم المسلول على شاتم الرسول ص (٣ ، ١١ ، ١٦ ، ٢٠) .

على أن الأنبياء معصومون فيما يبلغونه عن الله . . . ، ولهذا وجب الإيمان بكل ما أوتوه . . . ، بخلاف غير الأنبياء ، فإنهم ليسوا معصومين كما عصم الأنبياء ولو كانوا أولياء الله . . . » (١) .

وقال أيضاً : « وهذه العصمة التي يحصل بها مقصود النبوة والرسالة ، فإن النبي هو المنبئ عن الله ، والرسول هو الذي أرسله الله . . . ، والعصمة فيما يبلغونه ثابتة ، فلا يستقر في ذلك خطأ باتفاق المسلمين » (٢) ؛ وذلك لتعلق هذه العصمة بالوحي الإلهي الذي يبلغه الأنبياء والرسول لأمتهم وأقوامهم ، وهو أمر تتعلق به كثير من أمور الشريعة وما يندرج فيها من مسائل الاعتقاد والعبادات والمعاملات وغيرها .

أما النوع الآخر من العصمة - وهي عصمة الأنبياء من ملبسة الذنوب - ، فقد حكى ابن تيمية الإجماع فيها على أن الأنبياء معصومون من الوقوع في كبائر الذنوب ؛ وذلك لأن « الأنبياء أفضل الخلق ، وهم أصحاب الدرجات العلى في الآخرة ، فيمتنع أن يكون النبي من الفجار . . . ، فهذا مما يوجب تنزيه الأنبياء عنه . . . ، وعلى هذا إجماع سلف الأمة وجماهيرها . . . » (٣) .

وأما صغائر الذنوب فقد ذكر أن الأدلة والنصوص تشير إلى جواز وقوعها من الأنبياء بشرط عدم الإقرار عليها ، قال : « والقول بأن الأنبياء معصومون عن الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام وجميع الطوائف . . . ، والذنوب إنما تضر أصحابها إذا لم يتوبوا منها ، والجمهور الذين يقولون بجواز الصغائر عليهم يقولون أنهم معصومون من الإقرار عليها . . . » (٤) .

ومن حقوق الأنبياء أن تُعرف فضائلهم وتشاع بين الناس وتذاع ؛ كي تعلم العامة والخاصة سبب وجوب اتباعهم وطاعتهم وفائدة ذلك لهم دينياً ودنيوياً ، فقد قال

(١) مجموع الفتاوى (٢٩٠/١٠) .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق - بتصرف - .

ابن تيمية : « إن من الإيمان بنبوّة الأنبياء وما جاؤوا به . . . إعلان ذكّهم ، ومحبّتهم ، وموالاهم ، والتصديق لأقوالهم ، والاتباع لأعمالهم . . . ، وهذا هو الذي ينتفع به من جهة الأنبياء ، وهو تصديقهم فيما أخبروا ، وطاعتهم فيما أمروا ، والافتداء بهم فيما فعلوا ، وحب ما كانوا يحبونه ، وبغض ما كانوا يبغضونه » (١) . والقرآن يأمر بذكّهم ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ (٤١) (٢) ، وقوله - سبحانه - : ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ (٥١) (٣) ، وقوله - جلّ جلاله - : ﴿ أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْخُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (٧) (٤) ، وقوله - عزّ وجلّ - : ﴿ وَادْخُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَأِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ (٥) (٥) .

ج- مجالات أدب الأنبياء في القرآن :

بعد هذه اللمحة الموجزة عن مدلول ألفاظ الأدب والنبوة والرسالة لغة واصطلاحاً ؛ فإنه يمكن تقسيم أدب الأنبياء في القرآن إلى قسمين : أدب الأنبياء مع الخالق ، وأدب الأنبياء مع الخلق .

أما موضوع أدب الأنبياء مع الخالق فليست ضمن نطاق هذه الدراسة ، التي ستقتصر على موضوع أدب الأنبياء مع الخلق .

ففي الباب الأول : دراسة أدب الأنبياء مع الموافقين ، وفي الباب الثاني : دراسة أدب الأنبياء مع المخالفين ، وفي الباب الثالث : دراسة أدب الأنبياء مع بقية الخلق ، وبالله التوفيق .

(١) مجموع الفتاوى (٢٦٩/٢٧) .

(٢) سورة مريم ، آية (٤١) .

(٣) سورة مريم ، آية (٥١) .

(٤) سورة ص ، آية (١٧) .

(٥) سورة ص ، آية (٤٥) .

الباب الأول

أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مع الموافقين

وفيه تمهيد ، وثلاثة فصول :

التمهيد : من هم الموافقون ؟ .

الفصل الأول : أدبهم - عليهم الصلاة والسلام - بعضهم
لبعض .

الفصل الثاني : أدبهم - عليهم الصلاة والسلام - مع
خاصتهم وأتباعهم من قومهم .

الفصل الثالث : أدبهم - عليهم الصلاة والسلام - في
دعوتهم للموافقين .

تمهيد

من هم الموافقون ؟

هم الذين آمنوا بالله وصدقوا أنبياءه ورسله الذين أرسلهم ، وما جاء في كتبه التي أنزلها لهم ، واتبعوا الشرائع والأحكام السماوية التي أمر بها الله ، ووافقوا فطرة الله التي فطر الناس عليها ، من التوحيد والإيمان ، ومكارم الأخلاق ، والآداب التي جاء الأنبياء لنشرها وبثها ، وإحياء ما درَسَ منها ، والحث عليها ، والتحذير من تركها .



الفصل الأول

أدبهم - عليهم الصلاة والسلام - بعضهم لبعض

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : الاحترام والتعظيم .

المبحث الثاني : الاقتداء واتباع المنهج .

المبحث الثالث : التواضع وتراحمهم على بعضهم .

المبحث الأول

الاحترام والتعظيم

لقد أخبرنا الحق - تبارك وتعالى - أنه فضل بعض النبيين على بعض ، كما قال - جل وعلا - : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا ۗ ﴾ (١) .

وقد أجمعت الأمة على أن الرسل أفضل الأنبياء ، والرسل بعد ذلك متفاضلون فيما بينهم ، كما قال تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۗ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْيَسَّيْنَةَ وَإِدْنَتهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ . . . ﴾ (٢) ، وأفضل الرسل والأنبياء خمسة : محمد - ﷺ - ، ونوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى - عليهما السلام - ، وهؤلاء هم أولوا العزم من الرسل الذين وصى الله نبينا - عليه الصلاة والسلام - باقتفاء أثرهم في الصبر والتحمل في قوله سبحانه : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (٣) .

وقد ذكرهم الله في كتابه في أكثر من موضع ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (٤) ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ (٥) .

(١) سورة الإسراء ، آية (٥٥) .

(٢) سورة البقرة ، آية (٢٥٣) .

(٣) سورة الأحقاف ، آية (٣٥) .

(٤) سورة الشورى ، آية (١٣) .

(٥) سورة الأحزاب ، آية (٧) .

وإذا تأملت في الآيات التي تحير عن التفاضل بين الأنبياء والمرسلين ، تجد أن الله فضل من فضل بإعطائهم خيراً لم يعطه غيرهم ، أو برفع درجاتهم فوق درجات غيرهم ، أو باجتهدهم في عبادة الله والدعوة إليه ، والقيام بأمره الذي وكل به .

فداود - عليهما السلام - فضله الله بإعطائه الزبور ، ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ ذُبُورًا﴾ (١) ، وأعطى الله موسى التوراة ، ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (٢) ، وأعطى عيسى الإنجيل : ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ (٣) .

وقد اختص الله آدم بأنه أبو البشر ، خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا له .

وفضل نوحاً بأنه أول الرسل إلى أهل الأرض ، وسماه الله عبداً شكوراً .

وفضل إبراهيم باتخاذه خليلاً ، ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (٤) ، وجعله للناس إماماً ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ (٥) .

وفضل الله موسى برسالاته وبكلامه ﴿إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي﴾ (٦) ، واصطنعه لنفسه : ﴿وَأَصْطَفَيْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (٧) .

وفضل عيسى بأنه رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، ويكلم الناس في

-
- (١) سورة الإسراء ، آية (٥٥) .
 (٢) سورة البقرة ، آية (٥٣) .
 (٣) سورة المائدة ، آية (٤٦) .
 (٤) سورة النساء ، آية (١٢٥) .
 (٥) سورة البقرة ، آية (١٢٤) .
 (٦) سورة الأعراف ، آية (١٤٤) .
 (٧) سورة طه ، آية (٤١) .

المهد : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ (١) .

« ويتفاضل الأنبياء من جهة أخرى ، فالنبي قد يكون نبياً لا غير ، وقد يكون نبياً ملكاً ، وقد يكون عبداً رسولاً .

فالنبي الذي كذب ولم يتبع ولم يطع ؛ هذا نبي وليس بملك ، أما الذي صدق واتبع وأطيع فإن كان لا يأمر إلا بما أمره الله به فهو عبد نبي ليس بملك ، وإن كان يأمر بما يريد مباحاً له فهو نبي ملك ، كما قال الله لسليمان : ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٢) .

فالنبي الملك هنا قسيم العبد الرسول ، كما قيل للنبي - ﷺ - : « اختر إما عبداً رسولاً وإما نبياً ملكاً » (٣) .

وحال العبد الرسول أكمل من حال النبي الملك ، كما هو حال نبينا محمد - ﷺ - ، فإنه كان عبداً رسولاً ، مؤيداً مطاعاً متبوعاً ، وبذلك يكون له مثل أجر من تبعه ، ويتنفع به الخلق ويرحموا به ، ويرحم بهم ، ولم يختار أن يكون ملكاً ؛ لئلا ينقص ؛ لما في ذلك من الاستمتاع بالرياسة والمال عن نصيبه في الآخرة .

فالعبد الرسول أفضل عند الله من النبي الملك ، ولهذا كان أمر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم أفضل عند الله من داود وسليمان ويوسف « (٤) .

وفي هذا المبحث نستعرض بعضاً من أدب الأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام - مع بعضهم لبعض .

(١) سورة النساء ، آية (١٧١) .

(٢) سورة ص ، آية (٣٩) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٧٦/١٢ - ٧٧) (١٣/٣) .

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٥/٣٤) ، وانظر : الرسل والرسالات لعمر الأشقر ص (٢١٣) .

وإنما ذكرت هذه المقدمة ؛ لبيان ما لبعضهم من تفاضل على بعض ؛ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، لهذا جاء خُلُقهم وأدبهم فيما بينهم أولاً ؛ لما جبلهم الله عليه من مكارم الأخلاق وكمال الأدب والمروءة ، وثانياً أن هذا الاحترام والتعظيم لمعرفة كل منهم ما للآخر عليه من فضل ومنزلة .

وحين تتبع آيات القرآن التي بينت مواقف الأنبياء مع بعضهم البعض تجد فيها دروساً عظيمة ، ومواقف نبيلة ، وأدب راقٍ وخلق باقٍ ، يتضح لك فيه كيف أن الله - ﷻ - لم يجعل مهمة النبوة الرسالة إلا في أكرم خلقه ، وأكملهم ديناً وخلقاً وخُلُقاً .

نعم ، هي مدارس عظيمة في التربية وحسن الخلق ، تلك هي مدارس الأنبياء التي كان لزاماً علينا الاقتداء بها ، واتباع منهجها ، وسلوك صراطها ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والمرسلين .

لقد بين لنا القرآن في بعض آياته مواقف عظيمة ، وأخلاق جلييلة في تعامل أنبياء الله مع بعضهم البعض ، منها من الاحترام وتعظيم القدر وإجلاله ما تعجز الكلمات عن وصفه ، والأحرف عن تسطيره .

فمن هذه المواقف الأدبية الرائعة والخلقية الفائقة ما حصل بين نبي الله يعقوب - عليهما السلام - وابنه يوسف - عليهما السلام - عندما تقابلا والتقيا بعد فراق طويل ، حزن مديد ، وأحداث جسام ، امتزج خلق النبوة بمشاعر الأبوة والنبوة ، فظهرت صورة عظيمة فيها من رقي الأخلاق ونقاها ، وعظم النفوس وسموها ، الشيء العظيم .

في سورة يوسف - عليهما السلام - يصور لنا القرآن الكريم ذلك الموقف الجميل ، مبيناً لنا ما فيه من أدب يوسف - عليهما السلام - مع أبيه ، وكذلك يعقوب - عليهما السلام - مع ابنه .

بداية هذا الموقف حين أرسل يوسف - عليهما السلام - قميصه لأبيه يعقوب ، فارتد بصيراً بعد أن عمي ، وفقدَ بصره حزناً على ابنه يوسف ، وعلم ما آل إليه حال ابنه يوسف ، وما كتب الله له من تمكين في الأرض وتحكم في خزائن مصر ، فتجهز وحمل أهله ذاهباً إلى مصر للقاء ابنه يوسف - عليهما السلام - ، وانظر إلى الأدب النبوي الذي صورته القصص القرآني في

أجمل عبارة ، وألطف مساق ، يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ (١١) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَىٰ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) .

يقول سيد قطب (٢) - رحمه الله - :

« يا له من مشهد ، بعد كر الأعوام ، وانقضاء الأيام ، وبعد اليأس والقنوط ، وبعد الألم والضيق ، وبعد الامتحان والابتلاء ، وبعد الشوق المفني والحزن الكامد ، واللهف الضامئ الشديد . يا له من مشهد ختامي بالانفعال والخفقان ، والفرح والدموع » (٣) .

نعم ، إنه لمشهد عظيم ، تحققت فيه النبوءة والأحلام ، اختلط فيه المشاعر والكلام .

وانظر أدب الأنبياء وإجلالهم لبعضهم البعض .

إن أول ما أظهره يوسف - عليه السلام - من أدبه واحترمه لأبيه ، وتقديره وإجلاله له ، أن خرج لاستقباله بالأمرء والوزراء وعلية القوم ، وتلقيه عند مدخل باب المدينة ، تحية له وتكرمة .

(١) سورة يوسف ، آية (٩٩ - ١٠٠) .

(٢) هو : سيد بن الحاج قطب بن إبراهيم ، ولد سنة (١٩٠٦ م) في مصر ، وتخرج في كلية دار العلوم سنة (١٩٣٣ م) ، فزاوول مهنة التدريس سنوات ثم موظفًا في وزارة المعارف ، ثم أوفد إلى أمريكا للاطلاع على مناهج التعليم فيها لتطبيقها في مصر ، ثم عاد من أمريكا وقد زاد نشاطه وحماسه للدعوة ، حيث انضم إلى جماعة اخفخوان المسلمين ، وسجن فترة طويلة ، ألّف خلالها تفسيره (في ظلال القرآن) ، وأفرج عنه عام (١٩٦٤ م) ، ثم حكم عليه بالإعدام سنة (١٩٦٦ م) ، له مؤلفات كثيرة منها : (معالم في الطريق ، و (التصوير الفني في القرآن) ، و (مشاهد القيامة في القرآن) ، وغيرها . انظر : أصول التفسير ومناهجه لفهد الرومي ص (١٦١) .

(٣) في ظلال القرآن (٢٠٢٩/٤) .

يقول ابن كثير (١) :

« يخبر تعالى عن ورود يعقوب - عليّ - علي يوسف - عليّ - ، وقدمه بلاد مصر لما كان يوسف قد تقدم إلى إخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين ، فتحملوا عن آخرهم وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر ، فلما أخبر يوسف - عليّ - باقترابهم خرج لتلقيهم ، وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لتلقي نبي الله يعقوب - عليّ - ، ويقال : إن الملك خرج أيضاً لتلقيه وهو الأشبه » (٢) .

نعم ، هذا الجمع ، وتلك الحشود والمقامات لا يصلح إلا أن تكون لاستقبال الأنبياء ، ورفع مقامهم الذي رفعه الله في الدنيا والآخرة .

لقد كان يوسف - عليّ - قائد هذا الاستقبال ، ومُقدّم تلك الحشود التي خرجت لاستقبال أبيه .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ (٣) .

انظر الأدب في المعاملة والتلطف في العبارة ﴿ ءَاوَىٰ ﴾ ، هذه الكلمة تحتل كل معنى من معاني الإيواء والضيافة والإيواء الحسي والإيواء المعنوي .

أوى أبويه بحبه وشوقه لهما واحتفائه بهما ، وضمه وتقيله لهما بعد غياب طويل مضني ، ولم يكتف بهذا الإيواء الحسي ، بل امتد إلى قلوبهم وقال : ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ ﴿ ٩٩ ﴾ « أي : آمين مما كنتم فيه من الجهد والقحط » (٤) ، وما عاينتم

(١) هو : الحافظ إسماعيل بن عمرو بن كثير ، كان فقيهاً متقناً ، ومحدثاً ناقداً ، ومفسراً نقالاً ، ومؤخراً طلعه ، له مؤلفات كثيرة من أعظمها : تفسيره المسمى (تفسير القرآن العظيم) ، و (البداية والنهاية) في التاريخ ، وغيرهما ، توفي سنة (٧٧٤هـ) . انظر : الأعلام (٣٢٠/١) .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤١١/٤) .

(٣) سورة يوسف ، آية (٩٩) .

(٤) تفسير القرآن العظيم (٤١١/٤) .

فيه من الفقر والبلاء والفراق والتشتت ، وهذه طمانة وزيادة في الإيواء والاحتفاء والإكرام .

لكن هل انتهى هذا الإكرام والأدب النبوي ؟ لا لم ينته ، ولم يكتف يوسف - عليه السلام - بهذا ، بل ﴿ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ (١) ، وهنا ترى في هذا المشهد قمة الأدب والاحترام ، وذروة سنامه ، الاحترام المتبادل ، والتعظيم والتكريم في أسمى صورته ، وأسمى معانيه .

لقد أكرم يوسف أباه وأمه ، فرفعهما وأجلسهما على عرش الملك وكرسي الوزارة ، وأعلى منزلتهما ، ورفع قدرهما ؛ برًا بهما ، واحترامًا وتعظيمًا لثنائهما .

قال الألوسي (٢) :

« ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ ﴾ عند نزولهم بمصر ﴿ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ على السرير كما قال ابن عباس ومجاهد ؛ تكريمة لهما فوق ما فعله بالإخوة » (٣) .

وبعد أن قام يوسف - عليه السلام - بهذا الإكرام الفائق ، وذلك الأدب الجم ، وتلك الضيافة النبوية أرادوا أن يردوا له هذا الفضل وذلك الإكرام والاحترام والتعظيم والتقدير ، فـ ﴿ خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ أبواه وإخوته جميعهم ؛ تحية وإجلالاً وتعظيمًا له ، وإظهارًا لملكه ، وتبليًا لمنزلته وفخامته .

نعم ، يعقوب - عليه الصلاة والسلام - الأب النبي يسجد ليوسف - عليه السلام - الابن النبي احترامًا له وتعظيمًا له أيضًا .

« وكان هذا السجود جائزًا عندهم ، وهو جارٍ مجرى التحية والتكريمة ، كالقيام ،

(١) سورة يوسف ، آية (١٠٠) .

(٢) هو : أبو الفضل ، السيد محمد بن عبد الله الحسيني الألوسي ، المفسر ، خاتمة المحققين ، توفي سنة (١٢٧٠هـ) . انظر : التفسير والمفسرين للذهبي (٣٥٢/١) ، والأعلام (١٧٦/٧) .

(٣) روح المعاني للألوسي (٧٤/١٣) .

والمصافحة ، وتقبيل اليد ، ونحوها من عادات الناس الفاشية في التعظيم والتوقير « (١) .

وقال ابن كثير - رحمته - :

« **وَحَرُّوا لَهُ سُجَّدًا** » أي سجد له أبواه وإخوته الباقون ، وكانوا أحد عشر رجلاً . وقد كان هذا سائغاً في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له ، ولم يزل هذا جائزاً من آدم إلى عيسى ، فحرم هذا في هذه الملة ، وجعل مختصاً بجناب الرب - ﷺ - « (٢) .

وهكذا فقد كان هذا المشهد الأدبي الرفيع والخُلقي البديع بما فيه من آداب الفعل والقول ، نهاية قصة نبوية عظيمة ، سردها لنا القرآن وقصها في قالب أدبي فصيح ، ومعنى بلاغي صريح ، فيها من العبر والعظات والآداب والنبوات الشيء العظيم ، فصلاة ربي وسلامه على أنبيائه ، أهل العقول والنهى والدين والتقوى .

ومن المواقف الأدبية النبوية التي ظهر فيها الأدب والاحترام والتعظيم ؛ ما حكاه الله عن نبيه الخليل إبراهيم مع ابنه - ﷺ - ، في سورة الصافات في آيات (٣) أشارت إلى حادثة عجيبة ، ومشهد مؤثر بين إبراهيم وبين ابنه ، حيث أمر الله إبراهيم في رؤياه بذبح ابنه ، فنفذ الأب الأمر ، وعرضه على ابنه ؛ ليشركه معه أجر الاستسلام ، وفي آخر لحظة فدى الله ذلك الابن المستسلم بذبح عظيم !! .

لقد كان موقفاً شديداً في بدايته ، عظيماً في نهايته .

فبعد أن طعن في السن ، وصار شيخاً كبيراً ، وهذا الولد الحليم صار خير عون له عندما بلغ السعي ، وصار ملء السمع والبصر ، يرى الشيخ الكبير أنه يؤمر بذبح ولده وبكره ووحيدته الذي جاء على فاقة ، والولد حليم ، إن لم تتمكن محبته من قلب ولده بعاطفة الأبوة تتمكن المحبة لحلم الولد ونباهته ، ولكن الأمر هو الله - ﷻ - الذي

(١) روح المعاني (٧٤/١٣) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤١٢/٤) .

(٣) سورة الصافات ، من الآية (١٠١ - ١٠٩) .

﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ (١) ، الحكيم الخبير في أمره ونهيهِ ، وقضائه وقدره ، والمأمور هو إبراهيم الخليل وما ضيعه الله في شبابه حتى يضيعه في كبره ، وما سأل خلة الله إلا بطاعته ، ولهذا فقد بادر إلى تنفيذ أمر الله - ﷻ - ؛ لأن أوامر الله لا تعرض على العقول ، ولا تخضع للفكر والنظر والقياس بالعقول البشرية الناقصة ، ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مِؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ (٢) .

إن تنفيذ الأمر شديد على النفوس البشرية ، فإن العبد قد يبذل نفسه لله - ﷻ - ، ويضحى بنفسه ، ويعلم أنها لحظات ، ثم تخرج الروح إلى فاطرها ، وتتنعم بعد ذلك في جنة الله - ﷻ - ولا يذوق الشهيد ألم القتل إلا كما يذوق من مس القرصة .

لكن أن يأخذ سكينًا ويذبح ولده الوحيد الذي صار ملء السمع والبصر ، وتسيل الدماء على يديه وثيابه ، لله در هذه النفوس التي تبلى بمثل هذا البلاء ، و ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يُجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (٣) ، وهل استحق إبراهيم - ﷺ - الخلة بأمر يشترك فيها مع سائر المؤمنين ؟ .

الخليل الذي كسّر الأصنام ، وألقي في النار ، وترك الرضيع وأمه بواد غير ذي زرع ، ما تخلى الله - ﷻ - عنه لحظة ، ولا ضيعه في شبابه وفتوته ، وهو في كل مرة يؤثر مراد الله ، ويعظم أمر الله .

وهذا الولد رزقه الله إياه ووهبه هبة من عنده ، فهو محض فضل من الله - ﷻ - ، وإن تعجب من أمر الشيخ الكبير الذي شاب في طاعة الله ، وقويت محبة الله - ﷻ - في قلبه ، واستحق من الله تعالى الخلة التي هي أعلى درجات المحبة ، فأعجب من شأن هذا الغلام الحليم .

(١) سورة الأنبياء ، آية (٢٣) .

(٢) سورة الأحزاب ، آية (٣٦) .

(٣) سورة الأنعام ، آية (١٢٤) .

لقد عرض إبراهيم - عليهما السلام - على ولده ما رأى ؛ ليكون أطيب إلى قلبه ، وهون عليه من أن يأخذه قسراً ويذبحه قهراً .

﴿ قَالَ يَبْنِيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ (١) .

لقد كان الجواب في غاية الأدب والاحترام والتوقير ، وفي غاية السداد والرشاد ، والإيمان بالقضاء والتسليم والانقياد له .

لقد أعان أباه على طاعة الله وتنفيذ أمره ، وهون عليه مصيبته به ، بأنه لن يجزع من ذلك ، وسيصبر على ذلك - إن شاء الله - وكان صادق الوعد كما قال تعالى :
﴿ وَأذْكَرٌ فِي الْكُتُبِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ (٢) .

إنه التسليم والاستسلام لأمر الله تعالى ، وهو المطلوب من العباد أن يخضعوا لأمر الله ، ويعتقدوا أن الخير كل الخير في طاعة الله ، والشر كل الشر والبلاء في التمرد وعصيان أوامر الله تعالى .

لهذا أجاب إسماعيل - عليهما السلام - أباه الخليل بقوله : ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٣) .

قال الألوسي :

« ولما كان خطاب الأب ﴿ يَبْنِيَّ ﴾ على سبيل الترحم ، قال هو : ﴿ يَا أَبَتِ ﴾ على سبيل التوقير والتعظيم ، ومع ذلك أتى بجواب حكيم ؛ لأنه فوض الأمر ، حيث استشاره بأنه ليس مجاهداً ، وإنما الواجب إمضاء الأمر ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

(١) سورة الصافات ، آية (١٠٢) .

(٢) سورة مريم ، آية (٥٤) .

(٣) سورة الصافات ، آية (١٠٢) .

الصَّابِرِينَ ﴿١٢﴾ ﴿ على قضاء الله تعالى ذبحًا كان أو غيره . وقيل : على الذبح ، والأول : أولى ؛ للعموم ، ويدخل الذبح دخولاً أولياً . وفي قوله : ﴿ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ ﴿١٢﴾ دون صابراً ، وإن كان رؤوس الآي تقتضي ذلك من التواضع ما فيه ، قيل : ولعله وفق للصبر ببركته مع بركة الاستثناء ، وموسى - عليهما السلام - لما لم يسلك هذا المسلك من التواضع في قوله : ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا ﴾ ﴿١﴾ حيث لم ينظم نفسه الكريمة في سلك الصابرين ، بل أخرج الكلام على وجه لا يشعر بوجود صابر سواه ، لم يتيسر له الصبر مع أنه لم يهمل أمر الاستثناء . وفيه - أيضاً - إغراء لأبيه - عليهما السلام - على الصبر لما يعلم من شفقتة عليه مع عظم البلاء ، حيث أشار إلى أن الله تعالى عبداً صابرين ، وهي زهرة ربيع لا تتحمل الفرك « (٢) .

« إنه يتلقى الأمر لا في طاعة واستسلام فحسب ، ولكن في رضى كذلك وفي يقين ، وفي مودة وقربى ، فشبح الذبح لا يزعجه ولا يفرعه ولا يفقده رشده ، بل لا يفقده أدبه ومودته ، فهو يحسه ما أحسه من قبل قلب أبيه ، يحس أن الرؤيا إشارة ، وأن الإشارة أمر ، وأنها تكفي لكي يلي وينفذ بغير لجلجة ولا تمحل ولا ارتياب .

ثم هو الأدب مع الله ، ومعرفة حدود قدرته وطاقته في الاحتمال والاستعانة بربه على ضعفه ، ونسبة الفضل إليه في إعانته على التضحية ، ومساعدته على الطاعة .

﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ ﴿١٢﴾ ﴿ لم يأخذها بطولة ، ولم يأخذها شجاعة ، ولم يأخذها اندفاعاً إلى الخطر دون مبالاة ، ولم يظهر لشخصه ظلاً ، ولا حجماً ولا وزناً ، إنما أرجع الفضل كله لله إن هو أعانه على ما يطلب ، وأصبره على ما يراد به ، فيا للأدب ، ويا لروعة الإيمان ، ويا لنبل الطاعة ، ويا لعظمة التسليم « (٣) .

ولهذا فقد كانت نهاية هذا الأدب النبوي العظيم ، والخلق الرفيع ، والإيمان العظيم

(١) سورة الكهف ، آية (٦٩) .

(٢) روح المعاني (١٧٢/٢٣) .

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب (٢٩٩٥/٥) .

نهاية سعيدة ومفرحة لقلب الأب .

قال ابن كثير - رحمته - :

« فعند ذلك نودي من الله - عز وجل - : ﴿ أَنْ يَا بَرِّهِيمُ ﴿١٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا ﴾ (١) أي : حصل المقصود من اختبارك وطاعتك ومبادرتك إلى أمر ربك ، وبذلك ولدك للقربان كما سمحت بيدك للنار ، وكما مالك مبدول للضيفان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ (٢) أي : الاختبار ، ﴿ وَفَدَيْنَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٧﴾ ﴾ (٣) ، وجعلنا فداء ذبح ولده ما يسره الله تعالى له من العوض عنه ، والمشهور عند الجمهور أنه كبش أبيض أعين أقرن » (٤) .

وقال الزمخشري (٥) :

« كان ما كان مما تنطق به الحال ، ولا يحيط به الوصف من استبشارهما واغتباطهما ، وحمدهما لله وشكرهما على ما أنعم الله به عليهما من دفع البلاء العظيم بعد طول له ، وما اكتسبا في تضاعيفه بتوطين الأنفس عليه من الثواب والأعواض ورضوان الله الذي ليس وراء مطلوب ، ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ (٦) ، تعليل لتحويل ما خولهما من

(١) سورة الصافات ، آية (١٠٤ - ١٠٥) .

(٢) سورة الصافات ، آية (١٠٦) .

(٣) سورة الصافات ، آية (١٠٧) .

(٤) قصص الأنبياء ص (١٣٢) .

(٥) هو : أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي ، الإمام الحنفي المعتزلي ، الملقب بجمار الله ، ولد سنة (٤٦٧ هـ) في زمخش من قرى خوارزم ، وقدم بغداد ، ولق الكبار وأخذ عنهم ، ودخل خراسان مرات عديدة ، وطاف عدة بلاد ، ناظر فيها كبار علمائها وتفوق عليهم ، ثم رحل إلى مكة وألف فيها تفسيره الكشاف ثم عاد إلى جرجانية خوارزم وتوفي فيها سنة (٥٣٨ هـ) ، وكان إماماً من أئمة اللغة البارزين فيها ، حنفي المذهب ، معتزلي الاعتقاد ، مجاهرًا به ، من مؤلفاته : (أساس البلاغة) ، و (الفائق في غريب الحديث) ، و (المفصل في النحو) ، و (المقامات) ، وغيرها . انظر : شذرات الذهب (١١٨/٤) ، وطبقات المفسرين للداوودي (٢١٣/٢) .

(٦) سورة الصافات ، آية (١٠٥) .

الفرج بعد الشدة ، والظفر بعد الشدة واليأس » (١) .

وهكذا تبين لك أخي القارئ أدب نبي الله إسماعيل مع أبيه بطاعته له في هذا الأمر الجلل ، واستسلامه لأمر الله وإعانة أبيه على تنفيذه ، وإمضاؤه بلا تردد ولا هواده ، وقبل ذلك أدب أبيه معه حين عرض عليه هذا الأمر واستشاره فيه ، ولم يأخذه هكذا عنوة وقسراً وشدة ، وهذا هو الأدب النبوي العظيم الذي لا يأتي إلا في أسمى صورة ، وأجمل منظر .

ومن المواقف الأدبية والقصص القرآنية التي ظهر فيها أدب الأنبياء لبعضهم البعض واحترامهم ؛ ما قصه الله علينا من خبر نبي الله وكليمه موسى - عليهما السلام - مع أخيه هارون - عليهما السلام - في قصة السامري الذي امتحن الله بني إسرائيل ، وابتلاهم وفتنهم به حين زين لهم عبادة العجل ، فعبدوه وضلوا فيه ضلالاً كبيراً .

وقد فصل القرآن هذه الحادثة وذكرها في موضعين :

الموضع الأول : في سورة طه ، في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾ (٢) .

الموضع الثاني : في قوله تعالى من سورة الأعراف : ﴿ وَأَتَّخَذَ قَوْمٌ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ ۗ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ ﴿١٥٤﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَىٰ الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابُ ۗ وَفِي نُسُخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْتَدُّونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ (٣) .

ومختصر هذه القصة : قصة السامري وعجله « ما كان من أمر بني إسرائيل حين ذهب موسى - عليهما السلام - إلى ميقات ربه فمكث على الطور يناجي ربه ويسأله موسى

(١) الكشف ص (٩١٠) .

(٢) سورة طه ، آية (٨٣ - ٩٨) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (١٤٨ - ١٥٤) .

- عليّ عليه السلام - عن أشياء كثيرة ، وهو تعالى يجيبه عنها ، فعمد رجل منهم يقال له : هارون السامري ، فأخذ ما كان استعاره من حلي ، فصاغ منه عجلًا وألقى فيه قبضة من التراب كان أخذها من أثر فرس جبريل - عليّ عليه السلام - حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه ، فلما ألقاها فيه خار كما يخور العجل الحقيقي ، ويقال : إنه استحال عجلًا جسدًا أي : لحمًا ودمًا حيًا يخور ، قاله قتادة وغيره . وقيل : بل كانت الريح إذا دخلت من دبره خرجت من فمه فيخور كما يخور الثور ، فيرقصون حوله ويفرحون ﴿ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾ ﴿٨٨﴾ (١) أي : فنسى موسى ربه عندنا ، وذهب يتطلبه وهو هنا ، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا ، وتقدست أسماؤه وصفاته . قال الله تعالى مبيّنًا بطلان ما ذهبوا إليه ، وما عولوا عليه من إلهية هذا الذي قصاره أن يكون حيوانًا بهيمًا وشيطانًا رجيماً :

﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ ﴿٨٩﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ ﴿١٤٨﴾ (٣) ، فذكر أن هذا الحيوان لا يتكلم ولا يرد جوابًا ، ولا يملك ضرًا ولا نفعًا ، ولا يهدي إلى رشد ، اتخذوه وكانوا ظالمين لأنفسهم ، عالمون في أنفسهم بطلان ما هم عليه من الجهل والضلال .

﴿ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾ (٤) أي : ندموا على ما صنعوا ﴿ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ﴿١٤٩﴾ (٥) ، ولما رجع موسى - عليّ عليه السلام - إليهم ورأى ما هم عليه من عبادة العجل ، ومعه الألواح المتضمنة التوراة ألقاها ، فيقال : إنه كسرهما . وهكذا هو عند أهل الكتاب ، وإن الله أبدله غيرها وليس في

(١) سورة طه ، آية (٨٨) .

(٢) سورة طه ، آية (٨٩) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (١٤٨) .

(٤) سورة الأعراف ، آية (١٤٩) .

(٥) سورة الأعراف ، آية (١٤٩) .

اللفظ القرآن ما يدل على ذلك ، إلا أنه ألقاها حين عاين ما عاين . وعند أهل الكتاب أنهما كانا لوحين ، وظاهر القرآن أنها ألواح متعددة ، ولم يتأثر بمجرد الخبر من الله تعالى عن عبادة العجل ، فأمره بمعينة ذلك ، ولهذا جاء في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله - ﷺ - : « ليس الخبر كالمعاينة » (١) ، ثم أقبل عليهم فعنفهم ووجهنهم وهجنهم في صنيعهم هذا القبيح ، فاعتذروا إليه بما ليس بصحيح ، قالوا إنا ﴿ حُمَّلْنَا أَوْزَارًا مِّنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾ (٢) ، تخرجوا من تملك حلي آل فرعون ، وهم أهل حرب ، وقد أمرهم الله بأخذه وأباحه لهم ، ولم يتخرجوا بجهلهم وقلة علمهم وعقلهم عن عبادة العجل الجسد ، الذي له خوار مع الواحد الأحد ، الفرد الصمد القهار » (٣) .

ومن شدة غضب نبي الله موسى - ﷺ - على قومه المخالفين ظن أن خليفته هارون - ﷺ - قد قصر في فهمهم والإنكار عليهم ، والتساهل معهم ، ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ (٤) من شعره ومن شعر لحيته مبالغة منه في لوم أخيه ، مخاطباً إياه لائماً له قائلاً : ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿١٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ (٥) .

إن موسى - ﷺ - يوقن تماماً أن أخاه هارون لم يعبد العجل مع من عبدوه من بني إسرائيل ؛ لأنه نبي معصوم من الشرك ، لا يصدر منه هذا الفعل أبداً ، ويعلم أنه أنكر عليهم عبادة العجل ؛ لأن هذا مما يتفق مع نبوته ، وهو ما أخبرنا به القرآن ، لكنه كان يريد أن يكون إنكار هارون لبني إسرائيل أشد وأقوى وأقسى ، يريد منه أن يحطم هذا العجل أمامهم ، فإن عجز عن ذلك فلا أقل من يغادر قومه ويلحق بموسى على جبل الطور ؛ ليخبره ما فعل قومه ، وما أحدثوه من بعده . ولهذا جاء الاستفهام من موسى - ﷺ -

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥٧٢/١) برقم (١٨٤٢) ، والطبراني في الأوسط برقم (٦٩٨٢) ، والحاكم في المستدرک (٣٢١/٢) .

(٢) سورة طه ، آية (٨٧) .

(٣) قصص الأنبياء لابن كثير ص (٣٢٧) .

(٤) سورة الأعراف ، آية (١٥٠) .

(٥) سورة طه ، آية (٩٢ - ٩٣) .

لأخيه هارون للإنكار على هذا الموقف من هارون ، مما خيل لموسى - عليه السلام - أنه قد عصى أمره واتبع عبدة العجل ، ووافقهم على فعلهم ، أو سكت عن منكرهم .

وهنا يتجلى لك الأدب النبوي الذي لا يليق إلا بمقام النبوة ، ولا يرتقي إلا لشرف الرسالة الإلهية .

هل غضب هارون - عليه السلام - عندما أخذه موسى بشعر رأسه يجره إليه ؟ هل أخذته العزة بالإثم وتملكه شعور الانتقام للنفس واستعادة الكرامة التي أهينت ، والشماتة التي ظهرت ؟ .

حاشا نبي الله هارون أن لا يكون ذو خلق رفيع ، وأدب راقٍ ، وحكمة وسكينة ، وهو يعلم أن نبوته إنما كانت رحمة من الله وهبها لأخيه موسى الكليم ، ويعلم فضل موسى عليه ومنزلته من ربه حينما سأله بقوله : ﴿ هَرُونَ أَخِي ﴾ ﴿ ٢٠ ﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى ﴿ ٢١ ﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿ ٣٢ ﴾ (١) ، وهذا من فضل الله - وعليكم - ثم من فضل أخيه موسى - عليه السلام - عليه ، إذ قد دعا له أن يكون مساعداً له ، ووزيراً كذلك ، كما حكى الله في كتابه ، وكما قال بعض العلماء : إن هذه أفضل دعوة دعاها أخ لأخيه .

لهذا كله فقد لاحظ هارون - عليه السلام - انفعال وغضب أخيه موسى ، فأراد أن يستعطفه ويرقق قلبه ، ويخفف غضبه فقال له بأدب جم واحترام عظيم : ﴿ ابْنُ أُمَّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿ ١٥٠ ﴾ (٢) ، وحكى الله أيضاً في موضع آخر قوله : ﴿ يَبْنُوهُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنَّنِي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ ﴿ ٩٤ ﴾ (٣) ، وحرف النداء هنا مذكور من باب التأكيد على الاستعطاف والمبالغة في

(١) سورة طه ، آية (٣٠ - ٣٢) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (١٥٠) .

(٣) سورة طه ، آية (٩٤) .

الاسترحام .

يقول ابن كثير :

« قال ﴿ يَبْنُوْمٌ ﴾ : ترقق له بذكر الأم ، مع أنه شقيقه لأبويه ؛ لأن ذكر الأم هنا أرق وأبلغ في الحنو والعطف » (١) ، ولم يقل : يا أخي ؛ مبالغة منه في استعطافه واسترحامه ، وترقيق قلبه ، وإذهاب غضبه ، حيث ذكره بأتهما ابنان لأم واحدة ، اشتركا في رحم واحدة .

ثم قدم هارون - عليه السلام - يبرر لأخيه ما حصل مبيئاً أنه لم يسكت على عبادتهم العجل ، وإنما أنكر عليهم ونهاهم وذكرهم وأرشدهم ، لكنهم لم يستجيبوا له ، واستضعفوه في هياجهم في عبادة العجل ، وكادوا يقتلونه ، ولهذا قال هارون - عليه السلام - لأخيه موسى - عليه السلام - : ﴿ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُوْنِي فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ ﴾ (٢) .

وقال ابن عاشور (٣) - رحمته - :

« والسين والتاء في ﴿ اسْتَضَعُّوْنِي ﴾ للحسبان ، أي : حسبوني ضعيفاً لا ناصر لي ؛ لأنهم تماثلوا على عبادة العجل ، ولم يخالفهم هارون إلا في شذمة قليلة .

وقوله : ﴿ وَكَادُوا يَقْتُلُوْنِي ﴾ يدل على أنهم عارضهم معارضة شديدة ، ثم

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣١٢/٥) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (١٥٠) .

(٣) هو : محمد الطاهر بن عاشور ، ولد عام (١٨٧٩ م) ، رئيس المفتين المالكيين بتونس ، وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس ، مولده ووفاته ودراسته بها ، عين عام (١٩٣٢ م) شيخاً للإسلام مالكيًا ، وهو من أعضاء الجمعيتين العربيين في دمشق والقاهرة ، له مصنفات مطبوعة ، أشهرها : (مقاصد الشريعة الإسلامية) ، و (التحرير والتنوير) في تفسير القرآن ، و (أصول النظام الاجتماعي في الإسلام) ، وغيرها ، توفي سنة (١٩٧٣ م) . انظر : الأعلام (١٧٤/٦) .

سكت وسلم ؛ خشية القتل . . . » (١) .

ومع أن موسى - عليهما السلام - قد لام أخاه هارون لعدم مفارقتهم لهم وعدم لحاقه به في قوله : ﴿ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٣﴾ أَلَّا تَتَّبِعَ ط ﴾ (٢) ، فقد برر هارون - عليهما السلام - بقاءه بينهم رغم عصيانهم له بأدب عظيم ، واحترام لأخيه موسى بقوله : ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ (٣) .

وكان هارون - عليهما السلام - أراد بهذا القول أن يبين أنه كان بإمكانه أن يأتي لوحده ليخبر موسى - عليهما السلام - بما حصل فتننتشر الفوضى من بعده ؛ لتركة لهم بعد أن وصاه عليهم بقوله : ﴿ أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٤) ، وبعد ذلك فقد يلومه على هذا الترك ويحمله سبب الفرقة التي حصلت ، ويقول له : ﴿ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ (٥) .

« لقد اجتهد هارون - عليهما السلام - في سياسة قومه عند تعارض مصلحتين ، مصلحة حفظ العقيدة ، ومصلحة حفظ الجماعة والأنفس والأموال والأخوة ، فرجح حفظ الجماعة على حفظ العقيدة ؛ اجتهداً منه على اعتبار أن موسى - عليهما السلام - عندما يعود سيصحح عقيدتهم .

وكان اجتهداه - عليهما السلام - مرجوحاً ؛ لأن حفظ العقيدة هو الأصل ، ومصلحة حفظ العقيدة مقدمة على ما سواها من المصالح » (٦) .

(١) التحرير والتنوير (١١٧/٩) .

(٢) سورة طه ، آية (٩٢ - ٩٣) .

(٣) سورة طه ، آية (٩٤) .

(٤) سورة الأعراف ، آية (١٤٢) .

(٥) سورة طه ، آية (٩٤) .

(٦) انظر : تفسير التحرير والتنوير (٢٩٣/١٦) .

يقول سيد قطب - رحمه الله - معلقاً على كلام هارون لموسى - عليه السلام - :

« وهكذا نجد هارون أهدأ أعصاباً ، وأملك لانفعاله من موسى ، فهو يلمس في مشاعره نقطة حساسة ، ويجيء له من ناحية الرحم ، وهي أشد حساسية ، ويعرض له وجهة نظره في صورة الطاعة لأمره حسب تقديره ، وإن خشى إن عاجل الأمر بالعنف أن يتفرق بنو إسرائيل شيئاً بعضها مع العجل ، وبعضها مع نصيحة هارون ، وقد أمره أن يحافظ على بني إسرائيل ولا يحدث فيهم أمراً ، فهي كذلك طاعة من ناحية أخرى » (١) .

ولهذا لما عرف موسى حقيقة موقف هارون - عليه السلام - ، وأنه لم يسكت عليهم ترك لومه وتعنيفه ودعا الله له بقوله : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٢) ، دعا الله أن يغفر له تأدباً مع الله فيما ظهر عليه من الغضب والانفعال وإلقاء الألواح ، ثم دعا الله أن يغفر لأخيه هارون فيما يكون وقع فيه من تساهل مع عبدة العجل .

فانظر ما في هذا الموقف من أدب النبوة ورفي أخلاقها ، وعظم قدر من يحملها .

إن هذا الموقف لا يقلل من مكانة هارون - عليه السلام - عند أخيه موسى - عليه السلام - ؛ إذ لم يكن ثم شقاق ، ولا اختلاف بينهما أو عداوة ، بل كان كل منهما معيناً للآخر ، ومساعداً له في أداء الرسالة ، وتبليغ الدعوة ، وقد جعل الله هارون وزيراً لموسى - عليه السلام - ، شاداً به من أزره ، معيناً له في أمور الدعوة والنبوة ، ولهذا قال موسى - عليه السلام - لربه : ﴿ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِى ﴾ (٣٦) هَرُونَ أَخِي ﴿ ٣٠ ﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي ﴿ ٣١ ﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿ ٣٢ ﴾ كَى نُسَبِّحُكَ كَثِيْرًا ﴿ ٣٣ ﴾ وَنَذْكُرُكَ كَثِيْرًا ﴿ ٣٤ ﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيْرًا ﴿ ٣٥ ﴾ (٣) ، وقال أيضاً : ﴿ وَأَخِي هَرُونَ هُوَ

(١) في ظلال القرآن (٤/٢٣٤٨) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (١٥١) .

(٣) سورة طه ، آية (٢٩ - ٣٥) .

أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۗ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ (١) .

فهذه صور بديعة ، ومواقف مؤثرة ، يظهر فيها الأدب والاحترام المتبادل بين أنبياء الله ورسله ، ويتجلى فيها الخلق العظيم ، وسماحة العشرة ، ولين الجانب ، وتوقير وتعظيم القدر والمكانة ؛ مما يجعلنا نسعى أن نفتدي بهم في حياتنا اليومية مع من نقابلهم مراراً وتكراراً ، خصوصاً إذا كانوا ممن لهم علينا حق التقدير والتعظيم والاحترام والتقديم .



(١) سورة القصص ، آية (٣٤) .

المبحث الثاني

الإقتداء واتباع المنهج والطريق

الاقتداء : افتعال من القدوة - بضم القاف وكسرهما - .

والقَدْوُ : أصل البناء الذي يتشعب منه تصريف الاقتداء ، يقال : قَدْوَةٌ وَقُدْوَةٌ لما يقتدى به ، أو ما يتسنى به .

والقدوة : الأسوة ، يقال : فلان قدوة يقتدى به ، ويقال : لي بك قِدْوَةٌ وَقُدْوَةٌ وقِدَّة (١) .

والقدوة هو الذي يعمل غيره مثل عمله ، ولا يعرف له في اللغة فعل مجرد ، فلم يسمع إلا اقتدى ، وكأهم اعتبروا القدوة اسماً جامداً واشتقوا منه الأفعال للدلالة على التكلف ، كما اشتقوا من اسم الخريف اخترق ، ومن الإسوة اتسسى (٢) .

فمفهوم الاقتداء هو من الاتباع والمتابعة والموافقة والمطابقة ، ولقد كان من أدب أنبياء الله فيما بينهم اقتداؤهم ببعضهم البعض ، والتواصي فيما بينهم على الحرص أن لا يشذوا ويتعدوا عن صراط من سبقهم من إخوانهم الأنبياء ؛ ذلك الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من الأنبياء والمرسلين الذين اختصهم الله برسالاته واصطفاهم لدعوته ، وتبليغ شريعته ، وإذا كانوا قد اختلفوا في فروع الشرائع وتفاوت الأحكام ، إلا أنهم قد اتفقوا في أساسها وأصلها القويم ، وهو زرع التوحيد ونشره في الأرض ، وتقويم اعوجاج بني الإنسان الذي أشرك مع الله غيره في العبادة والألوهية .

لهذا فقد جاء الاقتداء واتباع المنهج والطريق هو سمة الأنبياء والمرسلين - عليهم صلوات ربي وسلامه أجمعين - ، وكان دأبهم فيما بينهم ومع من سبقهم ، ووصية لمن خلفهم في دلالة واضحة على أهمية هذا الأمر ، وعظم أمره .

(١) انظر : لسان العرب (٤٥/١٢) ، والصحاح (٢٤٥٩/٦) .

(٢) انظر : التحرير والتنوير (٣٥٧/٧) .

وقد أورد القرآن الكريم صوراً من هذا الاقتداء وخصوصاً بين الأنبياء المتعاصرين ، ومن بينهم قرابة ، فقد كانت الوصية بالمحافظة على المنهج القويم من خصائص العلاقة بين الأنبياء المتعاصرين - صلوات ربي وسلامه عليهم أتم صلاة وأزكى تسليم - .

فمن الأمثلة على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (١) .

فهذا أبو الأنبياء وخليل الرحمن إبراهيم - عليهما السلام - يؤكد على أهمية الاقتداء به واتباع الطريق المستقيم لأبنائه من بعده ؛ خوفاً عليهم من الضلالة والانحراف عن هدي الأنبياء والمرسلين ، ولهذا فقد وصاهم باتباع ملته الحنيفية المسلمة التي أمره الله بها في قوله : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) ، وهذا من شرف إبراهيم - عليهما السلام - وطواعيته لربه ، وهو ما جعله مختصاً في زمانه بالإمامة وصار قدوة يقتدى به فلا يرغب عن ملته إلا من سفه نفسه وأنزلها منزل الإهانة ، وكان خاسر الصفقة ؛ وذلك لأنه - ﷺ - المصطفى في الدنيا ، الصالح في الآخرة .

يقول الرازي - رحمه الله - :

« اعلم أن هذه الحكاية اشتملت على دقائق مرغبة في قبول الدين ، أحدهما : أنه تعالى لم يقل : وأمر إبراهيم بنيه ، بل قال : وصاهم ، ولفظ الوصية أوكد من الأمر ؛ لأن الوصية عند الخوف من الموت ، وفي ذلك الوقت يكون الإنسان احتياطه لدينه أشد وأتم ، فإذا عرف أنه - عليهما السلام - في ذلك الوقت كان مهتماً بهذا الأمر متشدداً فيه ، كان القول إلى قبوله أقرب . وثانيها : أنه - عليهما السلام - خصص بنيه بذلك ؛ وذلك لأن شفقة الرجل على أبنائه أكثر من شفقته على غيرهم ، فلما خصهم بذلك في آخر عمره ، علمنا اهتمامه بذلك كان أشد من اهتمامه بغيره . وثالثها : أنه عمم بهذه الوصية جميع بنيه ولم يخص أحداً منهم بهذه الوصية ؛ ذلك أيضاً يدل على شدة الاهتمام . ورابعها : أنه - عليهما السلام - أطلق

(١) سورة البقرة ، آية (١٣٢) .

(٢) سورة البقرة ، آية (١٣١) .

هذه الوصية غير مقيدة بزمان ولا مكان ثم زجرهم أبلغ الزجر عن أن يموتوا غير مسلمين ؛ وذلك يدل على شدة الاهتمام بهذا الأمر . وخامسها : أنه - عليه السلام - ما فرج بهذه الوصية وصية أخرى ، وهذا يدل أيضاً على شدة الاهتمام بهذا الأمر ، ولما كان إبراهيم - عليه السلام - هو الرجل المشهود به بالفضل وحسن الطريقة وكمال السيرة ، ثم عرف عنه أنه كان في نهاية الاهتمام بهذا الأمر ، عرف حينئذٍ أن هذا الأمر أولى الأمور بالاهتمام ، وأجراها على الرعاية ، فهذا هو السبب في أنه خص أهله وأبناءه بهذه الوصية ، وإلا فمعلوم من حال إبراهيم - عليه السلام - أنه كان يدعو الكل أبداً إلى الإسلام والدين « (١) .

يقول الطبري (٢) - رحمته - :

« ووصى بهذه الكلمة ، عني بالكلمة قوله : ﴿ أَسَلَّمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) وهي الإسلام الذي أمر الله به نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وهو إخلاص العبادة والتوحيد لله ، وخضوع القلب والجوارح له ، ويعني بقوله : ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ ﴾ (٤) عهد إليهم بذلك وأمرهم به ، وأما قوله : ﴿ وَيَعْقُوبُ ﴾ فإنه يعني : ووصى بذلك أيضاً يعقوب بنيه « (٥) .

وهكذا يفهم من هذه الآية أيضاً أن يعقوب قد قام بهذا الدور ، وبتلك الوصية ، وأوصلها لبنيه من بعده ؛ محافظاً على المنهج ، واقتداءً بمن سلف من آبائه المرسلين ، وأولهم خليل الرحمن إبراهيم - عليه السلام - ، الذي جعله الله للناس إماماً يقتدى به ، بل وأمر نبينا

(١) مفاتيح الغيب (٤/٦٤) .

(٢) هو : الإمام أبو جعفر محمد بن حرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري ، رأس المفسرين على الإطلاق ، جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره ، كما قال السيوطي في طبقات المفسرين ص (٨٢) برقم (٩٣) ، وذكر له ترجمة موجزة نفيسة ، ولد سنة (٢٢٤هـ) ، وتوفي سنة (٣١٠هـ) ، له ترجمة في غالب كتب التراجم . انظر : هامش الطبقات المذكورة ، ومعجم طبقات الحفاظ لعبد العزيز السيرواني ص (٦٥٣) .

(٣) سورة البقرة ، آية (١٣١) .

(٤) سورة البقرة ، آية (١٣٢) .

(٥) تفسير الطبري (١/٦١١) .

محمدًا - ﷺ - بأن يتبع ملته ، فلا يجيد عنها ، وأن يقتدي بها ويتبع هدي خليل الرحمن .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ أَجْتَبَهُ وَهَدَيْتُهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ (١) .

ففي هذه الآيات يثني الله على خليله ويصفه بصفات المدح والثناء ، إنه ﴿ أُمَّةٌ ﴾ : يعلم الناس الخير ويؤمهم في الهدى ، ويأتون به في الطاعة ، ويقتدون به في الدعوة والعبادة .

(وهو ﴿ قَانِتًا ﴾ مطيعًا لله ، خاشعًا منيبًا ، عابدًا ذاكرًا .

وهو ﴿ حَنِيفًا ﴾ مؤمنًا موحدًا ، تاركًا للشرك ، ملتزمًا للتوحيد .

وهو ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ ﴾ فنعمة الله عليه كثيرة ، وعطاياه غامرة ، وهو يقابل هذه النعم بشكر المنعم - سبحانه - .

قال الراغب في معنى الأمة :

« يقال لكل ما كان أصلًا لوجود شيء أو تربيته أو إصلاحه أو مبدئه : أم .

وقال الخليل : كل شيء ضم إليه سائر ما يليه يسمى أمًا . . . والأمة : كل جماعة يجمعهم أمر ما ، إما دين واحد ، أو زمان واحد ، أو مكان واحد ، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيرًا أو اختيارًا .

وقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ أي : قائمًا مقام جماعة في عبادة الله ، وهذا

(١) سورة النحل ، آية (١٢٠ - ١٢٣) .

نحو قولهم : فلان في نفسه قبيلة .

وروي أن الرسول - ﷺ - قال : « إنه يحشر زيد بن عمر بن نفييل أمة وحده » (١) « (٢) .

قال الطبري :

« إن إبراهيم خليل الله كان معلم خير ، يأتهم به أهل الهدى ، وكان قانتاً مطيعاً لله ، وكان حنيفاً مستقيماً على دين الإسلام .

وقال مجاهد (٣) : إن إبراهيم كان أمة ، كان على حدة .

وقال قتادة (٤) : إن إبراهيم كان أمة ، كان إمام هدى مطيعاً تتبع سنته وملته » (٥) .

لقد كان إبراهيم - عليه السلام - أمة واحدة ، هو فرد واحد ، ولكن فعله كان فعل أمة ، وكأنه اجتمعت في شخصه خصال أمة كاملة ، وبقي أثره حياً في الأمة حتى قيام الساعة (٦) . وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد .

لهذا فإن الإمام هو الذي يأتهم به الناس ، ويقتدون به في الخير ، ويتخلقون بأخلاقه ، ويهتدون بهديه .

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨٦/٥) برقم (٤٦٦٣) ، والحاكم في المستدرک (٢٣٨/٣) برقم (٤٩٥٦) .

(٢) المفردات للراغب ص (٨٥ - ٨٦) .

(٣) هو : مجاهد بن جبر المكي ، أبو الحجاج ، المخزومي ، مولى السائب بن السائب ، تابعي ثقة ، إمام في التفسير ، قرأ القرآن على ابن عباس - عليه السلام - ثلاث مرات ، يقف عند كل آية ، ويسأل عنها : فيما نزلت ، وكيف كانت ؟ ، ولد سنة (٢١هـ) ، ومات سنة (١٠٤هـ) . انظر : تهذيب الكمال (٢٢٨/٢٧) ، وسير أعلام النبلاء (٤٤٩/٤) .

(٤) هو : قتادة بن دعامة بن قنادة السدوسي ، البصري ، وكنيته : أبو الخطاب ، ثقة ثبت ، توفي سنة مائة وبضعة عشرة للهجرة . انظر : التقريب (١٧٨/٣) ، وتهذيب الكمال (٤٩٨/٢٣) .

(٥) تفسير الطبري (٦٥٩/٧ - ٦٦١) - بتصرف - .

(٦) القصص القرآني ، للدكتور صلاح الخالدي ص (٤٣٧) .

قال الراغب :

« الإمام هو : المؤتم به ، إنساناً : كأن يقتدى بفعله أو قوله أو كتاباً أو غير ذلك ، سواء كان محققاً أو مبطلاً ، وجمعه أئمة » (١) .

« لهذا فالإنسان الصالح قدوة في الخير إماماً له ، قال تعالى : ﴿ وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾

﴿ ٧٤ ﴾ (٢) .

والمهتدون الصالحون أئمة في الخير ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا ثَابِتِينَ يُوقِنُونَ ﴾ ﴿ ٢٤ ﴾ (٣) .

وقادة الضلالة أئمة في الباطل ، وقدوات في الشر يقودون الناس إلى النار ، ولهذا قال عن فرعون وجنوده : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ ﴿ ٤١ ﴾ (٤) .

لقد جعل الله إبراهيم - عليهما السلام - إمام هدى للناس جميعهم على اختلاف الزمان والمكان ، وقال له : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ ﴿ ٥ ﴾ ، فبقي إماماً لمن بعده من المؤمنين .

كان إماماً لمؤمني بني إسرائيل ، وإماماً لمؤمني النصارى ، وإماماً للمسلمين أتباع محمد - ﷺ - ، وما زال إماماً لهذه الأمة وسيبقى إماماً لها ما دامت هذه الأمة باقية .

لقد جعله الله إمام دعوة ، ومنار هدى ، ومعلم عقيدة ، ونور طريق منذ وجوده إلى قيام الساعة .

(١) المفردات ص (٨٧) .

(٢) سورة الفرقان ، آية (٧٤) .

(٣) سورة السجدة ، آية (٢٤) .

(٤) سورة القصص ، آية (٤١) .

(٥) سورة البقرة ، آية (١٢٤) .

وجَعَلُهُ إِمَامًا بعد نجاحه في الابتلاء ، وإتمامه للكلمات ، دليل على أن الإمامة والقدوة لا تأتي إلا بعد نجاح في العمل ، أداء الواجبات ، فهذا الطريق ليس بسهل أبدًا ، بل هو شاق يحتاج إلى جهد ومجاهدة ، وصبر ومصابرة ، وتحمل المشقة والتعب ، وأن من يعيش على هامش الحياة لن يكون إمامًا ، وأن من يعيش مع توافه الحياة لن يكون إمامًا ، وأن من يعيش كسولاً أنانيًا لا مبالياً لن يكون إمامًا ، فلإمامة رجالها الأشداء ، وروادها الأولياء ، وصالحوها الأوفياء ، وإمامهم إبراهيم أبو الأنبياء - عليه الصلاة والسلام - « (١) .

كذلك من الأمثلة الأخرى على وصية الأنبياء بعضهم لبعض باتباع الدين الحنيف ، والاقتداء بالصراف المستقيم ؛ قوله تعالى حكاية عن نبي الله يعقوب - عليه السلام - :

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٢) .

يقول الرازي - رحمته - :

« اعلم أنه تعالى لما حكى عن إبراهيم - عليه السلام - أنه بالغ في وصية بنيه في الدين والإسلام ، ذكر عقبيه أن يعقوب وصى بنيه بمثل ذلك ؛ تأكيداً للحجة على اليهود والنصارى ، ومبالغة في البيان » (٣) .

« إن هذا المشهد بين يعقوب وبنيه في لحظة الموت والاحتضار لمشهد عظيم الدلالة ، قوي الإيماء ، عميق التأثير ، ميت يحتضر فما هي القضية التي تشغل باله في ساعة الاحتضار ؟ ما هو الشاغل الذي يعني خاطره وهو في سكرات الموت ؟ ما هو الأمر الجلل الذي يريد أن يطمئن عليه ويستوثق منه ؟ ما هي التركة التي يريد أن يخلفها لأبنائه ،

(١) القصص القرآني ، للدكتور صلاح الخالدي (١/٤٤٣) .

(٢) سورة البقرة ، آية (١٣٣) .

(٣) مفاتيح الغيب (٤/٦٤) .

ويحرص على سلامة وصولها إليهم فيسلمها لهم في محضر يسجل فيه كل التفاصيل ، إنها العقيدة ، هي التركة وهي الذخر ، وهي القضية الكبرى ، وهي الشغل الشاغل ، وهي الأمر الجلل ، الذي لا تشغله عنه سكرات الموت وصراعاته .

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي ﴾ هذا هو الأمر الذي جمعتكم من أجله ، وهذه هي القضية التي أردت الاطمئنان عليها ، وهذه هي الأمانة والذخر والتراث .

﴿ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَاكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١) .

أنهم يعرفون دينهم ويذكرونه ، إنهم يتسلمون التراث ويصونونه ، إنهم يطمئنون الوالد المحتضر ويريجونه .

وكذلك ظلت وصية إبراهيم لبنيه مرعية في أبناء يعقوب ، وكذلك هم ينصون نصاً صريحاً على أنهم مسلمون « (٢) .

يقول الإمام الطبري - رحمه الله - في تفسير هذه الآية :

« أكنتم يا معشر اليهود والنصارى المكذبين بمحمد - ﷺ - الجاحدين لنبوته حضور يعقوب وشهوده إذ حضره الموت ، أي : إنكم لم تحضروا ذلك ، فلا تدعوا على أنبيائي ورسلي الأباطيل وتنحلوهم اليهودية والنصرانية ، فإني ابتعثت خليلي إبراهيم وولده إسحاق وإسماعيل وذريتهم بالحنيفية المسلمة ، وبذلك وصّوا بنيتهم ، وبه عهدوا إلى أولادهم من بعدهم » (٣) .

فهذا مثال صريح صحيح يدل على اقتداء أنبياء الله بعضهم ببعض ، بل والتوصية بذلك ، والحرص عليه أشد الحرص ، وعدم الميل عن هذا المنهج القويم ، والصرط

(١) سورة البقرة ، آية (١٣٣) .

(٢) في ظلال القرآن (١٦١/١) .

(٣) تفسير الطبري (٦١٢/١) .

المستقيم ، وهذا من أدبهم لبعضهم البعض ، وحرصهم على اقتفاء أثر من سبقهم من الأنبياء والمرسلين - صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين - .

ومن أمثلة اقتداء الأنبياء ببعضهم البعض في القرآن : وصف الله لخليله إبراهيم - عليهما السلام - بأنه من شيعة نوح - عليهما السلام - في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾ (١) ، أي : أنه على نفس دينه ومشايخ له في المنهج والطريق ، مقتد به في الملة والنحلة .

قال الطبري :

« يقول تعالى ذكره : وإن من أشياع نوح على منهاجه وملته والله لإبراهيم خليل الرحمن » (٢) .

ولو تتبعنا قصة نوح وإبراهيم - عليهما السلام - لوجدت الصلة في العقيدة والدعوة ووحدة المنهج والطريق ، على الرغم من تباعد الزمان بين الرسولين والرسالتين ، ولكن المنهج الإلهي واحد يلتقيان عنده ، ويرتبطان به ، ويشتركان فيه .

فقد واجه نوح من تصلب قومه وعنادهم الشيء الذي لم يثنه عن مواصلة الدعوة ، فلبث في قومه ما لم يلبثه نبي بعده ، ولا رسول يدعو ويبلغ ، فما آمن معه إلا قليل .

وكذلك إبراهيم - عليهما السلام - لم يدع قريباً ولا بعيداً وأباً ولا صديقاً إلا ودعاه وحذره وبلغه رسالات ربه ، وجادل وناظر وأوذى وخاطر ، وبعد هذا كله لم يؤمن له إلا لوط - عليهما السلام - ، فانظر هذا التشابه والتشايخ وتدبر .

وقال الشوكاني (٣) :

(١) سورة الصافات ، آية (٨٢) .

(٢) تفسير الطبري (٤٩٩/١٠) .

(٣) هو : محمد بن علي بن محمد بن عبد اهل الشوكاني ، الصنعاني ، كان على المذهب الزيدي ثم ترك التقليد ، بل أصبح داعياً للاجتهاد وترك التقليد ، صاحب كتاب (السيل الجرار) ، و (إرشاد الفحول) ، =

« أي : من أهل دينه وممن شايعه ووافقه على الدعاء إلى الله ، وإلى توحيدده ، وإلى الإيمان به . قال مجاهد : أي : على منهجته وسنته . قال الأصمعي (١) : الشيعة : الأعوان ، وهو مأخوذ من الشيع ، وهو الحطب الصغار الذي يوقع مع الكبار حتى يستوقد » (٢) .

« والمعنى : وإن من شيعة نوح لإبراهيم - ﷺ - ؛ لأنه تابعه في الدعوة إلى الدين الحق ، وفي الصبر على الأذى من أجل إعلاء كلمة الله تعالى ، ونصرة شريعته ، وهكذا جميع الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ، اللاحق منهم يؤيد السابق ويناصره في الدعوة التي جاء بها من عند ربه ، وإن اختلفت شرائعهم في التفاصيل والجزئيات ، فهي متحدة في الأصول والأركان » (٣) .

قال الألوسي :

« وإن من شيعته أي : ممن شايح نوحًا وتابعه في أصول الدين وإن اختلفت فروع شريعتيهما أو ممن شايعه في التصلب في دين الله تعالى ومصابرة المكذبين ، ونقل هذا عن ابن عباس وجوز أن يكون بين شريعتيهما اتفاق كلي أو أكثر ، وللاكثر حكم الكل » (٤) .

= و (فتح القدير) ، و (نيل الأوطار) ، وغيرها ، توفي سنة (١٢٥٠هـ) . انظر : الأعلام (٢٩٨/٦) .

(١) هو : عبد الملك بن قريب بن عبد الملك ، أبو سعيد الأصمعي ، صاحب اللغة والنحو ، والغريب والأخبار ، والحكم ، أثنى عليه أحمد بن حنبل في السنة وفي التقريب : « صدوق سني » ، من مصنفاته : (غريب القرآن) ، و (خلق الإنسان) ، و (ما اتفق لفظه واختلف معناه) ، وغيرها كثير ، توفي سنة (٢١٥هـ) ، وقيل غير ذلك . انظر : تقريب التهذيب رقم الترجمة (١٣٣٧) ، وطبقات المفسرين للداوودي برقم (٣٠٨) .

(٢) تفسير فتح القدير (٥٢٨/٤) .

(٣) التفسير الوسيط ، لطنطاوي (٩٤/١٢ - ٩٥) .

(٤) روح المعاني (١٣٤/٢٣) .

ومن صور اقتداء الأنبياء بعضهم ببعض اتباع نبي الله لوط - عليهما السلام - للخليل - عليهما السلام - وإيمانه به وتصديقه لنبوته ورسالته .

قال تعالى مبيناً ذلك الاقتداء والاتباع : ﴿ فَأَمِّنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ (١) أي : اتبعه وما جاء به في نبوته ، وقد يتبادر إلى ذهن من يقرأ هذه الآية أن لوطاً لم يكن مؤمناً موحداً ، وهذا غير صحيح ، ولا يصح قوله عن الأنبياء ؛ فإن الأنبياء معصومون عن الشرك بالله عصمة مطلقة منذ ولادتهم وحتى وفاتهم ، وقد سبق التفصيل في هذا الأمر في مقدمة البحث ، فليُنظر هناك (٢) .

قال الألوسي :

« ﴿ فَأَمِّنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ أي : صدقه - عليهما السلام - في جميع مقالاته أو بنبوته حين ادعاها ، لا أنه صدقه فيما دعا إليه من التوحيد ، ولم يكن كذلك قبل ، فإنه - عليهما السلام - كان متنزهاً عن الكفر ، وما قيل : إنه آمن له - عليهما السلام - حين رأى النار لم تحرقه ضعيف رواية ، وكذا دراية ؛ لأنه بظاهره يقتضي عدم إيمانه قبل وهو غير لائق به - عليهما السلام - » (٣) .

وقال الخازن (٤) :

« ﴿ فَأَمِّنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ أي : صدقه برسالته لما رأى معجزاته وهو أول من صدق

(١) سورة العنكبوت ، آية (٢٦) .

(٢) انظر : ص (٣٥) .

(٣) روح المعاني (٤٧٨/٢٠) .

(٤) هو : أبو الحسن ، علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيعي ، وعرف بالخزن لأنه كان أميناً لمكتبة في دمشق ، أصله من حلب ، ولد عام (٦٧٨هـ) ببغداد ، ثم سكن دمشق وسمع بعض علمائها ، فاشتغل بالعلم والتأليف ، ويسر له عمله في المكتبة سبل التعلم والكتابة ، فترك مصنفات كثيرة منها : (مقبول المنقبول) وهو كتاب قيم في الحديث ، و (لباب التأويل في معاني التنزيل) وهو تفسير متوسط الحجم ، لخصه من تفسير البغوي ، وأضاف إليه أشياء كثيرة ، خصوصاً ما يتعلق بالقصص التاريخية والإسرائيليات الباطلة والغريبة ، توفي بحلب سنة (٧٤١هـ) . انظر : شذرات الذهب (١٣١/٦) .

إبراهيم ، وأما في أصل التوحيد فإنه كان مؤمناً ؛ لأن الأنبياء لا يتصور فيهم الكفر « (١) .

فهذه آية صريحة واضحة الدلالة على اقتداء نبي الله لوط - عليهما السلام - بالخليل - عليهما السلام - وتصديقه له ومتابعته له في المنهج والطريق الذي رسمه الخالق سبحانه لعباده في هذه الحياة ، وبه نجاحهم وفوزهم .

ولم يكتب القرآن بذكر أمثلة الاقتداء وإظهار صورته ومواقفه ، بل أمر نبينا محمد - ﷺ - في أكثر من موضع فيه بالاقتداء بنبي الله الخليل - عليهما السلام - واتباع دينه الذي هو دين الحنيفة المسلمة السمحة ، فقال تعالى : ﴿ تَمَّ أَوْحِينَآ إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢) ، وأمر الله نبيه أن يعلنها بصراحة ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٣) .

(والحنيف هو المؤمن بالله الموحد له ، الذي اختار طريق الإيمان والإسلام والخضوع لله ومال إليهما ، وترك طريق الشرك والكفر ، ولم يخترها .

قال ابن فارس :

« الحنف : هو الميل ، ويقال للذي يمشي على ظهور قدميه : أحنف ، فالرجل الأحنف : مائل الرجلين ، والحنيف : المائل إلى الدين المستقيم ، ويقال : هو يتحنف أي : يتحرى أقوم طريق « (٤) .

وقال الراغب في المفردات :

« الحنف : هو الميل عن الضلال إلى الاستقامة ، والحنف : ميل عن الاستقامة إلى

-
- (١) لباب التأويل (٤٢٠/٣) ، طبعة : الاستقامة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٣٧٤ هـ .
 (٢) سورة النحل ، آية (١٢٣) .
 (٣) سورة الأنعام ، آية (١٦١) .
 (٤) مقاييس اللغة (١١٠/٢ - ١١١) .

الضلالة ، والحنيف : هو المائل إلى الاستقامة ، وتحنف فلان : تحرى طريق الاستقامة ، وسمت العرب كل من حج أو اختتن حنيفاً ؛ تنبيهاً على أنه دين إبراهيم - عليهما السلام - ، والأحنف : من في رجله ميل ، وقيل : سمي بذلك على التفاؤل ، وقيل : بل استعير للميل المجرد « (١) .

ولهذا فقد اعتبر القرآن أن أحسن الناس ديناً ، هو ذلك الذي أسلم وجهه له ، وأحسن العبادة لله ، واتبع ملة إبراهيم - عليهما السلام - ، وكان حنيفاً مثله ، فقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ (٢) (٣) .

بل وينفي القرآن كون الهداية في اتباع اليهود والنصارى واعتبرها في اتباع إبراهيم الخليل - عليهما السلام - فقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٤) .

قال الطبري :

« احتج الله لنبيه محمد - ﷺ - بأبلغ حجة وأوجزها وأكملها ، وعلمها محمد نبيه - ﷺ - فقال : يا محمد ، قل للقائلين لك من اليهود والنصارى ولأصحابك ﴿ كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ﴾ : بل نتبع ملة إبراهيم التي يجمع جميعنا على الشهادة لها بأنها دين الله الذي ارتضاه واجتباها وأمر به ، فإن دينه كان الحنيفية المسلمة ، وندع سائر الملل التي تختلف فيها فينكر بعضها ويقر بها بعضنا ، فإن ذلك على اختلافه لا سبيل لنا على الاجتماع عليه كما لنا السبيل إلى الاجتماع على ملة إبراهيم » (٥) .

(١) المفردات ص (٢٦٠) .

(٢) سورة النساء ، آية (١٢٥) .

(٣) القصص القرآني ، للدكتور صلاح الخالدي ص (٤٥٩/١) .

(٤) سورة البقرة ، آية (١٣٥) .

(٥) تفسير الطبري (٦١٥/١) .

وقال القرطبي :

« بل نتهدي بملة إبراهيم » (١) .

وهذا دليل على اقتداء الأنبياء بعضهم ببعض واتباعهم نفس المنهج والطريق ، فلا يجيدون عنه ، ولا يرغبون عنه طريقاً وإن اختلفت الشرائع وتنوعت الملل ، بل إن من أركان الإيمان الستة الإيمان بالكتب التي نزلت على أنبياء الله ورسله ، وكذلك الإيمان بهؤلاء الرسل والأنبياء جميعهم ، وإلا فإن دين المرء لا يستقيم ولا يتم إلا بهذا الإيمان ، ولهذا قال تعالى مبيّناً وجوب الاقتداء بالرسل السابقين : ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٢) .

قال الإمام الطبري :

« والكتب التي أتى النبيين كلهم ، أقررنا وصدقنا أن ذلك كله حق وهدى ونور من عند الله ، وأن جميع من ذكر الله من أنبيائه كانوا على هدى وحق ، يصدق بعضهم بعضاً ، على منهاج واحد في الدعاء إلى توحيد الله والعمل بطاعته ، فلا نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعض ، ونتبرأ من بعض ، ونتولى بعض ، كما تبرأت اليهود من عيسى ومحمد - ﷺ - وأقرت بغيرهما من الأنبياء ، وكما تبرأت النصارى من محمد - ﷺ - وأقرت بغيره من الأنبياء ، بل نشهد لجميعهم أنهم كانوا رسل الله وأنبياءه ، بعثوا بالحق والهدى » (٣) .

فهذه الآيات فيها دلالة واضحة على الأمر لنبينا محمد - ﷺ - بالاقتداء بالخليل - ﷺ - ، واتباع دينه الذي هو دين الإسلام حقيقة ، بل إن إبراهيم - ﷺ - أبو المسلمين بصريح القرآن : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۗ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٣٦/٢) .

(٢) سورة البقرة ، آية (١٣٦) .

(٣) تفسير الطبري (٦١٨/١) .

قَبْلُ ﴿ (١) ، ولهذا فإن نبينا محمد - ﷺ - وكذلك أمته كلهم مسلمون مؤمنون حنفاء ، على دين الخليل - ﷺ - اقتداءً واتباعاً لمنهجه وطريقه ، فجاءوا أولى الناس به ، وأقرب الناس إليه ، وأحق الناس بمودته ومحبته .

﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٦٨﴾ (٢) .

نعم ، نبينا - عليه الصلاة والسلام - هو أولى الناس بالخليل ؛ لأنه على دينه ، ولأنه جاء بدينه وهو الإسلام ، ولأن رسالته استكمال لرسالة إبراهيم - عليه وعلى نبينا أتم الصلاة وأزكى التسليم - .

وكذلك المؤمنون الصالحون اتباع محمد - ﷺ - الأمة الإسلامية أمة الشهادة والرسالة والخلافة والدعوة حتى قيام الساعة .

لقد كان النبي - ﷺ - مقتدياً بأبيه إبراهيم في دينه وديناه ، وفي حياته كلها ، وكيف لا يقتدي بخليل الله وأحب خلقه إليه بعد نبينا محمد - ﷺ - ، وكيف لا يقتدي بأبي الأنبياء وأحد أولي العزم من الرسل ، ذلك النبي الأواه الحلیم .

كذلك من صور الاقتداء ما أمر الله به نبيه محمد - ﷺ - بالصلاة خلف مقام إبراهيم الخليل - ﷺ - في قوله تعالى : ﴿ وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ ﴾ (٣) .

قال ابن القيم (٤) - رحمه الله - :

(١) سورة الحج ، آية (٧٨) .

(٢) سورة آل عمران ، آية (٦٨) .

(٣) سورة البقرة ، آية (١٢٥) .

(٤) هو : محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي ، الملقب بشمس الدين ، تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية ، وأحد كبار العلماء المصلحين ، له مؤلفات كثيرة عظيمة ، منها : (زاد المعاد في هدي خير العباد) ، و (إعلام الموقعين عن رب العالمين) وغيرهما ، توفي سنة (٧٥١هـ) . انظر : الأعلام (٥٦/٦) .

« فأمر نبيه - ﷺ - وأمته أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ؛ تحقيقاً للاقتداء به ، وإحياء آثاره - صلى الله على نبينا وعليه وسلم - » (١) .

بل لقد كان من شدة اقتداء نبينا محمد - ﷺ - بأبيه الخليل - عليهما السلام - أن كان يدعو بمثل ما دعا به . فقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : « كان رسول الله - ﷺ - يعوذ الحسن والحسين ، ويقول : إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق ، أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة » (٢) .

وعن عبد الله بن زيد - رضى الله عنه - عن النبي - ﷺ - : « إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها ، وحرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة ودعوت لها في مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم - عليهما السلام - لمكة » (٣) .

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - أنه قال : كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إلى النبي - ﷺ - ، فإذا أخذه رسول الله - ﷺ - قال : « اللهم بارك لنا في ثمرنا ، وبارك لنا في مدينتنا ، وبارك لنا في صاعنا ، وبارك لنا في مدنا ، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليتك ونيبك ، وإني عبدك ونيبك ، وإنه دعاك بمكة وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعا لمكة ومثله معه » (٤) .

وعن أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - طلع له أحد فقال : « هذا جبل يحبنا

(١) جلاء الأفهام ص (٢٥٢) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأنبياء ، باب يزفون النسلان في المشي (١٤٧/٤) برقم (٣٣٧١) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب البيوع ، باب بركة صاع النبي - ﷺ - ومده (٦٧/٣ - ٦٨) ، وأخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الحج ، باب فضل المدينة ودعاء النبي - ﷺ - فيها بالبركة (٨٠٨/٢) برقم (١٣٦٠) .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الحج ، باب فضل المدينة ودعاء النبي - ﷺ - لها بالبركة (٨١٢/٢) برقم (١٣٧٣) .

ونحبه ، اللهم إن إبراهيم حرم مكة ، وإني أحرم ما بين لابتيها » (١) .

فهذه الأحاديث تدل على اقتداء النبي - ﷺ - بالخليل - عليهما السلام - في الدعاء ومحبته لألفاظ أدعيته وما اشتملت عليه من منافع الدين والدنيا ، ولم يقتصر هذا الاقتداء بسني الله الخليل - عليهما السلام - ، بل إن القرآن الكريم جاء الأمر فيه لنبينا محمد - ﷺ - بالاقتداء بمن سبقه من الأنبياء والمرسلين ، إذ أن هؤلاء الصفوة من الخلق قد جبلوا على مكارم الأخلاق ، وكمال الدين ، وكرم النفس واكتمال المروءة ، لهذا جاء الاقتداء بهديهم ، واتباع أخلاقهم وطباعهم من الأمور المستقيمة ، والطرق السوية ، والوصول بها إلى مراتب الكمال ، ولهذا قال تعالى بعد أن ذكر ثلة من الأنبياء والمرسلين في سورة الأنعام :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ (٨٩) ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ ﴾ (٩٠) .

قال الألوسي :

« ﴿ أُولَئِكَ ﴾ أي الأنبياء ﴿ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ أي : هديناهم إلى الحق والصراط المستقيم ، والالتفات إلى الاسم الخليل ؛ للإشعار بعلة الهداية ، وحفظ المهدي إليه ؛ اعتماداً على غاية ظهوره . ﴿ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ ﴾ أي : اجعل هداهم منفرداً بالاقتداء ، واجعل الاقتداء مقصوراً عليه ، والمراد بهداهم عند جمع طريقهم في الإيمان بالله تعالى وتوحيده وأصول الدين دون الشرائع القابلة للنسخ . . . ومعنى أمره - ﷺ - بالاقتداء بذلك الأخذ به لا من حيث إنه طريق أولئك الفخام ، بل من حيث إنه طريق العقل والشرع ، ففي ذلك تعظيم لهم ، وتنبيه على أن طريقهم هو الحق الموافق لدليل العقل والسمع . . .

(١) أخره البخاري في صحيحه ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب يزفون النسلان في المشي (١٤٦/٤) برقم (٣٣٦٧) .

(٢) سورة الأنعام ، آية (٨٩ - ٩٠) .

وحقق القطب الرازي (١) في (حواشيه على الكاشف) أنه يتعين أن الاقتداء بالمأمور به ليس إلا في الأخلاق الفاضلة والصفات الكاملة ، كالحلم ، والصبر ، والزهد ، وكثرة الشكر ، والتضرع ونحوها ، ويكون في الآية دليل على أنه - ﷺ - أفضل منهم قطعاً ؛ لتضمنها أن الله تعالى هدى أولئك الأنبياء - عليهم السلام - إلى فضائل الأخلاق ، وصفات الكمال ، وحيث أمر رسول الله - ﷺ - أن يقتدي بهداهم جميعاً امتنع للعصمة أن يقال : إنه لم يمتثل ، فلا بد أن يقال : إنه - عليه الصلاة والسلام - قد امتثل وأتى بجميع ذلك ، وحصل تلك الفضائل التي في جميعهم ، فاجتمع فيه من خصال الكمال ما كان متفرقاً فيهم ، وحينئذ يكون أفضلهم جميعاً قطعاً ، كما أنه أفضل من كل واحد فيهم .

وفي أمره - عليه الصلاة والسلام - بالاقتداء بهداهم دون الاقتداء بهم ما لا يخفى من الإشارة إلى علو مقامه - ﷺ - عند أرباب الذوق « (٢) .

فانظر إلى فضل الله العظيم ، وجزائه العميم لنبينا محمد - ﷺ - ، حيث أعلى قدره ، ورفع منزلته ، وجمع له ما فرقه من فضائل ، ومكارم الأخلاق ، وسماحة الشرائع في أنبيائه السابقين .

بل إن هذا الاقتداء لم ينقص من قدره ، ولم يحط من منزلته ، وإنما أبان عن تميزه وسيادته وعلو مقامه ، فكان هذا الاقتداء الذي هو منقصة في غيره ؛ منقبة له وتفضيل له .

يقول الطاهر بن عاشور :

« وقوله : ﴿ فَبِهَدَاهُمْ أَقْتَدِهِ ﴾ تفريع على كمال ذلك الهدى ، وتخلص إلى ذكر حظ محمد - ﷺ - من هدى الله بعد أن قدم قبله مسهب ذكر الأنبياء وهدبهم إشارة إلى علو منزلة محمد - ﷺ - ، وأنها منزلة جديدة بالتخصيص بالذكر ، حيث لم يذكر مع

(١) هو : محمد (أو محمود) بن محمد الرازي ، أبو عبد الله ، قطب الدين ، عالم بالحكمة والمنطق ، وعرف بالتحفاني ، من كتبه : (المحاكمات) في المنطق ، و (شرح الحادي) في فروع الشافعية لم يكمله ، وحاشية على الكشاف وصل فيها إلى سورة طه ، توفي سنة (٧٦٦هـ) . انظر : الأعلام (٣٨/٧) .

(٢) روح المعاني (٧/٢٨٣ - ٢٨٤) .

الأنبياء المتقدمين ، وأنه جمع هدي الأولين وأكملت له الفضائل ، وجمع له ما تفرق من الخصائص والمزايا العظيمة ، وفي إفراده بالذكر ، وترك عده مع الأولين ؛ رمز بديع إلى فذاذاته وتفرد مقداره ، ورعى بديع لحال مجيء رسالته بعد مرور تلك العصور المتباعدة أو المتجاورة ، ولذلك قدم المجرور وهو ﴿ يَهْدُهُمْ ﴾ على عامله ؛ للاهتمام بذلك الهدى ؛ لأنه منزلتك الجامعة للفضائل والمزايا ، فلا يليق به الاقتداء بهدى هو دون هداهم ، ولأجل هذا لم يسبق للنبي - ﷺ - اقتداء بأحد ممن تحنّفوا في الجاهلية ، أو تنصروا أو تهودوا ، وبقي على الفطرة إلى أن جاءته الرسالة « (١) .

وهكذا نرى الله - ﷻ - يقص على نبيه محمد - ﷺ - أخبار هؤلاء الرسل وحوادثهم مع أقوامهم ، ووقائع حياتهم الكريمة التي كانت مثلاً يحتذى ، وقدوة تقتدى ، ثم يأمره بأن يقتدي بهم ويتأسى بهم .

وقد روى السيوطي في الدر المنثور عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ فَيَهْدُهُمْ أَقْتَدِهِ ﴾ قال : « أَمْرٌ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ ، وَكَانَ يَسْجُدُ فِي ص » ، ولفظ ابن أبي حاتم عن مجاهد : سألت ابن عباس عن السجدة التي في ص ؟ فقرأ هذه الآية وقال : « أَمْرٌ نَبِيِّكُمْ أَنْ يَقْتَدِيَ بِدَاوُدَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - » (٢) .

وهذا أيضاً من اقتداء نبينا - عليه الصلاة والسلام - بنبي الله داود - عَلَيْهِ السَّلَامُ - .

كذلك من مواطن الاقتداء التي حث القرآن فيها نبينا محمد - ﷺ - قوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (٣) ، فهذا أمر من الله تعالى لنبيه - ﷺ - بالصبر والجلد ، واحتمال المشقة والعناء ؛ اقتداء برسول الله - عليه الصلاة والسلام - أولي العزم والنهي ، والجد والاجتهاد ، الذين صبروا على تكذيب أقوامهم وعنادهم ، واستكبارهم وأذاهم ، الحسي والمعنوي .

(١) التحرير والتنوير (٧/٣٥٥ - ٣٥٦) .

(٢) الدر المنثور (٣/٢٨٣) .

(٣) سورة الأحقاف ، آية (٣٥) .

« وأولوا العزم : أصحاب العزم المتصفون به ، والعزم : نية محققة على عمل أو قول دون تردد ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ وَلَا تَعَزُّمُوا عُقَدَةَ النَّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ﴾ (٢) .

والعزم المحمود في الدين : العزم على ما فيه تزكية النفس وصلاح الأمة ، وقوامه : الصبر على المكروه ، وباعث التقوى ، وقوته : شدة المراقبة بأن لا يتهاون المؤمن عن محاسبته نفسه ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسَىٰ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ (٤) .

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال : « كل الرسل أولو عزم » .

وهذه الآية اقتضت أن محمداً - عليه الصلاة والسلام - من أولي العزم ؛ لأنه تشبيهه الصبر الذي أمر به بصبر أولي العزم من الرسل يقتضي أنه مثلهم ؛ لأنه ممثّل أمر ربه ، فصبره مثل لصبرهم ، ومن صبر صبرهم كان مثلهم لا محالة « (٥) .

يقول الإمام الطبري :

« يقول تعالى ذكره لنبية محمد - صلى الله عليه وسلم - مثبتة على المضي لما قلده من عبء الرسالة ، وثقل أحمال النبوة - صلى الله عليه وسلم - ، وأمره بالانتساء في العزم على النفوذ لذلك بأولي العزم من قبله من رسله الذين صبروا على عظيم ما لقوا فيه من قومهم من المكاره ، وناهم فيه منهم من الأذى والشدائد ، فاصبر يا محمد على ما أصابك في الله من أذى مكذبيك من قومك الذين أرسلناك إليهم بالإنذار ، كما صبر أولو العزم من الرسل على القيام بأمر الله ، والانتهاء إلى

(١) سورة آل عمران ، آية (١٥٩) .

(٢) سورة البقرة ، آية (٢٣٥) .

(٣) سورة آل عمران ، آية (١٨٦) .

(٤) سورة طه ، آية (١١٥) .

(٥) التحرير والتنوير (٦٧/٢٦) .

طاعته من الرسل الذين لم ينههم عن النفوذ لأمره ما نالهم فيه من شدة . وقيل : إن أولي العزم منهم كانوا الذين امتحنوا في ذات الله في الدنيا بالحن ، فلم تزدهم الحن إلا جـداً في أمر الله ، كنوح وإبراهيم وموسى ومن أشبههم « (١) .



(١) تفسير الطبري (٣٠٢/١١) .

المبحث الثالث

التواضع وتراحمهم فيما بينهم

التواضع في اللغة : يعني التذلل ، يقال : تواضع الرجل إذا تذلل وخشع ، أخذاً من وضعه يضعه : إذا حطه ؛ لأن المتواضع حط من قدر نفسه ورتبته ، ويقال : وضع الرجل يُوضع ضِعَةً : أي : صار وضيعاً ، ووضع منه فلان أي : حط من درجته وقدره (١) .

والفرق بين التواضع والضعفة : أن التواضع رضا الإنسان بمنزلة دون ما تستحقه منزلته . والضعفة : وضع الإنسان نفسه بمحل يزري به (٢) .

ومادة التفاعل تعني تكلف ذلك الفعل ، وهو هنا يعني تكلف الذل والانكسار لله تعالى وللمؤمنين ، إذ لا يسمى تواضعاً إلا إذا كان بإظهار الضعفة عن علو المنصب وهو في الحقيقة رفيع .

أما من كان وضيعاً في الأصل فلا يقال لما بيديه من التذلل : تواضع ؛ لأنه لم يتكلفه ، بل هو صفته .

قال الراغب :

« التواضع اشتقاقه من الضعفة ، وهو رضا الإنسان بمنزلة دون ما يستحقه فضله ومنزلته ، وفضيلته لا تكاد تظهر في أفناء (٣) الناس ؛ لانحطاط درجتهم ، وإنما ذلك يتبين في الملوك وأجلاء الناس وعلمائهم . قال : وهو من باب التفضل ؛ لأنه ترك بعض حقه » (٤) .

أما التواضع في العرف الشرعي : فهو انكسار القلب لله وخفض جناح الذل والرحمة

(١) الصحاح للجوهري (١٣٠٠/٣) ، والقاموس المحيط بشرحه تاج العروس (٥٤٣/٥) .

(٢) إتخاف السادة المتقين (٣٥٠/٨) .

(٣) هم الذين لا يدري من أي قبيلة هم .

(٤) الذريعة ص (٢١٣) .

للخلق (١) ، أو هو إظهار التنزل من المرتبة لمن يريد تعظيمه (٢) .

« والتواضع من أجل أخلاق المؤمنين ؛ لأن به يعرف المرء نفسه وحقيقته ، فلا يهلك بالأخلاق المنافية له ، كالكبر والعجب والغرور ، وبذلك يسلم إيمانه وإسلامه من آفات مساوئ الأخلاق الكبيرة تلك ، كما لا يتم التقوى إلا بالتواضع » (٣) .

ولذلك عني به القرآن الكريم عناية كبيرة ، فحثّ عليه ونوّه بأهله ، وحذّر من ضده .

فما ورد في الحثّ عليه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ (٤) ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (٥) .

فإن هذه الآيات تنهى عن الأخلاق المنافية للتواضع ، من الكبر والخيلاء ؛ إذ تبين آية الإسراء حقيقة الإنسان من أنه لم يبلغ حدًا يدعو إلى الكبر والتبختر ؛ « لأنه إنما يكون بكثرة القوة وعظم الجثة ، وكلاهما مفقود في ابن آدم » (٦) ، فعليه إذاً أن يتخلى عن هذه الخلة . وفي الآية تهكم وتهديد شديد ، وتقريع بليغ على من يفعل ذلك ، وكفى به زاجراً ، لا سيما وأن الله تعالى قد ذيل تلك النواهي بقوله : ﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سِيئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ (٧) أي : مبغضاً لديه ، وإذا كره الله تعالى خلقاً كره المتخلق به ؛

(١) إتخاف السادة المتقين (٣٥٠/٨) .

(٢) شرح المناوي على شمائل الترمذي ص (١٢٨) .

(٣) الإحياء للغزالي (٢٩٧/٣) .

(٤) سورة الإسراء ، آية (٣٧) .

(٥) سورة لقمان ، آية (١٨ - ١٩) .

(٦) روح المعاني للألوسي (٩٨/١٥) .

(٧) سورة الإسراء ، آية (٣٨) .

لأنه متصف بمساوئ الأخلاق تلك ، وقد ورد : « إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها » (١) .

أما آية سورة لقمان ففيها النهي الصريح أيضاً عن رعونات النفس من الكبر والبطر والأشر واحتقار الناس ، والأمر بضده وهو التواضع والقصد في الأمور صراحة بعد أن علم بالمفهوم من النهي السابق ، وذيل الله تعالى النهي والأمر بما ذيل به النهي السابق من عدم رضاه وشدة سخطه على من اتصف بتلك الصفات ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (١٨) ، فعدم محبته لمن كان كذلك ، يعني بغضه له ، كما دلت عليه الآية السابقة .

وفي هذا من الحث على التواضع ما فيه الكفاية للمؤمن .

غير أن القرآن لم يقتصر على ذلك ، بل لقد نوّه بالمتواضعين أيما تنويه ، حيث قال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ (٦١) (٢) ، فنتع الله من اختصه بالعبودية له سبحانه بنعوت كثيرة ، استهلها بنعت التواضع الذي دل عليه مشيهم في الأرض هوناً ، أي : بسكينة وتواضع ، وتعاملهم مع من يجهل عليهم من بني الإنسان ، حيث لا يجهلون عليهم بمثل جهلهم وإنما يعرضون عن ذلك ، ويخاطبونهم بما ينبغي أن يقال : وهو السلام .

وهذا تنويه عظيم بالمتواضعين ، حيث وصفهم الله تعالى بالعبودية له ، وذلك أعظم تشريف لهم ؛ لأن العبودية له سبحانه ، هي أشرف الأوصاف ، ومن أعلى مراتب المحبين ، وبذلك يتفاخرون ، ولذلك يقول الشاعر المسلم :

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٨١/٦) برقم (٥٩٢٨) ، والحاكم في المستدرک (٤٨/١) عن سهل ابن سعد ، وقال : صحيح الإسناد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٠/١) ، والسلسلة الصحيحة برقم (١٣٧٨ ، ١٦٢٦) .

(٢) سورة الفرقان ، آية (٦٣) .

ومما زادني شرفاً وتيهياً وكادت بأخصي أطأ الشريا
دخولي تحت قولك : يا عبادي وإن صيرت أحمد لي نيبا

فيكفي المتواضعين شرفاً وفخراً أن الله وصفهم بالعبودية له سبحانه .

ومع ذلك لم يقتصر التنويه بهم والثناء عليهم ، بل لقد أبان - ﷺ - عن محبته لهم ، ومحبتهم له ، حيث قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ۗ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكٰفِرِينَ ۗ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۗ ذٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ (١) ، وقد وشح المحبة المتبادلة بذكر الصفات الإيمانية الموجبة لمحبهه لهم ، وكان من أبرز تلك الصفات اتصافهم بالتواضع المعبر عنه بقوله - ﷺ - : ﴿ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكٰفِرِينَ ﴾ (٢) .

قال ابن كثير - رحمه الله - :

« هذه صفات المؤمنين الكمل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه ، متعزراً على خصمه وعدوه ، كما قال تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۗ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكٰفِرِينَ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (٣) » (٤) .

فتبين من هذه الآيات المكانة السامية للمتواضعين عند الله ، وهي المكانة التي أشار إليها النبي - ﷺ - بقوله : « . . . وما تواضع أحد لله إلا رفعه » (٥) .

(١) سورة المائدة ، آية (٥٤) .

(٢) سورة المائدة ، آية (٥٤) .

(٣) سورة الفتح ، آية (٢٩) .

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣ / ١٣٦) .

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب البر والصلة ، باب استحباب العفو والتواضع (٤ / ١٥٨٨) برقم

(٢٥٨٨) .

ولئن كان التواضع أحد أسس أخلاق المؤمن فإنه أيضاً تاج أخلاق النبيين والمرسلين ؛ لما يعنيه من الانكسار بين يدي رب العالمين ، وحسن التعامل مع المؤمنين ، ولذلك أثنى الله تعالى به على أنبيائه فقال مثنياً عليهم : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴾ (١) ، أي : متواضعين (٢) . وهو وصف دائم لهم في العبادة والسلوك الفردي والاجتماعي كله ، ولذلك وصفهم الله تعالى بالعبودية له - سبحانه - والتي تعني كمال التواضع والإخبات له - جل شأنه - كما قال سبحانه : ﴿ وَادْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ (٣) ، وقال عن موسى وهارون - عليهما السلام - : ﴿ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤) ، وقال عن أيوب - عليه السلام - : ﴿ نَعَمْ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (٥) ، إلى غير ذلك من الآيات . وقال عن نبينا محمد - ﷺ - : ﴿ سَبَّحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ . . . ﴾ (٦) .

فكلهم متحقق بالعبودية الكاملة لله تعالى التي تعني كمال الخضوع والتواضع لله - ﷻ - ولعباد المؤمنين .

لهذا فقد كان أنبياء الله وصفوته من خلقه فيما بينهم من الأدب قمة في التواضع والاحترام وعدم التكبر والترفع ، يظهر هذا الخلق في أسمى صورته ، وأجمل مواقفه بلا تكلف ولا تصنع ، سجيّة نبوية ، عالية المقام ، ثابتة الأركان ، ولا ريب أن خلق وأدب الأنبياء فيما بينهم جاء على أتم صفة ، وأكمل وجه من حيث المكارم والقيم والأخلاق .

ولقد جاءت في القرآن الكريم صور من تواضع الأنبياء فيما بينهم ورحمتهم لبعض ما

(١) سورة الأنبياء ، آية (٩٠) .

(٢) تفسير الجلالين ص (٣٢٩) .

(٣) سورة ص ، آية (٤٥) .

(٤) سورة الصافات ، آية (١٢٢) .

(٥) سورة ص ، آية (٤٤) .

(٦) سورة الإسراء ، آية (١) .

يجعلنا نحرص كل الحرص على الاقتداء بهم ، والتأسي بأخلاقهم ، وجعل هذه الصور والمواقف نصب أعيننا ومدار حديثنا ، وفي واقعنا لمحيثها في أسمى صورة ، وأروع حلة ، تليق بمقام النبوة العالي .

فمن المواقف التي تدل على تواضع الأنبياء ما ذكره القرآن حكاية عن موسى - عليه السلام - حين كلمه الله في الوادي المقدس طوى ، واختياره ليكون رسوله إلى فرعون وملأه ليقيم عليهم الحجة ، ويظهر لهم البينة ، ويدعوهم إلى عبادة الله وتوحيده .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ۚ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢١﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدَبِّرًا لَّمْ يَعْقِبْ يَمُوسَىٰ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ ﴿٢٣﴾ أَسْلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بِيضًا مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَكَ بَرَهْنَانٍ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٢٥﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۚ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٢٦﴾ ﴿١﴾ ، فانظر إلى تواضعه - عليه السلام - وجميل أدبه في قوله : ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۚ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ ﴿٢٦﴾ ، فبرغم هذا المقام العظيم ، والمنزلة

العالية التي نالها موسى - عليه السلام - من تكليم الله له أولاً ثم اختياره للرسالة التي هي أعظم وأشرف مهنة على وجه الأرض وأصحابها أعظم الخلق على الله . وهذه أمور من شأنها أن تعظم نفس الإنسان بداخله ، وتشعره بعلو قدره ومنزلته عند الله . أقول برغم هذه المعاني والأمور إلا أن تواضع موسى - عليه السلام - كان حاضراً في أسمى صورته ، وأرق معانيه حين

(١) سورة القصص ، آية (٢٩ - ٣٤) .

اعترف بفصاحة أخيه هارون - عليه السلام - وأنه أفضل منه في لغة البيان وفصاحة اللسان ، وأنه في حاجته لتقوية حضوره ومساندته في دعوته لفرعون وقومه .

يقول ابن كثير :

« وَأَحْلَلَ عَقْدَةَ مَنْ لُسَانِي ﴿٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ » (١) ، أي : يؤنسي فيما أمرتني به من هذا المقام العظيم ، وهو القيام بأعباء الرسالة والنبوة إلى هذا الملك المتكبر الجبار العنيد ، ولهذا قال : ﴿ وَأَخِي هَرُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ﴾ (٢) أي : وزيراً ومعيناً ومقرباً لأمرى يصدقني فيما أقوله وأخبر به عن الله - لأ - ؛ لأن خبر اثنين أنجع في النفوس من خبر الواحد ، ولهذا قال : ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ (٣) .

فهذا موقف عظيم لم تنس هيئته وجلاله أن يتواضع موسى لأخيه - عليه السلام - ، بل ومع هذا التواضع فقد جمع فيه نعمة لأخيه هارون حين سأل الله - عز وجل - أن يجعله نبياً مثله ، « ولهذا قال بعض السلف : ليس أحداً أعظم منة على أخيه من موسى على هارون - عليه السلام - ، فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبياً رسولاً معه إلى فرعون وملاه . ولهذا قال الله تعالى في حق موسى - عليه السلام - : ﴿ وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾ (٢) « (٣) .

ولا يعني هذا أن موسى - عليه السلام - لم يكن فصيحاً ، حاشا وكلا ، وهو نبي الله وكليمه ، وأحد أولي العزم من الرسل ، ونحن نعلم أن رسالة الأنبياء - عليهم السلام - إنما هي قائمة على الدعوة والتبليغ ، وهذه الدعوة لا بد لها من فصاحة في اللسان وقدرة على البيان ، وهي من أسس نجاح الدعوة النبوية ، وأحد وسائل إيصالها إلى الناس ، ولا يمكن أن

(١) سورة طه ، آية (٢٧ - ٣٢) .

(٢) سورة الأحزاب ، آية (٦٩) .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢٣٦/٦) .

يتصور نبي من أنبياء الله غير فصيح في لسانه ، قوي في حجته وبيانه ، بتوفيق ورعاية ودعم من الله - ﷻ - وإلهام منه .

يقول الألوسي :

« وفي قوله : ﴿ هُوَ أَفْصَحُ ﴾ دلالة على أن فيه - عليّاً - فصاحة ولكن فصاحة أخيه أزيد من فصاحته » (١) .

فهذا مثال واضح وصريح على تواضع نبي الله موسى مع أخيه هارون - ﷻ - بحضرة الله - سبحانه - وعلى ملام منه ، وهذا مما زاد صورة هذا التواضع بهاء وقدسية وجمالاً وجلالاً .

كذلك من صور تواضع الأنبياء فيما بينهم في القرآن الكريم قصة داود وسليمان - ﷻ - في الحكم والقضاء على قضية الحرث والغنم التي وردت في سورة الأنبياء .

قال الله - ﷻ - : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (٢) .

وقبل أن أذكر هذا الموقف وهذه القصة لا بد أن أبين أن الله - ﷻ - قد آتى نبيه داود - عليّاً - من نعمه الكثيرة ، وأخبرنا عن بعض ما آتاه في القرآن الكريم من إتيانه الملك والحكمة والعلم ، كما قال تعالى : ﴿ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ (٣) ، وكذلك فقد آتاه الحكمة وفصل الخطاب كما قال تعالى : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ الْخِطَابِ ﴾ (٤) ، لهذا فقد شد الله ملك داود وقواه

(١) روح المعاني (٣٨٢/٢٠) .

(٢) سورة الأنبياء ، آية (٧٨ - ٧٩) .

(٣) سورة البقرة ، آية (٢٥١) .

(٤) سورة ص ، آية (٢٠) .

وثبته ومنحه كل ما يحتاجه من وسائل القوة والثبوت من المال والرجال والعتاد والسلاح والدروع والتشريع ، كما قال الإمام ابن كثير : « **شَدَدْنَا مُلْكَهُ** » جعلنا له كاملاً من جميع ما يحتاج إليه الملوك « (١) .

(ومن مظاهر شد الله لملكه ما آتاه من الحكمة وفصل الخطاب ، وقد أورد الإمام ابن كثير أقوال بعض السلف في معنى الحكمة منها :

« قال مجاهد : الحكمة هي : الفهم والعقل ، والعدل والصواب . وقال قتادة : الحكمة هي : كتاب الله ، واتباع ما فيه . وقال السدي : الحكمة هي النبوة » (٢) .

وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة ، وهي من الحكمة ، فالنبوة من الحكمة ، وكتاب الله من الحكمة ، واتباع تطبيق ما فيه من الحكمة ، وقد أوتي داود - **عليه السلام** - الزبور ، ومن الله عليه بالشرعية ، ونتج عن النبوة والشرعية وكتاب الله فهم داود - **عليه السلام** - وفطنته ، وحكمه بالعدل ، وقوله بالحق والصواب .

فهذه بعض مظاهر الحكمة التي آتاه الله إياها ، فاستفاد منها وقدم بها النفع والخير لأُمَّته .

قال الراغب عن الحكمة :

« **حَكَمَ** : أصله منع منعاً لإصلاح . . . والحكم بالشيء : أن تقضي بأنه كذا ، أو ليس بكذا .

والحكمة : إصابة الحق بالعلم والعقل .

فالحكمة من الله معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الأحكام ، والحكمة من الإنسان : معرفة الموجودات وفعل الخيرات « (٣) .

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٥٨/٧) .

(٢) المصدر السابق (٥٩/٧) .

(٣) المفردات ص (٢٤٨) .

وبما أن الله تعالى قد آتى داود - عليه السلام - الحكمة فقد كان حكيماً في نفسه يتمتع بالفطنة والفهم والذكاء والفقہ والعلم ، وكان - عليه السلام - حكيماً مع قومه يقضي بينهم بالحكمة ، ويحكم فيهم بالحق والصواب ، وكان حكمه وقضاؤه يمنع الفساد ، ويحقق الخير والصلاح . لهذا فقد نشأ عن هذه الحكمة في نبي الله داود - عليه السلام - فصل الخطاب ، وهو ما بينته الآية في قوله تعالى : ﴿ **وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ** ﴾ (١) .

قال الراغب :

« وفصل الخطاب : ما فيه قطع الحكم . . . وحكم فيصل . . . » (٢) .

وهذه شهادة من الله تعالى لنبيه داود - عليه السلام - بموهبته في الحكم والقضاء ، حيث كان يحكم بين الناس بشرع الله ، ويقضي بين المتخاصمين والمتنازعين بالحكمة التي آتاه الله إياها .

لهذا فقد كانت أحكامه وأقضيته - عليه السلام - صائبة صحيحة ، كيف لا وهو النبي المؤيد من الله ، المعصوم بعصمة الله له ، وكانت أحكامه وأقضيته تؤدي إلى فصل الخطاب وقطع الخلاف وإنهاء النزاع .

« قال مجاهد والسدي : فصل الخطاب هو : إصابة القضاء وفهمه » (٣) (٤) .

قال الألوسي :

« **وَفَصَّلَ الْخِطَابِ** ﴾ أي : فصل الخصام بتمييز الحق عن الباطل ، فالفصل بمعناه المصدرى والخطاب الخصام ؛ لاشتماله عليه ، أو لأنه أحد أنواعه خص به ؛ لأنه المحتاج للفصل أو الكلام الذي يفصل بين الصحيح والفساد ، والحق والباطل ، والصواب والخطأ ،

(١) سورة ص ، آية (٢٠) .

(٢) المفردات ص (٦٣٨) .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٥٩/٧) .

(٤) القصص القرآني ، للدكتور صلاح الخالدي (٤٤٢/٣) .

وهو كلامه - عليّ عليه السلام - في القضايا والحكومات وتدبير الملك والمشورات « (١) .

وكان يساعد داود - عليّ عليه السلام - في أقضيته وأحكامه ابنه سليمان - عليّ عليه السلام - الذي آتاه الله الحكمة والعلم أيضاً ، فأضاف حكمته إلى حكمة أبيه ، وعلمه إلى علمه ، وإذا دعت الحاجة إلى الاستدراك على أبيه في حكمه كان يفعل ، ويبين ويصحح ، وكان أبوه يتقبل ذلك برضى نفس ، ويمضي حكم ابنه وقضائه ، وهذا من أدبه - عليّ عليه السلام - وتواضعه وكرم خصاله ومحبته للحق وأهله .

لهذا فإن من مواطن أدب داود - عليّ عليه السلام - وتواضعه ، تلك الآيات التي ذكرتها قبل ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴿ (٢) .

فهذه الآيات تشير إلى حادثة وقعت في عهد داود - عليّ عليه السلام - ، حيث كان لأحدهم حرثاً دخلت فيه غنم لآخرين ، فنفشت فيه ورعته وأكلته وأفسدته .

فذهب صاحب الحرث إلى داود - عليّ عليه السلام - واشتكى صاحب تلك الغنم ، وطالب إنصافه ، وأخذ حقه منه .

« والحرث : إلقاء البذر في الأرض وهيؤها للزرع ، ويسمى المحرث حرثاً كما في قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَرِيمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ (٣) .

والنفس : نشر الصوف ، قال تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ

﴿ (٤) أي : كالصوف المنشور .

(١) روح المعاني (٢٣ / ٢٣٥) .

(٢) سورة الأنبياء ، آية (٧٨ - ٧٩) .

(٣) سورة القلم ، آية (٢٢) .

(٤) سورة القارعة ، آية (٥) .

ونفس الغنم : انتشارها ، والتَّفَش - بفتح الفاء - : الغنم المنتشرة ، قال تعالى : ﴿ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ ﴾ (١) .

والإبل النوافش : المترددة ليلاً في المرعى بلا راع » (٢) .

وفي المعجم الوسيط :

« نفست الماشية في الزرع انتشرت فيه ورعته ليلاً ، قال تعالى : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ ﴾ (٣) ، وأنفس الراعي الماشية : أرسلها بالليل ونام عنها » (٤) .

« إذن فقد أخبر الله أن المتخاصمين جاء إلى داود - عليهما السلام - ليحكم بينهم في مسألة رعي غنم أحدهما زرع الآخر ليلاً ، وكان سليمان - عليهما السلام - فيما يبدووا حاضراً مجلس القضاء ، فلما حكم داود - عليهما السلام - بين المتخاصمين ، وعلم ابنه سليمان هذا الحكم ؛ استدرك على أبيه هذا الحكم ، وحكم بحكم آخر » (٥) .

وقد روى الإمام الطبري بسنده عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : « أن رجلين دخلا على داود ، أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم ، فقال صاحب الحرث : إن هذا أرسل غنمه في حرثي فلم يبق من حرثي شيئاً ، فقال له داود : اذهب فإن الغنم كلها لك ، ففضى بذلك داود ، ومر صاحب الغنم بسليمان فأخبره بالذي قضى به داود ، فدخل سليمان على داود فقال : يا نبي الله إن القضاء سوى الذي قضيت ، فقال : كيف ؟ قال سليمان : إن الحرث لا يخفى على صاحبه ما يخرج منه في كل عام ، فله من صاحب الغنم أن يبيع من أولادها وأصوافها وأشعارها حتى يستوفي ثمن الحرث ، فإن

(١) سورة الأنبياء ، آية (٧٨) .

(٢) المفردات للراغب ص (٢٢٦) .

(٣) سورة الأنبياء ، آية (٧٨) .

(٤) المعجم الوسيط ص (٩٤٠) .

(٥) القصص القرآني ، للدكتور صلاح الخالدي (٤٤٥/٣) .

الغنم لها نسل في كل عام ، فقال داود : قد أصبت ، القضاء كما قضيت ، ففهمها الله سليمان » (١) .

فانظر إلى تواضع نبي الله داود - عليهما السلام - وأدبه ومحبته للحق ، وعدم المكابرة فيه ، فإنه لم ينتقص من سليمان ؛ لكونه ابنه ، وهو الأب ، ولم يستصغر سنّه ، ولم تأخذه العزة بالإثم فيعنف سليمان ويلومه ويذمه على تعديه على أحكامه ، ويتهمه بتهمة النيل من قدره ومن مقام ملكه ونبوته ، بل وافق ابنه سليمان وصوّبه بتواضع جم ، وأدب عظيم ، واعتراف بالحق وأهله .

يقول ابن عاشور :

« فهذه القضية التي تضمنتها الآية مظهر من مظاهر العدل ومبالغ تدقيق فقه القضاء ، والجمع بين المصالح والتفاضل بين مراتب الاجتهاد واختلاف طرق القضاء بالحق مع كون الحق حاصلًا للمحقق ، فمضمونها أنها الفقه في الدين الذي جاء به المرسلون من قبل » (٢) .

وقد أثنى الله على سليمان في حكمه بقوله بعد ذلك :

﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ أي فهمنا سليمان القضية ، وأرشدناه إلى أن يحكم فيها الحكم الأصوب والأكمل ، ولا يعني هذا أن حكم نبي الله داود خطأ ! حاشا وكلا ، فلقد أثنى الله أيضًا على داود في سياق هذه القصة بقوله : ﴿ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ (٣) .

« لقد اتجه داود في حكمه إلى مجرد التعويض لصاحب الحرث ، وهذا عدل فحسب ، ولكن حكم سليمان تضمن مع العدل البناء والتعمير ، وجعل العدل دافعًا إلى البناء والتعمير ، وهذا هو العدل الحي الإيجابي في صورته البانية الدافعة ، وهو فتح من الله وإلهام يهبه من يشاء .

(١) تفسير الطبري (٥٠/٩) .

(٢) التحرير والتنوير (١١٦/١٧) .

(٣) سورة الأنبياء ، آية (٧٩) .

ولقد أوتي داود وسليمان كلاهما الحكمة والعلم ، وليس في قضاء داود من خطأ ، ولكن قضاء سليمان كان أصوب ؛ لأنه من نبع الإلهام » (١) .

ولهذا جاء التعبير القرآني بكلمة ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ مواتياً للسياق .

قال الراغب :

« الفهم : هيئة للإنسان بما يتحقق معاني ما يحسن ، يقال : فهمت كذا .

وقوله : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ وذلك بأن الله إما جعل له من فضل قوة الفهم والإدراك ما أدرك به ذلك ، وإما بأن ألقى ذلك في روعه أو بأن أوحى إليه وخصه به .

وأفهمته : إذا قلت له حتى تصوره » (٢) .

فهذه صورة مضيئة من تواضع الأنبياء - عليهم السلام - تجدر بنا أن نقتدي بها ، ونتأسى بها ؛ حتى نسعد بذلك في الدنيا والآخرة .

هذا في التواضع ولين الجانب ، وأما التراحم فيما بين الأنبياء فهو خلق من الأخلاق النبوية العظيمة ، والآداب السلوكية الكريمة المجبولين عليها فطرة ، المتخلقين بها سليقة لا سيما وأنها صفة من صفات الحق - تبارك وتعالى - التي وصف بها نفسه كثيراً في كتابه الكريم ، وحثّ عليها خلقه ، فكان أول من تخلق بها واتصف بها أنبياء الله الكرام ورسله العظام ، الذين أرسلهم الله للخلق ، فكشف بهم الظلمة ، وأزاح بهم الغمة ، وجعلهم رحمة للعالمين ؛ وذلك لما في بعثهم من الهداية إلى دين الله ، والدلالة على معالم دينه وطريقه المستقيم ، الذي من سلكه هدي إلى النعيم المقيم ، ومن حاد عنه ذهب إلى الجحيم .

ومن أعظم صور هذه الرحمة النبوية تراحمهم فيما بينهم ، وخوفهم وشفقتهم على بعضهم ، ودعاؤهم لبعضهم ، وكل هذا مردّه إلى محبتهم لبعضهم البعض ؛ كونهم إخوة في

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤ / ٢٣٨٩) .

(٢) المفردات ص (٦٤٦) .

الدين والرسالة ، متحدين في الهداية والدلالة ، وظيفتهم في هذه الحياة إقرار التوحيد في الأرض ، والسعي إلى نجاة الخلق يوم العرض .

ولم يصرح القرآن بكثير مواقف وقصص لهؤلاء الأنبياء - عليهما السلام - في هذا الجانب ، إلا أنه من خلال قراءة كتاب الله وتتبع قصص أنبيائه وتدبر وقائع هذه القصص ومجرياتها يتضح لك مدى التراحم العظيم ، والطبع الرحيم الذي جُبلَ عليه هؤلاء الصفوة من الخلق - عليهم أفضل صلاة وأزكى تسليم - .

فمن مواقف تراحم الأنبياء : ما قصه الله لنا في كتابه الكريم عن نبيه الخليل إبراهيم - عليهما السلام - في حادثة قوم لوط - عليهما السلام - وذلك عندما استنصر لوط - عليهما السلام - الله على قومه ، فبعث إليه لنصرته ملائكة فمروا على إبراهيم - عليهما السلام - في هيئة أضياف ، ولما قام بواجبهم وأراد ضيافتهم ورآهم لا يأكلون الطعام نكرهم وأوجس منهم خيفة ، فبينوا له حقيقة الأمر أولاً ببشارة له أن الله يبشره بقدم مولود صالح له من امرأته العجوز ، والأمر الثاني تبين له بوقوع العذاب على قوم لوط بقوله تعالى في كتابه الكريم : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلْنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ (١) .

في هذه الآية وفي هذا الموقف يظهر لك مدى رحمة إبراهيم - عليهما السلام - وخوفه وشفقته على نبي الله لوط ؛ إذ أنه خشي أن يلحقه أذى من هذا العذاب ، فأراد تنبيهه الملائكة إلى وجود رجل صالح مؤمن لا يستحق هذا العذاب ، ولا يستحق هذا المال .

يقول سيد قطب :

« وأدركت إبراهيم رفته ورأفته ، فراح يذكر الملائكة أن في هذه القرية لوطاً ، وهو صالح وليس بظالم .

(١) سورة العنكبوت ، آية (٣١ - ٣٢) .

وأجابه الرسل بما يطمئنه من ناحيته ، ويكشف لهم عن معرفتهم بمهمتهم ، وأنهم أولى بهذه المعرفة « (١) .

وقال الألوسي :

« وقيل : يجوز أن يكون - عليّ - علم ما أشاروا إليه من عدم تناول أهل القرية إياه لكنه أراد التنصيص على حاله ليطمئن قلبه لكمال شفقتة عليه . . .

وفهم إبراهيم - عليّ - ما أراده الملائكة وعلم أن لوطاً ليس من المهلكين إلا أنه خشي أن يكون هلاك قومه وهو بين ظهرانيتهم في القرية فيوحشه ذلك ويفزره .

ولعله - عليّ - غلب على ظنه ذلك ، حيث لم يتعرضوا لإخراجه من قرية المهلكين مع علمهم بقرابته منه ، ومزيد شفقتة عليه ، فقال : ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ﴾ على سبيل التحزن والتفجع ، وجل قصده أن لا يكون فيها حين الإهلاك ، فأخبروه أولاً بمزيد علمهم به ، وأفادوه ثانياً بما يسره ويسكن جأشه « (٢) .

ولهذا فإن قوله - عليّ - ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ﴾ دليل على رأفته ورحمته ، ورقة قلبه ، وهذا ما يجب للمؤمن من التحزن لأخيه ، وهذا هو ما حملة على المجادلة فيهم ؛ رجاء أن يرفع عنهم العذاب ، ويمهلوا ؛ لعلهم يحدثون توبة أو إنابة .

نعم ، هذه صورة جميلة مؤثرة تبين لك مدى الرحمة والشفقة التي سكنت قلب الخليل - عليّ - على نبي الله لوط - عليّ - . وقبل ذلك على قومه من أجل إمهالهم حتى يتوبوا وألا يستعجلوا - أي : الملائكة - في إنزال العقاب بهم ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ

(١) في ظلال القرآن (٥/٢٧٣٤) .

(٢) روح المعاني (٢٠/٤٨٢ - ٤٨٣) .

عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ (١) .

وتدبر آية : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُنِيبٌ ﴾ ﴿٧٥﴾ لتُظْهِرَ لَكَ جَانِبًا مِنْ شَخْصِيَّةِ الْخَلِيلِ - عَلِيٍّ - يَمْلَأُهُ الشَّفَقَةُ وَالرَّحْمَةُ وَالْحَنَانُ وَمَحَبَّةُ الْخَيْرِ وَرَقَّةُ الطَّبَعِ .

قال الألوسي :

« ﴿ أَوَّهٌ ﴾ كثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس ﴿ مُنِيبٌ ﴾ أي : راجع إلى الله تعالى ، والمقصود من وصفه - عَلِيٍّ - بهذه الصفات المنبثقة عن الشفقة ورقة القلب بيان ما حمّله على ما صدر عنه من المجادلة » (٢) .

وهكذا يتضح لنا نموذج من نماذج تراحم الأنبياء فيما بينهم ، وهو نموذج نبوي عظيم ، وقدوة في هذا الأمر لمن بعده من الصالحين .



(١) سورة هود ، آية (٧٤ - ٧٦) .

(٢) روح المعاني (٤١٧/١٢) .

الفصل الثاني

أدبهم - عليهم الصلاة والسلام - مع خاصتهم وأتباعهم من أقوامهم ومن غيرهم

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : أدبهم - عليهم الصلاة والسلام - مع ذوي
القربى .

المبحث الثاني : أدبهم - عليهم الصلاة والسلام - مع أتباعهم
من أقوامهم ومن غيرهم .

المبحث الأول

أدبهم - عليهم الصلاة والسلام - مع ذوي القربى

ذوو القربى : هم الأقارب الذين تجمعهم رحم واحدة ، سواء كانوا من جهة الأب أو من جهة الأم ، ويسمون بالأرحام ؛ لأن الرحم اسم لمكانة الأقارب من غير فرق بين المحرم وغيره .

قال الراغب عند تفسيره للرحم :

« ومنه استعير للقرابة ؛ لكونهم خارجين من رحم واحدة » (١) .

فعلم أن الأقارب والأرحام بمعنى واحد .

وحسن معاملة الأقارب والأرحام عني بها القرآن كثيراً ؛ لعظم شأنها بين المؤمنين ؛ « لأن القرابة مظنة الاتحاد والألفة والرعاية والنصرة ، فلو لم يحصل شيء من ذلك لكان أشق على القلب وأبلغ في الإيلام ، والإيماش والضرورة » (٢) .

ولا يتم كل ذلك إلا بالإحسان إليهم ، والصبر على ما يجري منهم ، والحلم عن إساءتهم ، وإظهار الود لهم ، فلذلك حث الله تعالى على الإحسان إلى الأقارب والأرحام ونوه بالقائمين به ، وحذر من تركه أو التهاون به .

أما الحث عليه ففي مثل قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ (٣) .

(١) المفردات ص (٣٤٧) .

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي (٥٨٧/٣) .

(٣) سورة البقرة ، آية (٨٣) .

والآية وإن كانت تتحدث عن بني إسرائيل ، فإنها تشمل المؤمنين بالأولى .

وقد خاطب الله تعالى المؤمنين بآيات عدة بأسلوب الأمر الصريح ، أو التهيب الشديد ، وذلك كما في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (١) .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا ﴾ (٢) .

فهذه الأوامر الإلهية تلزم المؤمنين بالإحسان إلى أقاربهم ، والإحسان إليهم اسم عام شامل ، يشمل كل ما يكون فيه رضا لهم ، وبرهم ، وعطف على أحوالهم وشؤونهم ، ولذلك أهمه ليشمل كل مسمى الإحسان ، جليله وحقيقه ، ولتذهب النفس في تفسيره أي مذهب ، فإنها ستبر بذلك .

وقد نص الله - تعالى - على بعض صور الإحسان إليهم في آيات أخرى ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ (٣) .

فإن هذه الآية تأمر المؤمنين عن قسمة موارثهم أن يصلوا أرحامهم ويتامهم ومساكينهم من الوصية ، فإن لم تكن وصية ، وصل لهم من الميراث (٤) شيئاً يرضون به ، ويكسب في قلوبهم الود والمحبة .

ومع كون صلة الرحم والإحسان إلى الأقارب قد جعله الله حقاً ثابتاً لبعضهم على

(١) سورة النساء ، آية (١) .

(٢) سورة الإسراء ، آية (٢٦) .

(٣) سورة النساء ، آية (٨) .

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٤٩/٥) .

بعض ، فإن الله - تعالى - قد بالغ في الثناء على الواصلين أرحامهم وأقاربهم ، وبالتنويه بهم ورتب على ذلك مثوبات جسيمة ينالها الواصلين أرحامهم في دار كرامته ، وذلك كما في قوله - جل شأنه - : ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَعُونَ بِالْحَسَنَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ (١) .

وفي هذه الآيات من بالغ الثناء وكريم الوعد ما لا يفرط فيه إلا محروم .

ولهذا فإن من فرط في نفع نفسه بأن أضاع حقوق أقاربه ورضن عليهم بما يحتاجونه من متاع الحياة الدنيا ، فإنه يكون قاطعاً لرحمه ، معرضاً نفسه لغضب الله تعالى وسخطه ، كما دل عليه ذلك الوعيد الشديد في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٢) .

ففي هذه الآية وعيد شديد لمن يفرط في وصل رحمه وأقاربه ؛ إذ توعدده الله بالطرد والإبعاد ، وبسوء المصير .

وقد تكرر هذا الوعيد بأسلوب أقسى في قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطُّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٣) .

(١) سورة الرعد ، آية (٢١ - ٢٤) .

(٢) سورة الرعد ، آية (٢٥) .

(٣) سورة محمد ، آية (٢٢ - ٢٣) .

« فإن في هذه الآية إشعاراً بأن الفساد في الأرض وقطيعة الرحم من شعار أهل الكفر ، فهما جرمان كبيران يجب على المؤمنين اجتنابهما » (١) ، ولهذا فقد كان الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - المثل الأعلى ، والقدوة المثلى في حسن أدبهم وتعاملهم مع ذوي أرحامهم وقرباتهم .

فمن صور أدب الأنبياء الرفيع مع ذوي القربى ما حكاه الله لنا في سورة يوسف - عليه السلام - من أدب نبي الله يعقوب - عليه السلام - مع أبنائه الذين طالما أحزنوه وآذوه في بنيه وهو مع هذا كله صابراً محتسباً متحلياً بأدب النبوة وشمائل الأنبياء ، فلم يعنفهم يوماً ، ولم يدع عليهم ، ولم يقاطعهم أو يؤذيههم ، بل صبر معهم وصابر ، واحتسب وظفر ، حتى ختم الله له بالعاقبة الحسنى ، فرجع له أبنائه المفقودين ، وصلاح حال أبنائه الموجودين ، وكل ذلك إنما جاء ثمرة للأدب الراقي والخلق النبوي العظيم ، الذي تعامل به نبي الله يعقوب مع أبنائه المخطئين .

فمن مشاهد أدب نبي الله يعقوب مع أبنائه ، مشهد طلب أبنائه منه أخذ يوسف ؛ لكي يذهبون به فيلعب معهم .

قال تعالى : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنُصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبَ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لِيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (٢) .

يقول الإمام الطبري - رحمه الله - : -

« يقول تعالى ذكره : قال إخوة يوسف إذ تأمروا بينهم ، وأجمعوا على الفرقة بينه وبين والده يعقوب ، لوالدهم يعقوب : ﴿ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ﴾ فتركه

(١) التحرير والتنوير (١١٣/٢٦) .

(٢) سورة يوسف ، آية (١١ - ١٤) .

معنا إذا نحن خرجنا خارج المدينة إلى الصحراء ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُون ﴾ ﴿١١﴾ نحوطه ونكلؤه ، فسألوا أباهم إرسال يوسف معهم وخذعوه بالخبر عن مسألتهم إياه ذلك ، عما ليوسف في إرساله معهم من الفرح والسرور ، والنشاط بخروجه إلى الصحراء ، وفسحتها ولعبه هناك ، لا بالخبر عنهم .

فقال يعقوب لهم : إني ليحزني أن تذهبوا به معكم إلى الصحراء مخافة عليه من الذئب أن يأكله وأنتم عنه غافلون لا تشعرون . فقال إخوة يوسف لوالدهم يعقوب : لئن أكله الذئب في الصحراء ، ونحن أحد عشر رجلاً معه نحفظه وهم العصابة ﴿ إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ ﴾ ﴿١٤﴾ يقول : إنا إذا لعجزة هالكون « (١) .

وقال الرازي - رحمه الله - :

« اعلم أن هذا الكلام يدل على أن يعقوب - عليه السلام - كان يخافهم على يوسف ، ولولا ذلك لما قالوا هذا القول ، واعلم أنهم لما أحكموا العزم ذكروا هذا الكلام ، وأظهروا عند أبيهم أنهم في غاية المحبة ليوسف ، وفي غاية الشفقة عليه ، وكانت عادتهم أن يغيبوا مدة عنه إلى الرعي ، فسألوه أن يرسله معهم ، وقد كان - عليه السلام - يحب تطيب قلب يوسف - عليه السلام - فاغتر بقولهم وأرسله معهم .

وقوله : ﴿ يَرْتَع ﴾ الارتعاء : للإبل والمواشي ، وقد أضافوه إلى أنفسهم ؛ لأن المعنى يرتع إبلنا ، ثم نسبوه إلى أنفسهم ؛ لأنهم السبب في ذلك الرعي . والحاصل أنهم أضافوا الارتعاء والقيام بحفظ المال إلى أنفسهم ؛ لأنهم بالغون كاملون ، وأضافوا اللعب إلى يوسف ؛ لصغر سنه - عليه السلام - ، وهذه بقراءة النون لابن كثير ، وقرأ نافع بالياء ، فأضاف الارتعاء إلى يوسف ، بمعنى أنه يباشر رعي الإبل ليتدرب بذلك ، فمرة يلعب ، ومرة يرتع كفعل الصبيان .

واعلم أنهم لما طلبوا من أبيهم يعقوب أن يرسل يوسف معهم اعتذر إليهم بشيئين :

(١) تفسير الطبري (١٥٧/٧) .

أحدهما : أن ذهابهم به ومفارقتهم إياه مما يحزنه ؛ لأنه كان لا يصبر عنه ساعة .

والثاني : خوفه عليه من الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم أو لعبهم ؛ لقلّة اهتمامهم به « (١) .

إذن من خلال هذا الحوار الذي دار بين يعقوب - عليّ - وبين أبنائه يتضح أن هناك صراع داخلي يدور في نفس يعقوب - عليّ - بين رغبته في حماية ابنه يوسف - عليّ - وخوفه عليه وحزنه لفراقه ، وخشيته من أن يصاب بأذى ، وكذلك رغبته في تلبية طلب أبنائه الآخرين في أخذ يوسف ، وانظر إلى أدبه - عليّ - في هذا الموقف وحيائه ورقة طبعه ، فإنه كان يخشى على يوسف منهم ، ويعلم مدى حسدهم وغيظهم لأخيهم بسبب حبه له ، ومع ذلك فلم يتهمهم بذلك ، ولم يجاههم صراحة ، ولم يخونهم ويشعرهم بخوفه على يوسف منهم ، بل إنه من أدبه في تعامله معهم اعتذر بأعذار هي في حقيقتها غير مانعة لذهاب يوسف معهم ، ومع ذلك الخوف فقد سعى لتلبية طلبهم وتحقيق رغبتهم .

وقد يكون في موافقته لهم في طلبهم على أخذ يوسف - عليّ - معهم رغبة منه في إزالة ما في نفوسهم من تحامل على أخيهم من خلال موافقته على اجتماعهم معاً بعيداً عن ناظره ، مما يدل على إشعاره لهم بثقته بهم ، وبجبههم لأخيهم ، وهذا فيه من أدب التعامل ، ورقة الطباع ما لا يخفى .

أيضاً من مشاهد أدب نبي الله يعقوب - عليّ - مع أبنائه ، مشهد عودتهم إليه دون أن يكون يوسف معهم ، وفي ذلك يقول الله تعالى :

﴿ وَجَاءُوا آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ۗ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۗ ۝﴾

(١) مفاتيح الغيب (١٨/٤٢٥) .

وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ (١) .

يقول ابن كثير - رحمه الله - :

« يقول تعالى مخبراً عن الذي اعتمده إخوة يوسف بعدما ألقوه في غيابة الجب : إهم رجعوا إلى أبيهم في ظلمة الليل ليكون ، ويظهرون الأسف والجزع على يوسف ، ويتغممون لأبيهم ، وقالوا معتردين عم وقع فيما زعموا : ﴿ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ أي : نترامى ، ﴿ وَتَرَكَنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا ﴾ أي : ثيابنا وأمتعنا ، ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّبُّ ﴾ وهو الذي كان قد جزع منه ، وحذر عليه .

وقولهم : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ ﴿١٧﴾ تلطف عظيم في تقرير ما يحاولونه ، يقولون : ونحن نعلم أنك لا تصدقنا - والحالة هذه - لو كنا صادقين ، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك ؛ لأنك خشيت أن يأكله الذئب ، فأكله الذئب ، فأنت معذور في تكذيبك لنا ؛ لغرابة ما وقع ، وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا .

﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ أي : مكذوب مفترى ، وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ما تمالئوا عليه من المكيدة ، وهم أنهم عمدوا إلى سَخْلَةٍ - فيما ذكره مجاهد ، والسدي ، وغير واحد - فذبحوها ، ولطخوا ثوب يوسف بدمها ، موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب ، وقد أصابه من دمه ، ولكنهم نسوا أن يخرقوه ، فلهذا لم يَرُج هذا الصنيع على نبي الله يعقوب ، بل قال لهم معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من تمالئهم عليه : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ ، أي : فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي قد اتفقتم عليه ، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه ، ﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ ﴿١٨﴾ أي : على ما تذكرون من الكذب والمحال « (٢) » .

(١) سورة يوسف ، آية (١٦ - ١٨) .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤ / ٣٧٥) .

وقال سيد قطب - رحمته - :

« لقد ألهاهم الحقد الفائر عن سبك الكذبة ، فلو كانوا أهدأ أعصاباً ما فعلوها منذ المرة الأولى التي يأذن لهم فيها يعقوب باصطحاب يوسف معهم ! ولكنهم كانوا معجلين لا يصبرون ، يخشون ألا تواتيهم الفرصة مرة أخرى . كذلك كان التقاطهم لحكاية الذئب المكشوفة دليلاً على التسرع ، وقد كان أبوهم يحذرهم منها أمس ، وهم ينفونها ، ويكادون يتحكمون بها ، فلم يكن من المستساغ أن يذهبوا في الصباح لتركوا للذئب الذي حذرهم أبوهم منه أمس ! ويمثل هذا التسرع جاءوا على قميصه بدم كذب لطخوه به في غير إتقان ، فكان ظاهر الكذب حتى ليوصف بأنه كذب . . . فعلوا هذا .

﴿ وَجَاءُوا آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ .

ويحسون أنها مكشوفة ، ويكاد المريب أن يقول خذوني ، فيقولون :

﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ أي : وما أنت بمطمئن لما نقوله ، ولو كان هو الصدق ؛ لأنك تشك فينا ولا تطمئن لما نقول .

وأدرك يعقوب من دلائل الحال ، ومن نداء قلبه ، أن يوسف لم يأكله الذئب ، وأنهم دبروا له مكيدة ما ، وأنهم يلفقون له قصة لم تقع ، ويصفون له حالاً لم تكن ، فواجههم بأن نفوسهم قد حسنت لهم أمراً منكرًا ، وذلته ويسرت لهم ارتكابه ، وأنه سيصير متحملاً متحملاً لا يجزع ولا يفزع ولا يشكو ، مستعيناً بالله على ما يلفقونه من حيل وأكاذيب :

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ (١) .

ويظهر لك هنا أيضاً أدب نبي الله يعقوب - عليه السلام - في أحلك الظروف ، وأصعب

(١) في ظلال القرآن (٤/١٩٧٥ - ١٩٧٦) .

المواقف ؛ إذ لم تدفعه هذه المحنة إلى سوء أدب وخلق أو تعنيف طرد بعد أن قدم أبناءه وليس معهم ابنه يوسف ، أعز أبنائه ، وأحبهم إليه ، وأقربهم إلى قلبه للدرجة التي جعلهم يجسدونه على هذا الحب ، وتلك المكانة في قلب أبيه ، ولهذا فقد سعوا إلى ارتكاب هذا المحذور وتلك الكبيرة بسبب الحسد ، حسد الإخوان ذلك الداء العضال الذي يذهب بالحسنات ويكثر الخطايا والسيئات ، ويحمل الشخص على عدم الإيمان بالرضا بالأقدار ، وعلى الاعتراض عليها ، ويفرق القرابة ، ويقطع الأرحام ، ويهد بنيان البيت ، ويقوض أركانه .

وعلى الرغم من هذا كله فإن يعقوب - عليه السلام - حملة أدبه مع أبنائه إلى الصبر على أذاهم ومكيدتهم في ابنه يوسف ، ولم يزد على أن قال : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ (١) .

« والتسويل : التسهيل والتزيين ، يقال : سولت لفلان نفسه هذا الفعل أي : زينته وحسنته له ، وصورته له في صورة الشيء الحسن مع أنه قبيح .

أي : قال يعقوب لأبنائه بأسى ولوعة بعد أن فعلوا ما فعلوا ، وقالوا ما قالوا : قال لهم ليس الأمر كما زعمتم من أن يوسف قد أكله الذئب ، وإنما الحق أن نفوسكم الحاقدة عليه هي التي زينت لكم أن تفعلوا معه فعلاً سيئاً قبيحاً ، ستكشف الأيام عنه بإذن ربي ومشيتته .

ونكر الأمر في قوله : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ لاحتتماله عدة أشياء ، مما يمكن أن يؤذوا به يوسف ، كالقتل ، أو التغريب ، أو البيع في الأسواق ؛ لأنه لم يكن يعلم على سبيل اليقين ما فعلوه به ، وفي هذا التنكير والإبهام - أيضاً - ما فيه من التسهيل والتشجيع لما اقترفوه في حق أحيهم .

وقوله : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أي : فصبري صبر جميل ، وهو الذي لا شكوى فيه

(١) سورة يوسف ، آية (١٨) .

لأحد سوى الله - تعالى - ، ولا رجاء معه إلا منه - سبحانه - .

ثم أضاف إلى ذلك قوله : ﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَيَّ مَا تَصِفُونَ ﴾ ﴿١٨﴾ أي : والله - تعالى - هو الذي أستعين به على احتمال ما تصفون من أن ابني يوسف قد أكله الذئب .
أو المعنى : والله - تعالى - وحده هو المطلوب عونه على إظهار حقيقة ما تصفون ، وإثبات كونه كذباً ، وأن يوسف ما زال حياً ، وأنه - سبحانه - سيجمعي به في الوقت الذي يشاؤه » (١) .

وهنا يتضح لك أدب نبوي عظيم ، وهو تخرج نبي الله يعقوب - عليه السلام - من اتهام أبنائه بالكذب ، رغم وجود دليل واضح وفاضح على كذبهم ، إلا أنه - عليه السلام - وجد أن هذا الدليل غير كافٍ فاكتفى بالتعريض بهم دون اتهامهم مباشرة ، ولجأ إلى الله في هذه المحنة الأليمة ، والمصاب الجلل ، فهو رغم عظيم مصيبته في فقد حبيب قلبه وابنه إلا أن أنه لم يتخذ أي عقاب ضد أبنائه ، باستثناء التعريض بهم ، فهو نبي حكيم عظيم ، ولا يحكم بالظن ، ويتنظر من الله - سبحانه - كشف هذه الحقيقة وإزالة هذه الغمة .

يقول السعدي (٢) - رحمه الله - :

« فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَيَّ مَا تَصِفُونَ ﴾ ﴿١٨﴾ أي : أما أنا فوظيفتي سأحرص على القيام بها ، وهي أني أصبر على هذه المحنة صبراً جميلاً سالماً من السخط والتشكي إلى الخلق ، وأستعين الله على ذلك ، لا على حولي وقوتي ، فوعد من نفسه هذا

(١) روح المعاني للألوسي (٥٣٩/١٢) .

(٢) هو : عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي ، ولد في عنيزة في القصيم سنة (١٣٠٧ هـ) ، توفي والده وهو صبي ، فكفلته زوجة أبيه ، وكانت تقدمه على أولادها ، وأدخلته مدرسة تحفيظ القرآن ، فحفظ القرآن وهو في الرابعة عشرة من عمره ، واشتغل في طلب العلم ، فقرأ الكتاب وحفظ المتون ثم تصدى للتعليم ، ونشر العلم حتى ذاع صيته ، من مؤلفاته : (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) ، و (القواعد الحسان لتفسير القرآن) ، و المواهب الربانية من الآيات القرآنية) ، و (التنبهات اللطيفة في ما احتوت الواسطية في المباحث المنيفة) وغيرها ، توفي - رحمه الله - في عنيزة سنة (١٣٧٦ هـ) . انظر : أصول التفسير ومناهجه للدكتور فهد الرومي ص (١٦٠ - ١٦١) .

الأمر وشكى إلى خالقه في قوله : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ (١) ؛ لأن الشكوى إلى الخالق لا تنافي الصبر الجميل ؛ لأن النبي إذا وعد وفى « (٢) .

لقد صبر يعقوب صبراً جميلاً على أبنائه المتآمرين الحاقدين الكاذبين ، وصبر صبراً جميلاً على فقدته ابنه الأثير يوسف ، وصبر صبراً جميلاً على ما سيواجهه ابنه من محن وبلايا ، وسيصبر صبراً جميلاً على أمل اللقاء بابنه وإن طال الزمان ، وسيستعين على ذلك كله بالله تعالى ؛ لأنه خير معين لعباده الصابرين المحتسبين .

وبهذا فقد يعقوب ابنه الحبيب إلى قلبه ، الأثير عنده ، فصبر وتحمل وتحمل ، وأمضى السنوات القادمة من عمره مع هؤلاء الأبناء المتآمرين ، وكله شوق للقاء يوسف ، وحزن كبير عميق على فقدته .

أيضاً من مشاهد أدب نبى الله يعقوب - عليهما السلام - مع أبنائه ، مشهد طلبهم أخذ أخيه بنيامين وإرساله معهم إلى مصر ، وذلك بعد أن طلبه يوسف - عليهما السلام - منهم (٣) .

وقد عرض لنا القرآن مشهد مرادتهم لأبيهم وما جرى بينه وبينهم في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَّكَتِلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ﴿١٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضَعَتِهِمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَعَتْنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ آخَانًا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿١٥﴾ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتِنِنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا تَقُولُ وَكَيْلٌ ﴿١٦﴾ وَقَالَ

(١) سورة يوسف ، آية (٨٦) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص (٣٩٥) .

(٣) في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِآخِ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمَ ۖ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفَى الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ ﴿٥٩﴾ [سورة يوسف ، آية (٥٩)] .

يَبْنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ

﴿ ١٧ ﴾ (١) .

إنك حين تتدبر هذه الآيات تجد المعاناة التي كان يعانها يعقوب - عليهما السلام - ، والخوف الذي ظل يسيطر عليه منذ فقد يوسف الذي فقد بسببه ثقته في أبنائه ، وظل طيلة تلك السنين وهو يتعامل معهم من مبدأ الشك والريبة والخوف على ابنه الآخر الذي هو شقيق يوسف - عليهما السلام - .

ولهذا لما دخل الأبناء على أبيهم سارعوا بإخباره الخبر المزعج ، وهو منع الكيل منهم ، لم يخبروه بحسن استقبال يوسف ، وإكرامه لهم ، وحسن ضيافته ، وإنما بدأوا بممارسة ضغط نفسي عليه ؛ ليأخذوا منه ما يريدون ، وهو الموافقة على إرسال أخيهم ، فأخبروه أنهم قد منعوا الكيل ، وهددهم عزيز مصر بعدم إعطائهم ما يريدون إن لم يحضروا معهم أحاهم .

يقول ابن كثير - رحمه الله - :

« يخبر تعالى عنهم أنهم رجعوا إلى أبيهم ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾ يعنون بعد هذه المرة ، إن لم ترسل معنا أخانا بنيامين ، فأرسله معنا نكتل .

وقرأ بعضهم (٢) : ﴿ يَكْتُلُ ﴾ بالياء ، أي : يكتل هو ، ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ

﴿ ١٣ ﴾ أي : لا نخف عليه فإنه سيرجع إليك ، وهذا كما قالوا له في يوسف : ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ ﴾ ﴿ ١٣ ﴾ (٣) « (٤) .

(١) سورة يوسف ، آية (٦٣ - ٦٧) .

(٢) قرأها حمزة والكسائي وخلف . انظر : المبسوط في القراءات العشر لابن مهران ص (٢٤٧) ، تحقيق : سبيع حاكمي ، طبعة مجمعة اللغة العربية بدمشق .

(٣) سورة يوسف ، آية (١٢) .

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٩٨/٤) .

حينها توجس خيفة يعقوب - عليه السلام - ، وخاف تكرار قصة يوسف ، وتذكر تلك المحنة ، وأضربت في قلبه مشاعر تلك المصيبة التي حلت به فقال لأبنائه : ﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل ، تغيبونه عني ، وتحولون بيني وبينه ؟ ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا ﴾ .

« وجواب أبيهم كلام موجه يحتمل أن يكون معناه : (إني آمنكم عليه كما آمنتمكم على أخيه) ، وأن يكون معناه ماذا أفاد ائتمانكم على أخيه من قبل حتى آمنكم عليه ، والاستفهام إنكاري فيه معنى النفي ، فهو يستفهم عن وجه التأكيد في قوله : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ، والمقصود من الجملة على احتمالها هو التفريع الذي في قوله : ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا ﴾ ، أي : خير حفظاً منكم ، فإن حفظه الله سلم ، وإن لم يحفظه لم يسلم ، كما لم يسلم أخوه من قبل حين آمنتمكم عليه » (١) .

فمن خلال هذا الحوار بين يعقوب وأبنائه يتضح لك الأدب النبوي حين رفض يعقوب - عليه السلام - إرسال ابنه معهم بداية الأمر ، متأثراً بتجربته السابقة عندما أرسل يوسف معهم ، وهو مع رفضه هذا يؤكد أن الحافظ الحقيقي هو الله ، والحامي من كل مكروه هو الله ، ولن ينفع حذر من قدر ، فعدم إرساله معهم لا يؤكد عدم حدوث مكروه له ، فالمكروه قد يقع عليه وهو عند أبيه وبقربه إذا ما أراد الله ذلك ، ولم ينس - عليه السلام - أن يشير إلى رحمة الله تعالى التي يرجو من خلالها عدم تكرار مصيبة يوسف - عليه السلام - مع أخيه بنيامين ، ولهذا وافق على إرساله معهم بعد أن أخذ عليهم العهود والمواثيق ، فقال لهم : ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِّي بِهِ - إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ (٢) .

يقول الألوسي :

(١) التحرير والتنوير (١٦/١٣) .

(٢) سورة يوسف ، آية (٦٦) .

« قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ » بعد أن عاينت منكم ما أجرى المدامع ﴿ حَتَّى تُؤْتُونَ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ ﴾ أي : حتى تعطوني ما أتوثق به من جهته ، فالموثق مصدر ميمي بمعنى المفعول ، وأراد - عليهما السلام - أن يخلفوا له بالله تعالى ، وإنما جعل الحلف به - سبحانه - موثقاً منه ؛ لأنه مما تؤكد العهود به وتشدد ، وقد أذن الله تعالى بذلك فهو إذن منه تعالى بذلك ، فهو إذن منه تعالى شأنه ﴿ لَتَأْتِنِّي بِهِ ﴾ جواب قسم مضمرة ، إذ المعنى حتى تحلفوا بالله وتقولوا : والله لنائينك به « (١) .

وانظر إلى رحمته بأبنائه - عليهما السلام - وأدبه معهم بموافقته إرسال ابنه معهم على الرغم من خوفه عليه ، وتوجسه منهم ، ورييته وعدم ثقته فيهم ، كل هذه الأمور لم تمنعه أن يرسل ابنه الآخر مرة أخرى بعد أن رأى أن حالهم تزداد سوءاً ، ويضيق بهم العيش ويجهدوا أشد الجهد ، لكنه فرق قلبه لهم ورأف بحالهم ، ووافق على إرسال ابنه معهم بعد أن أخذ منهم العهود والمواثيق والأيمان المغلظة ، وكأنه يتعلم من المرة السابقة التي لدغ فيها منهم بمصيبة يوسف .

بل إنه من أدبه معهم أنه ترك لهم في الأيمان التي حلفوها مخرجاً لهم ، باستثناء حالة الغلبة التي لا طاقة معها على الوفاء بالأيمان ، ولهذا قال لهم : ﴿ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ « ومعنى : ﴿ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ محيطة ، والإحاطة : الأخذ بأسر أو هلاك مما هو خارج عن قدرتهم ، وأصله إحاطة الجيش في الحرب ، فاستعمل مجازاً في الحالة التي لا يستطيع التغلب عليها « (٢) .

كذلك عندما انطلق أبناءه وأخوهم معهم ، قام بإعطائهم إرشادات لحمايتهم مما قد يضرهم ، وإمكانية الوصول إلى معلومات عن يوسف من خلال اتباع هذه التعليمات والإرشادات ، ومع هذا فقد أشار يعقوب - عليهما السلام - أن اتباع هذه الإرشادات لن تدفع المكروه إذا أَرَادَهُ اللهُ ، لكن على الإنسان أن يتخذ كافة الاحتياطات الضرورية ، ثم يتوكل

(١) روح المعاني (٢٠/١٣) .

(٢) التحرير والتنوير (١٩/١٣) .

على الله - سبحانه - الذي لن تمنع هذه الاحتياطات وقوع قدره إذا شاء ذلك - سبحانه - ، وفي هذا درس بليغ بالجمع بين التدابير البشرية والتوكل على الله في كل خطوة يخطوها الإنسان .

يقول سيد قطب - رحمته - :

« فيم كانت هذه الوصية ؟ لِمَ قال لهم أبوهم : ﴿ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾ ؟ تضرب الروايات والتفاسير في هذا وتبدي وتعيد بلا ضرورة ، بل ضد ما يقتضيه السياق القرآني الحكيم ، فلو كان السياق يجب أن يكشف عن السبب لقال ، ولكنه قال فقط ﴿ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾ (١) ، فينبغي أن يقف المفسرون عند ما أراده السياق ؛ احتفاظاً بالجو الذي أراده ، والجو يوحي بأنه كان يخشى شيئاً عليهم ، ويرى في دخولهم من أبواب متفرقة اتقاء لهذا الشيء مع تسليمه بأنه لا يغني عنهم من الله من شيء ، فالحكم كله إليه ، والاعتماد كله عليه ، إنما هو خاطر شعر به ، وحاجة في نفسه قضاها بالوصية ، وهو على علم بأن إرادة الله نافذة ، فقد علمه الله هذا فتعلم » (٢) .

ومن مشاهد أدب نبي الله يعقوب مع بنيه في قصة يوسف ، مشهد الحوار بينه وبينهم بعد رجوعهم إليه مرة أخرى بدون أخيهم ، وبعد أن استبقى يوسف - عليه السلام - أخيه بنيامين لديه في مصر .

وقد عرض لنا القرآن هذا المشهد في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْتَيْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا

(١) سورة يوسف ، آية (٦٨) .

(٢) في ظلال القرآن (٤ / ٢٠١٨) .

بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَأَلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ
الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ
عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ
يَأْسَفَى عَلَى يُونُسَ وَأَيُّضَتَ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَقْتَوُوا
تَذَكَّرُ يُونُسَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا
بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَبْنِي أَدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ
يُونُسَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ
الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴿١﴾ .

يقول الإمام الطبري :

« يعني تعالى ذكره : ﴿ فَلَمَّا أَسْتَيْسُوا مِنْهُ ﴾ فلما يتسوا منه من أن يخلى يوسف
عن بنيامين ، ويأخذ منهم واحداً مكانه ، وأن يجيبهم إلى ما سأله من ذلك .

﴿ أَسْتَيْسُوا ﴾ استفعلوا ، من : يئس الرجل من كذا يئأس .

وقوله : ﴿ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ يقول بعضهم لبعض يتناجون ، لا يختلط بهم غيرهم .
والنجي : جماعة القوم المنتجين ، يسمى به الواحد والجماعة ، كما يقال : رجل عدل ،
ورجال عدل ، وقوم زور ، وفطر . وهو مصدر من قول القائل : نجوت فلاناً أنجوه نجياً ،
جعل صفة ونعتاً . ومن الدليل على أن ذلك كما ذكرنا ، قول الله تعالى : ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾
﴿ ٥٢ ﴾ (٢) ، فوصف به الواحد ، وقال في هذه الموضع : ﴿ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ فوصف به
الجماعة ، ويجمع النجي : أنجية ، كما قال لبيد :

(١) سورة يوسف ، آية (٨٠ - ٨٧) .

(٢) سورة مريم ، آية (٥٢) .

وَشَهِدَتْ أَنْجِيَةَ الْأَفَاقَةِ عَالِيَا كَعْبِي وَأَرْدَاةَ الْمُلُوكِ شُهُودًا (١)

وقوله : ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ اختلف أهل العلم في المعنى بذلك .

فقال بعضهم : عني به كبيرهم في العقل والعلم ، لا في السن ، وهو شمعون . قالوا : وكان روبييل أكبر منه في الميلاد ، وقال آخرون : بل عني به كبيرهم في السن ، وهو روبييل .

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال في ذلك بالصحة ، قول من قال : عني بقوله : ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ روبييل ؛ لإجماع جميعهم على أنه كان أكبرهم سنًا ، ولا تفهم العرب في المخاطبة إذا قيل لهم : فلان كبير القوم ، مطلقًا بغير وصل ، إلا أحد معنيين : إما في الرياسة عليهم والسؤدد ، وإما في السن . فأما في العقل ، فإنهم إذا أرادوا ذلك وصلوه ، فقالوا : هو كبيرهم في العقل ، فأما إذا أطلق بغير صلته بذلك ، فلا يفهم إلا ما ذكرت .

وقد قال أهل التأويل : لم يكن لشمعون - وإن كان قد كان من العلم والعقل بالمكان الذي جعله الله به - على إخوته رياسة وسؤدد ، فيعلم بذلك أنه عني بقوله : ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ ، فإذا كان ذلك كذلك فلم يبق إلا الوجه الآخر ، وهو الكبر في السن ، وقد قال الذين ذكرنا جميعًا : روبييل كان أكبر القوم سنًا ، فصح بذلك القول الذي اخترناه .

وقوله : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْتَقًا مِّنَ اللَّهِ ﴾ يقول : ألم تعلموا أيها القوم أن أباكم يعقوب قد أخذ عليكم عهد الله وموآثيقه : لنأتينه به جميعًا ، إلا أن يحاط بكم . ﴿ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ﴾ ومن قبل فعلتكم هذه ، تفريطكم في يوسف . يقول : أو لم تعلموا من قبل هذا تفريطكم في يوسف ؟ .

وقوله : ﴿ فَلَن أَبْرَحَ الْأَرْضَ ﴾ التي أنا بها ، وهي مصر فأفارقها . ﴿ حَتَّى يَأْذَنَ

(١) ديوانه ص (٤٧) ، دار صادر ، بيروت .

لِيَّ أَبِي ﴿ بِالْخُرُوجِ مِنْهَا ﴾ . وقوله : ﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِيَّ ﴾ أو يقضي لي ربي بالخروج منها وترك أخي بنيامين ، وإلا فإني غير خارج . ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ﴿٨٠﴾ يقول : والله خير من حكم ، وأعدل من فصل بين الناس . فرجع إخوة بنيامين إلى أبيهم ، وتخلف روبييل ، فأخبروه خبره ، فلما أخبروه أنه سرق قال : ﴿ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ يقول : بل زينت لكم أنفسكم أمراً همتمم به وأردتموه ، ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ يقول : فصبري على ما نالني من فقد ولدي ، صبرٌ جميل لا جزع فيه ولا شكاية . ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي ﴾ بأولادي ﴿ جَمِيعًا ﴾ فيردهم عليّ . ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ بوحدتي ، وبفقدهم وحزني عليهم ، وصدق ما يقولون من كذبه . ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ ﴿٨٢﴾ في تدبيره خلقه « (١) .

في هذه الآيات يظهر لك موقف آخر من أدب هذا النبي العظيم الذي ابتلي في حياته وعانى في أهل بيته ، فما زاده هذا الابتلاء إلا صبراً ، وما كشف عنه إلا أدباً وخلقاً .

ولعمري هذا الأدب خليق أن يتوشح بوشاح النبوة ، وأن يتزين برداء الحكمة والاصطفاء والاجتباء ، إنه من خلال هذا المشهد الحوارى يتضح أن مصيبة يعقوب - عليهما السلام - بابنه الأصغر قد أثارت في نفسه مصيبته بيوسف ، ولهذا لما سمع يعقوب - عليهما السلام - ما جرى لابنه الأصغر تذكر مرة أخرى ما جرى لابنه الأكبر ، فعلق على كلام أبنائه في هذا الموقف بنفس ما علق على كلامهم السابق حول يوسف .

يقول الرازي معلقاً على هذا الموقف :

« واعلم أن يعقوب - عليهما السلام - لما سمع كلام أبنائه ضاق قلبه جداً ، وأعرض عنهم ، وفارقهم ثم بالآخرة طلبهم وعاد إليهم .

أما المقام الأول : وهو أنه أعرض عنهم ، وفر منهم فهو قوله : ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ

(١) تفسير الطبري (٧/٢٦٨ - ٢٧٣) - بتصرف - .

يَأْسَفُنِي عَلَى يُوسُفَ ﴿١﴾ .

واعلم أنه لما ضاق صدره بسبب الكلام الذي سمعه من أبنائه في حق بنيامين عظم أسفه على يوسف - عليه السلام - ، وإنما عظم حزنه على مفارقة يوسف عند هذه الواقعة لوجوه :

الوجه الأول : أن الحزن الجديد يقوي الحزن القديم الكامن ، والقرح إذا وقع على القرح كان أوجع . وقال متمم بن نويرة (١) :

وقد لامني عند القبور على البكا رفيقي لتذراف الدموع السوافك
فقال أتبكي كل قبر رأيتَه لقبر ثوى بين اللوى والدكادك
فقلت له : إن الأسي يبعث الأسي فدعني فهذا كله قبر مالك (٢)

وذلك لأنه إذا رأى قبراً فتجدد حزنه على أخيه مالك فلاموه عليه ، فأجاب بأن الأسي يبعث الأسي .

وقال آخر :

فلم تنسني أو في المصيبات بعده ولكن نكاء القرح بالقرح أوجع

والوجه الثاني : أن بنيامين ويوسف كانا من أم واحدة ، وكانت المشاهدة بينهما في الصورة والصفة أكمل ، فكان يعقوب - عليه السلام - يتسلى برؤيته عن رؤية يوسف - عليه السلام - ، فلما وقع ما وقع زال ما يوجب السلوة ، فعظم الألم والوجد .

الوجه الثالث : أن المصيبة في يوسف كانت أصل مصائبه التي عليها ترتب سائر

(١) هو : متمم بن نويرة بن حمزة بن شداد اليربوعي التميمي ، أبو نهشل ، شاعر فحل ، صحابي ، من أشرف قومه ، اشتهر في الجاهلية والإسلام ، وكان قصيراً ، أعور ، أشهر شعره رثاؤه لأخيه مالك ، سكن المدينة في أيام عمر وتزوج بها امرأة لم ترض أخلاقه ؛ لشدة حزنه على أخيه ، توفي نحو سنة (٣٠هـ) . انظر : الأعلام (٢٧٤/٥) .

(٢) انظر : الكامل للمبرد (٦٨/١) ، والأمالي لأبي علي القالي (١٣٤/٢) .

المصائب والرزايا ، وكان الأسف عليه أسفاً على الكل .

الوجه الرابع : أن هذه المصائب الجديدة كانت أسبابها جارية مجرى الأمور التي يمكن معرفتها والبحث عنها ، وأما وقعة يوسف فهو - عليه السلام - كان يعلم كذبهم في السبب الذي ذكروه ، وأما السبب الحقيقي فما كان معلوماً له ، وأيضاً أنه - عليه السلام - كان يعلم أن هؤلاء في الحياة ، وأما يوسف فما كان يعلم أنه حي أو ميت ، فهذه الأسباب عظم وجدده على مفارقتة ، وقويت مصيبتة على الجهل بحاله « (١) .

لهذا فإنهم لما أخبروه في المرة الأولى كاذبين أن الذئب أكل يوسف قال لهم : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ (٢) .

والآن لما أخبروه بما حدث لابنه الصغير قال لهم : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ (٣) ، وكان يعقوب - عليه السلام - لم يطمأن إلى كلامهم حول ما حدث لابنه الصغير ، وكأنه ظنها مكيدة لهم كمكيدتهم في يوسف من قبل ، ولهذا أجابهم بما أجابهم في يوسف .

هل اتهم أبناءه ؟ هل غضب عليهم واتخذ ضدهم أي عقوبة ؟ هل دعا عليهم ؟

بعد كل الذي رآه منهم وبعد كل الذي جابهوه به من عصيانهم لأوامره في حفظ أبنائه وخذاعهم له وفجعه بولديه ، إلا أنه بقي معهم في أدب وخلق ، مصحوباً برحمة ورأفة وعطف وشفقة وأمل في الصلاح والهداية ، وتسليحاً بسلاح الصبر العظيم الذي أفرغه الله عليه ، واثقاً بالله وبعونه ونصره وحفظه لأبنائه .

لهذا فإن هذه المصيبة الجديدة المثيرة والمنكأة لجرح قديم ، لم تؤثر على إيمانه بالله ،

(١) مفاتيح الغيب (١٨ / ٤٩٦) .

(٢) سورة يوسف ، آية (١٨) .

(٣) سورة يوسف ، آية (٨٣) .

وصبره على أقدار الله ، بل إنها زادتة أملاً في الله بعودة ولديه ، وكأن لسان حاله يقول :

وقد يجمع الله الششتين بعدما يظنان كل الظن ألا تلاقيا (١)

لهذا قال لأبنائه وطلب منهم أن يقوموا بعملية بحث واستقراء وتتبع لابنيه المفقودين ، مع توصيتهم بعدم اليأس من رحمة الله وثوابه ، فقال لهم : ﴿ يَبْنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢) .

وانظر إلى كلمة : ﴿ يَبْنِيَّ ﴾ على الرغم مما فعلوه له ، وعلى الرغم مما فجعوه به إلا أنه خاطبهم بعاطفة الأبوة الموجهة نحو النبوة .

وعلى الرغم من غلظتهم له وسوء تعبيرهم له ولومهم له الدائم في تذكره ليوسف ، وتشنيعهم عليه في بكائه عليه حتى ابيضت عيناه وعمي ، إلا أنه خاطبهم برفق ومودة وشفقة وأدب ، فأمرهم بالعودة إلى مصر والبحث عن يوسف وأخيه .

﴿ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ ومعنى التحسس : البحث بالحواس .

يقول السمين الحلبي (٣) :

« قوله : ﴿ فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ أي : تطلبوه بحواسكم وتحسس في

الخير ، وتحسس في الشر .

(١) المدهش لابن الجوزي (١٣٦/١) .

(٢) سورة يوسف ، آية (٨٧) .

(٣) هو : أحمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبي ، أبو العباس ، شهاب الدين ، المعروف بالسمين ، مفسر ، عالم بالعربية والقراءات ، شافعي ، من أهل حلب ، استقر واشتهر في القاهرة ، من كتبه : (تفسير القرآن) ، و (الدر المصون) في إعراب القرآن ، و (عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ) في غريب القرآن وغيرها ، توفي سنة (٧٥٦هـ) . انظر : الأعلام (٢٧٤/١) .

قال الحربي : معنى الحس والجس واحد ، وهو التطلب بمعرفة « (١) .

ولهذا فإن فعل تحسسوا يدل على البحث بحرص وانتباه مع تفاعل كبير في النفس والمشاعر والحواس ، والشعور بالأمل الكبير بالعثور على المطلوب .

وكان يعقوب - عليه السلام - يطلب منهم تشغيل جميع حواسهم ؛ للبحث عن يوسف وأخيه مع يقينهم بأنهما موجودان .

ثم هو يطلب أن لا ييأسوا من العثور على يوسف وأخيه ، فإن هذا يأس من روح الله ورحمته وفرجه ، ولا ييأس من روح الله وفرجه إلا القوم الكافرون ، وهنا في هذا الموقف نرى درس التفاؤل العجيب الذي يبعث الجد والأمل في نفوس الأنبياء - عليهم السلام - .

فيعقوب - عليه السلام - في كل مراحل محنته هذه لم يفارقه التفاؤل ، وفي أحلك ظروفه وأشدها كان موقناً بالله ، حتى إنك تجده يخاطب أبناءه في كل مرة تتجدد عليه المحنة ، وفي كل موقف يزيد عليه البلاء بنفسٍ متفائلةٍ ، مليئةٍ بالأمل والثقة والصبر وانتظار الفرج .

إن أمتنا الآن وفي هذا الزمان تعيش ظروفًا حرجة شديدة ، فما أحوجها للتفاؤل الذي يدفعها للعمل من أجل تحقيق موعود الله لها ، فإن المهزوم من هزيمته نفسه قبل أن يهزمه عدوه ، وإذا دخل اليأس والقنوط على القلوب فشلت وخارت واستسلمت لعدوها ، فتمكن منها .

إن اليأس والتشاؤم إذا دخل على النفوس أحبطها وأتعبها وأثقلها ، ومن كانت نفسه مضغضة مهزوزة فكيف ينتصر على عدوه ؟ .

إن خذلان النفس لصاحبها من أول أسباب انتصار عدوها ، وقد تمنع قوم في حصون وقلاع ﴿ فَآتَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾ (٢) .

(١) عمدة الحفاظ (٤٧٠/١) .

(٢) سورة الحشر ، آية (٢) .

فلنأخذ من نبي الله يعقوب - عليه السلام - درساً في التفاؤل والأمل المقرون بالعمل .

كذلك من مشاهد أدب نبي الله يعقوب - عليه السلام - في هذه القصة حين ورد عليه قميص ابنه يوسف مع البشير الذي أخبره بوجود يوسف ومكانه ، وأنه لا يزال على قيد الحياة .

يقول تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُقِنُّوهُ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالِ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴿ (١) .

هنا في هذا المشهد كانت نهاية الأحزان لنبي الله يعقوب ، وكانت خاتمة الألم ونهاية دموع الحزن ، وبداية دموع الفرح .

نهاية عمى الحزن وبداية بصر السعادة والسرور .

لقد عانى يعقوب - عليه السلام - ألم الفراق وحرارة الشوق للقاء ابنه طيلة سنوات غيابه السود ، مع يقينه وثقته بالله ، وصبره واحتسابه على تلك المعاناة ، لهذا كان لا بد أن يكون لنهاية هذا الألم خاتمة بيضاء ونهاية سعيدة مكلفة باللقاء والحب والشوق .

وبداية هذا الموقف حين كلف يوسف إخوته بالعودة إلى أبيه ومعهم قميصه لعودة بصر أبيه ، ثم القدوم بالجميع إلى مصر ، وسار موكب الإخوة عائداً إلى يعقوب ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴿٩٤﴾ « وخرجت من عريش مصر قاصدة مكان يعقوب - عليه السلام - ، وكان قريباً من بيت المقدس ، يقال : فصل من البلد يفصل فصولاً إذا انفصل منه وجاوز حيطانه ، وهو لازم ، وفصل الشيء فصلاً إذا فرقه وهو متعد . ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ ﴿٩٥﴾ يعقوب - عليه السلام -

(١) سورة يوسف ، آية (٩٤ - ٩٨) .

لمن عنده . ﴿ إِنِّي لِأَجْدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ ﴾ أي : لأشم ، فهو وجود حاسة الشم أشمه الله تعالى ما عقب بالقميص من ريح يوسف - عليهما السلام - من مسيرة ثمانية أيام (١) . ﴿ لَوْلَا أَنْ تُقْنِدُونَ ۖ ﴾ (١٤) أي : تنسبوني إلى الفند - بفتحيتين - ويستعمل بمعنى الفساد ، وبمعنى ضعف الرأي والعقل من الهرم وكبر السن ، ويقال : فند الرجل إذا نسبه إلى الفند ، وهو على ما قيل مأخوذ من الفند ، وهو الحجر ، كأنه جعل حجراً لقله فهمه « (٢) .

قال الإمام الراغب :

« الفند نسبة الإنسان إلى الفند ، وهو ضعف الرأي » (٣) .

وانظر هنا إلى أدب يعقوب - عليهما السلام - ورقة طبعه حين قال : ﴿ لَوْلَا أَنْ تُقْنِدُونَ ۖ ﴾ فهو يعلم أنه سيقول لهم شيئاً غريباً يعتبر في ذاته معجزة ، وشيئاً حارقاً للطبيعة ، فأراد إخبارهم بإحساسه ، قارئاً هذا لإخبار بخوف لومهم له ، وتسفيه رأيه منهم ، في دلالة واضحة لاحترامه لمشاعرهم ، وخشية من أن يشعروا بأنه يعيب بهم أو يتلاعب بعقولهم حين يقول لهم عن هذه الغرائب الخارجة عن ناموس الطبيعة والكون .

وتأمل هذا الأدب وهذه المراعاة للمشاعر على الرغم من كل ما فعلوه به ويوسف !!! .

ولم يكذب حدس يعقوب - عليهما السلام - وإحساسه في ردة فعل أبنائه ، فسرعان ما ردوا عليه بقوله له : ﴿ تَأَلَّهَ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ۖ ﴾ (١٥) « تأله ، أيها الرجل ، إنك

(١) وهذا من التوسم والفراسة ، أو نوع من المكاشفة يعطيها الله لمن شاء من عباده ، وقد بلغ النبي - ﷺ - خبر النجاشي لما مات ، ونعى رسول الله - ﷺ - زيداً وجعفرأ و ابن رواحة لما قتلوا في غزوة مؤتة ، وعمر - رضي الله عنه - قال : يا سارية الجبل ، فسمعه سارية وهو بالشام ، فهذا كله نوع من المعجزات والمكاشفات والكرامات يعطيها الله لمن شاء من عباده .

(٢) روح المعاني (١٣ / ٦٨ - ٦٩) .

(٣) المفردات ص (٦٤٦) .

من حب يوسف وذكره لفي خطئك وزللك القديم لا تنساه ، ولا تتسلى عنه » (١) .

« وقولهم : ﴿ لَفِي ضَلَالِكَ ﴾ يريدون في انتكافك وتحريك ، وليس هو بالضلال الذي هو في العرف ضد الرشاد ؛ لأن ذلك من الجفاء الذي لا يسوغ لهم مواجهته به ، وقد تأول بعض الناس على ذلك ، ولهذا قال قتادة - رحمته - : قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ، ولا لنبي الله - عليه - ، وقال ابن عباس : المعنى : « لفي خطئك » .

وكان حزن يعقوب قد تجدد بقصة بنيامين ، فلذلك يقال له : ذو الحزين (٢) .

وهنا يصبر يعقوب - عليه - ويظهر من حلمه وكريم خلقه حين وصفوه بأنه في ضلال قديم ، فلم ينتصر لنفسه أو يغضب أو يدعو عليهم .

حينها وقعت المفاجأة الكبيرة ، ويثبت للقوم أن يعقوب - عليه - ليس على ضلاله القديم ، بل هو على حق واضح ، فيوسف حي ، وهاهم الركب المسافرون يصلون ومعهم قميص يوسف ، وهاهو البشير يلقي قميص يوسف على وجه يعقوب - عليه - .

﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ (٣) « والبشير : فعيل

بمعنى مُفعل ، أي : المبشر ، والتبشير : المبادرة بإبلاغ الخبر المسرّ بقصد إدخال السرور .

ومنه قوله تعالى : ﴿ يَبْشُرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ ﴾ (٤) . وهذا البشير هو يهوذا بن يعقوب

- عليه - تقدم بين يدي العير ؛ ليكون أول من يخبر أباه بخبر يوسف - عليه - .

وارتد : رجع ، وهو افتعال مطاوع رده ، أي : رد الله إليه قوة بصره كرامة له وليوسف

(١) تفسير الطبري (٢٩٧/٧) .

(٢) المحرر الوجيز (١٤٩/٥) .

(٣) سورة يوسف ، آية (٩٦) .

(٤) سورة التوبة ، آية (٢١) .

- **عَلَيْهِ السَّلَامُ** - ، وخارق للعادة « (١) . ولقد فوجئ أهل يعقوب - **عَلَيْهِ السَّلَامُ** - جميعاً بتحقيق المعجزة الربانية ، كما أخبر يوسف إخوته عندها لما قال لهم : ﴿ **أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقَوَةُ عَلَيَّ وَجْهَ أَبِي يَأْتِ بِصِيرًا** ﴾ (٢) .

وهنا فرح الأهل بفرحتين عظيمتين :

فرحوا بوجود يوسف - **عَلَيْهِ السَّلَامُ** - وحياته والمكانة التي وصلها بأمر الله ، حيث كان عزيز مصر وحاكم خزائنها .

وفرحوا بعودة بصر أبيهم يعقوب - **عَلَيْهِ السَّلَامُ** - ، وزوال المرض عنه وانتهاء آلامه وأحزانه بالعثور على يوسف - **عَلَيْهِ السَّلَامُ** - .

وهنا يظهر أيضاً موقف أدبي من آداب يعقوب - **عَلَيْهِ السَّلَامُ** - يدل على حسن خلقه وعلى سعة حلمه وعلى كرم نفسه ، فلم يتعامل مع الموقف بكبرياء المنتصر وغرور الفائز ، وجبروت المسيطر ، بل قال لهم في هذا الجو المفعم بالفرح والسرور والغبطة : ﴿ **أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ (٣) ، ولقد سبق وأن قال لهم هذه العبارة عندما عدلوه ولاموه على استمراره تذكر يوسف - **عَلَيْهِ السَّلَامُ** - ، وعندما أعلن أسفه على يوسف لما علم بما جرى لابنه الصغير قالوا له : ﴿ **تَاللَّهِ تَقْتَوُا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ** ﴾ (٤) ، عندها أجابهم بقوله : ﴿ **إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ (٥) .

والآن بعد أن علم الجميع أن يوسف - **عَلَيْهِ السَّلَامُ** - موجود وحي في أعز مكانة ، وأعلى

(١) التحرير والتنوير (٥٣/١٣) .

(٢) سورة يوسف ، آية (٩٣) .

(٣) سورة يوسف ، آية (٩٦) .

(٤) سورة يوسف ، آية (٨٥) .

(٥) سورة يوسف ، آية (٨٦) .

منصب ، ما زاد على أن ذكرهم بما قاله لهم من قبل : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) ، لهذا لما رأى أولاد يعقوب هذه الخاتمة ، وتلك النهاية تذكروا كل أخطائهم مع أبيهم ، وعلموا أنهم السبب في كل ما حل بأبيهم وأخيهم وأسرتهم منذ أن حقدوا على يوسف - عليهما السلام - ، وتذكروا مسلسل الأحداث المحزنة التي كانوا السبب فيها حتى هذا الموقف العظيم .

لقد تذكروا هذا كله ، فشعروا بتأنيب الضمير ، وعرفوا أنهم كانوا في ما فعلوه مخطئين مذنبين ، لهذا فقد حان لهم أن يعترفوا بخطئهم وذنبهم ومعصيتهم ، فأقبلوا على أبيهم معتذرين مقرين بالذنب ، يطلبون منه العفو والصفح ، وأن يستغفر لهم الله ويطلب من ربه أن يتجاوز عنهم و ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ (٢) .

هنا لم يستغل يعقوب - عليهما السلام - وهو الأب الرحيم هذا الموقف فيلومهم ويعنفهم ويعاقبهم على سنين العذاب التي عاشها معهم ، وكانوا سبباً فيها حين أذاقوه خلالها أصناف الآلام الحسية والمعنوية ، بداية من فجيعة بفقد يوسف ، وانتهاء بفقد بصره .

لقد كان - عليهما السلام - كامل الخلق ، وافر الأدب ، حين عفا وصبر وسامح وغفر ، فقال لهم : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٣) « وظاهر الكلام أنه لم يستغفر لهم في الحال ، بل وعدهم بأنه يستغفر لهم بعد ذلك ، واختلفوا في سبب هذا المعنى على وجوه : الأول : قال ابن عباس - رحمتهما - : والأكثر أن أراد أن يستغفر لهم في وقت السحر ؛ لأن هذا الوقت أوفق الأوقات لرجاء الإجابة . الثاني : قال ابن عباس - رحمتهما - : في رواية أخرى : أحر الاستغفار إلى ليلة الجمعة ؛ لأنها أوفق الأوقات للإجابة . الثالث : أراد أن يعرف أنهم هل تابوا في الحقيقة أم لا ؟ ، وهل حصلت

(١) سورة يوسف ، آية (٩٦) .

(٢) سورة يوسف ، آية (٩٧) .

(٣) سورة يوسف ، آية (٩٨) .

توبتهم مقرونة بالإخلاص التام أم لا . الرابع : استغفر لهم في الحال ، وقوله : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ ﴾ معناه : أبنى أداوم على هذا الاستغفار في الزمان المستقبل ، فقد روي أنه كان يستغفر لهم في كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة ، وقيل : قام إلى الصلاة في وقت فلما فرغ رفع يده إلى السماء وقال : (اللهم اغفر لي جزعي على يوسف ، وقلة صبري عليه ، واغفر لأولادي ما فعلوه في حق يوسف - ﷺ -) فأوحى الله تعالى إليه : قد غفرت لك ولهم أجمعين « (١) .

لقد صفا يعقوب لأبنائه بعد ذلك كله ، فصصح عنهم وسامح ، ثم استغفر لهم الله ، واستجاب لطلبهم متجاوزاً بذلك عن ماضيهم ، متناسياً أفعالهم ، وتعامل معهم على أساس جديد وصفحة جديدة تخلى فيها الأبناء عن نقائصهم ، وتركوا رذائلهم وذنوبهم وأخطائهم ، وسادت بينهم وبين يوسف وأخيه روح المودة والأخوة والتعاون والمحبة والصدق والصفاء ، مقتدين بأبيهم يعقوب ، صاحب الأدب العظيم ، والخلق الكريم - عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم - .

ولن نخرج من قصة يوسف - ﷺ - وما فيها من آداب عظيمة ، وسجايا نبوية كريمة .

فمن مشاهد أدب الأنبياء مع ذوي القربى فيها ما حصل بين يوسف وإخوته في أكثر من مشهد نبيل ، وموقف حليم ، دل فيه على أدب نبي الله يوسف - ﷺ - وعلو ذاته ، وأصالة نفسه ، وطيب منبعه ، وكرم أصله ، وكيف لا وهو الذي قال فيه نبينا - عليه الصلاة والسلام - حين سئل من أكرم الناس ؟ قال : « أكرمهم أتقاهم » قالوا : يا نبي الله ليس عن هذا نسألك ، قال : « فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله . . . الحديث » (٢) .

(١) مفاتيح الغيب (٥٠٨/١٨) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأنبياء ، باب ﴿ ﴿ ﴾ (١٤٧/٤) برقم (٣٣٧٤) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الفضائل ، باب من فضائل يوسف - ﷺ - (١٤٧٢/٤) برقم (٢٣٧٨) .

فمن كَرَّمَ أصله وفصلُهُ كان - بلا شك - إلى كرم الطباع والشمائل أقرب وأولى بها ، وأليق ، فما بالك إذا كان نبي ، فقد جمع بين الكرم والأدب من أطرافه .

فمن مشاهد أدب نبي الله يوسف - عليه السلام - مع إخوته مشهد قدوم إخوانه إليه في مصر للمرة الأولى .

يقول تعالى : ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾
وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُّونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفَى الْكَيْلِ
وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ - فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾
قَالُوا سَنُرَوِّدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفَتَيْنِهِ اجْعَلُوا بَضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ
يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (١) .

يبين الله تعالى في هذه الآيات أنهم لما دخلوا على يوسف - عليه السلام - وهو في أمة ملكه جالس على عرش سلطانه ، عرفهم بفطنته وذكائه ، وحدة بصره وبصيرته « ولقوة فهمه وعدم مباينة أحوالهم السابقة أحوالهم يوم المفارقة ؛ لمفارقتهم إيّاهم وهم رجال ، وتشابه هياتهم وزيجهم في الحالين ، ولكون همته معقودة بهم وبمعرفة أحوالهم لا سيما في زمن القحط ، ولعله - عليه السلام - كان مترقباً مجيئهم إليه ؛ لما يعلمه من تأويل رؤياه . وروي أنهم انتسبوا في الاستئذان عليه فعرفهم وأمر بإنزالهم « (٢) وإكرامهم ، وهذا من أدبه - عليه السلام - وحسن خلقه ، حين يكرم من آذاه وظلمه ، وجار عليه في سن الطفولة ، حين الضعف وقلة الحيلة وبُعد الناصر .

هنا نقف على مظهر من مظاهر أدب نبي الله يوسف الكريمة ، ودليل من أدلة خلقه وحلمه ومروءته العظيمة .

وهو مع هذا كَيْس فطن ، حيث لم يظهر لإخوته عن شخصيته ولم يكشف هويته ولم

(١) سورة يوسف ، آية (٥٨ - ٦٢) .

(٢) روح المعاني (١٢ / ١٣) .

يذكرهم بجريمتهم وشناعة فعلتهم ، ولم ينتقم منهم حين قدر عليهم ودخلوا في مملكته وتحت سلطانه ، وهو في موقف القوة والتمكن ، وهم في موقف الضعف والحاجة .

لقد استعلى يوسف - عليه السلام - على أحزانه وآلامه وجراحه ، وتخلص من الحقد والتشفي والانتقام الذي هو طبع اللئام ، فـ

لا يحمل الحقد من تعلوا به الرتب ولا ينال العلى من طبعه الغضب (١)

لقد تعامل يوسف - عليه السلام - مع إخوته بأخلاق النبوة ، فاستقبلهم وأكرمهم ، وأكرم وفادتهم وأنزلهم بأحسن منزل ، وجلس معهم وحادثهم ، وأنس بهم وأنسوا به ، ولهذا قال لهم : ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفَى الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ ﴿٥٩﴾ « أي : أتممه ، وجاء بصيغة الاستقبال مع كونه قال لهم هذه المقالة بعد تجهيزهم ؛ للدلالة على أن ذلك عادته المستمرة ، ثم أخبرهم بما يزيد وثوقاً به وتصديقاً لقوله ، فقال : ﴿ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ ﴿٥٩﴾ أي : والحال أي خير المنزلي لمن نزل بي كما فعلته بكم من حسن الضيافة ، وحسن الإنزال . قال الزجاج : قال يوسف ﴿ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ ؛ لأنه حين أنزلهم أحسن ضيافتهم » (٢) .

بل إنه من كرمه - عليه السلام - أنه أعطاهم ، وكال لهم وأوفى في الكيل ، ثم أعاد لهم ما جاؤوا به من البضاعة المزجاة مقابل أن يشتروا بها القمح والشعير من مصر ، فأمر غلمانهم بدس البضاعة التي أحضروها بين الحبوب التي حملوا بها جمالهم .

وإن كان يقصد بهذا الفعل إغراءهم للرجوع مرة أخرى بأخيهم ، إلا أنه كرمًا وتفضلاً وحسن خلق منه بأنه لم يأخذ منهم شيئاً ، وإلا فباستطاعته أن يأتي بأي حيلة أخرى غير تلك الحيلة الكريمة ولو في أدنى الأحوال ذلك التهديد الذي هددهم به بأنه لن يعطيهم أي كيل ، فضلاً أن يقرهم منه أو يدخلهم مدينته ، خصوصاً إذا ما علمنا أنهم

(١) قائل هذا البيت عنتر بن شداد ، انظر : ديوانه ص (١٤١) ، تحقيق : د . درويش الجندي .

(٢) فتح القدير (٥١/٣) .

كانوا في حالة من الضعف والفاقة بحيث أنهم سيوافقون على أي عرض يقدمه لهم .

لكن تلك أخلاق النبوة ، وتلك سجايا الكرم التي جبل الله عليها يوسف - عليه السلام - ، فكان منه هذا الموقف الكريم الشهم ، من مقابلة اللؤم بالكرم ، والإساءة بالإحسان .

ولا زلنا في مشاهد الكريم يوسف - عليه السلام - وفي حضرة خلقه ومجلس أدبه .

فمن مشاهد أدبه في هذه القصة والتي أوردها لنا القرآن بأجمل عبارة ، وأبلغ بيان ؛ مشهد لقائه بأخيه بعد أن أحضره إخوته معهم إلى مصر في المرة الثانية .

يقول تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبَتِّسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

وظاهر الآية أن يوسف - عليه السلام - لما استقبل إخوته ومعهم شقيقه بدأ بالمعاملة الخاصة مع شقيقه فور استقباله له ، فأواه إليه واحتضنه من بين إخوته الآخرين .

يقول البغوي - رحمته الله - في تفسير هذه الآية مبيناً أدب يوسف - عليه السلام - مع أخيه وحسن استقباله له وبرّه به :

« قوله - رحمته الله - ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ﴾ قالوا : هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتي به قد جئناك به ، فقال : أحسنتم وأصبتم ، وستجدون جزاء ذلك عندي ، ثم أنزلهم وأكرمهم ، ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة ، فبقي بنيامين وحيداً ، فبكى وقال : لو كان أخي يوسف حياً لأجلسني معه ، فقال يوسف : لقد بقي أخوكم هذا وحيداً ، فأجلسه معه على مائدته ، فجعل يُواكله ، فلما كان الليل أمر لهم بمثل ذلك وقال : لِيَنِمَّ كل أخوين منكم على مثال ، فبقي بنيامين وحده ، فقال يوسف : هذا ينام معي على فراشي ، فنام معه ، فجعل يوسف يضمه إليه ويشم ريحه حتى أصبح ، وجعل

(١) سورة يوسف ، آية (٦٩) .

رويين يقول : ما رأينا مثل هذا ، فلما أصبح قال لهم : إني أرى هذا الرجل ليس معه ثان فسأضمه إليّ فيكون منزله معي ، ثم أنزلهم منزلاً ، وأجرى عليهم الطعام ، وأنزل أخاه لأمه معه ، فذلك قوله تعالى : ﴿ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ أي : ضم إليه أخاه ، فلما خلا به قال : ما اسمك ؟ قال : بنيامين ، قال : وما بنيامين ؟ قال : ابن المثلث ، وذلك أنه لما ولد هلكت أمه ، قال : وما اسم أمك ؟ قال : راحيل بنت لاوى ، فقال : فهل لك من ولد ؟ قال : نعم عشرة بنين ، قال : فهل لك من أخ لأمك ، قال : كان لي أخ فهلك ، قال يوسف : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك ، فقام بنيامين : ومَنْ يَجِدُ أَخًا مِثْلَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ وَلَكِنْ لَمْ يَلِدْكَ يَعْقُوبُ وَلَا رَاحِيلُ ، فبكى يوسف عند ذلك وقام إليه وعانقه ، وقال له : ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي : لا تحزن ، ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بشيء فعلوه بنا فيما مضى ، فإن الله تعالى قد أحسن إلينا ، ولا تعلمهم شيئاً مما أعلمتك « (١) .

فانظر إلى حسن معاملة يوسف - عليه السلام - لإخوته على وجه العموم ، وأخوه وشقيقه على وجه الخصوص ، من إكرام الضيافة ، وحسن النزول والاستقبال .

بل إن يوسف - عليه السلام - حين أخبر شقيقه عن نفسه وكشف له عن شخصيته ، وأنه أخوه وشقيقه الذي حصل له ما حصل مع إخوته ، سعى لأن يكون أخوه مثله في الأدب وحسن الخلق وصفاء السريرة ونقاء القلب ، وذلك حين وصاه بقوله : ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ « والابتئاس : مطاعة الإبتاس ، أي : جعل أحد بئاساً ، أي صاحب بؤس . والبؤس : هو الحزن والكدر والضميران في ﴿كَانُوا﴾ و ﴿يَعْمَلُونَ﴾ راجعان إلى إخوتها بقريئة المقام ، وأراد بذلك ما كان يجده أخوه بنيامين من الحزن ؛ لهلاك أخيه الشقيق وفضاظة إخوته وغيرهم منه .

والنهى عن الابتئاس مقتضى الكف عنه ، أي : أزل عنك الحزن واعتصم عنه بالسرور .

(١) معالم التنزيل (١٣/٤٧٩) .

وأفاد فعل الكون في الماضي أن المراد ما عملوه فيما مضى ، وأفاد صوغ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بصيغة المضارع أنه أعمال متكررة من الأذى « (١) .

فهنا يلاحظ من خلال هذا الموقف على وجه العموم أدب يوسف - عليه السلام - مع إخوته وبالأخص شقيقه الذي بقي وحيداً لسنوات طويلة يعاني فراق أخيه ، فيحاول يوسف - عليه السلام - إكرام أخيه وتعويضه سنوات الحرمان التي عاشها ، وما قاساه خلال هذه الفترة من فقدان الأخ الشقيق الذي لا يعلم مصيره ، وفي نهاية هذا الموقف صرح أخاه بحقيقته وطلب كتمانها عن بقية إخوته ، وسعى - عليه السلام - لأن يزيل أي ضغينة في نفس أخيه نحو إخوته بعد معرفته بالحقيقة كاملة ، ولا شك أن هذه أخلاق الأنبياء القائمة على التورع عن الأحقاد والضغائن .

أيضاً من مشاهد أدبه - عليه السلام - في هذه القصة - وما أكثرها - مشهد تفتيش يوسف إخوته بحثاً عن الصواع المفقود الذي وضعه يوسف - عليه السلام - - بحيلة (٢) منه في رحل أخيه ، ثم اتهمه بعد ذلك بالسرقة (٣) من أجل أن يقيه لديه .

يقول تعالى : ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَٰ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلٍ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَيِّدْهَا لَهُمْ قَالِ اتَّمَّ شُرُكَّاكُنَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعْنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا

(١) التحرير والتنوير (٢٦/١٣ - ٢٧) .

(٢) وهذه من الحيل المشروعة والتي يتوصل بها إلى الحقوق ، وأما التي تسقط الواجب أو تكون سبباً لفعل محرم فلا تجوز .

(٣) قال ابن كثير - رحمه الله - : « وإنما فعل ما فعل عن أمر الله له في ذلك ؛ لأنه يترتب على هذا الأمر مصلحة عظيمة بعد ذلك من قدوم أبيه وقومهم عليه ، ووفودهم إليه » . قصص الأنبياء ص (٢٢٣) .

لَظَلِمُونَ ﴿٧٦﴾ (١) .

في هذه الآيات يبين الله - ﷻ - أن إخوة يوسف لما أقروا بأن من وجد المسروق في رحله فجزاؤه أن يُسْتَرَقَّ قال لهم المؤذن : إنه لا بد من تفتيش أمتعتكم ، فانصرف بهم إلى يوسف ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ لإزالة التهمة والشك عنه وعن غلمانته ، وتمكين الحيلة وإبعاد الظن أن يكون هذا الأمر مديراً ، وهذا من فطنته - ﷻ - وذكائه ﴿ ثُمَّ أَسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ و « الوعاء : الظرف الذي يحفظ فيه الشيء » (٢) .

﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ « والكيد : فعل يتوصل بظاهره إلى مقصد خفي . والكيد هنا : هو إلهام يوسف - ﷻ - لهذه الحيلة المحكمة في وضع الصواع وتفتيشه وإلهام إخوته إلى ذلك الحكم المصمت .

وأسند الكيد إلى الله ؛ لأنه ملهمه ، فهو سببه . وجعل الكيد لأجل يوسف - ﷻ - ؛ لأنه لفائدته » (٣) .

وهذا من فضل الله تعالى على يوسف حين ألهمه تلك المكيدة وذلك التفكير من أجل إبقاء أخيه عنده رغم تحوط إخوته ومحافظتهم وحرصهم عليه ، وخوفهم على فقدته بعد العهود والمواثيق التي أخذها أبوهم منهم ، ولهذا قال الله تعالى في ذيل هذه الآية : ﴿ نَرَفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ « وجملة : ﴿ نَرَفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ ﴾ تذييل لقصة أخذ يوسف - ﷻ - أخاه ؛ لأن فيها رفع درجة يوسف - ﷻ - في الحال بالتدبير الحكيم من وقت مناجاته أخاه إلى وقت استخراج السقاية من رحله ، ورفع درجة أخيه في الحال بإلحاقه ليوسف - ﷻ - في العيش الرفيع ، والكمال بتلقي الحكمة من فيه » (٤) .

(١) سورة يوسف ، آية (٧٦ - ٧٩) .

(٢) البحر المحيط (٤٧/٧) .

(٣) التحرير والتنوير (٣١/١٣) .

(٤) التحرير والتنوير (٣٢/١٣) .

ولما تيقن إخوة يوسف بسرقة أخيهم للصواع ، وعلموا أنهم وقعوا في مأزق التهمة والعقاب ، وتفاجئوا بوجود الصواع في رحل أخيهم ، لم يعرفوا ما يجاهون به يوسف - عليه السلام - ، وماذا يقولون له بعد أن أكرمهم وأحسن ضيافتهم ، وزاد في مكياهم ، لهذا حاولوا أن يخرجوا من ذنب السرقة إلى عذر أقبح منه ، ف ﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقَ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلٍ ﴾ « يريدون أحًا له من أمه ، يعني : يوسف . واختلفوا في السرقة التي وصفوا بها يوسف - عليه السلام - ، فقيل : كان لجدته - أبي أمه - صنم يعبد ، فأخذه سرًا ، أو كسره وألقاه في الطريق لئلا يعبد .

وتأمل في هذا الموقف عظيم خُلق نبي الله يوسف ، وكمال أدبه وحيائه وسماحته حين سمع هذا القول منهم ، وهذه التهمة الباطلة ، والقول الزور ، فلم يكذبهم ، ولم يبرر اتهامهم ، ولم ينتصر لنفسه ، ولم يعاقبهم وهو في موقع القوة والتحكم والعلم بحقيقة الأمر صدقه من كذبه .

بل اتضح لديه أنهم ما زالوا رغم تباعد السنين وتفاوت الأيام يحملون عليه ذلك الحقد الدفين ، وتلك الغيرة القاتلة ، والحسد اللعين الذي جعلهم يتهمونه بالسرقة وهو أمامهم يكرمهم ويحسن وفادتهم ، ويزيد في ضيافتهم .

لقد كان بإمكانه أن يرد على التهمة ، وأن يبرئ نفسه منها أمام أخيه ويكذبهم فيما قالوا ، لكن حملة على ترك ذلك كرم النفس ، ووافر المروءة ، وكمال العقل ، وكظم الغيظ ، والعفو ، ومقابلة الإساءة بالإحسان ، والزلل بالغرمان ، فما زاد على أن قال في نفسه ردًا على اتهامهم كذبًا عليه : ﴿ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ ﴿ ٧٧ ﴾ « رد عليهم بقوله : ﴿ قَالَ أَنْتُمْ ﴾ أيها الإخوة ﴿ شَرُّ مَكَانًا ﴾ أي : موضعًا ومنزلًا ممن نسبتموه إلى السرقة وهو بريء ؛ لأنكم أنتم الذين كذبتهم على أبيكم وخذعتموه ، وقتلتم له بعد أن ألقيتهم أحاكم في الحب : لقد أكله الذئب .

﴿ وَاللَّهُ ﴾ - تعالى - . ﴿ أَعْلَمُ ﴾ مني ومنكم . ﴿ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ به غيركم من

الأوصاف التي يخالفها الحق ، ولا يؤيدها الواقع ، ومنها تهمة هذه السرقة .

هنا تذكر إخوة يوسف - عليه السلام - ما وعدوا أباهم به من عودة أخيهم الصغير إليه فقالوا : ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعْنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَطَلِمُونَ ﴿ (٧٨) ﴾ (١) . وهنا نكتة لطيفة نستخرج منها أدباً عظيماً ليوسف - عليه السلام - حين قال : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعْنَا عِنْدَهُ ﴾ دلالة على عفة لسانه - عليه السلام - وهو النبي الداعية ، والقدوة في السلوك والأخلاق والتربية .

لقد اختار لفظاً دقيقاً ، فلم يقل لن نأخذ إلا السارق ؛ لأنه يعلم - عليه السلام - أنا أخاه لم يسرق ، وأن هذه السرقة إنما كانت بمكيدة منه وتدبير .

لهذا جاء بلفظ دقيق عفيف مؤدب فقال : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعْنَا عِنْدَهُ ﴾ (٢) ، فلم يصفه بما هو منه بريء ، وهذا فيه درس عظيم ، وعبرة وافية في أدب اللسان والحديث ، وفيه قدوة للداعية والحاكم والقاضي الذي يقضي بين الناس .

لقد كان هذا أدب نبي الله يوسف وهو في حضرة ملكه وعلى عرش سلطانه ، فلم يتغير من أدبه شيء ، ولم ينقص من خلقه وحيائه شيء ، بل زاده هذا الملك وتلك المكانة العالية علواً إلى علوه ، ورقياً إلى رقيه ، وكمالاً في الأدب والخلق والشمائل التي لا يتخلق بها إلا الأنبياء والمصطفين الأخيار .

كذلك من مشاهد أدب يوسف - عليه السلام - أيضاً في هذه القصة ذلك المشهد الذي كشف فيه يوسف عن شخصيته وعرفهم على حقيقته .

يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا

(١) سورة يوسف ، آية (٧٨ - ٧٩) .

(٢) سورة يوسف ، آية (٧٩) .

بِضْعَةٍ مُزَجَّةٍ فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ
 هَلْ عَلَّمْتُم مَّا فَعَلْتُم يُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أءِيبُكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ
 أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
 الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَأَلَّه لَقَدْ ءَاتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا
 تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ﴿٩٢﴾ (١) .

هذه الآيات العظيمة تسجل المشهد المثير من لقاء يوسف بإخوته وتعرفهم عليه ، فقد
 دخلوا على العزيز الذي دخلوا عليه مرتين من قبل ، لكن دخولهم هذه المرة كان مختلفاً عن
 سابقه .

لقد لاحظ عليهم - عليهما السلام - هذه المرة ما آله وأحزنه وأثار عطفه وشفقته وحرك فيه
 مشاعر الأخوة ، ووشائج الدم والقربى .

لقد أثر فيهم الجذب والفقر ، وتوالي السفر ، وهدمهم فقد أحيهم الصغير وإبقائه عبداً
 وتأخر أحيهم الكبير وعدم رجوعه معهم .

لقد بدا كل هذا واضحاً في ملامحهم وأشكالهم ، وعلى كلماتهم وتعبيراتهم ، ولاحظ
 يوسف - عليهما السلام - كل هذا بفطنته وحصافته وبعد نظره . وصدق هذا الإحساس والشعور
 حين كلموه فسمع في كلامهم نبرة الضعف والانكسار ، واسترحموه فلمس فيهم مزيداً من
 المرارة والشكوى ، فأله ذلك وأحزنه عندما قالوا له : ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضُّرُّ
 وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّةٍ فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ
 ﴿٨٨﴾ ﴾ (٢) والبضاعة : هي القطعة من المال ، يقصد بها شراء شيء . والمزجاة : هي القليلة

الردية التي ينصرف عنها التجار إهمالاً لها (٣) .

(١) سورة يوسف ، آية (٨٨ - ٩٢) .

(٢) سورة يوسف ، آية (٨٨) .

(٣) التحرير والتنوير (٤٦/١٣ - ٤٧) .

وقالوا : وكانت بضاعتهم دراهم زيوفًا لا تؤخذ إلا بوضيعة - أي : بأقل قيمة - (١) . « وأصل الإزجاء : الدفع ؛ لضعف الشيء » (٢) .

وسميت البضاعة الرديئة القليلة مزجاة ؛ لأنها ترد وتدفع ولا يقبلها التجار إلا بأبخس الأثمان .

والمعنى : وقال إخوة يوسف له بأدب واستعطاف بعد أن دخلوا عليه للمرة الثالثة : ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ ﴾ أي : الملك صاحب الجاه والسلطان والسعة في الرزق ، ﴿ مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾ أي : أصابنا وأصاب أهلنا معنا الفقر والجذب والهزل من شدة الجوع . ﴿ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّةٍ ﴾ أي : وجئنا معنا من بلادنا ببضاعة قليلة رديئة يردها وينصرف عنها كل من يراها من التجار ؛ إهمالاً لها ، واحتقاراً لشأنها .

وإنما قالوا له ذلك : استدراراً لعطفه ، وتحريكاً لمروءته وسخائه ، قبل أن يخبروه بمطلبهم الذي حكاه القرآن في قوله : ﴿ فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا ﴾ أي : هذا هو حالنا شرحناه لك ، وهو يدعو إلى الشفقة والرحمة ، ما دام أمرنا كذلك ، فأتتم لنا كيلنا ولا تنقص منه شيئاً ، وتصدق علينا فوق حقنا بما أنت أهل له من كرم ورحمة ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ على غيرهم جزاء كريماً حسناً .

هنا لم يستطع يوسف - عليه السلام - أن يخفي أمره أكثر من هذا بعدما رأى حال إخوته ، ومن خلفهم حال أبيه .

لقد رُقَّ لهم ورحمهم ودفعته شدة هذه الرقة إلى أن يكشف حاله لهم ، ويعترف بحقيقته التي طالما أخفاها عنهم بأمر الله وتقديره وقضائه ، فكاشفهم صراحة ، وكانت المفاجأة حين قال لهم : ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ

(١) روح المعاني (١٣/٥٩ - ٦٠) .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/٤٧٠) .

جَهْلُونَ ﴿٨٩﴾ (١).

كأني بيوسف - عليّ - لم يشأ أن يفاجأ إخوته بحقيقته مباشرة ، فأراد في بادئ الأمر أن يذهب بهم إلى الماضي البعيد يذكرهم بأخيهم الذي صار له معهم قصص وأحداث مؤلمة ، وكأني به - عليّ - أراد أن يحدث فيهم هزة عنيفة توقظ عقولهم السادرة في الغي وتكشف الغشاوة عن عيونهم العمي عن الحق والحقيقة . لهذا لم يقل لهم أنا يوسف هكذا مباشرة ، ولم يقل أنا الذي فعلتم بي كذا وكذا ، بل إنه أخبرهم على طريق الاستفهام الإنكاري في دلالة واضحة على شناعة ما فعلوه به وبأخيه ، ولهذا قال بعدها : ﴿ إِذْ أَنْتُمْ جَهْلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ حين فعلتم ذلك الفعل « لا تعلمون قبحه ، فلذلك أقدمتم عليه ، يعني : هل علمتم قبحه فتبتم إلى الله منه ؛ لأن علم القبح يدعو إلى الاستقباح ، والاستقباح يجرّ إلى التوبة ، فكان كلامه شفقة عليهم ، وتنصحا لهم في الدين ، لا معاتبة وتثريبا ؛ إثارا لحق الله على حق نفسه ، في ذلك المقام الذي يتنفس فيه المكروب ، وينفث المصدور ، ويتشفى المغيظ المخنق ، ويدرك تأره الموتور ، فله أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسجحها ، والله حصا عقولهم ما أرزنها وأرجحها » (٢) .

وقوله هذا يدل على سمو أخلاقه ، حتى لكأنه يلتمس لهم العذر ؛ لأن ما فعلوه معه ومع أخيه كان في وقت جهلهم وقصور عقولهم ، وعدم علمهم بقبح ما أقدموا عليه ، لهذا ذهبوا عندما تحسسوا وتمرسوا في يوسف ، في وجهه وملامحه في نبرات صوته في هيئته فصاحوا جميعا وقالوا : ﴿ أَعْيُنَكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ﴾ سؤال كله دهشة وإثارة وهم ينظرون إليه يتفحصون ملامح وجهه وبنية جسده ، ثم يجيلون النظر في أبهة ملكه وعرشه ومجلس قصره ، ثم يعيدون النظر مرة أخرى إليه نظر تفحص وتأكد ، ثم يتبادلون النظر فيما بينهم مستنكرين مستغربين مندهشين قد عقدت المفاجأة ألسنتهم ، والموقف حواسهم ، لهذا فقد سارع يوسف - عليّ - بالإجابة سريعا وهو يعلم مدى هذه الدهشة : ﴿ قَالَ أَنَا

(١) سورة يوسف ، آية (٨٩) .

(٢) الكشف ص (٥٢٨) .

يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
 الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ مفاجأة ! مفاجأة عجيبة ، يعلنها لهم يوسف ، ويذكرهم في إجمال بما
 فعلوه بيوسف وأخيه في دفعة الجهالة . . . ولا يزيد . . . سوى أن يذكر منة الله عليه
 وعلى أخيه ، معللاً هذه المنة بالتقوى والصبر ، وعدل الله في الجزاء .

أما هم فتمثل لعيونهم وقلوبهم صورة ما فعلوا بيوسف ، ويجللهم الخزي والحجل وهم
 يواجهونه محسناً إليهم ، وقد أسأؤوا ، حليماً بهم وقد جهلوا ، كريماً معهم وقد وقفوا منه
 موقفاً غير كريم « (١) .

لقد جعل يوسف - عليهما السلام - هذا الموقف مناسبة لتقرير حقيقة إيمانية يعلل بها لإخوته
 المشدوهين السبب في إنعام الله عليه ، وفي إيصاله إلى ما وصل إليه فيقول : ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ
 وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿٩٠﴾ (٢) .

نعم ، هذه هي القاعدة الإيمانية الربانية التي قررها يوسف - عليهما السلام - والتي علل بها
 سر توفيقه وعناية الله به .

لقد تحققت فيه صفات ثلاث ، أهلتها لنيل فضل الله وإنعامه وهي : التقوى ، والصبر ،
 والإحسان . ولم تفارق هذه الصفات نبي الله يوسف - عليهما السلام - في أي مرحلة من مراحل
 حياته منذ أن كان في بيت العزيز إلى دخوله السجن ودعوته إلى الله فيه ، إلى مقابلته للملك
 وولايته الوزارة ، إلى تعامله مع إخوته .

لقد كان في كل هذه المراحل والمواقف تقياً صابراً محتسباً ، وقد كافاه الله على صبره
 وإحسانه وتقواه أحسن الجزاء في الدنيا ، فبلغ أعلى الدرجات وتسبب أعلى المناصب .

« فيوسف - عليهما السلام - اتقى الله وصبر ، وبنيامين صبر ولم يعص الله فكان تقياً ، أراد

(١) في ظلال القرآن (٤/٢٠٢٧) .

(٢) سورة يوسف ، آية (٩٠) .

يوسف - عليه السلام - تعليمهم وسائل التعرض إلى نعم الله تعالى ، وحثهم على التقوى ، والتخلص بالصبر تعريضاً بأنهم لم يتقوا الله فيه وفي أخيه ، ولم يصبروا على إثارة أبيهم إياهما عليهم . وهذا من أفانين الخطابة أن يغتنم الواعظ الفرصة لإلقاء الموعدة ، وهي فرصة تؤثر السامع وانفعاله وظهور شواهد صدق الواعظ في موعدته » (١) .

« إن من أمعن النظر في قصة يوسف - عليه السلام - علم يقيناً أن التقى الأمين لا يضيع الله سعيه ، بل يحسن عاقبته ويعلي منزلته في الدنيا والآخرة ، وأن المعتصم بالصبر لا يخشى حدثان الدهر وتجاربه ، ولا يخاف صروفه ونوائبه ، فإن الله يعضده وينجح مسعاه ، ويخلد ذكره العاطر على ممر الأدهار ، فإن يوسف - عليه السلام - لما لم يخش للنوائب وعيداً ، ولا للتجارب تهديداً ، ولم يخف للسجن ظلماً وشرّاً ، ولا للتكليل به ألماً وضرّاً ، بل ألقى توكله على الرب ، وصبر إزاء تلك البلية ، ثابت القلب ، نال بطهارته وتقواه تاج الفخر ولسان الصدق طول أيام الدهر ، وها أن فضيلته لم يعف جميل ذكراها مرور الأيام ، ولم يعبث بنضارتها كرور الأعوام ، بل ادخرت لنا مثلاً تقتفي أثره عند طروء التجارب ، وملاذناً نعوذ به في المحن والمصائب ، ومقتدى نتدرب به على التثبت في مواقف العثار ، وننهج منهاجته في التقوى وطيب الإزار ، فننال في الدنيا سمة المجد ، ونفوز في الآخرة بدار الخلد » (٢) .

لهذا لما ذكر يوسف - عليه السلام - نعمة الله ومنته عليه وعلى أخيه ، وبين لهم سبب هذا الفضل وذلك الاستحقاق ؛ اعترفوا له بالفضل طوعاً وقالوا : ﴿ تَاللّٰهِ لَقَدْ ءَاتٰرَكَ اللّٰهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخٰطِئِينَ ﴾ .

قال الرازي :

« آثر ك إيثاراً ، أي فضلك الله ، وفلان آثر عبد فلان ، إذا كان يؤثره بفضله وصلته ، والمعنى : لقد فضلك الله علينا بالعلم والحلم والعقل والفضل والحسن والملك ، واحتج بعضهم بهذه الآية على أن إخوته ما كانوا أنبياء ؛ لأن جميع المناصب التي تكون مغايرة

(١) التحرير والتنوير (٤٩/١٣) .

(٢) محاسن التأويل (٤١٣/٩) .

لمنصب النبوة كالعدم بالنسبة إليه ، فلو شاركوه في منصب النبوة لما قالوا : ﴿ تَأَلَّه لَقَدْ
ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيئِينَ ﴾ (١) .

﴿ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ أي : فضلك علينا بالتقوى والصبر وسيرة المحسنين ،
وإن شأننا وحالنا أنا كنا خاطئين متعمدين للإثم ، لم نتق ولم نصبر ، لا جرم أن الله أعزك
بالملك ، وأذلنا بالتمسكن بين يديك » (٢) .

« فهذا اعتراف منهم بتفضيله عليهم بالتقوى والصبر وسيرة المحسنين ، وإن كان
شأنهم لخاطئين . قال أحدهم : المخطئ من أراد الصواب فصار إلى الخطأ ، ومنه قولهم :
المجتهد يخطئ ويصيب ، والخاطئ من تعمد ما لا ينبغي » (٣) .

قال الراغب :

« الخطأ : العدول عن الجهة ، وذلك أضرب : أحدها : أن يريد غير ما تحسن
إرادته ، فيفعله ، وهذا هو الخطأ التام المأخوذ به الإنسان ، يقال : خَطِيئٌ يَخْطِئُ خَطِيئًا
وخطِئَةً ، قال تعالى ﴿ وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيئِينَ ﴾ . والثاني : أن يريد ما يحسن فعله ،
لكن يقع منه خلاف ما يريد ، فيقال : أخطأ إخطاءً فهو مخطئ ، وهذا قد أصاب في
الإرادة وأخطأ في الفعل ، وهو المعنى بقوله - عليه الصلاة والسلام - : « رفع عن أمي
الخطأ والنسيان » (٤) . والثالث : أن يريد ما لا يحسن فعله ويتفق منه خلافه ، فهذا مخطئ
في الإرادة ومصيب في الفعل ، فهو مذموم بقصده ، وغير محمود على فعله . . . » (٥) .

لقد كان موقف إخوة يوسف - عليهما السلام - أمامه محرراً لهم أشد الإحراج ، مخزياً لهم

(١) مفاتيح الغيب (٥٠٥/١٨) .

(٢) الكشف ص (٥٢٩) .

(٣) دعوة الرسل لأحمد العدوي ص (١٤٩) .

(٤) أخرجه ابن ماجه ي سننه ، كتاب الطلاق ، باب طلاق المكره والناسي (٦٥٩/١) برقم (٢٠٤٥) ،

وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٣٦/١) ، والإرواء (٨٢) .

(٥) المفردات ص (٢٨٧) .

أعظم الخزي ، لا سيما وأنهم قد علموا أن هذا العزيز الذي كانوا يدخلون عليه قبل ذلك هو يوسف ، ورأوا ما قابلهم به من إكرام وضيافة وحسن خلق ، مع معرفته بهم سلفاً وما فعلوه به ، ثم اتهمهم إياه بالسرقة كذباً وبهتاناً ، فما زاع عن طريق الحلم والكرم والأدب بعقاب لهم أو تعنيف أو إيذاء ، كل هذا تذكره في تلك اللحظات العصبية المخرجة التي لو وقفها أحد من الناس لتمنى انشقاق الأرض عنه .

لهذا أحس يوسف بهذا الشعور الذي تخالجه ، وذلك الموقف الذي تملكهم ، فسارع في إعلان العفو الكريم ، وقال لهم كلمته العظيمة الدالة على أخلاق النبوة السامية ، والمروءة العالية : ﴿ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (١) ، وهل هناك أدب بعد هذا الأدب ، وكرم بعد هذا الكرم ، وسماحة للنفس ، وصفاء ونقاء للقلب ، وطهارة للروح بعد هذا الفعل .

لعمري هذه المواقف ، وهذه الأخلاق لا يرتقي لها إلا مقام النبوة ، وهمم الأنبياء الذين جبلهم على الكمال في أخلاقهم المعصومة من الوقوع في الرذائل والخطايا .

نعم ، تلك هي النبوة التي جاءت لترتقي بالنفس البشرية إلى سماوات الأخلاق الفاضلة الكريمة المبنية على التسامح بين الخلق ، المرتكزة على العفو والصفح وعدم الانتصار للنفس الأمانة بالسوء .

لقد كان باستطاعة يوسف - عليه السلام - الانتصار وأخذ حقه ، ومقابلة السيئة بالسيئة

﴿ وَلَمَنْ أَتَّصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ ﴾ (٢) .

كان باستطاعته محاسبة إخوته وعقد مجلس محاكمة لهم ، والتحقيق في جرائمهم ضده وضد أخوه ، ومعرفة المتسبب فيها ودوافعها وما نتج عنها ، ومن ثم فرض العقاب الشرعي

(١) سورة يوسف ، آية (٩٢) .

(٢) سورة الشورى ، آية (٤١) .

وتطبيقه على الظالم الغاشم ﴿ وَجَزَاُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةً مِّثْلَهَا ﴾ (١) ، لكن أنى لني الله يوسف الذي جمع الحسينين : شطر الحسن في خلقه ، وكمال الحسن في خلقه وشمائله - عليه الصلاة والسلام - .

لقد ضرب مثلاً في التسامح والعفو عند المقدرة ، وهو بهذا يذكرنا بجيبينا المصطفى - ﷺ - عندما قال كلمته الشهيرة الجارية مجرى الأمثال شهرة واستفاضة في فتح مكة : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ، هكذا فعل يوسف - ﷺ - مع إخوته ؛ حلم وعفى وصفح عن هؤلاء الذين أذاقوه أنواع الإيذاء ، وائتمروا على قتله ، وأخرجوه من داره ، ورموه في البئر ، وفرقوا بينه وبين أحب الناس إلى قلبه ، وفعلوا معه ما لا يطاق ، ومع ذلك كله فهو يحلم ويعفو ويصفح ، بل ويكرم ويعطي ويجزل العطاء .

إنه عفو الأنبياء - ﷺ - ، ذلك الخلق النبوي الذي طبعه الله في قلوب أنبيائه ، وزرعه في قرارة نفوسهم ، فتخلقوا به وتعاملوا به ، وكيف لا وهو خلق ناشئ عن الرحمة ، والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - هم في حقيقتهم رحمة أرسلها الله كافة للعالمين .

لقد كان يوسف - ﷺ - من الذين إذا ما غضبوا هم يغفرون ، فيتجاوزون ويصفحون عن أساء إليهم ؛ لما هم عليه من التأخي والتحاب والصفح والعفو الذي جبلوا عليه .

يقول الفخر الرازي - رحمه الله - :

« وإنما خص الغضب بالغفران ؛ لأن الغضب على طبع النار واستيلاؤه شديد ، ومقاومته صعبة ، فلهذا السبب خصه بهذا اللفظ » (٢) .

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

« والتثريب : اللوم والعقوبة وما جرى معهما من سوء معتقد ونحوه ، وقد عبر بعض الناس

(١) سورة الشورى ، آية (٤٠) .

(٢) مفاتيح الغيب (٦٠٣/٢٧) .

عن التثريب بالتعبير « (١) .

فالتثريب : التعبير والتوبيخ والتأنيب ، وأصله - كما يقول الألويسي (٢) - : من الثرب ، وهو الشحم الرقيق في الجوف وعلى الكرش . . . فاستعير للتأنيب الذي يمزق الأعراض ، ويذهب بهاء الوجه ؛ لأنه بإزالة الشحم يبدو الهزال ، كما أنه بالتأنيب واللوم تظهر العيوب ، فالجامع بينهما طريان النقص بعد الكمال .

أي : قال يوسف لإخوته على سبيل الصفح والعفو : يا إخوتي : لا لوم ولا تأنيب ولا تعبير عليكم اليوم ، فقد عفوت عما صدر منكم في حقي ، وفي حق أخي من أخطاء وآثام ، وأرجو الله - تعالى - أن يغفر لكم ما فرط منكم من ذنوب وهو - سبحانه - أرحم الراحمين بعباده .

فانظر كيف عقب على عفوه لهم بدعوته لهم بالمغفرة في دلالة واضحة على صدق هذا العفو وصفائه ونبل دوافعه .

وأختم مشاهد الأدب لهذا النبي الكريم - ﷺ - بمشهد أدبي لطيف ، يدل على رقة طبع وحياء وحسن تأني في الخطاب ، وعفة اللسان في حديثه لأبيه في قوله تعالى :

﴿ يَأْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىٰ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۗ ﴾ (٣) .

يقول يوسف متحدثاً بنعمة الله : ﴿ يَأْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىٰ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ أي هذا السجود الذي سجدتموه لي الآن ، وهو السجود الذي ذكره الله تعالى

(١) المحرر الوجيز (١٤٦/٥) .

(٢) روح المعاني (٦٥/١٣) .

(٣) سورة يوسف ، آية (١٠٠) .

في هذه الآية في قوله : ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۝ ﴾ هو تفسير رؤياي التي رأيتها في صغري ، فقد جعل ربي هذه الرؤيا حقًا ، وأراني تأويلها وتفسيرها بعد أن مضى عليها الزمن الطويل .

قالوا (١) : وكان بين الرؤيا وبين ظهور تأويلها أربعون سنة .

والمراد بهذه الرؤيا ما أشار إليه القرآن في مطلع هذه السورة في قوله : ﴿ يَا بَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ۝ ﴾ (٢) ، ثم قال يوسف لأبيه أيضًا : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيَ - رَبِّي - وَكَفَّ - ﴾ ﴿ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ بعد أن مكثت بين جدرانها بضع سنين .

وعُدِّي فعل الإحسان بالباء مع أن الأصل فيه أن يتعدى بإلى ؛ لتضمنه معنى اللطف ، وانظر هنا أنه لم يذكر نعمة إخراجها من الحب ، حتى لا يجرح شعور إخوته الذين سبق أن قال لهم : ﴿ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۝ ﴾ (٣) وهذا فيه أدب عظيم ، وحياء جميل .

وقوله : ﴿ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ﴾ معطوف على ما قبله ؛ تعدادًا لنعم الله - تعالى - . أي : وقد أحسن بي ربي حيث أخرجني من السجن ، وأحسن بي أيضًا حيث يسر لكم أموركم ، وجمعني بكم في مصر ، بعد أن كنتم مقيمين في البادية في أرض كنعان بفلسطين .

وقوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ تَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۝ ﴾ أي : جمعني بكم من بعد أن أفسد الشيطان بيني وبين إخوتي ، حيث حملهم على أن يلقوا بي في الحب .

(١) تفسير الطبري (٣٠٤/٧) .

(٢) سورة يوسف ، آية (٤) .

(٣) سورة يوسف ، آية (٩٢) .

« وأصل ﴿ تَزَعَّ ﴾ من النزع بمعنى النخس والدفع ، يقال : نزغ الراكب دابته إذا نخسها ودفعها ؛ لتسرع في سيرها » (١) .

وهنا أسند يوسف - عليه السلام - النزغ إلى الشيطان ؛ لأنه هو الموسوس به ، والدافع إليه ، ولأن في ذلك سترًا على إخوته وتأدبًا معهم ، فكأنه يقول : إن ما حصل من إخوتي تجاهي إنما كان بسبب الشيطان ونزغه وإغوائه ، وكأنه بذلك يعتذر لهم ما بدر منهم .

ما أجمال هذا الخلق ، وما أرق هذه الآداب التي حفلت بها هذه السورة في هذه القصة العظيمة التي وصفها الله بأحسن القصص ، فليس هناك أحسن منها في القرآن .

يقول السعدي - رحمه الله - :

« إن هذه من أحسن القصص وأوضحها ؛ لما فيها من أنواع التنقلات من حال إلى حال ، ومن محنة إلى محنة ، ومن محنة إلى منحة ومنة ، ومن ذل إلى عز ، ومن أمن إلى خوف وبالعكس ، ومن ملك إلى رق وبالعكس ، ومن فرقة وشتات إلى ائتلاف واجتماع ، ومن ضيق إلى سعة ، ومن وصول عواقب حميدة ، فتبارك من قصها وجعلها عبرة لأولي الألباب » (٢) .

نعم ، إنها قصة تتحدث عن مجموعة من الغرائز والطبائع والمواقف البشرية ، وتأثير هذه الطبائع والغرائز في الحياة الاجتماعية ، وتأثير الدعوة الربانية في إصلاحها وفي إصلاح هذه الغرائز والطبائع وتهدئتها وتوجيهها .

تتحدث عن الغيرة والحسد الذي قد ينهش قلوب أقرب الأقربين ، ويعمي أبصارهم ، وعن المؤامرات والمناورات التي تنبع من هذه الغريزة المدمرة وتنشأ عنها .

تتحدث عن الفساد الأخلاقي والانحلال الذي يعتلي الحياة الاجتماعية المترفة ، والظلم

(١) روح المعاني (٧٦/١٣) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص (٤٠٧) .

الذي يتفشى عادة بأسباب أولئك المترفين .

تتحدث عن الصراع ، صراع الشهوة الغريزية الجنسية بين ثبات و صمود الاتقياء من الشباب الصالحين ، وعباد الله المخلصين ، وبين المتدهورين المنحطين من المترفين الفاسدين .

تتحدث عن عاقبة الصبر والثبات في الشدائد والحن والابتلاءات ، وهذه العاقبة هي التمكين في الأرض ، والنصر على الأعداء .

كل هذه الجوانب الإنسانية تتحدث عنها هذه السورة العظيمة في قالب قصصي بديع ، وأسلوب قرآني رفيع ، ولكن القصص القرآني يتحدث عن الحقائق وليس عن الخيالات .

إنه يتحدث عن تجارب الأمم السابقة ، وبعض الشخصيات السابقة من الأنبياء والمرسلين ، أو من غيرهم ، وما واجههم من وقائع وحوادث كلها حقيقة ثابتة ، ووحى منزل ، ومن أتى بها لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى .

فالقصاص القرآني حقيقي ، ولهذا بدأت هذه السورة العظيمة سورة يوسف وهي أروع مثال ، وأطول مثال للقصاص القرآني ، بدأت بقول الله تعالى في الآية الثالثة منها :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (١) ، وختمت هذه السورة بقوله تعالى في آخر آية منها :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) .

فالشأن في القصاص القرآني ليس كالأشأن الذي يكتبه القصاصون من الناس عادة ،

(١) سورة يوسف ، آية (٣) .

(٢) سورة يوسف ، آية (١١١) .

حيث يتخيل القاص من الناس الشخصية والحوادث والمواقف .

كلا . . . فالقصص القرآني ما كان حديثاً يفترى ، وليس للخيال ولا للافتراء فيه أي نصيب ، إنه يتحدث عن شخصيات حقيقية وعن حوادث ووقائع ومواقف صادقة ، ولكن بأسلوب بديع رفيع محكم ، لا ترقى إليه أي قصة مكتوبة ، أو رواية محبوكة .

وفي هذا درس لأهل الأقلام والمواهب أن يتعلموا من القرآن فيستغلوا مواهبهم ، ويسخروا أقلامهم ؛ حتى تكون أداة رحمة وهدى ، ويظهروا للناس ما يحتاجون إليه من دروس وعبر وعظات وحكم عبر هذه القصص وبين طياتها .

إن الدعوة والإصلاح يحتاجان إلى تنوع الأساليب ، وتحديد الطرق التربوية ، فالنفوس البشرية طبعت على حب التغيير ، وطبعت على الملل ، وهاهو القرآن يعلمنا في هذه السورة العظيمة أول درس الذي هو موجه بالدرجة الأولى للمصلحين والموجهين وأرباب التربية .

لا بد من تنوع الأساليب ، واستغلال سائر الوسائل المتاحة التي يأذن بها الشرع وتصريفها في أبواب الخير ، ومنها أسلوب القصة ، القصة مكتوبة أو مسموعة أو مرئية ، حيث إنها من أشد وسائل التربية تأثيراً في النفوس ، وهاهو القرآن يقدم لنا مثلاً من أروع الأمثلة لهذا اللون من ألوان البيان ، وهذا الأسلوب من أساليب الإصلاح .

النفوس تمل ، ولذلك لا بد من استخدام جميع الأساليب المتاحة والوسائل المباحة .

فعن عبد الله قال : « إن أصحاب رسول الله - ﷺ - ملوا ملة - أي : اعتراهم الملل في يوم من الأيام - فقالوا للرسول - ﷺ - : حدثنا ، فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا ﴾ (١) « (٢) .

(١) سورة الزمر ، آية (٢٣) .

(٢) تفسير ابن جرير الطبري (١٤٧/٧) .

وعن سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - قال : « إن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا له : هلا حدثنا ، فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا ﴾ ، فقالوا : هلا قصصت علينا ، فأنزل الله : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ (١) ، فقالوا : هلا ذكرتنا ، فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ (٢) « (٣) .

فهذه ثلاثة أساليب - الحديث ، والقصة ، والتذكير - كلها من ألوان البيان وأساليب البيان ، وقد استخدمها القرآن واستخدم غيرها من الأساليب التي ترسم المنهج الحق للداعية في الدعوة إلى الله تعالى ، كما قال في هذه السورة : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٤) .

والأمة اليوم قد بعدت عن عهد النبوة ، فشاع في جوانبها بعد عن المنهج النبوي في كثير من المجتمعات الإسلامية ، وخصوصاً في جانب الأخلاق والأدب الذي إذا انعدم انعدمت بقية جوانب البناء والاستمرارية في اليوم .

ولهذا الخلل المنهجي تأخر الانتصار ، وضعفت النتائج ، وفي هذه السورة واقع للمنهج النبوي من حيث أهمية الأخلاق والأدب في حياة الناس ، وهذا المنهج الذي إن أخذنا به فلن نضل بعده أبداً ؛ مصداقاً لقول النبي - ﷺ - : « تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما :

-
- (١) سورة يوسف ، آية (٣) .
 (٢) سورة الحديد ، آية (١٦) .
 (٣) تفسير ابن جرير الطبري (١٤٨/٧) ، وأخرجه الحاكم بنحوه في مستدرکه (٣٧٦/٢) وقال : « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .
 (٤) سورة يوسف ، آية (١٠٨) .

كتاب الله وسنتي» (١) ، في دلالة واضحة أن النجاة والسلامة والسعادة بمقدار الالتزام بالكتاب والسنة والرجوع إليهما .

نعود لمشاهد أدب أنبياء - عليهم الصلاة والسلام - في القرآن الكريم مع ذوي القربى :

فمنها ما ذكره الله - تعالى - حكاية على لسان عيسى بن مريم - عليه السلام - من برّه بأمه مريم العذراء البتول في قوله تعالى : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ (٢) ، وهنا يذكر عيسى - عليه السلام - من نعم الله عليه وأفضاله ؛ برّه بأمه وإحسانه إليها .

قال : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ﴾ « البرور : الإكرام والسعي في الطاعة . والبرّ - بفتح الباء - وصف على وزن المصدر ، فالوصف به مبالغة . وأما البر - بكسر الباء - في اسم مصدر ؛ لعدم جريه على القياس » (٣) .

« تقول : برّ يبرّ براً فهو بارٌّ وبرٌّ وهم بررة وأبرار ، ومعنى ذلك : التوسع في الإحسان إلى الوالدين ووصلهما » (٤) .

والمعنى : جعلني الله باراً بوالدي ، محسناً لها ، مطيعاً لها ، ومكرماً لها ، وهذا من أدبه - عليه السلام - وبره بأمه ، وقيامه بحقها ، وتواضعه لها ، وخفض جناحه عندها .

قال ابن عاشور :

« وقد خصّه الله - تعالى - بين قومه ؛ لأنّ برّ الوالدين كان ضعيفاً في بني إسرائيل

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه من حديث أبي هريرة (١٧٢/١) .

(٢) سورة مريم ، آية (٣٢) .

(٣) التحرير والتنوير (٧٧/١٦) .

(٤) المعجم الوسيط ص (٤٨) .

يومئذ ، وبخاصة الوالدة ؛ لأنها تستضعف ؛ لأن فرط حنانها ومشقتها قد يجرئان الولد على التساهل في البرِّ بها « (١) .

ولهذا قال بعد ذلك : ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أي : لم يجعلني مستكبراً على الله فيما أمرني به ونهاني عنه ، بل جعلني متواضعاً متذللاً له في طاعته ، ومن ذلك بري بأمي وطاعتها والتواضع لها ، والخضوع عندها .

« وقد كان - عليّ السلام - في غاية التواضع ، يأكل الشجر ، ويلبس الشعر ، ويجلس على التراب ، ولم يتخذ مسكناً ، وكان - عليّ السلام - يقول : سلوني فأني لين القلب ، صغير في نفسي » (٢) .

وهنا تشير الآية إلى جانبين في شخصية عيسى - عليّ السلام - :

الجانب الأول : وهو بره بوالدته وهو جانب إيجابي أثبتته الله لنبيه عيسى - عليّ السلام - .

والجانب الثاني : وهو الجانب السلبي الذي نزّه الله شخصية عيسى - عليّ السلام - منه ، فلم يجعله جباراً شقياً .

« والجبار : المتكبر الغليظ على الناس في معاملتهم . والشقي : الخاسر والذي تكون أحواله كدرة له ومؤلمة ، وهو ضدّ السعيد . ووصف الجبار بالشقي باعتبار مآله في الآخرة ، وربما في الدنيا » (٣) .

ومن كان عاقاً لوالديه كان جباراً شقياً عصياً ؛ لأنه إذا لم يكن باراً بوالديه فكيف يكون رحيماً بالآخرين ؟ ومن لا خير فيه لوالديه لا خير فيه للآخرين .

قال بعض السلف : لا تجد عاقاً لوالديه إلا وجدته جباراً شقياً ، ثم قرأ : ﴿ وَبَرًّا ﴾

(١) التحرير والتنوير (١٦/١٠٠) .

(٢) روح المعاني (١٦/٥٤٣) .

(٣) التحرير والتنوير (١٦/١٠٠) .

بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ (١) (٢) .

فهذا جانب من أدب عيسى - عليه السلام - مع أمه أن وصف نفسه ببر أمه ، والقيام بما أمره الله به وأوجهه عليه .

كذلك نبي الله يحيى - عليه السلام - فإن الله امتدحه بأنه كان باراً بوالديه حين قال تعالى : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ (٣) « أي : وجعلناه كثير البر بوالديه ، أي محسناً إليهما ، لطيفاً بهما ، لين الجانب لهما . وقوله : ﴿ وَبَرًّا ﴾ معطوف على قوله : ﴿ تَقِيًّا ﴾ ، وقوله : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ (٤) أي : لم يكن مستكبراً عن طاعة ربه وطاعة والديه ، ولكنه كان مطيعاً لله ، متواضعاً لوالديه » (٤) .

وهذا المدح من الله - عز وجل - لأنبيائه ووصفهم بهذا الوصف يدل على فضل بر الوالدين ، لا سيما وأن الوالدين هم رأس ذوي القربى ، وأقرب القربين ، وأعظم حقوق العالمين على الإنسان بعد الأنبياء والمرسلين ، إذ أن جانب البر بالوالدين وصلتهما والقيام بحقوقهما جانب مهم ، فقد جعل الله ذلك في المرتبة التي تلي حق الله المتضمن لحقه وحق رسوله ، فقال تعالى : ﴿ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۗ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ (٥) ، وقال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ﴾ (٦) ، وبين العلة في ذلك إغراء للأولاد ، وحثاً لهم على الاعتناء بهذه الوصية فقال : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ (٧) أي : ضعفاً على ضعف ، ومشقة على مشقة في الحمل وعند الولادة ، ثم في

(١) سورة مريم ، آية (٣٢) .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢٢٩/٥) .

(٣) سورة مريم ، آية (١٤) .

(٤) أضواء البيان (٢٩٠/٤) .

(٥) سورة النساء ، آية (٣٦) .

(٦) سورة لقمان ، آية (١٤) .

(٧) سورة لقمان ، آية (١٤) .

حضنه في حجرها وإرضاعه قبل انفصاله فقال تعالى : ﴿ وَفَصَّلُ فِي عَامِينَ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ (١) .

ولقد جعل النبي - ﷺ - بر الوالدين مقدماً على الجهاد في سبيل الله . ففي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : سألت النبي - ﷺ - أي العمل أحب إلى الله تعالى قال : « الصلاة على وقتها » قلت : ثم أي ؟ قال : « بر الوالدين » قلت : ثم أي ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله » (٢) .

وفي صحيح مسلم أن رجلاً أتى النبي - ﷺ - فقال : أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله ، قال : « فهل من والديك أحد حي ؟ » قال : نعم ، بل كلاهما ، قال : « فتبغني الأجر من الله تعالى » قال : نعم : قال : « فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما » (٣) .

وفي حديث إسناده جيد أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إني أشتهي الجهاد ولا أقدر عليه ، قال : « هل بقي من والديك أحد ؟ » قال : نعم ، أمي ، قال : « قابل الله في برها فإذا فعلت ذلك فانت حاج ومعتمر ومجاهد » (٤) .

وقد أوصى الله تعالى بصحبة المعروف للوالدين في الدنيا وإن كانا كافرين ، بل وإن كان يأمران ولدهما المسلم أن يكفر بالله ، لكن لا يطيعهما في الكفر ، فقال تعالى : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا جَهْدَاكَ ﴾ أي : بذلا جهدهما ﴿ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا جَهْدَاكَ ﴾

(١) سورة لقمان ، آية (١٤) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة ، باب فضل الصلاة لوقتها (١١٢/١) برقم (٥٢٧) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال (٨٦/١) برقم (٨٥) .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب بر الوالدين وأنها أحق به (١٥٦٨/٤) برقم (٢٥٤٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - .

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط برقم (٢٩٣٦) ، وأبو يعلى في مسنده برقم (٢٧٦١) .

تُطْمَهْمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبَعَ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴿١﴾ .

وفي الصحيحين عن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنها - قالت : قدمت عليّ أمي وهي مشركة وكان أبو بكر قد طلقها في الجاهلية ، فقدمت علي ابنتها أسماء في المدينة بعد صلح الحديبية قالت أسماء : فاستفتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت : يا رسول الله ، قدمت علي أمي وهي راغبة ، أي : راغبة في أن تصلها ابنتها أسماء بشيء ، فأصل أمي يا رسول الله !؟ قال : « نعم صلي أمك » (٢) .

لهذا فإن بر الوالدين يكون ببذل المعروف ، والإحسان إليهما بالقول والفعل والمال ، أما الإحسان بالقول فإن تخاطبهما باللين واللطف مستصحباً كل لفظ طيب يدل على اللين والتكريم ، وأما الإحسان بالفعل فإن تخدمهما بيدنك ما استطعت من قضاء الحوائج والمساعدة على شؤونهما ، وتيسير أمورهما وطاعتهما في غير ما يضرك في دينك أو دينك ، والله أعلم بما يضرك في ذلك ، فلا تفت نفسك في شيء لا يضرك بأنه يضرك ثم تعصهما في ذلك . وأما الإحسان بالمال فإن تبذل لهما من مالك كل ما يحتاجان إليه طيبة به نفسك ، منشراحاً به صدرك ، غير متبع له بمنة ولا أذى ، بل تبذله وأنت ترى أن المنة لهما في ذلك في قبوله والانتفاع به .

وإن بر الوالدين كما يكون في حياتهما يكون أيضاً بعد مماتهما ، فقد أتى رجل من بني سلمة إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله ، هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما بعد موتهما ؟ قال : « نعم ، الصلاة عليهما - يعني الدعاء لهما - ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما - أي وصيتهما من بعدهما - ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما » (٣) .

(١) سورة لقمان ، آية (١٥) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الهبة ، باب الهدية للمشركين وقوله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ ﴾ (١٦٤/٣) برقم (٢٦٢٠) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الزكاة ، باب فضل الصدقة والنفقة

على الأقربين والزوج والأولاد والوالدين ولو كانوا مشركين (٥٧٧/٢) برقم (١٠٠٣) .

(٣) أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب الأدب ، باب في بر الوالدين برقم (٥١٤٢) ، وابن ماجه في كتاب =

الله أكبر ، ما أعظم بر الوالدين وأشملة ، حتى إكرام صديقيهما وصلته من برهما .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - أنه كان يسير في طريق مكة راكباً على حمار يتروح عليه إذا مل الركوب على الراحلة ، فمر به أعرابي فقال : أنت فلان بن فلان ؟ قال : بلى ، فأعطاه الحمار وقال : اركب هذا وأعطاه عمامةً كانت عليه ، وقال : اشدد بها رأسك ، فقالوا لابن عمر : غفر الله لك أعطيته حماراً كنت تروح عليه ، وعمامة تشد بها رأسك ، فقال ابن عمر : « إن هذا كان صديقاً لعمر ، وإني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : إن من أبر البر صلة الرجل أهل وُدّ أبيه » (١) .

هذا بيان منزلة البر وعظيم مرتبته ، أما آثاره فهي الثواب الجزيل في الآخرة ، والجزاء بمثله في الدنيا ، فإن من برّ بوالديه ، برّ به أولاده . وكذلك تفريج الكربات . ففي الصحيحين من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - في قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانطبقت عليهم صخرة فسدت عليهم فتوسلوا إلى الله تعالى بصالح أعمالهم أن يفرج عنهم فقال أحدهم : « اللهم إنه كان لي أبوان شيخان كبيران ، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً ، فنأى بي طلب الشجر يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما ، فحلبت غبوقهما فوجدتهما نائمين ، فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر ، فاستيقظا فشربا غبوقهما ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرت قليلاً ، وتوسل صاحباه بصالح من أعمالهما فانفجرت كلها وخرجوا يمشون » (٢) .

إنه لا يليق بعامل مؤمن أن يعلم فضل بر الوالدين وآثاره الحميدة في الدنيا والآخرة ثم

= الأدب ، باب صل من كان أبوك يصل برقم (٣٦٦٤) .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب فضل صلة أصدقاء الأب والأم ونحوهما (١٥٧١/٤) برقم (٢٥٥٢) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب البيوع ، باب إذا اشترى شيئاً لغيره بغير إذنه فرضي (٧٩/٣) برقم (٢٢١٥) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الذكر والدعاء ، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال (١٦٦٨/٤) برقم (٢٧٤٣) .

يعرض عنه ، ولا يقوم به ، أو يقوم بالعقوق والقطيعة ، فلقد نهى الله تعالى عن عقوق
الوالدين في أعظم حال يشق على الولد برهما فيها ، فقال تعالى : ﴿ إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ
الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ وَلَا تَنْهَرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا
﴿ ٢٣ ﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا

﴿ ٢٤ ﴾ (١) ، ففي حال بلوغ الوالدين الكبر يكون الضعف البدني والعقلي منهما ، وربما
وصلا إلى أرذل العمر الذي هو سبب للضجر والملل منهما ، وفي حال كهذه نهى الله الولد
أن يتضجر أقل تضجر من والديه وأمره أن يقول لهما قولاً كريماً ، وأن يخفض لهما جناح
الذل من الرحمة ، فيخاطبهما مخاطبة من يستصغر نفسه أمامهما ويعاملهما معاملة الخادم
الذي ذلّ أمام سيده ؛ رحمةً بهما ، وإحساناً إليهما ، ويدعو الله لهما بالرحمة كما رحماه في
صغره ، ووقت حاجته ، فربياه صغيراً .

إن على المؤمن أن يقوم ببر والديه ، وأن لا ينسى إحسانهما إليه حين كان صغيراً
لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، وأمه تسهر الليالي من أجل نومه ، وترهق بدنها من أجل
راحته ، وأبوه يجوب الفيافي ويتعب فكره وعقله وجسمه من أجل حصوله على معاشه
والإنفاق عليه ، ولكل منهما بر يجزاء عمله .

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه - أن رجلاً قال : يا رسول الله ، من أحق
الناس بحسن صحبتي ؟ قال : « أملك » قال : ثم من ؟ قال : « أملك » قال : ثم من ؟ قال :
« أملك » قال : ثم من ؟ قال : « أبوك » (٢) .

وفقنا الله جميعاً لبرّ أمهاتنا وآبائنا ، ورزقنا في ذلك الإخلاص وحسن القصد
والسداد ، إنه جواد كريم .

(١) سورة الإسراء ، آية (٢٣ - ٢٤) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب ، باب من أحق الناس بحسن الصحبة (٢/٨) برقم (٥٩٧١) ، ومسلم
في صحيحه ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب بر الوالدين وأتقوا أحق به (١٥٦٧/٤) برقم
(٢٥٤٨) .

كذلك من مواقف أدب الأنبياء في التعامل مع قرابتهم وحسن أخلاقهم معهم ؛ ما ذكره الله عن نبينا محمد - ﷺ - من تحريمه على نفسه ما أحله الله له ابتغاء مرضاة أزواجه ، في دلالة واضحة على حسن المعاشرة ، وكرم الأخلاق ، ولين الجانب .

يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) .

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات روايات متعددة ، منها : ما رواه الشيخان وغيرهما عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : « كان رسول الله - ﷺ - يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ، ويمكث عندها ، فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له : أكلت مغاير ؟ - والمغاير : صمغ حلو له رائحة كريهة - إني أجد منك ريح مغاير . فدخل على إحدهما فقالت له ذلك ، فقال : بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود إليه ، وقد حلفت ، فلا تخبري بذلك أحداً ، فترلت هذه الآيات » (٢) .

وروى ابن جرير عن زيد بن أسلم « أن رسول الله - ﷺ - أصاب أم إبراهيم مارية في بيت بعض نسائه - وفي رواية : في بيت حفصة - فقالت : يا رسول الله ، في بيتي وعلى فراشي ؟ فجعلها - أي : مارية - عليه حراماً ، وحلف بهذا . . . فأنزل الله هذه الآيات » (٣) .

قال القرطبي ما ملخصه :

« . . . والصحيح أن التحريم كان في العسل ، وأنه شربه عند زينب ، وتظاهرت

(١) سورة التحريم ، آية (١) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب التفسير ، باب ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ . . . الآية ﴿ (١٥٦/٦) ﴾ برقم (٤٩١٢) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الطلاق ، باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق (٨٩١/٢) برقم (١٤٧٤) .

(٣) تفسير الطبري (١٤٨/١٢) .

عليه عائشة وحفصة فيه ، فجرى ما جرى ، فحلف أن لا يشربه وأسرَّ ذلك ، ونزلت الآية في الجميع » (١) .

وقال الإمام ابن كثير بعد أن ساق عدداً من الروايات في هذا الشأن :

« والصحيح أن ذلك كان في تحريمه - ﷺ - للعسل » (٢) .

قال النووي (٣) في شرح مسلم : « الصحيح أن الآية في قصة العسل ، لا في قصة مارية المروية في غير الصحيحين ، ولم تأت قصة مارية من طريق صحيح » (٤) .

وأياً كان فما يهمننا في هذا المقام إلابيان ما كان عليه النبي - صلوات ربي وسلامه عليه - من حسن العشرة مع أزواجه بحيث أن تطلب رضاهن بمنع ما أحله الله له ؛ كرامة لهن ، وإرضاءً لغيرهن ، وتنازلاً عن حقه الشرعي ، وهذا فيه من حسن المعاشرة وأدب الأخلاق ما لم تعرف المرأة عشرة زوجية بالمعروف كما تعنيه هذه العشرة من كمال لأحد من البشر كما عرفته لرسول الله - ﷺ - .

ولا غرو في ذلك ؛ فلقد « كان من أخلاقه - ﷺ - مع أهله أنه جميل العشرة ، دائم البشر ، يداعبهم ويتلطف معهم ، ويوسعهم من نفقته ويضاحك نسائه ، حتى إنه كان يسابق عائشة - ﷺ - في البرية في بعض سفراته يتودد إليها بذلك ، قالت : « سابقني رسول الله فسبقته ، وذلك قبل أن أحمل اللحم ، ثم سابقته بعدما حملت اللحم فسبقني

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٥٩/١٨) .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٦٠/٨) .

(٣) هو : الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري بن حزام النووي ، نسبه إلى نوى من أعمال حوران في أرض الشام ، الملقب بمحيي الدين النووي ، كان أوحد زمانه علماً وعملاً وأمرًا . معروف ونهياً عن منكر ، ألف مؤلفات عظيمة نافعة منها : (شرحه على صحيح مسلم) ، و (المجموع شرح المهذب) ولم يتمه ، وغيرهما كثير ، توفي سنة (٦٧٦هـ) عن (٤٥) سنة . انظر : طبقات الشافعية (٤٧٦/٢) ، وشذرات الذهب (٣٥٤/٥) .

(٤) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٣١٨/١٠) .

فقال : هذه بتلك « (١) .

وكان يجمع نساءه كل ليلة في بيت التي يبني عندها رسول الله - ﷺ - - فيأكل معهن العشاء في بعض الأحيان ، ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها ، وكان ينام مع المرأة من نسائه في شعار واحد يضع عن كتفيه الرداء وينام بالإزار (٢) .

وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يسمر مع أهله قليلاً قبل أن ينام يؤنسهم بذلك - ﷺ - .

ولقد جعل النبي - ﷺ - معيار خيرية الرجال في حسن عشرة الزوجات فقال : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » (٣) ؛ وذلك لأن التصنع والتظاهر بمكارم الأخلاق تضعف حين يشعر الإنسان بأن له سلطة ونفوذاً ، ثم تشتد ضعفاً حين ما تطول معاشرته لمن له عليه السلطة ، فإذا ظل الإنسان محافظاً على كماله الخلق في مجتمع له عليه سلطة ، وله معه معاشرة دائمة ومعاملة مادية وأدبية ، فذلك من خيار الناس أخلاقاً (٤) .

فإن كان النبي - ﷺ - - خير الناس لأهله ، فإن معاشرته لهم لا بد أن تكون مثالية حقاً في كل ما تعنيه الخيرية من كمال خلقي في السلوك ، والتعامل الأدبي ، والتعامل مع محبة ، وملاعبة ، وعدل ، ورحمة ، ووفاء ، وغير ذلك مما تقتضيه الحياة الزوجية في جميع أحوالها وأيامها ، كما أوضحت ذلك كتب السنة والشمال والسيرة ، ولك في الآية السابقة خير دليل وبرهان على هذا الخلق النبوي العظيم ، وحسن المعاشرة مع زوجاته الذين هم أهله ، وأقرب قراباته ، وأحب الناس إليه .

وهكذا يتضح مما سبق ، أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مع قرابتهم ،

(١) أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب الجهاد ، باب في السبق على الرجل برقم (٢٥٧٨) .

(٢) ثبت ذلك في حاله - ﷺ - مع عائشة وأم سلمة - رضي الله عنهما - . انظر : السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين لابن حجر الهيتمي ص (٩٠ - ١٤٣) .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب المناقب ، باب فضل أزواج النبي - ﷺ - برقم (٣٨٩٥) من حديث عائشة - رضي الله عنها - ، وقال : « حسن غريب صحيح من حديث الثوري » .

(٤) انظر : الأخلاق الإسلامية للميداني (١ / ٤٤ - ٤٥) .

وكيف كانوا المثال الأعظم ، والقُدوة الحسنة ، والأسوة المثلى في التعامل والأدب
- صلوات ربي وسلامه عليهم - .



المبحث الثاني

أدبهم - عليهم الصلاة والسلام - مع الأتباع من أقوامهم ومن غيرهم

من أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - في القرآن الكريم أدبهم مع أتباعهم من قومهم ، ممن كانوا على ملتهم ، متبعين منهجهم ، مؤمنين بدينهم وشريعتهم ، أو كانوا موافقين لهم في الديانة والطريق .

ولا شك أنه أدب عظيم ، تجلى في صور الكمال والجلال ، مما جعل هؤلاء الأتباع يقتدون بهم ، وينهجون نهجهم ، ويسلكون طريقهم لقناعتهم أن هذا الأدب وذلك الطريق هو سبيل النجاة الحقيقية في الدنيا والآخرة ، ولما رأوا من صدق هؤلاء الأنبياء وأمانتهم ، ومن كان صادقاً مع الله صدق مع الناس طوعاً ، وكتبت محبته بين الناس .

وقد حفل القرآن الكريم بأمثلة ونماذج من هذا الأدب العظيم والخلق الكريم .

فمن الأمثلة القرآنية على هذا الأدب : أدب موسى - عليه السلام - في قصة الخضر حينما ذهب مع فتاه لمقابلة العبد الصالح الخضر .

وتأتي بداية هذه القصة كما حكاها البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث سعيد بن جبير (١) رحمه الله الصحيح الذي رواه عن ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عبدالله بن عباس رضي الله عنه قال : حدثنا أبي بن كعب أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول : « إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل ، فسئل أي الناس أعلم ؟ فقال : أنا ، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه أن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك ، قال موسى : يا رب فكيف لي به ؟ قال : تأخذ معك حوتاً فتجعله في

(١) هو : التابعي الجليل ، أحد الأعلام ، سمع من ابن عباس وعدي بن حاتم وجمعا من الصحابة - رضي الله عنهم - ، كان يقال له : جهيد العلماء ، قتله الحجاج الثقفي ، عامله الله بعدله ، سنة (٩٢ هـ) . انظر : تذكرة الحفاظ للذهبي (٧٦/١) ، وطبقات الحفاظ للسيوطي ص (٣٨) .

مكتل ، فحيث ما فقدت الحوت فهو ثم ، فأخذ حوتًا فجعله في مكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه . . . الحديث » (١) .

وقد وردت هذه القصة في قوله تعالى من سورة الكهف :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾
 فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنَّا جَاءْنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتِيَهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنَ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَبِعَكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخْرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنَ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأنبياء ، حديث الخضر مع موسى - عليه السلام - (١٥٤/٤) برقم

(٣٤٠١) ، ومسلم في كتاب الفضائل ، باب من فضائل الخير - عليه السلام - (١٤٧٣/٤) برقم

(٢٣٨٠) .

يُضَيِّفُوهَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ^ط قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ
أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا

﴿٧٨﴾ (١) .

القصة هذه من بدايتها إلى نهايتها نبع ثرٌّ من المعاني التربوية والآداب النبوية القرآنية
الرائعة ، في كل كلمة منحى بديع ، ولفتة راقية ، ونكتة أدبية ، ومعنى رائق .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ
أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ ﴿٦٠﴾ .

وهنا يظهر لك أدب نبي الله موسى - عليه السلام - من بداية هذه القصة حين ترى
الحماس المقرون بالتواضع للذهاب إلى العبد الصالح ، يريد أن يتعلم منه صلاح أمره في دنياه
وآخرته ، وهو نبي الله وكليمه ، وأحد أولي العزم من الرسل ، لم يمنعه هذا أن ينكص عن
طريق العلم ، أو يتكبر عليه ، وقد قالوا : (لن ينال العلم مستحي ولا متكبر) .

لهذا فعلى التلميذ أن يسعى إلى العلم لا أن يسعى المعلم إليه ، فالعلم يؤتى ولا يأتي ،
وهذا أكرم للعلم والمعلم والمتعلم ، فالعلم إن جاء سهل المتناول ؛ زهد المتعلم فيه ، وأعظم
للمعلم في عين المتعلم أن يسعى الأخير إلى الأول ؛ ليعرف قدره وقدر ما يحمله فيتعلق بهما .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ ﴾ وفتى موسى : خادمه وتابعه ، بإضافة الفتى إلى ضمير
موسى على معنى الاختصاص ، كما يقال : غلامه . وفتى موسى : هو يوشع بن نون من
سبط أفرايم . وقد قيل : إنه ابن أخت موسى (٢) .

﴿ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ ﴿٦٠﴾ « أي : لا أزال
مسافراً وإن طالت عليّ الشقة ، ولحقتني المشقة ، حتى أصل إلى مجمع البحرين ، وهو

(١) سورة الكهف ، آية (٦٠ - ٧٨) .

(٢) التحرير والتنوير (٣٥٩/١٥) .

المكان الذي أوحى إليه أنك ستجد فيه عبداً من عباد الله العالمين ، عنده من العلم ما ليس عندك . ﴿ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ أي : مسافة طويلة ، المعنى : أن الشوق والرغبة حمل موسى أن قال لفتاه هذه المقالة ، وهذا عزم منه جازم ، فلذلك أمضاه « (١) . وهنا نرى الإصرار العجيب من موسى - عليهما السلام - على لقاء المعلم والنهل من علمه ، نلمحه في قوله هذا ، فهو مصمم على بذل الجهد ليصل إلى مبتغاه ولو أمضى عمره يبحث عنه . ﴿ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ . وقد ذكر بعض العلماء (٢) أن الحقبة ثمانون سنة فما بالك بالجمع !؟ .

إنه دليل على الهمة العالية ، والسعي الحثيث إلى طلب العلم ، ومصاحبة العلماء ، وما يزال العلم بخير ما دام طالبوه يطلبونه في مجلسه ، ويوقرون حامله ، وقد ورد في الأثر : « نعم الأمراء على أبواب العلماء ، وبئس العلماء على أبواب الأمراء » (٣) .

وهذا نبي كريم ، على جلاله قدره ، وعلو مكانته يسعى إلى الرجل الصالح حين علم أن لديه علماً يستفاد لم يحزه موسى - عليهما السلام - ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (٤) .

وهنا نكتة لطيفة تظهر أدب نبي الله موسى - عليهما السلام - مع من يصاحبه واهتمامه به ، وذلك حين بين لغلامه من البداية بهدف السفر وغايته حتى يكون فتاه على علم بالتعب والإعياء التي يمكن مواجهتها في هذا السفر ، فيكون استعداده نفسياً وجسدياً ولا يأخذه على حين غرة ، كما أن في مصاحبة الكبير للصغير فائدة لكليهما ، فالأول يشرف على تربيته ويعلمه الحياة ويصوب أخطائه ، والثاني يخدمه ويعينه على قضاء حوائجه .

إن الإنسان مهما أوتي من العلم فعليه طلب المزيد ، وأن لا يعجب بعلمه ، فالله

(١) تيسير الكريم الرحمن ص (٤٨١) .

(٢) المفردات للراغب ص (٢٤٨) .

(٣) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١ / ٦٤٤) .

(٤) سورة يوسف ، آية (٧٦) .

- تعالى - يقول : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٨٥) (١) ، وطلب من نبيه - عليه الصلاة والسلام - أن يتضرع إليه بطلب زيادة العلم فقال : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (١١٤) (٢) .

إن الرحلة في طلب العلم من صفات العقلاء ، فموسى - عليهما السلام - وهو من أولي العزم من الرسل تجشم المشاق والمتاعب لكي يلتقي بالرجل الصالح ؛ لينتفع بعلمه ، وصمم على ذلك متحدياً لجميع العقبات ، بدليل قوله تعالى : ﴿ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ (٦٠) .

يقول القرطبي - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية :

« في هذا من الفقه رحلة العالم في طلب الازدياد من العلم ، والاستعانة على ذلك بالخدام والصاحب ، واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء وإن بعدت أقطارهم ، وذلك كان دأب السلف الصالح ، وبسبب ذلك وصل المرتحلون إلى الحظ الراجح ، وحصلوا على السعي الناجح ، فرسخت لهم في العلوم أقدام وصح لهم من الذكر والأجر والفضل أفضل الأقسام » (٣) .

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ (١١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنَّا جَدَاءْنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ (١٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ (١٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ (١٤)

(١) سورة الإسراء ، آية (٨٥) .

(٢) سورة طه ، آية (١١٤) .

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٣/١١) .

« ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا ﴾ أي فذهبا يمشيان إلى مجمع البحرين ، فلما بلغا ﴿ مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا ﴾ أي : البحرين ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ الذي جعل فقدهانه أمانة وجدان المطلوب ، فقد صح أن الله - تعالى - حين قال لموسى - عليه السلام - : إن لي بمجمع البحرين من هو أعلم ، قال موسى : يا رب فكيف لي به ؟ قال : تأخذ معك حوتًا فتجعله في مكث ، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم ، فأخذ حوتًا وجعله في مكث ثم انطلق وانطلق معه فتاه حتى إذا أتيا الصخرة وكانت عند مجمع البحرين وضعا رؤوسهما فناما ، واضطرب الحوت في المكث فخرج منه فسقط في البحر » (١) ﴿ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ .

« ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا ﴾ أي : المكان الذي فيه مجمع البحرين . ﴿ قَالَ ﴾ موسى - عليه السلام - لفتاه يوشع بن نون ﴿ ءَاتِنَا غَدَاءَنَا ﴾ أي : أحضر لنا ما نأكله من هذا الحوت المشوي الذي معنا ، ثم علل موسى - عليه السلام - هذا الطلب بقوله : ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ (٢) أي : تعبًا وإعياء . واسم الإشارة ﴿ هَذَا ﴾ مشار به إلى سفرهما المتلبسين به . قالوا : ولكن باعتبار بعض أجزائه ، فقد صح أنه - ﷺ - قال : « لم يجد موسى شيئاً من التعب حتى جاوز المكان الذي أمر به » (٣) . وهنا يتضح ضعف الإنسان حتى ولو كان جلدًا في كثير من أموره ولو كان من أولي العزم من الرسل ، ويتضح لك هنا من قول موسى - عليه السلام - : ﴿ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ (٣) أي : تعبًا وعناء ومشقة ، وجاء في بعض الروايات الصحيحة أنه لما قال ذلك لفتاه قال له : قطع الله عنك النصب (٣) .

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ (٤) .

(١) روح المعاني (٣٩٤/١٥ - ٣٩٥) .

(٢) المصدر السابق (٣٩٧/١٥) .

(٣) المصدر السابق .

(٤) سورة الكهف ، آية (٦٣) .

في هذا الموقف يتضح أن النسيان ضعف فطري في بني آدم قد يضيع على الإنسان كثيراً مما خطط ودبر .

فقد نام موسى - عليه السلام - حين سرب الحوت إلى الماء ، لكن الفتى لم يكن نائماً فرأى بأمر عينيه الأمر ولم يشأ أن يوقظ نبيه الكريم ؛ احتراماً وتقديراً على أنه سيخبره حين يستيقظ ، لهذا فقد سارا ونسيا مكان الحوت بمشيئة الله وتدييره .

ولما علم موسى بما حصل من أمر الحوت أجاب فتاه على الفور : ﴿ ذَلِكُ مَا كُنَّا نَبْعُ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ (١) .

« ﴿ قَالَ ﴾ أي : موسى - عليه السلام - ﴿ ذَلِكُ ﴾ الذي ذكرت من أمر الحوت ﴿ مَا كُنَّا نَبْعُ ﴾ أي : الذي كنا نطلبه من حيث أنه أمانة للفوز بما هو المطلوب بالذات ، ﴿ فَارْتَدَّا ﴾ أي : رجعا . ﴿ عَلَى آثَارِهِمَا ﴾ الأولى ، والمراد طريقيهما الذي جاء منه . ﴿ قَصَصًا ﴾ أي : يقصانه قصصاً أي : يتبعانها اتباعاً ، فهو من قص أثره إذا تبعه كما هو الظاهر » (٢) .

وهنا يظهر أدب فيه من سماحة الخلق من نبي الله موسى - عليه السلام - حين علم من نسيان فتاه لأمر الحوت فلم يعنفه ولم يؤنبه رغم ما سببه هذا النسيان من تعب وإعياء .

ثم إن موسى - عليه السلام - حين علم بهذا الخطأ لم يشغل بنفسه ولا فتاه بلوم ، فهناك أمر مهم جداً ، عليهما تداركه قبل فواته ، وهو لقاء الرجل المعلم ، ولهذا عادا سريعاً دون تضييع وقت ، بدليل قوله : ﴿ فَارْتَدَّا ﴾ وهذه الكلمة مع الفاء - حرف العطف والترتيب والتعقيب - تدلان على سرعة الحركة والعزم على الوصول بقوة إلى الهدف .

لهذا عادا من حيث جاءا يستهديان آثارهما بآثار الخطوات التي مشياها ؛ كي

(١) سورة الكهف ، آية (٦٤) .

(٢) روح المعاني (٤٠٠/١٥) .

لا ينحرفا عن الصخرة ، فكان عاقبة سرعتهما وجدهما أن وصلا إلى الهدف فوراً .

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ (٦٥)
 قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ
 مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنِ
 شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ
 أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ (١) .

تدبر هذه الآيات وتمعن فيها تجد فيها من الأدب النبوي العظيم ، والدرس التربوي ما تعجز الأقلام عن وصفه ، والسطور عن وصفه .

وهنا لا بد أن نعلم أن من صفات المعلم الرباني العبودية لله - ﷻ - ؛ لأن صلة العبد بربه تسمو به وتفتح له مغاليق الأمور ، ولهذا وصف الله سبحانه ذلك الرجل الذي ذهب إليه موسى ليتعلم منه بأنه ﴿ عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ (٦٥) « وهذا هو الخضر - عليه السلام - » (٢) .

﴿ ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا ﴾ « أي : نعمة . ﴿ مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ (٦٥) « أي : علم الباطن إلهاماً ولم يكن الخضر نبياً عند أكثر أهل العلم » (٣) .

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴾ (٦٦) « سؤال بتلطف ، لا على وجه الإلزام والإجبار ، وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم » (٤) .

(١) سورة الكهف ، آية (٦٥ - ٧٠) .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٧٥/٥) .

(٣) معالم التنزيل (٤٧/٣) .

(٤) تفسير القرآن العظيم (١٨١/٥) .

انظر إلى أدب نبي الله موسى - عليه السلام - وتلطفه في الطلب ، فلم يفرض نفسه على الخضر على الرغم بإخبار الله - تعالى - للخضر بلقائه موسى ليتعلم منه ، وإنما تطف في عرضه بصيغة الاستفهام التي تترك للمسؤول فرصة ومجالاً للتوصل إن أراد .

بل إنه من أدبه - عليه السلام - وتواضعه أن جعل نفسه تابعاً حين سأله بقوله : ﴿ هَلْ أَتَبِعُكَ ﴾ في إشارة تربوية إلى أن التلميذ تابع لأستاذه ومعلمه ، مسلم إليه قياده ، وهذا ادعى إلى التناغم بينهما والتوافق ، وهنا بيان إلى أن العلم يرفع صاحبه ، وهذا ما أقرب به موسى للخضر - عليه السلام - حين عرض عليه أن يتابعه شرط أن يعلمه ﴿ عَلَيَّ أَنْ تُعَلِّمَنِي ﴾ وهذه التبعية لا شك أنها ترفع المتعلم بخلاف التبعية من ذل أو لعاعة من دنيا يصيبها ، فهي سقوط للمتبوع وكبر للتابع .

كما أن من أدب نبي الله موسى - عليه السلام - في هذه الآية أنه كان واقعياً في طلبه التعليم من الخضر ، فلم يكلف معلمه شططاً ، ولم يطلب منه أن يعلمه كل شيء يعلمه ، إنما طلب منه أن يعلمه شيئاً مما علمه الله له ، ولهذا قال له : ﴿ مِمَّا عَلَّمْتَ ﴾ ، وهذا تواضع في الطلب ، وأدب في التعلم حين طلب منه ما تسمح وتطيب به نفسه .

وانظر إلى كلمة : ﴿ رُشِّدًا ﴾ وما فيها من طلب العلم النفيس الذي اختص الله به الخضر ، وأخفاه عن موسى ، فجاء موسى يطلبه ولم يطلب علماً دنيوياً إنما طلب ما فيه الهدى والرشاد الذي يبلغه المقام الأعلى في الدنيا والآخرة ، لهذا فحدد نوع العلم بقوله : ﴿ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشِّدًا ﴾ ﴿ ٦٦ ﴾ و ضد الرشد : الهوى والضلال ، وهذا لا أريده .

عند ذلك أجابه الخضر بقوله : ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ ﴿ ٦٧ ﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَيَّ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِءَ خُبْرًا ﴾ ﴿ ٦٨ ﴾ .

قال ابن كثير :

« أي : إنك لا تقدر يا موسى أن تصاحبي ؛ لما ترى من الأفعال التي تخالف

شريعتك ؛ لأني على علم من علم الله - تعالى - ما علمك إياه ، وأنت على علم من علم الله - تعالى - ما علمني إياه ، فكل منا مكلف بأمر من الله دون صاحبه ، وأنت لا تقدر على صحبتي » (١) .

يقول الرازي عند تفسيره لهذه الآية :

« اعلم أن المتعلم على قسمين : قسم متعلم ليس عنده شيء من العلم ولم يمارس القيل والقال ولم يتعود التقرير والاعتراض ، ومتعلم حصل العلوم الكثيرة ومارس الاستدلال والاعتراض . ثم إنه يريد أن يخالط إنساناً أكمل منه ليلبغ درجة التمام والكمال والتعلم في هذا القسم الثاني شاق شديد ؛ وذلك لأنه إذا رأى شيئاً أو سمع كلاماً فرمما كان ذلك بحسب الظاهر منكراً إلا أنه كان في الحقيقة حقاً صواباً ، فهذا المتعلم لأجل أنه أَلِفَ القيل والقال وتعود الكلام والجدال يغتر ظاهره ، ولأجل عدم كماله لا يقف على سره وحقيقته ، وحينئذ يقدم على النزاع والاعتراض والمجادلة ، وذلك مما يثقل سماعه على الأستاذ الكامل المتبحر ، فإذا اتفق مثل هذه الواقعة مرتين أو ثلاثة حصلت النفرة التامة ، والكراهة الشديدة ، وهذا هو الذي أشار إليه الخضر بقوله : ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ (٧) إشارة إلى أنه أَلِفَ الكلام وتعود الإثبات والإبطال والاستدلال والاعتراض ، وقوله : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ - خُبْرًا ﴾ (١٨) إشارة إلى كونه غير عالم بحقائق الأشياء كما هي ، وقد ذكرنا أنه متى حصل الأمران صعب السكوت ، وعسر التعليم ، وانتهى الأمر بالآخرة إلى النفرة والكراهية وحصول التقاطع والتنافر » (٢) .

لهذا فقد أجاب موسى - عليه السلام - الخضر بتواضع وأدب فقال له : ﴿ سَتَجِدُنِي إِنِ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ (٦٩) فانظر إلى الملاطفة ، وخفض الجناح ، ورقة العبارات ولطفها ، مع تقديم المشيئة فيها ؛ مما يدل على كمال أدب ، وحسن تأن ، وتواضع وعدم كبر من نبي الله موسى - عليه السلام - ، وفيه حرص على طلب العلم وتقديم

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٨١/٥) .

(٢) مفاتيح الغيب (٤٨٤/٢١) .

التنازلات ، وترك شهوات النفس الظاهرة والباطنة .

عند ذلك شارطه الخضر ﴿ قَالَ فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ ﴾ أي : ابتداءً . ﴿ حَتَّىٰ أَحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ أي : حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألني .

وهكذا انطلق موسى - عليهما السلام - مع الخضر يتعلم منه ما علمه الله من العلم اللدني الذي خفي على موسى ، وأطلع الله عليه الخضر ، وهو في كل حادثة وفي كل موقف يعارض الخضر على ما يفعله ، فيذكره الخضر بشرطه ، فيعتذر موسى - عليهما السلام - مرة بالنسيان وبعدم التشديد وإرهاق النفس بالعسر ، ومرة بالتعهد بالمفارقة إن هو عارض وأخرها بالوفاء بهذا العهد .

كل هذه الأحوال وموسى فيها متحلياً بأدب التواضع ، وطلب العلم ، والاحترام ، وتوقير العلماء ، وتنفيذ أوامرهم وطاعتهم ، والإجلال لمن يطلب عنده العلم وعدم الاستكبار والإصرار على المخالفة .

فهذه قصة من قصص القرآن ظهر لنا فيها أدب نبي الله موسى - عليهما السلام - في العلم وحسن التعلم ولين الطبع والشمائل والتواضع في جنب الله .

يقول النووي - رحمه الله - :

« وفي هذه القصة أنواع من القواعد والأصول والفروع والآداب والنفائس المهمة ، منها أنه لا بأس على العالم والفاضل أن يخدمه المفضول ويقضي له حاجة ، ولا يكون هذا من أخذ العوض على تعليم العلم والآداب ، بل من مروءات الأصحاب وحسن العشرة . ومنها الحث على التواضع في علمه وفي غيره . ومنها بيان أصل عظيم من أصول الإسلام وهو وجوب التسليم لكلما جاء به الشرع وإن كان بعضه لا تظهر حكمته للعقول ، ولا يفهمه أكثر الناس » (١) .

وهكذا فقد صاحب موسى - عليهما السلام - الخضر ، وكان من أمره ما كان مما قصه

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم (١٥/١٤٢ - ١٤٣) .

القرآن علينا إلى أن فارقه ولم يكمل معه هذه الرحلة ، حتى أن نبينا محمداً - ﷺ - قال : « يرحم الله موسى ، لو كان صبر يقص الله علينا من أمرهما » (١) .

كذلك من مشاهد أدب أنبياء الله مع الأتباع نصرتهم في مواجهة الظلم الواقع عليهم ، ويتضح ذلك في قصة موسى - ﷺ - مع الإسرائيلي الذي من شيعته عندما تقابل مع القبطي الذي من عدوه .

يقول تعالى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفَلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يُقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعْتَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوُّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ (٢) .

في هذه القصة بين الله تعالى جانباً من جوانب شخصية موسى - ﷺ - ألا وهو جانب المروءة والشهامة والغيرة ، ونصرة المظلوم ، وكره الظلم وأهله .

لقد كان الأنبياء - ﷺ - محبوبون على الأخلاق الفاضلة والحصل الحميدة حتى قبل نبوتهم ، لا سيما وأن الله - سبحانه - قد عصمهم العصمة المطلقة من الوقوع في الرذائل وكبائر الذنوب ، وفي هذا الموقف أخذت الغيرة موسى - ﷺ - أن يرى أحد أشياعه وبني قومه مظلوماً مضطهداً ، منتهك الحق والكرامة ، لهذا فقد بادر بعلاج الموقف

(١) تقدم تخرجه ص (١٦٢) .

(٢) سورة القصص ، آية (١٥ - ١٩) .

سريعاً دون تردد .

يقول تعالى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ .

« والمراد بالمدينة : مصر ، وقيل : ضاحية من ضواحيها ، كعين شمس ، أو منف » (١) .

(وجملة : ﴿ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ حال من الفاعل ، أي : دخلها مستخفياً .

« قيل : والسبب في دخوله على هذه الحلة ، أنه بدت منه مجاهرة لفرعون وقومه بما يكرهون ، فخافهم وخافوه ، فاختفى وغاب ، فدخلها متنكراً » (٢) .

أي : وفي يوم من الأيام ، وبعد أن بلغ موسى سن القوة والرشد ، دخل المدينة التي يسكنها فرعون وقومه : ﴿ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ أي : دخلها مستخفياً في وقت كان أهلها غافلين عما يجري في مدينتهم من أحداث ، بسبب راحتهم في بيوتهم في وقت القيلولة ، أو ما يشبه ذلك . ﴿ فَوَجَدَ ﴾ موسى . ﴿ فِيهَا ﴾ أي : في المدينة . ﴿ رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾ أي : يتخاصمان ويتنازعان في أمر من الأمور . ﴿ هَذَا مِنْ شَيْعَتِهِ ﴾ أي : أحد الرجلين كان من طائفته وقبيلته . أي : من بني إسرائيل . ﴿ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ أي : والرجل الثاني كان من أعدائه وهم القبط الذين كانوا يسيمون بني إسرائيل سوء العذاب .

﴿ فَاسْتَعْتَهُ الَّذِي مِنْ شَيْعَتِهِ ﴾ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ أي : فطلب الرجل الإسرائيلي من موسى أن ينصره على الرجل القبطي . والاستغاثة : طلب الغوث والنصرة ، ولتضمنه معنى النصره عُدِّي بـ (على) .

﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾ والفاء هنا فصيحة ، والوكز : الضرب بجميع

(١) النكت والعيون (٢٤١/٤) .

(٢) روح المعاني (٣٥١/٢٠) .

الكف .

قال القرطبي :

« والوكز واللكز واللهز بمعنى واحد ، وهو الضرب بجميع الكف » (١) .

أي : فاستجاب موسى لمن استنصره به ، فوكز القبطي ، أي : فضربه بيده مضمومة أصابعها في صدره . ﴿ فَقَضَى عَلَيْهِ ۖ ﴾ أي : فقتله ، وهو لا يريد قتله ، وإنما كان يريد دفعه ومنعه من ظلم الرجل الإسرائيلي .

والتعبير بقوله - تعالى - : ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ۖ ﴾ يشير إلى أن موسى - عليه السلام - كان على جانب عظيم من قوة البدن ، كما يشير - أيضاً - إلى ما كان عليه من مروءة عالية ، حملته على الانتصار للمظلوم بدون تقاعس أو تردد .

ولكن موسى - عليه السلام - بعد أن رأى القبطي جثة هامدة ، استرجع وندم ، وقال : ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ ﴾ أي : قال موسى : هذا الذي فعلته وهو قتل القبطي ، من عمل الشيطان ومن وسوسته ، ومن تزيينه .

﴿ إِنَّهُ ۖ ﴾ أي : الشيطان . ﴿ عَدُوٌّ ۖ ﴾ للإنسان . ﴿ مُضِلٌّ ۖ ﴾ له عن طريق الحق . ﴿ مُبِينٌ ۖ ﴾ أي : ظاهر العداوة والإضلال .

ثم أضاف إلى هذا الندم والاسترجاع ، ندماً واستغفاراً آخر فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۖ ﴾ أي : قال موسى - عليه السلام - بعد قتله القبطي بدون قصد ، مكرراً الندم والاستغفار : يا رب إني ظلمت نفسي بتلك الضربة التي ترتب عليها الموت ، فاغفر لي ذنبي ، ﴿ فَغَفَرَ ۖ ﴾ الله - تعالى - . ﴿ لَهُ ۖ ﴾ ذنبه . ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢) .

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢٣٢/١٣) .

(٢) التفسير الوسيط ، لطنطاوي (٣٨٦/١٠) .

يقول القرطبي - رحمته - :

« ندم موسى - عليه السلام - على هذا الوكز الذي كان فيه ذهاب النفس ، فحمله ندمه على الخضوع لربه والاستغفار من ذنبه .

قال قتادة : عرف والله المخرج فاستغفر ثم لم يزل - عليه السلام - يعدد ذلك على نفسه مع علمه بأنه قد غفر له حتى إنه في يوم القيامة يقول : إني قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها وإنما عدده على نفسه ذنباً وقال : ﴿ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾ من أجل أنه لا ينبغي لربي أن يقتل حتى يؤمر ، وأيضاً فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم « (١) .

« ثم أكد موسى - عليه السلام - للمرة الثالثة ، توبته إلى ربه ، وشكره إياه على نعمه ، فقال : ﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ والظهير : المعين لغيره والناصر له . يقال : ظاهر فلان فلاناً إذا أعانه ، ويطلق على الواحد والجمع . ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وَالْمَلِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيراً ﴾ (٢) « (٣) .

يقول الزمخشري :

« قوله : ﴿ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ يجوز أن يكون قسماً جوابه محذوف ، تقديره : أقسم بإنعامك علي بالمغفرة لأتوبن ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ ، وأن يكون استعطافاً ، كأنه قال : رب اعصمني بحق ما أنعمت علي من المغفرة فلن أكون - إن عصمتني - ظهيراً للمجرمين . وأراد بمظاهرة المجرمين إما صحبة فرعون وانتظامه في جملة ، وتكثيره سواده ، حيث كان يركب بركوبه ، كالولد مع الوالد . وكان يسمى ابن فرعون ، وإما مظاهرة من أدت مظهرته إلى الجرم والإثم ، كمظاهرة الإسرائيلي المؤدية إلى القتل الذي لم يحل له . . . وقيل : معناه : بما أنعمت علي من القوة ، فلن استعملها إلا في مظاهرة أولئك وأهل طاعتك والإيمان بك ، ولا أدع قبضاً يغلب أحداً من

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢٣٢/١٣) .

(٢) سورة التحريم ، آية (٤) .

(٣) التفسير الوسيط ، لطنطاوي (٣٨٨/١٠) .

بني إسرائيل « (١) .

« وهذه الضراعة المتكررة إلى الله - تعالى - من موسى - عليه السلام - تدل على نقاء روحه ، وشدة صلته بربه ، وخوفه منه ، ومراقبته له - سبحانه - ، فإن من شأن الأخيار في كل زمان ومكان ، أنهم لا يعينون الظالمين ، ولا يقفون إلى جانبهم » (٢) .

ثم إن موسى - عليه السلام - ﴿ أَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اُسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِي مُبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۗ إِنَّ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ (٣) .

« يقول - تعالى - مخبراً عن موسى - عليه السلام - لما قتل القبطي : إنه أصبح ﴿ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا ﴾ أي : من معرفة ما فعل . ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ أي : يتلفت ويتوقع ما يكون من هذا الأمر ، فمر في بعض الطرق ، فإذا ذاك الذي استنصره بالأمس على ذلك القبطي يقاتل آخر ، فلما مر موسى استصرخه على الآخر ، فقال له موسى : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِي مُبِينٌ ﴾ أي : ظاهر الغواية ، كثير الشر . ثم عزم على البطش بذلك القبطي ، فاعتقد الإسرائيلي لحوره وضعفه وذلته أن موسى إنما يريد قصده لما سمعه يقول ذلك ، فقال يدفع عن نفسه : ﴿ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ﴾ وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسى - عليه السلام - ، فلما سمعها ذلك القبطي لقفها من فمه ، ثم ذهب بها إلى باب فرعون فألقاها عنده ، فعلم بذلك ، فاشتد حنقه ، وعزم على قتل موسى ، فطلبوه فبعثوا وراءه ليحضره لذلك » (٤) .

(١) الكشف ص (٧٩٦) .

(٢) التفسير الوسيط ، لطنطاوي (٣٨٩/١٠) .

(٣) سورة القصص ، آية (١٨ - ١٩) .

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢٢٥/٦) .

وهكذا يتضح لنا جانباً من شخصية موسى - عليه السلام - ، وأدباً من أدبه الأخلاقي السلوكي حين رأى الظلم أمامه فلم يقف مكتوف اليدين ، بل اندفع اندفاعاً يرد الظلم ويدفعه وينصر المظلوم .

يقول سيد قطب :

« عبارة : ﴿ إِنَّ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ ﴿١٩﴾ فتلهم أن موسى كان قد اتخذ له في الحياة مسلكاً يعرف به أنه رجل صالح مصلح ، لا يجب البغي والتجبر ، فهذا القبطي يذكره بهذا ويورثي به ، ويتهمه بأنه يخالف عما عرف عنه ، يريد أن يكون جباراً لا مصلحاً ، يقتل الناس بدلاً من إصلاح ذات البين ، وتهدة نائرة الشر ، وطريقة خطابه له وموضوع خطابه ، كلاهما يلهم أن موسى لم يكن إذ ذاك محسوباً من رجال فرعون ، وإلا ما جرؤ المصري على خطابه بهذه اللهجة ، ولما كان هذا موضوع خطابه » (١) .

ومن مشاهد أدب نبي الله موسى - عليه السلام - ما قصه الله لنا من توجهه إلى مدين ولقاءه بالرجل الصالح هناك ، وتزويجه إحدى بناته بعد أن سقى لهما .

يقول - تعالى - حكاية عن موسى - عليه السلام - :

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْبَتِ اسْتَجْرَهُ إِنِّ خَيْرٌ مِّنِ اسْتَجْرَتِ الْقَوِيُّ

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٢٦٨٤/٥) .

الْأَمِينُ ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٦٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكَيلٌ ﴿٦٨﴾ ﴿١﴾ .

في هذه القصة الممتعة يُظهر لنا القرآن جانباً عظيماً من جوانب شخصية كلِّ من الله موسى - عليهما السلام - وجملة من آدابه السلوكية والأخلاقية النبوية العظيمة التي جبلها الله عليها جبلة ، وطبعه عليها حلقة ؛ نعمة منه وفضلاً .

وبداية هذه القصة حينما توجه موسى - عليهما السلام - بعد أن انكشف أمره بقتل القبطي إلى مدين ، وسأل الله تعالى أن يهديه سواء السبيل .

ومدين مدينة تقع شرق مصر ، يقول عنها ياقوت الحموي :

« مدين على بحر القلزم محاذية لتبوك ، على نحو من ست مراحل ، وهي أكبر من تبوك ، وبها البئر التي استقى منها موسى - عليهما السلام - . ومدين اسم قبيلة ، وهي مدينة قوم شعيب .

وقيل : هي بين وادي القرى والشام ، وقيل : مدين تجاه تبوك بين المدينة والشام على ست مراحل ، وبها استقى موسى - عليهما السلام - « (٢) .

وحين وصل موسى - عليهما السلام - إلى هذه المدينة كتب الله له أن تكون محطته الأولى عند وصوله إلى مدين عين الماء التي يستقي منها أهل المدينة ، لهذا لما وصل إلى هذا الماء رأى منظرًا لفت نظره واسترعى انتباهه وهو أنه : ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ والمراد بالأمة هنا : أي : الجماعة من الناس ، أي أن موسى - عليهما السلام - وجد جماعة من الرعاة يسقون أغنامهم ومواشيهم وإبلهم من الماء

(١) سورة القصص ، آية (٢٣ - ٢٨) .

(٢) معجم البلدان (٧٧/٥ - ٧٨) .

بمجمعين حوله « ووجد ﴿ مِنْ دُونِهِمْ ﴾ في مكان أسفل من مكانهم . ﴿ أَمْرَاتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ والذود : الطرج والدفع ، وإنما كانتا تذودان ؛ لأن على الماء من هو أقوى منهما فلا يتمكنان من السقي . وقيل : كانت تكرهان المزاحمة على الماء . وقيل : لئلا تختلط أغنامهما بأغنامهم . وقيل : تذودان عن وجوههما نظر الناظر لتسترهما » (١) .

إن هذا منظر يثير انتباه نبي الله موسى - عليه السلام - ، المروءة بداخله متيقظة ، والغيرة متقدة ، وكرم النفس ، ونبل الخلق ، وأدب النبوة الراقي ؛ هو سيد الموقف هنا ، فماذا حصل ؟!

يقول سيد قطب - رحمه الله - :

« لقد انتهى به السفر الشاق الطويل إلى ماء لمدين ، وصل إليه وهو مجهود مكدود ، وإذا هو يطلع على مشهد لا تستريح إليه النفس ذات المروءة ، السليمة الفطرة ، كنفس موسى - عليه السلام - وجد الرعاة الرجال يوردون أنعامهم لتشرب من الماء ، ووجد هناك امرأتين تمنعان غنمهما عن ورود الماء ، والأولى عند ذوي المروءة والفطرة السليمة ، أن تسقي المرأتان وتصدرا بأغنامهما أولاً ، وأن يفسح لهما الرجال ويعينوهما ، ولم يقعد موسى الهارب المطارد ، المسافر المكدود ، ليستريح ، وهو يشهد هذا المنظر المنكر ، المخالف للمعروف ، بل تقدم للمرأتين يسألهما عن أمرهما الغريب : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ ؟ . ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ فاطلعتها على سبب انزوائهما وتأخرهما وذودهما لغنمهما عن الورود ، إنه الضعف ، فهما امرأتان وهؤلاء الرعاة رجال ، وأبوهما شيخ كبير لا يقدر على الرعي ومجالدة الرجال ، وثار نخوة موسى - عليه السلام - وفطرته السليمة ، فتقدم لإقرار الأمر في نصابه ، تقدم ليسقي للمرأتين أولاً ، كما ينبغي أن يفعل الرجال ذوو الشهامة ، وهو غريب في أرض لا يعرفها ، ولا سند له فيها ولا ظهير ، وهو مكدود قادم من سفر طويل بلا زاد ولا استعداد ، وهو مطارد ، من خلفه أعداء لا يرحمون ، ولكن هذا كله لا يقعد به عن تلبية دواعي المروءة والنجدة

(١) الكشف ص (٧٩٧) .

والمعروف ، وإقرار الحق الطبيعي الذي تعرفه النفوس . ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ﴾ مما يشهد بنبل هذه النفس التي صنعت على عين الله ، كما يشي بقوته التي ترهب حتى وهو في إعياء السفر الطويل ، ولعلها قوة نفسه التي أوقعت في قلوب الرعاة رهبته أكثر من قوة جسمه ، فإنما يتأثرا لناس أكثر بقوة الأرواح والقلوب . ﴿ ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ﴾ مما يشير إلى أن الأوان كان أوان قيظ وحر ، وأن السفارة كانت في ذلك القيظ والحر . ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (١٤) إنه يأوي إلى الظل المادي البليل بجسمه ، ويأوي إلى الظل العريض الممدود ، ظل الله الكريم المنان ، بروحه وقلبه ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (١٤) رب إني في الهاجرة ، رب إني فقير ، رب إني وحيد ، رب إني ضعيف ، رب إني إلى فضلك ومنك وكرمك فقير محوج .

ونسمع من خلال هذا التعبير رفرقة هذا القلب والتجاءه إلى الحمى الآمن ، والركن الركين ، والظل الظليل ، نسمع المناجاة القرابية والهمس الموحى ، والانعطاف الرفيق ، والاتصال العميق : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (١) .

نعم ، إنها آداب النبوة الكريمة التي كانت مشعل نور وهداية وسمو ورفعة ، تنقل بها هؤلاء الصفوة من أرض الله ، ينشرون المثل العليا ، ويزرعون النبل في النفوس ، ويحيون ضمير الإنسانية الميت .

إن موسى - عليه السلام - حينما رأى منظر المرأتين وهما تذودان أغنامهما وتحاولان جاهدتين إبعادهما قدر ما تستطيعان ، والرجال عند الماء يستقون ويتزاحمون عليه ، هاله هذا المنظر ، ونفرت منه طباعه السوية ، واشتمزت نفسه الأبية ، فاستنكر الموقف واستهجنه ، لدرجة أنه بادر المرأتين بسؤالهما : ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ ؟ وانظر لكلمة ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ وما فيها من دلالة الأهمية وخطورة الموقف .

(١) في ظلال القرآن (٢٦٨٥/٥ - ٢٦٨٦) .

يقول الراغب :

« الخطب : الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب » (١) .

وكان موسى - عليهما السلام - استنكر هذا المنظر فطرة وبداهة ، لدرجة أنه ذهب يستفسر ويسأل ويستوضح الأمر وكان فيه ما فيه .

وهنا يظهر لنا من أدب هاتين المرأتين وعفتهم وحيائهما ما يبهر الألباب حين اعتزلتا الناس وابتعدتا عن مزاحمة الرجال ، على الرغم من حاجتهما وشدة ضعفهما الذي يستدعي فعل كل شيء من أجل توفير ما يسدان به رمق شيخهما الطاعن في السن .

لم ينته هنا الموقف ؛ فبعد أن أجاب موسى - عليهما السلام - داعي المروءة والشهامة والكرامة ، حين سقى لهما وأوى إلى الظل ، تنتقل بنا الآيات إلى مشهد آخر من هذه القصة .

يقول - تعالى - :

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَهُمَا تَمْسِي عَلَى أُسْتَحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَهُمَا يَا بْتَ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٢) .

لقد ساق الله الفضل والخير الذي كان يرجوه موسى - عليهما السلام - من ربه ، فقد تكلمت الفتاتان مع أبيهما ، وأخبرته خبر ذلك الرجل الشهم الغريب الذي خدمهما بدون مقابل ، وسقى لهما بدون أجر ، وبدون حتى أن يعرفهما أو يعرف أهلها .

لهذا لما سمع الرجل العجوز هذا الخبر أحب أن يجزي على الإحسان إحساناً ، وأن

(١) المفردات ص (٢٨٦) .

(٢) سورة القصص ، آية (٢٥ - ٢٦) .

يكافئ هذا الرجل الغريب خيراً ، فطلب من ابنته أن تذهب وتدعوه إلى أبيها ؛ لأنه لا يستطيع أن يذهب ؛ لكبر سنّه ، كذلك فلا يوجد في البيت رجل آخر يقوم بهذه المهمة ، فاضطر لتكليف ابنته بذلك .

ولقد كانت هذه الفتاة مؤمنة سالحة نقية ، صاحبة خلق وأدب ، وحشمة وعفة ، وهذا يظهر من تصوير القرآن لها حين قال : ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ وانظر إلى وصف المشي بالحياء في دلالة واضحة على عفة ظاهرة وباطنة ، وكأن هذا الحياء قد تمكن منها ، فانتقل من كونه حالة نفسية شعورية إلى طريق مادي محسوس ، طريق تمشي عليه هذه الفتاة الحياء مشياً ، وتطوّه بتقديمها الحيتين وطناً .

يقول الإمام الراغب :

« الحياء : انقباض النفس عن القبائح وتركها ، ولذلك يقال : حيي فهو حي ، واستحيا فهو مستح ، وقيل : استحي فهو مستح .

وقال رسول الله - ﷺ - : « إن الله حيي كريم يستحي إذا رفع العبد يديه أن يردّهما صفراً خائبين » (١) .

وليس المراد به انقباض النفس عن ذلك ، فالله منزّه عن الوصف بذلك ، وإنما المعنى أن الله تارك للقبائح ، فاعل للمحاسن « (٢) .

إن الله - ﷻ - قد فطر المرأة السوية على الحياء وعلى عدم مخالطة الرجال الأجانب ومحادثتهم ، والجرأة عليهم في الحديث وغيره ، لهذا فقد قال عمر - رضى الله عنه - في تفسيره لهذه الآية : « فجاءته إحداهما تمشي على استحياء ، واضعة ثوبها على وجهها ليست

(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم (١٤٤٨) وغيره ، وقال ابن حجر في فتح الباري : « سننه جيد » .

انظر : المفردات ص (٢٧٠) حاشية رقم (٤) .

(٢) المفردات ص (٢٧٠) .

بسلفع^(١) من النساء خراجة ولأجة ، فقالت : إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا « (٢) .

يقول سيد قطب - رحمته - :

« جاءته ﴿ تَمْشِي عَلَى أَسْتَحْيَاءٍ ﴾ مشية الفتاة الطاهرة الفاضلة العفيفة النظيفة حين تلقى الرجال . ﴿ عَلَى أَسْتَحْيَاءٍ ﴾ في غير ما تبذل ولا تبرج ولا تبجح ولا إغواء . جاءته لتنهى إليه دعوة في أقصر لفظ وأخصره وأدله ، يحكيه القرآن بقوله : ﴿ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ ﴿ فمع الحياء الإبانة والدقة والوضوح ، لا التلجلج والتعثر والربكة ؛ وذلك كذلك من إيجاء الفطرة النظيفة السليمة المستقيمة ، فالفتاة القويمة تستحي بفطرتها عند لقاء الرجال والحديث معهم ، ولكنها لثقتها بطهارتها واستقامتها لا تضطرب ، الاضطراب الذي يطمع ويغري ويهيج ، إنما تتحدث في وضوح بالقدر المطلوب ، ولا تزيد .

وينهي السياق هذا المشهد فلا يزيد عليه ، ولا يفسح المجال لغير الدعوة من الفتاة ، والاستجابة من موسى « (٣) .

فهذه المرأة المؤمنة الحية كانت في غاية الحياء والتحرج وهي تخاطب موسى - عليه السلام - ، وتبلغه دعوة أبيها لإكرامه . وقفت أمام موسى وقالت له : ﴿ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ « وهذا تأدب في العبارة ، لم تطلبه طلباً مطلقاً ؛ لئلا يوهم ريبة ، بل قالت : ﴿ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ يعني : ليشيك ويكافئك على سقيا لغنمنا ، ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ﴾ أي : ذكر له ما كان من أمره ، وما جرى له من السبب الذي خرج من أجله من بلده .

(١) السلفع : هي السليطة الجريفة ، البديئة الفحاشة القليلة الحياء . انظر : لسان العرب (٢٣٥/٧) .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢٢٨/٦) ، وانظر : تفسير ابن أبي حاتم (٢٩٦٥/٩) .

(٣) في ظلال القرآن (٢٦٨٦/٥ - ٢٦٨٧) .

﴿ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿٥٥﴾ يقول : طب نفساً وقرّ عيناً ، فقد خرجت من مملكتهم فلا حُكْمَ لهم في بلادنا ، ولهذا قال : ﴿ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿٥٥﴾ « (١) .

وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل : مَنْ هو ؟ على أقوال : أحدها أنه شعيب النبي - عليه السلام - الذي أرسل إلى أهل مدين . وهذا هو المشهور عند كثيرين ، وقد قاله الحسن البصري وغير واحد ، ورواه ابن أبي حاتم (٢) .

وقال آخرون : بل كان ابن أخي شعيب . وقيل : رجل مؤمن من قوم شعيب . وقال آخرون : كان شعيب قبل زمان موسى ، - عليه السلام - بمدة طويلة ؛ لأنه قال لقومه : ﴿ وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ ﴿٨٩﴾ (٣) . وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل - عليه السلام - - بنص القرآن ، وقد علم أنه كان بين موسى والخليل - عليه السلام - - مدة طويلة تزيد على أربعمئة سنة كما ذكره غير واحد . وما قيل : إن شعيباً عاش مدة طويلة ، إنما هو - والله أعلم - احتراز من هذا الإشكال ، ثم من المقوي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن هاهنا . وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده « (٤) .

وقد قيل : إن هذه المرأة لما ذهبت تستدعي موسى - عليه السلام - - وقام يريد الذهاب معها طلب منها أن تمشي خلفه وتدله على الطريق يمناً ويسرة (٥) .

وهذا الفعل من موسى - عليه السلام - - دلالة على عفة وأدب ومروءة .

بعد ذلك لما حصل أنسٌ وارتياح بين الرجلين ، ولعل الرجل الصالح تفرس في موسى

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢٢٨/٦) .

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٢٩٦٦/٩) .

(٣) سورة هود ، آية (٨٩) .

(٤) تفسير القرآن العظيم (٢٢٨/٦ - ٢٢٩) .

(٥) المستدرک للحاكم (٤٤١/٢) .

- عليّ عليه السلام - خير ، وعلم أن الله يحفظه ويرعاه ؛ اقترحت إحدى بنيتي هذا الرجل اقتراحاً قالت فيه لأبيها : ﴿ يَأْتِ أُسْتَجْرَهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ أُسْتَجْرَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ (١) .

انظر إلى أثر هذا الأدب النبوي في موسى - عليّ عليه السلام - على من حوله وسرعة تأثرهم به للدرجة التي جعلت هذه المرأة تأمن على نفسها وأختها ومال أبيها ، فتطلب من أبيها استئجار هذا الرجل الذي لم يمنعهم تغربه في دارهم من استئمانهم له ، وثقتهم فيه ، وحسن ظنهم به .

ويتحدث سيد قطب - رحمه الله - عن هذا الموقف ويقول :

« ثم نسمع في المشهد صوت الأنوثة المستقيمة السليمة : ﴿ قَالَتْ إِحْدَهُمَا يَأْتِي أُسْتَجْرَهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ أُسْتَجْرَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ ﴿٦﴾ إنها وأختها تعانيان من رعي الغنم ، ومن مزاحمة الرجال على الماء ، ومن الاحتكاك الذي لا بد من للمرأة التي تزاول أعمال الرجال ، وهي تتأذى وأختها من هذا كله ، وتريد أن تكون امرأة تأوي إلى بيت ، امرأة عفيفة مستورة لا تحتك بالرجال الغرباء في المرعى والمسقى ، والمرأة العفيفة الروح ، النظيفة القلب ، السليمة الفطرة ، لا تستريح لمزاحمة الرجال ، ولا للتبذل الناشئ من هذه المزاحمة .

وهاهو ذا شاب غريب طريد وهو في الوقت ذاته قوي أمين ، رأت من قوته ما يهابه الرعاء ، فيفسحون له الطريق ويسقي لهما ، وهو غريب ، والغريب ضعيف مهما اشتد ، ورأت من أمانته ما يجعله عف اللسان والنظر حين توجهت لدعوته ، فهي تشير على أبيها باستجاره ليكفيها وأختها مؤنة العمل والاحتكاك والتبذل ، وهو قوي على العمل ، أمين على المال ، فالأمين على العرض هكذا أمين على ما سواه ، وهي لا تتلثم في هذه الإشارة ولا تضطرب ، ولا تخشى سوء الظن والتهمة ، فهي بريئة النفس ، نظيفة الحس ، ومن ثم لا تخشى شيئاً ، ولا تتمم ولا تجمم ، وهي تعرض اقتراحها على أبيها .

(١) سورة القصص ، آية (٢٦) .

ولا حاجة لكل ما رواه من دلائل قوة موسى ، كرفع الحجر الذي يغطي البئر ، وكان لا يرفعه فيما قالوا إلا عشرون أو أربعون أو أكثر أو أقل ، فالبئر لم يكن مغطى ، إنما كان الرعاء يسقون فتحاهم وسقى للمراتين ، أو سقى لهما مع الرعاء .

ولا حاجة كذلك لما رووه عن دلائل أمانته للفتاة : امشي خلفي ودليني على الطريق ؛ خوف أن يراها ، أو أنه قال لها هذا بعد أن مشى خلفها فرفع الهواء ثوبها عن كعبها ؛ فهذا كله تكلف لا داعي له ، ودفع لريبة لا وجود لها ، وموسى - عليهما السلام - عفيف النظر ، نظيف الحس ، وهي كذلك ، والعفة والأمانة لا تحتاجان لكل هذا التكلف عند لقاء رجل وامرأة ، فالعفة تتضح في التصرف العادي البسيط بلا تكلف ولا اصطناع « (١) .

بعد ذلك استجاب الرجل لطلب ابنته ؛ ثقة به واطمئناناً فيه فقال له :

﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَبٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكَانَ كَيْدُكَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٢) .

(استجاب الشيخ الكبير لما اقترحته عليه ابنته ، وكأنه أحس بصدق عاطفتها ، وطهارة مقصدها وسلامة فطرتها ، فوجه كلامه إلى موسى قائلاً : ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ ولعله أراد بإحدهما ، تلك التي قالت له : ﴿ يَأْتِ أَسْتَجِرُهُ ﴾ ؛ لشعوره - وهو الشيخ الكبير ، والأب العطوف ، الحريص على راحة ابنته - بأن هناك عاطفة شريفة تمت بين قلب ابنته ، وبين هذا الرجل القوي الأمين ، وهو موسى - عليهما السلام - .

وفي هذه الآيات ما فيها من الإشارة إلى رغبة المرأة الصالحة ، في الرجل الصالح ، وإلى

(١) في ظلال القرآن (٥/٢٦٨٧ - ٢٦٨٨) .

(٢) سورة القصص ، آية (٢٧ - ٢٨) .

أنه من شأن الآباء العقلاء أن يعملوا على تحقيق هذه الرغبة .

قال الشوكاني :

« في هذه الآية مشروعية عرض ولي المرأة لها على الرجل ، وهذه سنة ثابتة في الإسلام ، كما ثبت من عرض عمر لابنته حفصة على أبي بكر وعثمان ، وغير ذلك مما وقع في أيام الصحابة أيام النبوة ، وكذلك ما وقع من عرض المرأة لنفسها على رسول الله ﷺ - « (١) .

وقوله - سبحانه - : ﴿ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي تَمَنَّى حِجْبٍ ﴾ بيان لما اشترطه الشيخ الكبير على موسى - عليهما السلام - ، أي قال له بصيغة التأكيد : إني أريد أن أزوج إحدى ابنتي هاتين ، بشرط أن تعمل أجيراً عندي لرعي غنمي ﴿ تَمَنَّى حِجْبٍ ﴾ أي : ثماني سنين .

وقوله : ﴿ فَإِنْ أَتَمَّتْ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ﴾ أي : فإن أتمت عشر سنين كأجير عندي لرعاية غنمي ، أي : فهذا الإتمام من عندك على سبيل التفضل والتكرم ، فإني لا أشترط عليك سوى ثماني حجج .

وقوله : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٢) بيان لحسن العرض الذي عرضه الشيخ على موسى . أي : وما أريد أن أشق عليك أو أتعبك في أمر من الأمور خلال استتجاري لك ، بل ستجدني - إن شاء الله تعالى - من الصالحين ، في حسن المعاملة ، وفي لين الجانب ، وفي الوفاء بالعهد . وقال : ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ للدلالة على أنه من المؤمنين ، الذين يفوضون أمورهم إلى الله تعالى - ، ويرجون توفيقه ومعونته على الخير .

ثم حكى - سبحانه - ما رد به موسى فقال : ﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا

(١) فتح القدير (٤/٢٢٢ - ٢٢٣) .

(٢) سورة القصص ، آية (٢٧) .

الْأَجْلِينَ قَضَيْتُ فَلَا عُدُونَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ (١) .

أي : ﴿ قَالَ ﴾ موسى في الرد على الشيخ الكبير : ﴿ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾ أي : ذلك الذي قلته لي واشترطته علي ، كائن وحاصل بيني وبينك ، وكلانا مطالب بالوفاء به ، فاسم الإشارة مبتدأ ، وبينني وبينك خبره ، والإشارة مرجعها إلى ما تعاقدنا عليه ، و (أي) في قوله : ﴿ أَيَّمَا الْأَجْلِينَ ﴾ شرطية ، وجوابها : ﴿ فَلَا عُدُونَ عَلَيَّ ﴾ ، و (ما) مزيدة للتأكيد .

والمعنى : أي الأجلين ، أي الثمانية الأعوام أو العشرة الأعوام ﴿ قَضَيْتُ ﴾ أي : وفيت به ، وأدبته معك أخيراً عندك ﴿ فَلَا عُدُونَ عَلَيَّ ﴾ أي : فلا ظلم علي ، وأصل العدوان : تجاوز الحد (٢) .

يقول الزمخشري ما ملخصه :

« أي : قال موسى : ذلك الذي قلته . . . قائم بيننا جميعاً لا يخرج كلانا عنه ، لا أنا عما اشترطت علي ، ولا أنت عما اشترطت علي نفسك . . . ثم قال : أي أجل من الأجلين قضيت - أطولهما أو أقصرهما - ﴿ فَلَا عُدُونَ عَلَيَّ ﴾ أي : فلا يعتدي علي في طلب الزيادة عليه » (٣) .

وهذا معناه : كما أني إن طولبت بالزيادة على العشر كان عدواناً لا شك فيه ، فكذلك إن طولبت بالزيادة على الثماني ، أراد بذلك تقرير أمر الخيار ، وأنه ثابت مستقر ، وأن الأجلين على السواء ، إما هذا وإما هذا من غير تفاوت بينهما في القضاء ، وأما التهمة فهي موكولة إلى رأيي إن شئت أتيت بها ، وإلا لم أجب عليها .

« والمقصود بقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ توثيق العهد

(١) سورة القصص ، آية (٢٨) .

(٢) التفسير الوسيط ، لطنطاوي (٣٩٧/١٠) .

(٣) الكشف ص (٧٩٩) .

وتأكيده ، وأنه لا سبيل لواحد منهما على الخروج عنه أصلاً .

أي : والله - تعالى - شهيد ووكيل ورقيب على ما اتفقنا عليه ، وتعاهدنا على تنفيذه ، وكفى بشهادته - سبحانه - شهادة .

وقد ساق الإمام ابن كثير جملة من الآثار التي تدل على أن موسى - عليهما السلام - قد قضى أطول الأجلين . ومن ذلك :

ما جاء عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « سألت جبريل : أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : أكملهما وأتمهما » ، وفي رواية : « أبرهما وأوفاهما » (١) .

فهذا من أدبه - عليهما السلام - حين أكمل أتم الأجلين برغم أنه كان في الخيار من إتمام العشر سنوات أو الاقتصار على الثماني سنين التي اشترطها الشيخ الكبير ولا لوم عليه .

هذا ، والمتأمل في هذه الآيات الكريمة ، يرى فيها - بجلاء ووضوح - ما جُبلَ عليه موسى - عليهما السلام - من أدب عظيم ، وخلق كريم ، يتمثل في الصبر على بأساء الحياة وضرائها ، ومن همة عالية تحمله في كل موطن على إعانة المحتاج ، ومن طبيعة إيجابية تجعله دائماً لا يقف أمام ما لا يرضيه مكتوف اليدين ، ومن عاطفة رقيقة تجعله في كل الأوقات دائم التذكر لخالقه ، كثير التضرع إليه بالدعاء .

كما يرى فيها الفطرة السوية ، والصدق مع النفس ، والحياء ، والعفاف ، والوضوح ، والبعد عن التكلف والالتواء ، كل ذلك متمثل في قصة هاتين المرأتين اللتين سقى لهما موسى غنمهم ، واللتين إحداهما تمشي على استحياء ، ثم قالت لأبيها : ﴿ يَا بَتِ اسْتَجِرْهُ ﴾ .

كما يرى فيها ما كان يتحلى به ذلك الشيخ الكبير من عقل راجح ، ومن قول طيب حكيم ، يدخل الأمان والاطمئنان على قلب الخائف ، ومن أبوة حانية رشيدة ، تستجيب

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/٢٣١) .

للعواطف الشريفة ، وتعمل على تحقيق رغباتها عن طريق الزواج الذي شرعه الله
- تعالى - .

ومضت السنوات العشر التي قضاها موسى أجيراً عند الشيخ الكبير في مدين ، ووفى
كل واحد منهما بما وعد به صاحبه « (١) ، فصلاة ربي وسلامه على نبيه الكريم ، والله ما
أعظم خلقه ، وأتم مروءته ، وأكرم سجيته ، وأرقّ طبعه .



(١) التفسير الوسيط ، لطنطاوي (٣٩٩/١٠) .

الفصل الثالث

أدبهم - عليهم الصلاة والسلام - في دعوتهم للموافقين

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : مشورتهم في أمر العامة .

المبحث الثاني : التحول بالموعظة والمناصحة .

المبحث الثالث : الصبر والصفح عن المقصرين .

المبحث الأول

مشورتهم في الأمور العامة

الشورى والمشاورة في اللغة : مصدر للفعل : شاور ، تقول : شاورته في الأمر مشاورة وشواراً ، إذا طلبت منه المشورة (١) ، أي : طلبت رأيه واستخرجت من عنده وأظهرته ؛ لأن المشاورة هي : « استخراج الرأي بمراجعة البعض الآخر » (٢) .

أو هي : « استنباط الرأي من غيره فيما يعرض له من مشكلات الأمور » (٣) ، مأخوذة من قولهم : « شار الدابة إذا اختبر جريها عندما تعرض عليها لشرائها ، أو من شار العسل إذا استخرجه من موضعه » (٤) صافياً نقياً من الشوائب .

وسميت المشاورة بذلك ؛ لأن بها يستخرج الحق والصواب ، كاستخراج حال الدابة من الخير والشر باختبارها ، واستخراج العسل من وقبته (٥) ، وكذلك بالمشاورة يعلم خير الأمور وشرها ، ويستخرج الحق والصواب من الآراء .

وهي في الاصطلاح : « استطلاع الرأي من ذوي الخبرة فيه للتوصل إلى أقرب الأمور للحق » .

أو هي : « استطلاع رأي الأمة أو من ينوب عنها في الأمور العامة المتعلقة بها » (٦) .

ولا شك أن الشورى تعد من أصول قواعد الحكومة الإسلامية الراشدة ، وضرورة من ضرورات قيامها بالعدل وإيصال الخير إلى المسلمين ، ودفع الضر عنهم ، « وإذا فقدت منها

(١) لسان العرب لابن منظور (٤٣٧/٤) .

(٢) المفردات للراغب ص (٤٧٠) .

(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص (٢١٠) .

(٤) المفردات للراغب ص (٤٧٠) ، وانظر : معاني القرآن للنحاس (٥٠١/١) .

(٥) أي : من الخلية التي يكون فيها .

(٦) الشورى وأثرها في الديمقراطية ، للدكتور عبد الحميد الأنصاري ص (٤) .

اختل نظام الحكم فيها ، ونزلت المصائب بأهله ، وحلت في مجتمعهم الفوضى ، وصار كل شيء في غير مكانه اللائق به « (١) .

ولقد جبل الله الإنسان عليها في فطرته السليمة ، وجعل الله - تعالى - إلفها للبشر بطريقة المقارنة في وقت التكوين (٢) ، فإن الإنسان لا يكاد يستغني عنها في أمور حياته الفردية أو الاجتماعية ؛ إذ لا ينفك يشاور من هو على شاكلته فيما يهمه ؛ لما هو عليه من محبة الإصلاح ، وتطلب النجاح في المساعي .

ولم تنزل الشورى في أطوار التاريخ رائجة في البشر ، كما يدل على ذلك القرآن الكريم ، حيث أخبر عن استشارة فرعون قومه في شأن موسى - عليه السلام - وهو من هو من الاستبداد والطغيان ، قال تعالى : ﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (٣) .

واستشارت بلقيس ملكة سبأ قومها في شأن سليمان - عليه السلام - وما طلبه منها من الإتيان إليه والإيمان به ، قال تعالى حكاية عنها : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٣٦﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسِ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (٤) .

وكذلك كفار قريش في عهد النبي - ﷺ - كانوا إذا حزبهم أمر اجتمعوا في دار الندوة وتشاوروا فيها ؛ ليعلموا ما يتوصلون إليه من رأي سديد ، وقول صواب ، وقصة مشاورتهم في أمر الرسول - ﷺ - لما أعياهم أمره مشهورة ومعلومة ، حتى إن الله أنزل في ذلك قرآنا في قوله : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ

(١) الشورى ، للدكتور عبد الله قاري ص (٢٢) - بتصرف - .

(٢) التحرير والتنوير (١٥٠/٤) .

(٣) سورة الشعراء ، آية (٣٤ - ٣٥) .

(٤) سورة النمل ، آية (٣٢ - ٣٣) .

يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾ (١) .

وهكذا كان أمر الشورى معروفاً ، ونظامه متبعاً من قديم الزمان ؛ إذ كانوا يلجأون إلى الشورى في الأوقات الحرجة باعتبارها المخرج لها من الأزمات الجائحة التي تحل بها ، فلما جاء الإسلام جعلها قاعدة للحياة الاجتماعية والسياسية ، بحيث أنه لم يعف منها حتى المعصوم المؤيد بالوحي - عليه الصلاة والسلام - ، حيث قال له المولى - جل شأنه - : ﴿فِيمَا رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ (٢) .

بل إن الله - ﷻ - قد امتدح الأمة الإسلامية التي اتخذت الشورى منهجاً لها ، وأثنى عليها بما تتحلى به من مكارم الأخلاق التي يجبها الله - ﷻ - ومن هذه الأخلاق أنها تجعل الأمر شورى بينهم ، هذا الخلق الدال على تأخيها وتراحمها ووحدها ، وعدم تعالي بعضها على بعض ، واستبداده بالأمر دونها ، كما قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ (٣) .

فانظر إلى مبلغ ثناء الله تعالى على المتحلين بهذه المكارم الأخلاقية التي منها التشاور في الأمر الذي يحدث لهم ، ويهمهم شأنه .

وتأمل ما أعده الله تعالى لهم من الخير في الدنيا والآخرة ، وما ذلك إلا للجلالة موقع المشورة ، ولذلك قرنت في الذكر مع الإيمان وإقامة الصلاة .

لهذا حين كانت الشورى ذات أثر عظيم كما علمت ، فإن القرآن لم يزل يحض

(١) سورة الأنفال ، آية (٣٠) .

(٢) سورة آل عمران ، آية (١٥٩) .

(٣) سورة الشورى ، آية (٣٧ - ٣٨) .

عليها ، وألزم الدولة الإسلامية بتطبيقها كما سبق في قوله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ (١) في دلالة واضحة أن الأمر بتحري الصواب في مصالح الأمة واجب ، ولا يتم ذلك إلا بالشورى التي هي مسبار العقول ، وسبب الصواب ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

ولذلك يقول ابن عطية - رحمته - في تفسيره :

« الشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام » (٢) .

وقال ابن تيمية :

« لا غنى لولي الأمر عن المشاورة ، فإن الله تعالى أمر بها نبيه - ﷺ - » (٣) .

ولا شك أن المشاورة لا تأتي إلا بأخذ آراء وتداول وجهات نظر متعددة ، لهذا وجب اختيار المستشار الناصح الأمين ، والعالم المتمكن صاحب الخبرة في مجال الاستشارة ، وهذا من إنزال الناس منازلهم ، واختيارهم لما يصلحون له ، وينفعون الأمة به .

قال العلماء :

« واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون وفيما أشكل عليهم من أمور الدين ، ووجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب ، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح ، ووجوه الكتاب والوزراء والعمال فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها » (٤) .

لهذا فإن صفة المستشار تختلف باختلاف الأمور الطارئة المحوجة إلى الاستشارة ، فإن كانت في أمر ديني فلا يكون إلا من أهل العلم والتقوى والصلاح والعدالة ، وقلما يكون

(١) سورة آل عمران ، آية (١٥٩) .

(٢) المحرر الوجيز (٤٠٤/٢) ، تحقيق : عبد الله الأنصاري وآخرون ، مطبوعات وزارة الأوقاف القطرية ، الطبعة الثانية ، ١٤٢٨هـ .

(٣) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ص (١٣٥) .

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٤٢/٤) نقلاً عن ابن خويز منداد .

ذلك إلا في عاقل ، فإنه (ما كمل دين امرئ لم يكمل عقله) كما قيل ، وأما أمور الدنيا من اقتصاد وسياسة وحرب فتوكل إلى أهل الاختصاص في تلك المجالات ممن عرفوا بالعقل والنصح والإخلاص ، لا كما يجري اليوم من ترشيح عشوائي قائم على الهوى والعصبية والمحسوبية والرشوة والأنانية ، فلا يكون لهم كبير أثر في معرفة الحق ولا صوابه ، ولهذا تعطلت الشورى بذلك عما كان يرجى منها من صلاح الدين والدنيا حين أسندت إلى غير أهلها ، وذلك من أشراط الساعة وعلاماتها ، والله المستعان (١) .

ولا شك أن أمر الشورى من الأهمية بمكان ، بحيث أن أنبياء الله ورسله لم يغفلوا عنه ولم يتركوه أو يتوانوا عنه ، لا سيما وأن أمر المشاورة من عادات العقلاء والحكماء وأهل الحل والعقد ، لهذا فعلم أنه خلق من أخلاقهم قائم فيهم لا ينفك عنهم ، وهم مع هذا لا يشاورون إلا من رأوا فيه صلاح العقل وصحة النية وسلامة الطوية .

ولم يحفل القرآن بمزيد حديث عن مشاورة الأنبياء واستطراد عن وقائع تدل على هذا الأدب ، ولا نعلم عن هذا الأمر شيئاً في حياتهم إلا ما يقصه القرآن علينا صريحاً أو ترويه السنة لنا صحيحاً .

فإن كثيراً من تفاصيل حياة الأنبياء السابقين غير معلومة لدينا إلا ما أورده القرآن لنا على سبيل الإجمال ، أو في بعض المواقف المعينة التي يسترعي القرآن فيها انتباه السامع

(١) وقد عني بجمع صفات أهل الشورى الإمام الماوردي في كتاب أدب الدنيا والدين ص (٢٩٠ - ٢٩١)

فذكر لهم خمس صفات :

إحداهما : عقل كامل مع تجربة سالفة ؛ إذ بكثرة التجارب تنضج الرؤية .

الثانية : أن يكون ذا دين وتقى ، فإن ذلك عماد كل صلاح ، وباب كل نجاح ، ومن غلب عليه الدين فهو مأمون السريرة موفق العزيمة .

الثالثة : أن يكون ناصحاً ودوداً ، فإن النصح والمودة يصدقان الفكرة وبمحضان الرأي .

الرابعة : أن يكون سليم الفكر من هم قاطع ، وغم شاغل ، فإن من عارضت فكره شوائب الهموم لا يسلم له رأي ولا يستقيم له خاطر .

الخامسة : أن لا يكون له في الأمر المستشار غرض يتابعه ولا هو يساعده ، فإن الأعراض جاذبة ، والهوى صاد ، والرأي إذا عارضه الهوى وجاذبته الأعراض فسد .هـ . وانظر : الشورى للقاري ص (٣٢ -

(٤١) .

فيذكر بعض تفاصيلها .

أما في حياة نبينا محمد - ﷺ - فحياته العظيمة حافلة لدينا معروفة من ديننا ، نعرف صغيرها وكبيرها ، دَقَّها وجلَّها ، أولها وآخرها ؛ إذ أن قرابته الكرام وأصحابه العظام ما تركوا شاردة ولا واردة في حياة النبي - ﷺ - إلا ورووها تواتراً وآحاداً ، جماعة وفرداً ، وكيف لا وهي سيرة أعظم خلق الله وأكرمهم على الله محمد بن عبد الله - عليه أفضل صلاة وأزكى تسليم - .

وسأجتهد في هذا المبحث في محاولة ذكر بعض مواقف الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - في أدب المشورة ، وإنزال كل فرد منزلته .

فمن الأمثلة على ذلك : ما ذكره الله - تعالى - حكاية عن موسى - عليه السلام - - حين طلب من ربه أن يشرك أخاه هارون في أمره ويشدد به أزره .

يقول - تعالى - حكاية عن موسى :

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٤٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٤٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي ﴿٤٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٤٨﴾ وَاجْعَلْ لِّي وِزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٤٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٥٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٥١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٥٢﴾ ﴾ (١) .

وانظر هنا إلى طلب موسى من ربه إشراك هارون في أمر النبوة ، من أجل أن يكون له عوناً ومعيناً ، ومؤيداً وظهيراً ، يشد به أزره ، ويشاوره في أمور الرسالة والبلاغ والدعوة .

« ﴿ وَاجْعَلْ لِّي وِزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٤٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٥٠﴾ ﴾ أي : معاوئاً في تحمل أعباء ما كلفته على أن اشتقاقه من الوزر - بكسر فسكون - بمعنى الحمل الثقيل ، فهو في الأصل صفة من ذلك ، ومعناه صاحب وزر ، أي : حامل حمل ثقيل ، وسمي القائم بأمر الملك بذلك ؛ لأنه يحمل عنه وزر الأمور وثقلها ، أو ملجحاً اعتصم برأيه على أن اشتقاقه

(١) سورة طه ، آية (٢٥ - ٣٢) .

من الوَزَر - بفتحين - وأصله الجبل يتحصن به ثم استعمل بمعنى الملجأ مطلقاً كما في قوله :

شر السباع الضواري دونه وزر والناس شرهم ما دونه وزر
كم معشر سلموا لم يأذهم سبع وما ترى بشراً لم يؤذه بشر « (١)

يقول ابن عاشور :

« وخصّ هارون ؛ لفرط ثقته به ، ولأنه كان فصيح اللسان مقوالاً ، فكونه من أهله مظنة النصح له ، وكونه أخاه أقوى في المناصحة ، وكونه الأخ الخاص ؛ لأنه معلوم عنده بأصالة الرأي » (٢) .

فهذا دليل على حرص موسى - عليهما السلام - على أمر المشاورة ممن يثق به ، وهو أخوه ، ودليل على أهمية هذا الخلق عند موسى - عليهما السلام - .

ولو نظرنا إلى سيرة موسى - عليهما السلام - في القرآن لوجدنا مكانة هارون عنده ، وكيف أنه أنزله منزلة الوزير له ، والنائب عنه ، القائم بشؤونه إذا غاب ، والمستشار عنده إذا حضر .

وليس ببعيد عنا قصة ذهابه إلى ربه واستخلافه هارون على بني إسرائيل حين عبدوا العجل من دون الله .

وأما نبينا محمد - ﷺ - فقد كان من كريم خلقه وجميل عشرته مع أصحابه الكرام ، بحيث كان يشاورهم في أمور الدنيا والدين ؛ يعلي بذلك مكانتهم ، ويشعرهم بعظيم منزلتهم عنده ، وأنهم منه بمنزلة الخواص الذين يركن إليهم فيما يهمه من أموره الخاصة ، وأمور دولة الإسلام العامة ، ويؤسس بذلك أعظم قاعدة للحكم الإسلامي ، ويدرب أمته على التزام الشورى وترك الاستبداد ، ويرى في أصحابه جانب النصيحة والمشاركة في الأمور العامة للأمة ، وكل ذلك عنوان كمال الأدب والخلق منه - ﷺ - .

(١) روح المعاني (١٦/٦٦٢) .

(٢) التحرير والتنوير (١٦/٢١٢) .

ولا غرو في ذلك ، فقد كان هذا تزكية من الله تعالى له بكمال الأخلاق وعظيمها ،
فقد قال له سبحانه : ﴿ فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ
لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ
فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (١) .

فهذه الآية نزلت عقب أحد ، لما حدث من كثير من الصحابة أمور ما كان ينبغي أن
تحدث ، من مشورتهم له بالخروج مع ما كان يراه من البقاء في المدينة ، ثم انقلاب ثلة من
الطريق وهم المنافقون بزعامه عبد الله بن أبيّ ثم فرار بعض الصحابة من المعركة لما دارت
عليهم بعد أن كانت لهم ، وتركهم رسول الله - ﷺ - مع جماعة قليلة مع العدو ، ومخالفة
الرماة أمره - ﷺ - في البقاء في الجبل ؛ لحماية ظهورهم ، ونزولهم للغنيمة حتى انكشف
ظهر المسلمين للعدو ، فأوتوا من قبله كما تحدثت بذلك الآيات السابقة لهذه الآية ، وكل
هذه الأمور تستوجب عدم الرضا من الله - تعالى - ، ومن رسوله غير أن الله
- تعالى - عفا عنهم كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَمَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا
اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ
﴿ ١٥٥ ﴾ (٢) ، فأمر نبيه أن يعفوا عنهم كما عفا عنهم - سبحانه - إصلاحاً لشأنهم ،
وجبراً لخاطرهم في هذا الموقف الصعب ، ثم أمره بأن يستغفر لهم الله ؛ إتماماً للشفقة
عليهم ، وإكمالاً للتربية لهم .

ولما كانوا يتوهمون أن الله تعالى وإن عفا عنهم وعفا عنهم رسوله - ﷺ - إلا أن
درجتهم التي كانوا فيها لم يعودوا إليها ، فأمر الله - تعالى - نبيه المصطفى أن يشاورهم في
الأمر كما كان يفعل قبل ذلك ؛ ليعلموا أن مكاتبتهم عنده وعند رسوله لم تزل كما هي ،
وأنه لم يبق أثر في قلبه من أفعالهم تلك ببرهان المشاورة التي يشاورهم بها كما كان يفعل
ذلك من قبل .

(١) سورة آل عمران ، آية (١٥٩) .

(٢) سورة آل عمران ، آية (١٥٥) .

يقول ابن عاشور :

« **وَشَاوِرْهُمْ** » عائد على المسلمين خاصة ، أي : شاور الذين أسلموا من بين من
لنت لهم ، أي : لا يصدك خطل رأيهم فيما بدا منهم يوم أحد عن أن تستعين برأيهم في
مواقع أخرى ، وإنما كان ما حصل فلتة منهم ، وعشرة قد ألفتهم منها » (١) .

وصور مشاورته لصحابته كثيرة معلومة ، فقد قال أبو هريرة - **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** - : « ما
رأيت أحداً قط أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله - **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** - » (٢) .

وهذا إنما هو دليل على اتباع النبي - **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** - لأمر ربه له بالمشاورة في قوله تعالى :
« **وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ** » وقد دلت الآية على أن الشورى مأمور بها الرسول - **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** -
فيما عبر عنه بـ « **الْأَمْرِ** » وهو مهمات الأمة ومصالحها في الحرب وغيره ، وذلك في
غير أمر التشريع ؛ لأن أمر التشريع إن كان فيه وحي فلا محيد عنه ، وإن لم يكن فيه وحي
وقلنا بجواز الاجتهاد للنبي - **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** - في التشريع فلا تدخل فيه الشورى ؛ لأن شأن الاجتهاد
أن يستند إلى الأدلة لا للآراء ، والمجتهد لا يستشير غيره إلا عند القضاء باجتهاده ، كما فعل
عمر وعثمان .

فتعين أن المشاورة المأمور بها هنا هي المشاورة في شؤون الأمة ومصالحها ، وقد أمر
الله بها هنا ومدحها في ذكر الأنصار في قوله - تعالى - : « **وَأْمُرْهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ** » (٣)
واشترطها في أمر العائلة فقال : « **فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ**
عَلَيْهِمَا » (٤) ، فشرع بهذه الآيات المشاورة في مراتب المصالح كلها ، وهي : مصالح

(١) التحرير والتنوير (١٤٦/٤) .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب الجهاد ، باب ما جاء في المشورة (١٨٥/٤) برقم (١٧١٤) ، وقد
أخرجه معلقاً .

(٣) سورة الشورى ، آية (٣٨) .

(٤) سورة البقرة ، آية (٢٣٣) .

العائلة ، ومصالح القبيلة أو البلد ، ومصالح الأمة » (١) .

وقد شاور النبي - ﷺ - صحابته في أيما موقف وحادثة .

فمن صور مشاورته - عليه الصلاة والسلام - أصحابه الكرام ، ما كان من مشاورته لهم يوم بدر في أمر قتال المشركين ، فإنه لما خرج لملاحقة عير قريش القادمة من الشام ليستوفي منها أموال المهاجرين التي تركوها بمكة ، وكان فيها أموال عظيمة وليس معها إلا نحو أربعين رجلاً عليهم أبو سفيان بن حرب ، فندب رسول الله - ﷺ - الناس للخروج إليها ، وأمر من كان ظهره حاضراً بالنهوض ولم يهتم بها اهتماماً بليغاً ؛ لأنه في بادئ الأمر لم يرد القتال ، وإنما أراد العير ، فخرج - عليه الصلاة والسلام - مسرعاً في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً فقط ، ولم يكن معهم من الخيل إلا فرسان للزبير بن العوام والمقداد بن الأسود ، ولما بلغ أبو سفيان الخبر استصرخ أهل مكة لنجدته ، فنهضوا مسرعين ولم يتخلف من أشرافهم أحد سوى أبو لهب ، فلما بلغ رسول الله - ﷺ - خروجهم ذلك واستعدادهم لقتاله وقاتل المسلمين ، ولم يكن مستعداً لذلك ؛ لأنه إنما خرج لطلب العير ولم يعلم أنه سيواجه جيشاً كثيفاً يساوي أكثر من ثلاثة أضعاف جيشه عدداً وعدة ، عندئذ استشار النبي - ﷺ - أصحابه في مواجهتهم ، وأخبرهم عن قريش ، فقام أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - فقال وأحسن ، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله ، امض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ، فقال له رسول الله - ﷺ - خيراً ، ودعا له به (٢) .

غير أنه - ﷺ - لم يقنعه قول المهاجرين ؛ لأن قتالهم معه أمر لا يشك فيه ، فقد باعوا أنفسهم لله ، وخرجوا من ديارهم وأموالهم فراراً بعقيدتهم ، ونصرة نبيهم - ﷺ - ، لكن الأنصار لم يكونوا كذلك ، إذ إنما عاهدوا رسول الله - ﷺ - على نصرته في مدينتهم وديارهم ، أما وهو في بدر فذلك ما لم تقتضه نصوص المعاهدة ، فأراد النبي - ﷺ -

(١) التحرير والتنوير (٤/١٤٨) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (٣/٣٣ - ٣٤) .

استشارتهم فيما هو محقق بهم من الخطر ؛ ليكتشف رأيهم فيما يعد خارجاً عن بنود المعاهدة ، فكرر طلب المشورة قائلاً : أشيروا علي أيها الناس ، ففهمت الأنصار أنه يريدهم ، فبادر سعد بن معاذ - رضي الله عنه - قائلاً : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟! قال : أجل ، قال : فقد آمننا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا ، على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبرٌ في الحرب ، صدقٌ في اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسرّ بنا على بركة الله . فسرّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقول سعد ، ونشّطه ذلك . ثم قال : سيروا وأبشروا ، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم (١) .

وهكذا تمخضت هذه المشاورة من النبي - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه برأي سديد صائب ، وافقت ما قدره الله تعالى لنبيه ولعباده المؤمنين ، وأراه الله نبيه حتى كأنه يرى نتيجة ما هو قادم عليه رأي العين .

كذلك من مشاوراته - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه : استشارته في منزلهم يوم بدر ، ومكان إقامة جيشهم ، وذلك أنه حينما عزم على ما أجمعت عليه إشارة المؤمنين وتقدم بمن معه لملاقاة عدوه قال : « أشيروا عليّ في المنزل » وقد نزل على أقرب ماء من بدر ، وعرض الأمر على أصحابه ، فجاء الحُباب بن المنذر بن الجموح فقال : يا رسول الله ، أرايت هذا المنزل أمزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة ، فقال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم ، فنزله ثم نغور ما وراءه من القلب ثم نبي عليه حوضاً فنملؤه ماءً ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لقد أشرت بالرأي » ، فانهض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن معه من الناس فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليهم ، ثم أمر بالقلب فغورت وبنى حوضاً على القلب الذي نزل عليه فملى ماءً

(١) سيرة ابن هشام (٣/٣٤٠٣٣) ، وانظر : زاد المعاد لابن القيم (٣/١٧٣) .

ثم قذفوا فيه الآية (١) .

وهكذا نفذ رسول الله ﷺ - هذه المشورة الصادقة من هذا الصحابي ذي العقل الحصيف ، والرأي السديد ؛ لما رأى المصلحة الكامنة فيه ؛ إذ أن الماء من أهم العناصر الإيجابية في الحرب ، وفي ميادين القتال ، لا سيما في ذلك الجو القائظ ، ولا أدل على مبلغ أهمية هذا الرأي وخطورته من حنق الكافرين على هذا التخطيط الرهيب حتى قال الأسود بن عبد الأسد المخزومي - وكان رجلاً شرساً سيء الخلق - : أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمته أو لأموتنّ دونه ، فلما خرج خرج إليه حمزة بن عبد المطلب ، فلما التقيا ضربه حمزة فأطنّ (٢) قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره تشخبُ رجله دمًا نحو أصحابه ثم حبًا إلى الحوض حتى اقتحم فيه يريد أن يُيرّ يمينه ، وأتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض (٣) .

ومن مشاورات النبي ﷺ - لأصحابه : استشاراته لهم في شأن أسرى يوم بدر ، فقد أنجحت المعركة عن قتل سبعين ، وأسر سبعين ، فضلاً عن الغنائم الكثيرة ، وكانت الأسرى أمراً ذا بال ، استدعى أن يجمع له الرأي ويفكر في أمرهم لعددتهم الكبير ، وما يترتب على الإقدام في شأنهم من نفع للإسلام والمسلمين .

وهذه الاستشارة كانت سبباً لنزول قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُثَخِّنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩﴾ ﴾ (٤) .

كما روى الواحدي (٥) في أسباب النزول بسنده عن ابن مسعود قال : لما كان يوم

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١٦٧/٣) .

(٢) أي : قطعها ، استعارة من الطنين لصوت القطع . انظر : النهاية في غريب الحديث (١٤٠/٣) .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٣٧/٣ - ٣٨) .

(٤) سورة الأنفال ، آية (٦٧ - ٦٩) .

(٥) هو : الإمام العلامة أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي النيسابوري الشافعي ، صاحب التفسير =

بدر وجيء بالأسرى قال رسول الله - ﷺ - : « ما تقولون في هؤلاء الأسرى ؟ » فقال أبو بكر : يا رسول الله قومك وأصلك ، استبقهم واستأن بهم ؛ لعل الله - ﷻ - يتوب عليهم ، وقال عمر : كذبوك وأخرجوك ، فقدمهم فاضرب أعناقهم ، وقال عبد الله بن رواحة : انظر وادياً كثير الخطب فأدخلهم فيه ، ثم اضرم عليهم ناراً ، فقال العباس : قطعت رحمك ، فسكت رسول الله - ﷺ - ولم يجبهم ، ثم دخل فقال ناس : يأخذ بقول أبي بكر ، وقال ناس : يأخذ بقول عمر ، وقال ناس : يأخذ بقول عبد الله ، ثم خرج عليهم فقال : « إن الله - ﷻ - ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله - ﷻ - ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وأن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم قال : ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) ، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال : ﴿ إِنْ تَعَدَّيْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغَفَرْلَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢) ، وإن مثلك يا عمر كمثل موسى قال : ﴿ رَبَّنَا أَطْمَسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشَدُّدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ (٣) ، ومثلك يا عمر كمثل نوح قال : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (٤) ، ثم قال رسول الله - ﷺ - : أنتم اليوم عالة ، أنتم اليوم عالة ، فلا ينقلبن منهم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق ؟ قال : فأنزل الله - ﷻ - : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ إلى آخر الآيات الثلاث » (٥) .

= وإمام علماء التأويل ، صنف التفاسير الثلاثة : البسيط والوسيط والوجيز ، وكتاب أسباب النزول ، وكان طويل الباع في العربية واللغات ، مات بنيسابور سنة (٤٦٨ هـ) . انظر : سير أعلام النبلاء (٣٣٩/١٨) .

(١) سورة إبراهيم ، آية (٣٦) .

(٢) سورة المائدة ، آية (١١٨) .

(٣) سورة يونس ، آية (٨٨) .

(٤) سورة نوح ، آية (٢٦) .

(٥) أسباب النزول للواحد ص (٢٤٣ - ٢٤٤) .

والحديث أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب التفسير ، باب تفسير سورة الأنفال (٢٥٣/٥) برقم (٣٠٨٤) .

وقال ابن القيم - رحمته - :

« واستشار الصحابة في أسارى بدر ، فأشار عليه الصديق أن يأخذ منهم فدية تكون لهم قوة على عدوهم ، ويطلقهم لعل الله أن يهديهم إلى الإسلام ، وقال عمر : لا والله ما أرى الذي رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم ، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها ، فهوي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما قال أبو بكر ولم يهو ما قال عمر ، فلما كان من الغد أقبل عمر فإذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يبكي هو وأبو بكر ، فقال : يا رسول الله ، من أي شيء تبكي أنت وصاحبك ، فإن وجدت بكاءً بكيتُ وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أبكي للذي عَرَضَ عَلَيَّ أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عَرَضَ عَلَيَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة ، وأنزل الله : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُثَخِّنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ » (١) .

وهكذا كانت غزوة بدر المعركة الأولى التي أعز الله بها الإسلام وأهله ، وأذل الكفر وأهله ، كانت كلها مشاورات وعرض للآراء ؛ لاستخلاص الأضواء منها ، وقد ظهرت بركة هذه المشاورات على خير ما يرام لصالح الإسلام والمسلمين .

كذلك من مشاورات النبي - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه ما كان منه حين شاورهم في غزوة أحد في شأن الخروج لملاقاة الأعداء أو المكث في المدينة ومقاتلتهم فيها ، كما كان يميل إليه - عليه الصلاة والسلام - ، وكان - عليه الصلاة والسلام - قد رأى رؤيا منامية أفزعته ، ورؤيا الأنبياء حق ، وذكر تأويلها لهم بما أنبأت به من أحداث وقعت وتحققت هذه الرؤيا . ولهذا فما لبث أن علم - صلى الله عليه وسلم - بمقدم المشركين إلى أحد حتى قام فاستشار أصحابه الكرام في ملاقاتهم وقال لهم : « إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشرّ مقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها » وكان رأي عبد الله بن أبي ابن سلول مع رأي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، يرى رأيه في ذلك ، وألا يخرج إليهم ، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يكره الخروج ، فقال رجال من المسلمين ممن أكرم الله بالشهادة يوم

(١) زاد المعاد (٣/١٠٠) .

أحد وغيره ممن كان فاته بدر : يا رسول الله ، اخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يرون أننا جنبنا عنهم وضعفنا ؟ فقال عبد الله بن أبي ابن سلول : يا رسول الله ، أقم بالمدينة لا تخرج إليهم ، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منها ، ولا دخلها علينا إلا أصابنا منه ، فدعهم يا رسول الله ، فإن أقاموا أقاموا بشرّ محبس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائين كما جاءوا (١) .

غير أن من لم يشهد بدرًا وغيرهم ممن كان من أمرهم حب لقاء القوم ومنهم حمزة بن عبد المطلب عم النبي - ﷺ - لم يزلوا برسول الله - ﷺ - يشيرون إليه بالخروج ، وقالوا : كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله ، وقد ساقه إلينا وقرب المسير ، وظاهرهم الشباب الطامح في الاستشهاد حتى دخل النبي - ﷺ - بيته ولبس لامته (٢) ، ثم خرج عليهم وقد ندم الناس وقالوا : يا رسول الله استكرهناك ولم يكن ذلك لنا ، فإن شئت فاقعد - صلى الله عليك - ، فقال رسول الله ﷺ : « ما ينبغي لني إذا لبس لامته أن يضعها حتى يُقاتل » (٣) ، يعني لقول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (٤) .

فهذا نموذج من نماذج مشاورته - ﷺ - لأصحابه في أمر المسلمين ، وما ينفعهم ، ويكون فيه صلاح دينهم ودنياهم .

كذلك من مشاوراته - عليه الصلاة والسلام - للصحابة - رضوان الله عليهم - مشاورته لهم يوم الخندق ، يوم أن تحزب الأحزاب على المدينة ، وجمعت جموع المشركين الوثنية من خارجها ، واليهود والمنافقين من داخلها كلهم يريد استئصال شأفة المسلمين ، واستحلال بيضتهم ، والقضاء على دولتهم ، فاستشار النبي - ﷺ - أصحابه في كيفية

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٥٦/٣) .

(٢) أي : سلاحه .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٥٦/٣) .

(٤) سورة آل عمران ، آية (١٥٩) .

ملاقاة الأعداء ، الكثير عددهم وعدتهم ، أيرز لهم من المدينة ؟ أم يكونون فيها ؟ أم يكونون قريباً منها ويجعلون ظهورهم إلى الجبل ؟ فاختلف الصحابة - رضوان الله عليهم - في الرأي الذي ينبغي أن يكون ، فقالت طائفة : نكون مما يلي بعث (١) إلى ثنية الوداع إلى الجرف (٢) ، فقال قائل : ندع المدينة خلوصاً ؟ فقال سلمان الفارسي - رضي الله عنه - إنا إذا كنا بأرض فارس وتخوفنا الخيل خندقنا علينا ، فهل لك يا رسول الله أن تخندق ؟ فأعجب رأي سلمان المسلمين ، فأخذ رسول الله برأيه ، فعندئذ ركب الرسول - ﷺ - فرساً له ومعه نفر من أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فارتاد موضعاً ينزله ، فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل سلماً (٣) خلف ظهره وخط لهم مكان الخندق ، وطقق الصحابة يحفرونه فحفروه في مدة ستة أيام (٤) ، وحفر معهم النبي - ﷺ - بيده الشريفة ، وما لبث أن وصل المشركون فسقط في أيديهم على هذه المكيدة الحربية التي ما كانوا يعهدونها ، وظل المسلمون خلفه ، أمامهم هذا الحصن الحصين ، وخلفهم جبل سلع يحمي ظهورهم ، فلا يستطيع الأعداء أن ينالوا منهم نيلاً ، ثم إن الله بعد نكب عدوهم وردهم على أعقابهم خاسئين .

وهكذا فقد كان وراء هذه المشاورة الخير المحض للمسلمين ، إذ يئس المشركون أن ينالوا مأرباً لهم في عدوانهم ، وعلموا أن معنويات المسلمين لم تتزعزع في الاستعداد للقتال مع طول الحصار الذي ضربوه على المدينة الذي مكث نحو شهر ، فأياسهم هذا الموقف أن ينالوا خيراً ، وكل هذا بفضل الله ، ثم ببركة المشاورة الصادقة ، والنصح الخالص ، والرأي السديد الذي دأب عليها النبي - ﷺ - في سياسته الباهرة ، وفي مهام المسلمين النازلة كهذه النوازل العظام التي يطول بحثها واستقراؤها .

ومن خلال هذه النماذج الحية وما سواها كثير ، نعلم أن الشورى كانت قاعدة من

-
- (١) بعث : موضع بالشمال الشرقي من المدينة ، يقع الآن في الطرف الشمالي الغربي من نحو العوالي . انظر : معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ص (٤٦ - ٤٧) .
- (٢) الجرف : يقع في الجهة الشمالية الغربية من المدينة جهة الجامعة الإسلامية ، وأصبح الآن حياً من أحياء المدينة يعرف بهذا الاسم . انظر : معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ص (٢٨١) .
- (٣) أي : جبل سلع ، وهو من الجبال المعروفة والمشهورة في المدينة .
- (٤) انظر : الطبقات الكبرى لابن سعد (٦٧/٢) .

قواعد حياته - ﷺ - ، ومبدأ من مبادئ تعامله مع صحابته - رضوان الله عليهم أجمعين -
وقد طبقها على نحو لم تشهد الشورى في تاريخها تطبيقاً مثله ، كما طبقها النبي - ﷺ -
وهو الغني عنها بالوحي ، وكمال العقل والفتنة ، لكن كمال أخلاقه وعظمتها ، وسمو
أدبه ورقيه ، وأمر الله وتوجيهه ، كل ذلك أبي عليه إلا أن يشاور أصحابه الكرام ؛ ليكون
أسوة لأصحابه في أمرها من بعده ، فلا يجيدون عنها في سياستهم وقيادتهم وحياتهم العامة
والخاصة ؛ امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن
كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (١) .

وفي هذا دلالة على أهمية أدب الشورى والمشاورة ، وأنها خلق عظيم ، وأدب كريم ،
تمثل في أنبياء الله ورسله - عليهم الصلاة والسلام - .



(١) سورة الأحزاب ، آية (٢١) .

المبحث الثاني

التحوّل بالموعظة والمناصحة

التحوّل : التعهد والإصلاح . وتحوّل الرجل تعهده ، وربما قالوا : تحوّلت الريح الأرض إذا تعهّدتها ، والخائل : المتعهد للشيء والمصلح له القائم به . وتحوّلهم بالموعظة إذا تعاهدتهم بها (١) .

أي : يتعهد بها شيئاً فشيئاً ويراعي بها . وهو من قولهم : تساقطوا أخولَ أخولَ أي : شيئاً بعد شيء . وأنشد :

يساقط عنه روقه ضارياًتها سقاط حديد القين أخول أخولا

فكان هذا الرجل يرعى ماله ، ويتعهده ، حفظاً له وشحاً عليه « (٢) .

ومن هذا المعنى يتضح أن التحوّل يقصد به المعاهدة والإصلاح والمداومة على الشيء بأسلوب هيّن بسيط ، غير متكلف ولا مبالغ فيه ، ولا مكثّر منه .

ولا شك أن التحوّل في الموعظة من أساليب الداعية الناجح الموفق ؛ إذ أن الإكثار من الشيء يجعل الناس تنفر من صاحبه ، وتقل وتنشعب منه ، فلا تنشط له مرة أخرى .

وفي الصحيحين من حديث شقيق بن سلمة (٣) - رحمته الله - قال : كان عبد الله بن مسعود يُذكرُ كل خميس فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن إنا نحب حديثك ونشتهيهِ ولوددنا أنك حدثتنا كل يوم ، فقال : ما يمنعني أن أحدثكم إلا كراهية أن أملككم « إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يتحولنا بالموعظة مخافة السأمة علينا » (٤) .

(١) انظر : الصحاح للجوهري (١٦٩٠/٤) ، ولسان العرب (١٨٣/٥) ، والنهاية في غريب الأثر ص (٢٩١) .

(٢) الخصائص (١٣٠/٢) ، تحقيق : محمد علي النجار ، دار ال كتب المصرية ، طبعة : ١٣٧٦هـ .

(٣) هو : شقيق بن سلمة الأسدي ، الكوفي ، ثقة مخضرم ، مات في خلافة عمر بن عبد العزيز ، وله مائة سنة . انظر : تقريب التهذيب برقم (٢٨١٦) .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب العلم ، باب ما كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يتحولهم بالموعظة (٢٥/١) =

وذكر عن ابن مسعود قوله : « حدثت الناس ما أقبلت عليك قلوبهم إذا حدّوك بأبصارهم ، وإذا انصرفت عنك قلوبهم فلا تحدّتهم ، وذلك إذا اتكأ بعضهم على بعض » .

وقال ابن عباس : « حدثت الناس كل جمعة مرة ، فإن أكثرت فمرتين ، فإن أكثرت فثلاثاً ولا تمل الناس من هذا القرآن ، ولتأت القوم وهم في حديث فتقطع عليهم حديثهم وقال : أنصت ، فإذا أمروك فحدثهم وهم يشتهونه ، وإياك والسجع في الدعاء ، فإني عهدت رسول الله - ﷺ - وأصحابه لا يفعلونه » (١) .

وعن عمر - رضي الله عنه - أنه كان يقول على المنبر : « أيها الناس لا تبغضوا الله إلى عباده ، فليل : كيف ذاك أصلحك الله ؟ قال : يجلس أحدكم قاصاً فيطول على الناس حتى يبغض إليهم ما هم فيه ، ويقوم أحدكم إماماً فيطول على الناس حتى يبغض إليهم ما هم فيه » .

وقالت عائشة - رضي الله عنها - لعبيد بن عمير : « إياك وإملا ل الناس وتقنيطهم » .

وكان أحد السلف إذا سئل عن الحديث يقول : « أحمضوا أخلطوا الحديث بغيره حتى تفتح النفس » .

وقال : « نقل الصخر أيسر من تكرير الحديث » (٢) .

فهذه معاني ونكت في التحذير من التكرار والإملا ل والإكثار في المواعظ ، ومحاولة تخول الناس فيها وتعهدهم بها فينة وأخرى ؛ إذ أن هذا من أسباب التوجه إلى الواعظ والقبول منه وعدم الإعراض عنه .

= برقم (٦٨) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب المنافيق ، باب الاقتصاد في الموعظة (١٧٢٣/٤) برقم (٢٨٢١) .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الدعوات ، باب ما يكره من السجع في الدعاء (٧٤/٨) برقم (٦٣٣٧) .

(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح (٢٠٢/٢ - ٢٠٣) .

ولقد كان لأنبياء الله - عليهم الصلاة والسلام - قصب السبق في هذا الخلق ، والحظ الأوفر من هذا الأدب ، ولا غرو في ذلك ، فقد صبغهم الله - ﷺ - بحكمة النبوة ، وجملهم بأدب الرسالة ، واصطفاهم في الأخلاق والآداب أعلى المراتب وأرقى الدرجات .
وفي هذا البحث سأعرض لبعض الصور النبوية الكريمة في التحول بالموعظة والمناصحة .

فمن صور تحول الأنبياء لأقوامهم بالموعظة الحسنة والنصيحة : مواعظ موسى - ﷺ - - الدائمة لقومه ، ونصيحته الصادقة لهم ، والذي طالما واجه منهم التعنت والأذى حتى إن نبينا محمداً - ﷺ - قال عنه : « يرحم الله موسى ، قد أؤذي بأكثر من هذا فصبر » (١) .

ولقد كان بنو إسرائيل قوماً متعنتين معاندين ، واجه موسى - ﷺ - معهم أصناف الأذى والعصيان ، مما كان يستدعي أن يتحولهم دائماً بالمواعظ والنصائح التي كان يستحضرها ؛ لكثرة أخطائهم ، وعصيانهم لرسولهم ، ومخالفتهم أوامر الله .
فمن الأمثلة على ذلك : نصيحته لهم في بداية صراعهم مع فرعون الطاغية ، وما كان يسومهم من سوء العذاب ، وأصناف الأذى .

يقول تعالى حكاية عن موسى لقومه : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَاقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنُتُمْ بِاللَّهِ فَاعِلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ (٢) .

ففي هذه الآيات يتضح لنا مدى حرص موسى - ﷺ - على قومه وخوفه عليهم أن ينتكسوا على أعقابهم ويرتدوا عن دينهم ، نتيجة ما يواجهونه من أذى وتسلط وتجبر

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأنبياء ، باب حديث الخضر مع موسى - ﷺ - (١٥٧/٤) برقم (٣٤٠٥) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الزكاة ، باب إعطاء المؤلفلة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه (٦٠٨/٢) برقم (١٠٦٢) .

(٢) سورة يونس ، آية (٨٤ - ٨٦) .

فرعون عليهم ، لهذا فقد ذهب إلى مناصحتهم وتذكيرهم بالله ، والتوكل عليه ، والثقة به وبنصره ، فقال لما رأى تخوف المؤمنين : ﴿ يَقُومِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ ﴾ أي : صدقتم به وبآياته . ﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ﴾ أي : اعتمدوا لا على أحد سواه ، فإنه - سبحانه - كافيكم كل شر وضر . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ أي : مستسلمين لقضاء الله - تعالى - ، مخلصين له ، أي : إن كنتم آمنتم بالله فيجب عليكم التوكل عليه - سبحانه - فافعلوه واتصفوا به إن كنتم مستسلمين له - تعالى - . وقرره بأن ههنا ثلاثة أشياء : الإيمان ، والتوكل ، والإسلام . والمراد بالإيمان : التصديق ، وبالتوكل : إسناد الأمور إليه - ﷻ - ، وبالإسلام : تسليم النفس إليه - سبحانه - وقطع الأسباب ، فعلق التوكل بالتصديق بعد تعليقه بالإسلام ؛ لأن الجزء معلق بالشرط الأول ، وتفسير للجزء الثاني كأنه قيل : إن كنتم مصدقين بالله - تعالى - وآياته فخصوه - سبحانه - بإسناد جميع الأمور إليه ، وذلك لا يتحصل إلا بعد أن تكونوا مخلصين لله - تبارك وتعالى - ، مستسلمين بأنفسكم له - سبحانه - ليس للشيطان فيكم نصيب وإلا فاتركوا أمر التوكل (١) .

إن موسى - ﷺ - أراد في نصيحته هذه استثارة المشاعر الكامنة بداخلهم ، واستفزاز الإيمان الكامن في قلوبهم بقوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ ﴾ والمعنى : « إن كنتم آمنتم بالله حقاً كما أظهرته أقوالكم ، فعليه اعتمدوا في نصركم ودفع الضر عنكم ، ولا تعتمدوا في ذلك على أنفسكم بمصانعة فرعون ، ولا على فرعون بإظهار الولاء له .

وأراد إثارة صدق إيمانهم وإلهاب قلوبهم بجعل إيمانهم معلقاً بالشرط محتمل الوقوع ، حيث تحوفوا من فرعون أن يفتنهم فأرادوا أن يكتموا إيمانهم تقية من فرعون وملئهم ، وإنما جعل عدم اكتراثهم ببطش فرعون علامة على إيمانهم ؛ لأن الدعوة في أول أمرها لا تقوم إلا بإظهار متبعيها جماعتهم ، فلا تغتفر فيها التقية حينئذ (٢) .

وهذا نوع من أنواع المناصحة ، وهو استثارة النفوس وإلهاب المشاعر ، وإيقاظ نار

(١) روح المعاني (٢٢٥/١١) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٦١/١١ - ٢٦٢) .

الحمية والغيرة الدينية داخل الإنسان ، وهذا ما جعل بني إسرائيل يستجيبون لتلك الإشارة النبوية والموعظة الروحانية ، « وقد كان صادق إيمانهم مع نور الأمر النبوي الذي واجههم به نبيهم مسرعاً بهم إلى التجرد عن التخوف والمصانعة ، وإلى عقد العزم على التوكل على الله ، فلذلك بادروا بجوابه بكلمة ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ مشتملة على خصوصية القصر المقتضي تجردهم عن التوكل على غير الله - تعالى - .

ثم ذلّلوا كلمتهم بالتوجه إلى الله بسؤالهم منه أن يقيهم ضر فرعون ، ناظرين في ذلك إلى مصلحة الدين قبل مصلحتهم ؛ لأنهم إن تمكن الكفرة من إهلاكهم أو تعذيبهم قويت شوكة أنصار الكفار فيقولون في أنفسهم : لو كان هؤلاء على الحق لما أصابهم ما أصابهم فيفتتن بذلك عامة الكفرة ، ويظنون أن دينهم الحق (١) .

كذلك من أمثلة تخلو موسى - عليهما السلام - قومه بالمناصحة وتعهدهم بالمواعظ والتوجيه والإصلاح : تذكيره لهم بما حصل لهم مع فرعون ، وكيف كان حالهم قبل أن ينعم الله عليهم بانتصارهم عليه وهلاكه .

يقول - تعالى - حكاية عن موسى - عليهما السلام - :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ (٢) .

في هذه الآيات يخاطب موسى - عليهما السلام - قومه ويذكرهم بحالهم سلفاً حينما كانوا ضعفاء مستعبدين لفرعون وقومه ، يسومونهم سوء العذاب « أي : ييغونهم ، يقال : سامه

(١) التحرير والتنوير (٢٦٣/١١) .

(٢) سورة إبراهيم ، آية (٦ - ٨) .

ظلمًا أي : أولاه ظلمًا ، وأصل السوم : الذهاب في طلب الشيء ، وسوء العذاب : مصدر ساء يسوء ، والمراد حبس العذاب السيء ، وهو استعبادهم واستعمالهم في الأعمال الشاقة ، وعطف ﴿ وَيَذَّبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ على ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ وإن كان التذبيح من جنس سوء العذاب ؛ إخراجًا له عن مرتبة العذاب المعتاد حتى كأنه جنس آخر ؛ لما فيه من الشدة ﴿ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ أي : يتركوهن في الحياة لإهانتهم وإذلالهن ﴿ وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ ﴾ المذكور من أفعالهم ﴿ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ أي : ابتلاء لكم « (١) .

ثم يواصل موسى - عليه السلام - تذكير قومه ووعظهم ببيان أهمية الشكر وأنه سبب لزيادة النعم وبقائها في حال وجوده ، وسبب لزوال النعم وفنائها في حال فقده ، فقال لهم : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ « ومعنى : ﴿ تَأَذَّنَ ﴾ آذن ربكم إيدانًا بليغًا ، أي : أعلم ، يقال : أذَّن وتَأَذَّن بمعنى واحد مثل : أوعد وتوعد ، ومنه الأذان (٢) ؛ لأنه إعلام ، قال الشاعر :

فَلَمْ نَشْعُرْ بِضَوْسِ الصُّبْحِ حَتَّى سَمِعْنَا فِي مَجَالِسِنَا الْأَذِينَا

فيقال : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ ﴾ نعمتي ، وآمنتكم ، وأطعتم : ﴿ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ في النعمة .

وقيل : لئن شكرتم بالطاعة ﴿ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ بالثواب .

والآية نصٌّ في أن الشكر سبب المزيد : ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ ﴾ نعمتي فجحدموها ،

ولم تشكروها : ﴿ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ .

وقيل : المراد الكفر ؛ لأن كفران النعمة لا يحصل إلا عند الجهل بكون تلك النعمة من

الله تعالى .

(١) فتح القدير (٣/١٣١) .

(٢) انظر : الصحاح في اللغة للجوهري (٥/٢٠٦٨ - ٢٠٦٩) .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

﴿ ٨ ﴾ أي : غني عن خلقه ، حميد محمود في أفعاله .

والمعنى : أن منافع الشكر ومضار الكفر لا تعود إلا إلى الشاكر والكافر ، أما المعبود والمشكور فإنه متعال عن أن ينتفع بالشكر ، أو يستضر بالكفران ، فلا حرم ، قال تعالى :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ ﴿ ٨ ﴾ .

والغرض منه : بيان أنه تعالى إنما أمر بهذه الطاعات لمنافع عائدة إلى العابد لا إلى

المعبود « (١) » .

ففي هذه الآيات يتضح مدى حرص موسى - عليهما السلام - على هداية قومه وإصلاح شأنهم ، وتعهدهم بالتذكير والوعظ ، وتذكيرهم بنعم الله عليهم التي لا تنقطع ، وحثهم على المحافظة على هذه النعم بدوام الشكر ، والحرص عليه ؛ وذلك لخطره وعظم أمره .

وقد قيل في الشكر : إنه (صيد المفقود وقيد الموجود) ؛ وذلك لأهميته في حياة العبد ، ولهذا امتدح الله الشاكرين ونوّه بذكرهم في كتابه الكريم ، وذكره في أيما موضع على سبيل المدح والثناء ، وذكر أنه من صفات أنبيائه وعباده الصالحين ، فوصف به نوحاً قائلاً : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ ﴿ ٣ ﴾ ، ووصف به خليله في موضع آخر فقال : ﴿ شَاكِرًا لَّأَنْعَمِهِ ۚ أَحْتَبُّهُ وَهَدَنُهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ﴿ ١١٦ ﴾ ﴿ ٣ ﴾ ، وقال عن بقية المؤمنين : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ ﴿ ١٣ ﴾ ﴿ ٤ ﴾ في إشارة إلى أن هذا الخلق عزيز ، والقائم به قد تميز حتى صار من القلة القليلة التي لا يشاركها أحد في هذا الفعل .

والشكر من أجل الأخلاق السلوكية الإيمانية التي يجب على المؤمن أن يتحلى بها في

(١) تفسير اللباب لابن عادل (٣٤٣/١١) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩ هـ .

(٢) سورة الإسراء ، آية (٣) .

(٣) سورة النحل ، آية (١٢١) .

(٤) سورة سبأ ، آية (١٣) .

كل أحواله ؛ لما فيه من الاعتراف بالنعم لمسيديها ، ويدل على عظم مكانته : انضواء جل الأخلاق الإيمانية تحته من محبة ورضا وتوكل . . . ؛ لأن الشكر لا يتم إلا بعد التحلي بها ، ولا يكون إلا عند استشعارها ، « ومما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر : أن تعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت ، ولم تعد ، ولذلك كان الفضيل بن عياض - رحمته - يقول : « عليكم بملازمة الشكر على النعم ، فقلّ نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم » . وقال بعض السلف : النعم وحشية فقيدوها بالشكر . قال الله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (١) « (٢) ، نسأل الله أن يجعلنا من عباده الشاكرين .

أعود إلى الحديث عن الأنبياء وتخولهم بالوعظ والنصيحة لأقوامهم ، ولا زال في مواضع موسى - عليه السلام - لقومه بني إسرائيل وتذكيره إياهم بالنعم وتحذير لهم من النقم .

فمن الأمثلة على ذلك : قوله تعالى حكاية عن موسى - عليه السلام - :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلَ فَتُوبُوا إِلَى بَرِّكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَرِّكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٣) .

في هذه الآيات يذكر الله - تعالى - نصيحة موسى لقومه ، وتحريضهم على التوبة ، وحثهم على الإنابة إلى الله ، وتكفير ذنبهم العظيم الذي ارتكبوه بعبادتهم العجل من دون الله ، وذلك بقتل أنفسهم .

لقد أخبرهم موسى في هذه الآية بأنهم ظلموا أنفسهم باتخاذهم العجل يعبدونه من دون الله ، وقد أكدت آيات القرآن الكريم على وصف عابدي العجل بالظلم كما في قوله

(١) سورة الرعد ، آية (١١) .

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٧١/٤) .

(٣) سورة البقرة ، آية (٥٤) .

تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (١) ، وقال أيضاً : ﴿ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ (٢) .

فهذه الآيات تصف عبادة العجل بالظلم ، والظلم هنا بمعنى الكفر والشرك ، ونحن نعلم أن أعظم الظلم هو الشرك بالله - تعالى - : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣) ، ولهذا لما علموه شناعة فعلهم ، وعظم جريمتهم ، أرادوا العودة إلى الله ، والتوبة إليه ، والإنابة ، ولهذا وصف الله حاله بعد هذا الفعل بقوله : ﴿ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٤) .

ومعنى : ﴿ سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾ لما ندموا على ما فعلوا وتبين لهم خطئهم وسوء فعلهم بعبادتهم العجل ، و ﴿ سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾ جملة تفرد بها القرآن فلم ترد في استعمال العرب قبل نزول القرآن .

قال الصاغاني عن هذه الكلمة :

« وهو نظم لم يسمع قبل القرآن » (٥) .

وقال ابن عاشور :

« قلت : وهو القول الفصل ، فإني لم أره في شيء من كلامهم قبل القرآن » (٦) .

ولهذا لما شعر بنو إسرائيل بالندم رغبوا بالتوبة ، فطلبوا من موسى أن يدلهم على طريق

-
- (١) سورة البقرة ، آية (٩٢) .
 - (٢) سورة الأعراف ، آية (١٤٨) .
 - (٣) سورة لقمان ، آية (١٣) .
 - (٤) سورة الأعراف ، آية (١٤٩) .
 - (٥) العباب الزاخر (٢٦٤/١) .
 - (٦) التحرير والتنوير (١١٢/٩) .

التوبة وتكفير هذا الذنب ، فدلهم على ذلك بقوله : ﴿ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا
أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ (١) .

ومعنى هذه الآيات أن موسى - عليه السلام - يقول لقومه : يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم
وهبطتم بها إلى الحضيض بعبادتكم غير الله - تعالى - فإذا أردتم التكفير عن خطاياكم ،
فتوبوا إلى ربكم توبة صادقة نصوحاً ، واقتلوا أنفسكم لتنالوا عفو ربكم ، فذلكم خير لكم
عند خالقكم من الإقامة على المعصية ، ففعلتم ذلك فقبل الله توبتكم ؛ لأنه هو الذي يقبل
التوبة عن عباده على كثرة ما يصدر عنهم من ذنوب ؛ لأنه هو الواسع الرحمة لمن ينيب إليه
ويستقيم على صراطه الواضح .

وانظر إلى نداء موسى - عليه السلام - لهم بقوله : ﴿ يَاقَوْمِ ﴾ تجد فيه تلميحاً في الخطاب
ليجذب قلوبهم إلى سماعه ، وليحملهم على تلقي أوامره بحسن الطاعة ، وليشعرهم بأنهم
قومه ، فهو منهم ومهم منه ، والشأن فيمن كان كذلك ألا يكذب عليهم أو يخدعهم ،
وإنما يريد لهم الخير .

يقول الزمخشري :

« فإن قلت : من أين اختص هذا الموضع بذكر البارئ ؟ قلت : البارئ هو الذي
خلق الخلق بريئاً من التفاوت ﴿ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ ﴾ (٢) وتمييزاً
بعضه عن بعض بالأشكال المختلفة ، والصور المتباينة ، فكان فيه تفرقة بما أن منهم من ترك
عبادة العالم الحكيم الذي برأهم بلطف وحكمته على الأشكال المختلفة ، أبرياء من التفاوت
والتنافر إلى عبادة البقر التي هي مثل في الغباوة والبلادة ، حتى عرضوا أنفسهم لسخط الله
ونزول أمره بأن يفك ما ركبه من خلقهم ، ونثر ما نظم من صورهم وأشكالهم ، حين لم
يشكروا النعمة في ذلك ، وغمطوها بعبادة ما لا يقدر على شيء منها » (٣) .

(١) سورة البقرة ، آية (٥٤) .

(٢) سورة الملك ، آية (٣) .

(٣) الكشاف ص (٧٧) ، وانظر : التفسير الوسيط ، لطنطاوي (٢٨٠/١) .

وقوله تعالى : ﴿ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ أمر من موسى - عليهما السلام - لهم بقتلهم أنفسهم حتى تكون توبتهم مقبولة ، وهذا الأمر بلغه موسى إياهم عن ربه ، إذ مثل هذا الأمر لا يصدر إلا عن وحي ؛ لأنه تشريع من الله - تعالى - .

فهذا مثال على تعهد موسى قومه بالنصح والوعظ والسعي إلى إصلاحهم وهدايتهم ، نسأل الله الهداية والتقى .

ومن الأمثلة أيضاً في هذا الجانب ما ذكره الله - تعالى - عن موسى في نصيحته لقومه بدخول الأرض المقدسة التي خافوا دخولها وأبوا وعصوا أمر الله في ذلك .

قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يٰ قَوْمِ أَدْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَكُمْ مَّا لَمْ يُوْت أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢٠) يَقَوْمِ أَنْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يٰمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنتِكُمُ غَلِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يٰمُوسَىٰ إِنَّا لَنَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴿ (١) .

« هذه الآيات الكريمة تصور لنا ما جبل عليه بنو إسرائيل من جبن شديد ، وعزيمة خوارة ، وعصيان لرسولهم ، وإيثار للذلة مع الراحة على العزة مع الجهاد ، وهي تحكي

(١) سورة المائدة ، آية (٢٠ - ٢٦) .

بأسلوبها البليغ قصة تاريخية معروفة ، وملخص هذه القصة :

أن بني إسرائيل بعد أن ساروا مع نبيهم موسى - ﷺ - إلى بلاد الشام ، عقب غرق فرعون أمام أعينهم ، أوحى الله - تعالى - إلى موسى أن يختار من قومه اثني عشر نقيباً ، وأمره أن يرسلهم إلى الأرض المقدسة التي كان يسكنها الكنعانيون حينئذٍ ؛ ليتحسسوا أحوال سكانها ، وليعرفوا شيئاً من أخبارهم .

وقد أشار القرآن قبل ذلك إلى هذه القصة بقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ ﴾ (١) . ولقد نفذ موسى - ﷺ - ما أمره به ربه - سبحانه - ، وكان مما قاله موسى للنقباء عند إرسالهم لمعرفة أحوال سكان الأرض المقدسة : (لا تخبروا أحداً سواي عما ترونه) ، فلما دخل النقباء الأرض المقدسة ، واطلعوا على أحوال سكانها ، وجدوا منهم قوة عظيمة ، وأجساماً ضخمة ، فعاد النقباء إلى موسى وقالوا له - وهو في جماعة من بني إسرائيل - : قد جئنا إلى الأرض التي بعثتنا إليها ، فإذا هي في الحقيقة تدر لبناً وعسلاً ، وهذا شيء من ثمارها ، غير أن الساكنين فيها أقوياء ، ومدينتهم حصينة ، وأخذ كل نقيب منهم ينهى سبطه عن القتال إلا اثنين منهم ، فإمّا نصحا القوم بطاعة نبيهم موسى - ﷺ - وبقتال الكنعانيين معه ، ولكن بني إسرائيل عصوا أمر هذين النقبين ، وأطاعوا أمر بقية النقباء العشرة ، وأصروا على عدم الجهاد ، ورفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا : يا ليتنا متنا في مصر أو في هذه البرية ، وحاول موسى - ﷺ - أن يصدّهم عما تردوا فيه من جبن وعصيان ، وأن يحملهم على قتال الجبارين ، ولكنهم عموا وصموا .

وأوحى الله - تعالى - إلى موسى أن الأرض المقدسة محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ؛ جزاء عصيانهم وجبنهم .

هذا هو ملخص هذه القصة كما وردت في كتب التفسير « (٢) .

(١) سورة المائدة ، آية (١٢) .

(٢) انظر : تفسير الطبري (٥١٢/٤) ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧٢/٣) ، وتفسير الوسيط ، لططاوي (١٠٣/٤) .

قال أبو حيان (١) في تفسيره لهذه الآيات :

« مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه - تعالى - بين تمرّد أسلاف اليهود على موسى ، وعصيانهم إياهم ، مع تذكيره إياهم نعم الله وتعداده لما هو العظيم منها ، وأن هؤلاء الذين هم بحضرة الرسول هم جارون معكم مجرى أسلافهم مع موسى ، وعدّد عليهم من نعمه ثلاثاً :

الأولى : جعل أنبياء فيهم وذلك أعظم الشرف ؛ إذ هم الوسائط بين الله وبين خلقه ، والمبلغون عن الله شرائعه . قيل : لم يبعث في أمة ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء .

الثانية : جعلهم ملوكاً ظاهره الامتتان عليهم ، بأن جعلهم ملوكاً ، إذ جعل منهم ملوكاً ، إذ الملك شرف في الدنيا واستيلاء ، فذكرهم بأن منهم قادة الآخرة وقادة الدنيا . وقال السدي وغيره : وجعلكم أحراراً تملكون ولا تملكون ، إذ كنتم خدماً للقبط فأنقذكم منهم ، فسمي استنقاذكم ملكاً .

الثالثة : إيتاؤه إياهم ما لم يؤت أحداً من العالمين ، فسره ابن عباس فيما روى عنه مجاهد : بالمن والسلوى ، والحجر ، والغمام . وروى عنه عطاء الدار والزوجة والخادم . وقيل : كثرة الأنبياء . وقال ابن جرير : ما أوتي أحد من النعم في زمان قوم موسى ما أوتوا ، خصوا بخلق البحر لهم ، وإنزال المن والسلوى ، وإخراج المياه العذبة من الحجر ، ومد الغمام فوقهم ، ولم تجمع النبوة والملك لقومٍ كما جمعاً لهم ، وكانوا في تلك الأيام هم العلماء بالله وأحباؤه وأنصار دينه ، انتهى .

(١) هو : محمد بن يوسف بن علي بن يوسف ابن حيان الغرناطي الأندلسي الجياني ، النفري ، أثير الدين ، أبو حيان ، من كبار علماء العربية والتفسير والحديث والتراجم واللغات ، ولد في إحدى جهات غرناطة سنة (٦٥٤هـ) ، ورحل إلى مالقة وتنقل إلى أن قام بالقاهرة ، وتوفي بها بعد أن كفّ بصره ، واشتهرت تصانيفه في حياته ، وقرئت عليه ، من كتبه : (البحر المحيط) في تفسير القرآن ، و (تحفة الأريب) في غريب القرآن ، و (منهج السالك في ألفية ابن مالك) وغيرها ، توفي سنة (٧٤٥هـ) . انظر : الأعلام (١٥٢/٧) .

وهذه المقالة من موسى لبني إسرائيل وتذكيرهم بنعم الله هي توطئة لنفوسهم ، وتقدم إليهم بما يلقي من أمر قتال الجبارين ليقوي جأشهم ، وليعلموا أن من أنعم الله عليه بهذه النعم العظيمة لا يخذله الله ، بل يعليه على عدوه ويرفع من شأنه ، ويجعل له السلطنة والقهر عليه « (١) .

فهنا أراد موسى - عليهما السلام - أن يمهّد لتكليف قومه بالجهاد بتذكيرهم بنعم الله التي أنعم بها عليهم ، وهذا التذكير ليشكروا الله على تلك النعم ، ويحافظوا عليها بتنفيذ أحكامه ؛ لأنهم إن عصوه وتمردوا فإن مصير تلك النعم إلى زوال .

وهذا التذكير يحمل إشفاق موسى - عليهما السلام - من قومه وخوفه أن لا ينفذوا أمر الله بالجهاد ، وتوقعه أن يتمردوا عليه ويخالفوه ويعصوه ؛ لأن لهم حوادث سابقة معه تمردوا وعصوا وخالفوا فيها ، لذا فهو يتوقع منهم الآن ذلك ، فذهب يذكرهم بنعم الله عليهم الغامرة ؛ نصيحة لهم ، وموعظة وخوفاً عليهم .

يقول سيد قطب :

« وإننا لنلمح في كلمات موسى - عليهما السلام - إشفاقه من تردد القوم ونكوصهم على الأعقاب ، فلقد جربهم من قبل في (مواطن كثيرة) في خط سير الرحلة الطويل ، جربهم وقد أخرجهم من أرض مصر ، وحررهم من الذل والهوان ، باسم الله وبسلطان الله الذي فرق لهم البحر ، وأغرق لهم فرعون وجنده ، فإذا هم يمرون على قوم يعكفون على أصنام لهم ، فيقولون : ﴿ يَمْوَسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ (٢) ، وما يكاد يغيب عنهم في ميقاته مع ربه حتى يتخذ السامري من الحلي التي سرقوها معهم من نساء المصريين عجلاً ذهباً له حوار ، ثم إذا هم عاكفون عليه يقولون : إنه إله موسى الذي ذهب لميقاته ! وجربهم وقد فجر لهم من الصخر ينابيع في جوف الصحراء ، وأنزل عليهم المن والسلوى طعاماً سائغاً ، فإذا هم يشتهون ما اعتادوا من أطعمة مصر - أرض الذلة بالنسبة لهم -

(١) البحر المحيط (٣/٤٥٢ - ٤٥٣) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (١٣٨) .

فيطلبون بقلها وقتائها وفومها وعدسها وبصلها ، ولا يصبرون عما ألفوا من طعام وحياة في سبيل العزة والخلاص ، والهدف الأسمى ، الذي يسوقهم موسى إليه وهم يتسكعون ! ، جرهم في قصة البقرة التي أمروا بذبحها فتلكأوا وتسكعوا فيا لطاعة والتنفيذ ﴿ فذَبَّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (١) ، وجرهم وقد عاد من ميقات ربه ومعه الألواح وفيها ميثاق الله عليهم وعهده ، فأبوا أن يعطوا الميثاق ، وأن يمضوا العهد مع ربهم - بعد كل هذه الآلاء وكل هذه المغفرة للخطايا - ولم يعطوا الميثاق حتى وجدوا الجبل منتوقاً فوق رؤوسهم ، ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمُ اقْتَرَبُوا بِهَيْمِهِمْ ﴾ (٢) ، لقد جرهم في مواطن كثيرة طوال الطريق الطويل ، ثم هاهو ذا معهم على أبوا الأرض المقدسة ، أرض الميعاد التي من أجلها خرجوا ، الأرض التي وعدهم الله أن يكونوا فيها ملوكاً ، وأن يبعث من بينهم الأنبياء فيها ليظلوا في رعاية الله وقيادته .

لقد جرهم فحق له أن يشفق ، وهو يدعوهم دعوته الأخيرة ، فيحشد فيها ألمع الذكريات ، وأكبر البشريات ، وأضخم المشجعات ، وأشد التحذيرات « (٣) .

والمراد أن موسى - ﷺ - أراد بنصيحته هذه لقومه وموعظته إياهم بتذكيرهم بنعم الله أن يوقظ فيهم الإحساس بفضل الله تعالى عليهم في نفوسهم ، ومقابلة ذلك بتنفيذ أوامره لهم ، والقيام بواجباتهم التي فرضها الله عليهم من باب شكر الله تعالى المنعم والمتفضل عليهم بتلك النعم العظيمة ، والأفضال الجسيمة ، وهذا من التخلول بالموعظة والنصح والتعهد والقيام على إصلاح الأمة ، والأخذ بيدها إلى طرق النجاة ، ولما فيه نفع لها في الدنيا والآخرة ، وذلك دأب الأنبياء والرسل - عليهم أفضل صلاة وأزكى تسليم - .

ومن الأنبياء الذين كانوا يتخولون أتباعهم بالموعظة الحسنة والنصيحة البليغة ؛ نبينا

محمد - ﷺ - .

- (١) سورة البقرة ، آية (٧١) .
 (٢) سورة الأعراف ، آية (١٧١) .
 (٣) في ظلال القرآن (٢ / ٨٦٩) .

فقد كان - عليه الصلاة والسلام - يعظ أصحابه المواعظ الحسان التي تفتح القلوب ، وتفتق الأذهان ؛ لما أعطي من جزالة اللفظ ، وفصاحة اللسان ، وبلاغة الكلام ، وعذوبة الأسلوب ، وقوة التأثير بحيث كان يملك قلوب السامعين ، ويشد أفتدتهم للانتباه له ، فتفعل في قلوبهم العجب من التأثير والاعتاظ ؛ وذلك امتثالاً لقول الله تعالى : ﴿ وَعَظَّمْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ (١) ، « يبلغ منهم ويؤثر فيهم ، والنصح لهم ، والمبالغة فيه بالترغيب والترهيب ، وذلك مقتضى شفقة الأنبياء - عليهم السلام - » (٢) .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (٣) ، فكان - عليه الصلاة والسلام - يفعل ذلك على أكمل وجه .

وقد برزت معالم حسن مواعظه - عليه الصلاة والسلام - في الأسلوب الأمثل الذي اتخذهُ لوعظهِ ليؤدي غرضه من التأثير والاستجابة والهداية ، فقد كان فُحجه في الوعظ ألا يطيله ، وألا يداوم عليه ، وأن ينتهز أحسن الأوقات له ، وأن يؤديه بأحسن الأساليب من الغضب عنده والتعميم به ، وطلب الإنصات له ، كل ذلك ليؤدي ثماره على أكمل وجه ، وأعم نفع ، وقد حدّث بذلك أصحابه - رضوان الله عليهم - .

فعن عدم إطالته الخطبة يقول جابر بن سمرة - رضي الله عنه - : « كنت أصلي مع النبي - صلى الله عليه وسلم - فكانت صلاته قصداً ، وخطبته قصداً » (٤) ، والقصد : العدل والسواء .

وفي رواية عنه قال : « كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا يطيل الموعظة يوم الجمعة ، إنما هي كلمات يسيرات » (٥) .

(١) سورة النساء ، آية (٦٣) .

(٢) أنوار التنزيل للبيضاوي (١١/٢) ، تقديم : محمد المرعشلي ، إحياء التراث ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨ هـ .

(٣) سورة النحل ، آية (١٢٥) .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الجمعة ، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٤٩٥/٢) برقم (٨٦٦) .

(٥) أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب الصلاة ، باب إقصار الخطبة برقم (١١٠٧) .

وأخرج مسلم من حديث أبي وائل قال : خطبنا عمار - رضي الله عنه - فأوجز وأبلغ ، فلما نزل قلنا : يا أبا اليقظان ، لقد أبلغت وأوجزت ، فلو كنت تنفست ؟ فقال : إني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فیهه ، فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخطبة ، وإن من البيان لسحراً » (١) .

ويقول الحكم بن حزن الكلفي (٢) - رضي الله عنه - شهدت مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الجمعة فكان متوكأ على عصا أو قوس ، فحمد الله وأثنى عليه : كلمات خفيفات طيبات مباركات ، ثم قال : « أيها الناس إنكم لن تطيقوا أو قال : لن تفعلوا كل ما أمرتم به ، ولكن سدّدوا وقاربوا وأبشروا وبشروا » (٣) .

فهكذا كانت خطب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في قصر المواعظ وعدم تطويلها ، وفي هذا الأسلوب عون قوي على استيعاب ما يقول الخطيب وفهمه وحفظه والعمل به ، فإن خيرا لكلام ما قلّ ودلّ ، وشره ما كثر ومل ، كما يقال ، فهذا النبي - صلى الله عليه وسلم - يوجز في المواعظ هذا الإيجاز ، وهو الذي لا يمل تطويله ؛ لبلاغة كلامه ، وفصاحة لسانه ، وحسن أسلوبه ، وكثرة نفعه ، وكمال المحبة ، والرغبة من سامعيه .

نعم ، لقد كان - عليه الصلاة والسلام - يطيل في بعض مواعظه ، وذلك عندما تدعو الحاجة إلى ذلك ، ولكن كان ذلك نادراً عندما اقتضى الحال بيان شامل كامل ، وهذا هو عين الحكمة ، فإن لكل مقام مقال ، وليس بذلك بعادة له - صلى الله عليه وسلم - ولا نهج عام اتبعه ، بل هو ناشئ عن مقتضى الحال الذي لا يستوجب عموم الأحوال ، والنادر لا حكم له كما هو معلوم .

ومع هذا الإيجاز والقصر الذي كان ينهجه - عليه الصلاة والسلام - في خطبه ومواعظه لتعقل عنه ، فإنه كان لا يكثر منها ولا يوالي كلامه عليهم ، وإنما كان يعظهم ساعة بعد ساعة ، وحيناً بعد حين ، وذلك مخافة السامة عليهم ، وعدم التأثير بما يقول .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الجمعة ، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٤٩٧/٢) بقم (٨٦٩) .

(٢) كانت له صحبة ، وله ذكر في كتب الصحابة من غير ترجمة . انظر : أسد الغابة (٣١/٢) .

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة ، باب الرجل يخطب على قوس برقم (١٠٩٦) .

فعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : « كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يتخولنا بالموعظة كراهة السامة علينا » (١) يعني : أنه يراعي الأوقات في تذكيرنا ولا يفعل ذلك كل يوم ؛ لئلا نمل ، فكان يتحين المناسبات الملائمة للتذكير التي تساعد على التأثر والحفظ وعدم النسيان ، وذلك كالموعظة عند القبر ، كما أخرج البخاري ومسلم من حديث علي - رضي الله عنه - قال : كنا في جنازة في بقيع الغرقد (٢) فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقعده وقعدنا حوله ومعه مخضرة (٣) فنكس وجعل ينكت بمخضرته ثم قال : « ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة » فقالوا : يا رسول الله ، أفلا نتكل على كتابنا ؟ فقال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فيصير من أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء فيصير لعمل أهل الشقاء ، ثم قال : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِّلْيَسْرَى ﴿٧﴾ ﴾ (٤) » (٥) .

وكموعظته - صلى الله عليه وسلم - للنساء يوم العيد ، كما في الصحيحين من حديث جابر ابن عبد الله - رضي الله عنه - قال : « قام النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم الفطر فصلى فبدأ بالصلاة ثم خطب ، فلما فرغ نزل فأتى النساء فذكرهن وهو يتوكأ على بلال ، وبلال باسط ثوبه يلقي فيه النساء الصدقة . . . » (٦) .

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - « أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أتى النساء ومعه بلال فوعظهن وذكرهن وأمرهن بالصدقة قال : فرأيتهن يهوين بأيديهن يقذفنه في ثوب بلال ، ثم انطلق

(١) تقدم تحريجه ص (٢٠٩) .

(٢) الغرقد : ضرب من شجر العضاة وشجر الشوك ، وسميت مقبرة المدينة بقيع الغرقد ؛ لأنه كان فيه غرقد وقطع ، وهو من شجر اليهود كما جاء في الحديث الصحيح : « إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود » . انظر : النهاية ص (٦٥٧) .

(٣) المخضرة : كالسوط ونحوه ، مما يمسكه الإنسان من عصا ونحوها .

(٤) سورة الليل ، آية (٥ - ٧) .

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب تفسير سورة الليل (١٧٠/٦) برقم (٤٩٤٥) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب القدر ، باب في كيفية خلق آدمي في بطن أمه (١٦١٨/٤) برقم (٢٦٤٧) .

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب العيدين ، باب موعظة الإمام النساء يوم العيد (٢١/٢) برقم (٩٧٨) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب العيدين في فاتحته (٥٠٤/٢ - ٥٠٥) برقم (٨٨٥) .

هو وبلال إلى بيته » (١) .

إلى غير ذلك من صور مواعظه وخطبه التي كان يلقيها بحسب مقتضيات الأحوال في مختلف الأزمنة والأمكنة .

فهذا من أدبه - عليه الصلاة والسلام - في الدعوة ، ومن تحوله أصحابه بالموعظة والنصح ، فحري بدعاة المسلمين أن ينهجوا هذا النهج النبوي العظيم ، ويقتدوا بأنبياء الله ورسله في النصيحة والموعظة ؛ حتى يفلحوا في دعوتهم إلى الله - تعالى - ، ويهدوا الناس إلى الصراط المستقيم .



(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب العلم ، باب عظة الإمام النساء وتعليمهن (٣١/١) برقم (٩٨) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب العيدين في فاتحته (٥٠٤/٢) برقم (٨٨٤) .

المبحث الثالث

الصبر والصفا عن المقصرين

الصبر في اللغة : الحبس ، يقال : صبرت نفسي على ذلك الأمر أي : حبستها .
ويقال : صبر الرجل يصبر صبراً فهو صابر وصبير وصبور إذا حبس نفسه عن الجزع ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ (١) ، وهذا المعنى اللغوي (٢) .

وفي الاصطلاح : هو حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع ، أو عما يقتضيان حبسها عنه (٣) .

أو هو حبس النفس على ما تكره ابتغاء مرضاة الله ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ (٤) .

وهذا المعنى هو الذي عناه القرآن الكريم عند حديثه المستفيض عن الصبر .

فلقد تحدث كثيراً عن الصبر أمراً به وحثاً عليه ، وتنويهاً به وبأهله ، وتبيانا لأجره العاجل والآجل في نحو من ست ومائة مرة (٥) ، وهو العدد الذي يجعل هذا الخلق في مقدمة الأخلاق القرآنية ذات السلوك الذاتي ، مما يدل على أن للصبر مكانة عظيمة في الدين ، وهي المكانة التي فهمها السلف الصالح حتى قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - : « الصبر نصف الإيمان » (٦) يعني لأن أكثر أخلاق الإيمان لا تتم إلا بالصبر ؛ لأنها تحتاج إلى

(١) سورة الكهف ، آية (٢٨) .

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣٢٩/٣) ، والصاحح للجوهري (٧٠٦/٢) .

(٣) مفردات القرآن للراغب ص (٤٧٤) .

(٤) سورة الرعد ، آية (٢٢) .

(٥) انظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ص (٣٩٩ - ٤٠١) .

(٦) انظر : مجمع الزوائد للهيتمي (١/٦٢) ، وقال : « رجاله رجال الصحيح » ، وأخرجه البيهقي في

شعب الإيمان برقم (٩٧١٦ ، ٩٧١٧) .

بجاهدة ؛ حتى تصبح أخلاقاً عملية للمؤمن ، وهي لا تتم إلا بالصبر ، ناهيك عما له من ضرورة دنيوية ودينية ، فلا نجاح في الدنيا ولا فلاح في الآخرة إلا بالصبر .

يقول الدكتور يوسف القرضاوي :

« وترجع عناية القرآن البالغة بالصبر إلى ما له قيمة كبيرة دينية وخلقية ، فليس هو من الفضائل الثانوية أو المكملة ، بل هو ضرورة لازمة ؛ للإنسان ليرقى مادياً ومعنوياً ويسعد فردياً واجتماعياً ، فلا ينتصر دين ولا تنهض دنيا إلا بالصبر ، قال : فالصبر ضرورة دنيوية كما هو ضرورة دينية ، فلا نجاح في الدنيا ولا فلاح في الآخر إلا بالصبر » (١) .

ولذلك كان الصبر على الطاعات والأوامر والنواهي والأقدار والأقضية واجباً بإجماع الأمة ، كما قال ابن القيم : « وهو نصف الإيمان ، فإن الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر » (٢) .

ولما كان الصبر بهذه المثابة فقد حث القرآن عليه ورغبهم فيه في غير ما آية ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ (٣) في الحديث عن نكاح الإمام ، وكقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ (٤) في قصة وفد بني تميم ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ (٥) .

ولما كان النبي - ﷺ - هو المعنى أولاً بهذا الخطاب وجهه الله تعالى إلى أن يحظى بهذه الخيرية ؛ لأنه أولى من ينالها بقوله - جل ذكره - بعد ذلك الحض : ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۗ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (٦) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ

(١) الصبر في القرآن الكريم ص (١٤) .

(٢) مدارج السالكين (١٥٢/٢) .

(٣) سورة النساء ، آية (٢٥) .

(٤) سورة الحجرات ، آية (٥) .

(٥) سورة النحل ، آية (١٢٦) .

اتَّقُوا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ (١) .

هكذا بين الله تعالى لعباده وهو العليم الحكيم أن الصبر خير لهم ، وفي بيانه هذا حض لهم على التخلق به ، فعلى المؤمن الذي ينشد الخير دائماً أن يظفر به ، فإنه ضالته التي ينشدها ، ولا شك أن من يؤمن بالله - تعالى - وبكتابه الكريم إيماناً كاملاً لا يسعه إلا أن يبادر إلى ما رغب الله فيه ، ويعض عليه بالنواجذ ، وفي هذا الحث كفاية للمؤمنين على أن يكون الصبر سجية لهم .

وحيث كان الصبر وسيلة إلى نجاح المرء في التحلي بالأخلاق والقيم الإسلامية العظيمة ، مثل : الشكر والتوكل والتقوى وغيرها من الأخلاق الإيمانية والسلوكية ، الفردية والاجتماعية ، فإنه يعطي حكم وشرف كل فضيلة منها ، فإن الوسائل لها حكم المقاصد كما هو مقرر . ولأن كل أمر حسي ومعنوي إنما يشرف بشرف من تعلق به ، فهو بذلك يكون قد حوى فضل تلك الفضائل كلها ، ولهذا فقد جاء تنويه القرآن الكريم بالصابرين تنويه عظيم ؛ لأن الله - ﷻ - أثبت له لكثير من أنبيائه ورسله - عليهم الصلاة والسلام - على سبيل الإشادة بهم ، والثناء عليهم ؛ لتخلقهم بهذا الخلق العظيم ؛ وذلك كأيوب وإسماعيل وأولي العزم من الرسل - سلام الله عليهم أجمعين - ، فإن الله تعالى قد أثنى عليهم جميعاً ، وخص خلق الصبر منهم بالثناء ، مع ما لهم من كثير الفضائل الخلقية ، وذلك دل على بروزه فيهم ، وعلى أهمية الصبر ، وعظيم منزلته ، بحيث كان شعار الرسل ودأبهم وحالهم الدائم ، كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ (٢) .

فإذا كان أنبياء الله تعالى وصفوته من خلقه وأكرمهم لديه يصبرون هذا الصبر في السراء والضراء ، وحين البأس ، فإن غيرهم من المؤمنين أجدر بهم أن يتأسوا بهم فيه ، ويصبروا كصبرهم ؛ لأنهم يعلمون مكانة رسل الله - تعالى - عند الله - تعالى - ، وأن الله

(١) سورة النحل ، آية (١٢٧ - ١٢٨) .

(٢) سورة الأنعام ، آية (٣٤) .

- تعالى - أكرم من أن يرد دعواتهم لو دعوه في أن يفرج عنهم ما بهم ، ويرتاحوا من عناء أعدائهم وظروف حياتهم ، ولكنهم آثروا الصبر على ذلك ابتغاء مرضاة الله - تعالى - ، لا سيما وأن الله - تعالى - قد قصّ لنا من أحوالهم في هذا المقام ما يثبت به أفئدة المؤمنين ، فلا شك أن في ذلك كله حثاً بليغاً للمؤمنين على الصبر ؛ لأن التأثير بما قصه الله عنهم من أحوالهم بليغ أيضاً ، وقد قال - تعالى - : ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ (١) .

فمن علم بذلك كله كان قد تجمع لديه حوافز عظيمة ، ومغريات كثيرة على التحلي بالصبر في كل شؤونه وأحواله ، ويسهل عليه مقاومة نفسه على التحلي بالصبر إذا صاحبه عون الله تعالى وتوفيقه وتسديده .

وقد حفل القرآن الكريم بنماذج وصور جميلة ومؤثرة من صبر أنبياء الله تعالى على أصحابهم ، وحلمهم عليهم ، وتسامحهم معهم ، وحسن خلقهم وتعاملهم .

فمن صور أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - في دعوتهم للموافقين في الصبر والصفا عن المقصرين والتجاوز عن الأخطاء التي يرتكبوها ، ما كان يحصل بين موسى - عليه السلام - وقومه بنير إسرائيل من شد وجذب وحوارات ومجادلات ، كان مردها جهل بني إسرائيل وعنادهم واستكبارهم وسوء أدبهم مع أنبيائهم .

ومن هذه المشاهد : صبر نبي الله موسى - عليه السلام - على احتجاج قومه على تناولهم طعاماً واحداً - المن والسلوى - ، وتذمرهم من تلك النعمة التي أنعم الله بها عليهم ، وأفردهم بها دون غيرهم من العالمين .

يقول تعالى حكاية عن هذه القصة :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَحِيدٍ فادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا ۗ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ

(١) سورة هود ، آية (١٢٠) .

أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ
وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ (١) .

في هذه الآيات يبين الله - سبحانه - أن بني إسرائيل لم يقبلوا الاستمرار بأكل المن والسلوى ، وطالبوا موسى - عليه السلام - بتغيير ذلك الطعام والإتيان بأصناف الطعام المختلفة التي ألفوها واعتادوا عليها في مصر ، في دلالة على تدمير وعناد واستكبار وعدم قناعة .

يقول سيد قطب - رحمه الله - معلقاً على هذا الطلب :

« لقد كانوا بين الصحراء يجدها وصخورها ، والسماء بشواظها ورجومها ، فأما الحجر فقد أنبع الله لهم منه الماء ، وأما السماء فأنزل لهم منها المن والسلوى : عسلاً وطيراً ، ولكن البنية النفسية المفككة ، والجبلة الهابطة المتداعية ، أبت على القوم أن يرتفعوا إلى مستوى الغاية التي من أجلها أخرجوا من مصر ، ومن أجلها ضربوا في الصحراء ، لقد أخرجهم الله على يدي نبيهم موسى - عليه السلام - من النذل والهوان ليورثهم الأرض المقدسة ، وليرفعهم من المهانة والضعفة ، وللحرية ثمن ، وللعزة تكاليف ، وللأمانة الكبرى التي ناطهم الله بها فدية ، ولكنهم لا يريدون أن يؤدوا الثمن ، ولا يريدون أن ينهضوا بالتكاليف ، ولا يريدون أن يدفعوا الفدية ، حتى بأن يتركوا مألوف حياتهم الرتيبة الهينة ، حتى بأن يغيروا مألوف طعامهم وشرابهم ، وأن يكيّفوا أنفسهم بظروف حياتهم الجديدة ، في طريقهم إلى العزة والحرية والكرامة ، إنهم يريدون الأطمعة المنوعة التي ألفوها في مصر ، يريدون العدس والثوم والبصل والقثاء . . . وما إليها ! » (٢) .

لقد كان بنو إسرائيل دائمي التمرد على موسى - عليه السلام - ومخالفته وإيذائه وإعلان عصيانه ، وموقفهم هنا أكبر دليل ، وأوضح برهان على هذا الخلق وذلك الطبع ، ولاحظ قولهم : ﴿ لَنْ نَّصْبِرَ ﴾ والتعبير بحرف ﴿ لَنْ ﴾ الذي يدل على النفي المؤبد ، واستغراقه

(١) سورة البقرة ، آية (٦١) .

(٢) في ظلال القرآن (١ / ٧٤) .

لجميع الأوقات .

وقولهم له : ﴿ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَحِدٍ ﴾ يدل على كراهيتهم للمن والسلوى ، وضجرهم منه وإعلان صريح لرفضهم له .

وعبروا عن المن والسلوى بالطعام الواحد مع أنهما صنفان من أصناف الطعام ؛ لأنهم رأوهما طعاماً واحداً يقدم لهم كل يوم بصورة مكررة ، « ووصفوا الطعام بالواحد مع أنه نوعان - المن والسلوى - ؛ لأنهما طعام كل يوم ، والعرب تقول لمن يأكل كل يوم عدة ألوان لا تتغير إنه يأكل من طعام واحد » (١) .

مع أن هذا الطعام الذي ملوه وكرهوه وطالبوا بتغييره هو ما أكرمهم الله به ، فكان نعمة وفضلاً من الله ، لهذا فقد طالبوه بقولهم : ﴿ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ ، وانظر إلى سوء خطابهم ووقاحتهم حين أضافوا الرب إلى موسى - عليه السلام - ولم يقولوا : ربنا ؛ وهذا فيه من سوء الأدب ما فيه .

يقول ابن عاشور :

« في صيغة طلبهم من الجفاء وقلة الأدب مع الرسول ومع المنعم إذ قالوا : ﴿ لَنْ نَصْبِرَ ﴾ فعبروا عن تناول المن والسلوى بالصبر المستلزم الكراهية وأتوا بما دل عليه ﴿ لَنْ ﴾ في حكاية كلامهم من أنهم لا يتناولون المن والسلوى من الآن ، فإن ﴿ لَنْ ﴾ تدل على استغراق النفي لأزمنة فعل ﴿ نَصْبِرَ ﴾ من أولها إلى آخرها ، وهو معنى التأييد ، وفي ذلك إلقاء لموسى أن يبادر بالسؤال ، يظنون أنهم أياسوه من قبول المن والسلوى ، بعد ذلك الحين ، فكان جواب الله لهم في هذه الطلبة أن قطع عنايته بهم ، وأهملهم ، ووكلمهم إلى نفوسهم ، ولم يرهم ما عودهم من إنزال الطعام ، وتفجير العيون بعد فلق البحر وتظليل

(١) تفسير المنار (٣٣٠/١) .

الغمام ، بل قال لهم : ﴿ أَهْطُوا مِصْرًا ﴾ فأمروهم بالسعي لأنفسهم ، وكفى بذلك تأديباً وتوبيخاً .

قال الشيخ ابن عطاء الله - رحمته - :

من جهل المرید أن يسيء الأدب ، فتؤخر العقوبة عنه ، فيقول : لو كان في هذا إساءة لعوقبت فقد يقطع المدد عنه من حيث لا يشعر ولو لم يكن إلا منع المزيد ، وقد يقام مقام البعد من حيث لا يدري ، ولو لم يكن إلا أن يخليك وما تريد « (١) .

والبقل : « نبات عشبي يتغذى به الإنسان أو بجزء منه » (٢) .

والقثاء : « نوع من البطيخ نباتي قريب من الخيار ، لكنه أطول ، واحدته قثاءة » (٣) .

والفوم : اختلف فيه المفسرون ، فقال بعضهم : الحنطة ، وقال بعضهم : الثوم ، والراجح أنه الثوم .

وإبدال الثاء فاء شائع في لغة العرب ، فيقولون : جدت وجدف ، وثلغ وفلغ ، وثوم وفوم (٤) ، لذلك فقد أنكر عليهم موسى - عليه السلام - ذلك الطلب فقال لهم : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ أي : « أتطلبون هذه الأنواع الخسيسة بدل ما هو خير منها وهو المن والسلوى ؟ والمن فيه حلاوة تألفها الطباع البشرية ، والسلوى من أطيب لحوم الطير ، وفي مجموعها غذاء تقوم به البنية وليس فيما طلبوه ما يساويهما لذة وتغذية » (٥) .

(١) التحرير والتنوير (٥٢١/١) .

(٢) المعجم الوسيط (٦٦/١) .

(٣) المصدر السابق (٧١٥/٢) .

(٤) التحرير والتنوير (٥٢٢/١) .

(٥) تفسير المنار (٣٣١/١) .

لهذا فبعدهما ذمهم موسى - عليهما السلام - على سوء اختيارهم ، وأنكر عليهم استبدال الأذن بالذي هو خير صبر على هذا الطلب ، ودعا ربه أن يعطيهم ما سألوا ، فاستجاب له ربه وقال : ﴿ أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ .

﴿ أَهْبَطُوا مِصْرًا ﴾ في الكلام حذف على تقدير أن القائل : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ﴾ هو موسى ، وتقدير المحذوف : فدعا موسى ربه فأجابته (١) ، قال : ﴿ أَهْبَطُوا ﴾ .

ومصر هنا جاءت جاءت بالنصوص ، والمراد بها أي مصر من الأمصار ، وأي قطر من الأقطار ، وأي بقعة من البقع . وهي مشتقة من (المصِر) وهو الحد الحاجز بين شيئين .

قال في المعجم :

« المصِر : الحاجز بين الشيئين أو بين الأرضين ، والجمع مصور ، يقال : اشترى الدار بمصورها ، وهي الكورة الكبيرة تقام فيها الدور والأسواق والمدارس وغيرها من المرافق العامة » (٢) .

قال ابن كثير :

« وقال ابن جرير : ويحتمل أن يكون المراد مصر فرعون على قراءة الإجراء أيضاً ، ويكون ذلك من باب الاتباع لكتابة المصحف ، كما في قوله تعالى : ﴿ قَوَارِيرًا ﴾ وقواريراً (٣) ، ثم توقف في المراد ما هو ؟ أمصر فرعون أم مصر من الأمصار ؟

وهذا الذي قاله فيه نظر ؛ والحق أن المراد مصر من الأمصار ، كما روي عن ابن عباس وغيره » (٤) .

(١) البحر المحيط (٢٣٤/١) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤١١ هـ .

(٢) المعجم الوسيط (٨٧٣/٢) .

(٣) سورة الإنسان ، آية (١٥ - ١٦) .

(٤) التفسير (٢٨٥/١) .

فهذا مثال على صبر نبي الله موسى - عليه السلام - على تعنت قومه وعنادهم وكفرهم
لنعم الله ، وسؤالهم ما يدل على دونيتهم وخسة طبعهم وهبوط قدرهم .

كذلك من الأمثلة على صبر نبي الله موسى - عليه السلام - الدائم على جهل قومه
وحماقتهم وسوء أدبهم مع الله وأنبيائه ؛ ما ذكره الله تعالى عن بني إسرائيل عندما طلبوا من
موسى أن يجعل لهم أصناماً يعبدونها من دون الله .

يقول تعالى :

﴿ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا
يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا
مَا هُمْ فِيهِ وَبَطُلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغْيَرَ اللَّهُ بَنِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ
عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ (١) .

« انظر إلى هذه الآيات التي تحكي قصة عجيبة لبني إسرائيل ، ملخصها : أنهم بعد أن
خرجوا من مصر بقيادة موسى - عليه السلام - تبعهم فرعون وجنوده ليعيدوهم إليها ، إلا أن
الله - تعالى - انتقم لهم من فرعون وجنوده ، فأغرقهم أمام أعينهم ، وسار بنو إسرائيل نحو
المشرق متجهين إلى الأرض المقدسة بعد أن عبروا البحر ، ولكنهم ما إن جاؤوا البحر
الذي غرق فيه عدوهم والذي ما زالت رماله رطبة عالقة بنعالهم ، حتى وقعت أبصارهم
على قوم يعبدون الأصنام ، فماذا كان من بني إسرائيل ؟

لقد عاودتهم طبيعتهم الوثنية ، فطلبوا من نبيهم موسى - عليه السلام - الذي جاء لهدايتهم
وإنقاذهم مما هم فيه من ظلمات الشرك والوثنية أن يصنع لهم آلهة من جنس الآلة التي يعبدها
أولئك القوم » (٢) .

« إنها العدو تصيب الأرواح كما تصيب الأجسام ! ولكنها لا تصيبها حتى يكون

(١) سورة الأعراف ، آية (١٣٨ - ١٤٠) .

(٢) تفسير الوسيط ، لطنطاوي (٣٦٤/٥) .

لديها الاستعداد والتهيؤ والقابلية ، وطبيعة بني إسرائيل - كما عرضها القرآن الكريم عرضاً صادقاً دقيقاً أميناً في شتى المناسبات - طبيعة مخلخلة العزيمة ، ضعيفة الروح ، ما تكاد تهتدي حتى تضل ، وما تكاد ترتفع حتى تنحط ، وما تكاد تمضي في الطريق المستقيم حتى ترتكس وتنتكس ، ذلك إلى غلظ في الكبد ، وتصلب عن الحق ، وقساوة في الحس والشعور ! وهاهم أولاء على طبيعتهم تلك ، هاهم أولاء ما يكادون يمرون بقوم يعكفون على أصنام لهم حتى ينسوا تعليم أكثر من عشرين عاماً منذ أن جاءهم موسى - عليه السلام - بالتوحيد ، - فقد ذكرت بعض الروايات أنه أمضى في مصر ثلاثة وعشرين عاماً منذ أن واجه فرعون وملاه برسالته إلى يوم الخروج من مصر مجتازاً ببني إسرائيل البحر - بل حتى ينسوا معجزة اللحظة التي أنقذتهم من فرعون وملئه وأهلك هؤلاء أجمعين ! وهؤلاء كانوا وثنيين ، وباسم هذه الوثنية استدلوهم ، حتى إن الملائكة من قوم فرعون ليهيجونه على موسى ومن معه بقولهم : ﴿ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرُكَ وَءَاهَتِكَ ﴾ (١) ، ينسون هذا كله ليطلبوا إلى نبيهم : رسول رب العالمين أن يتخذ لهم بنفسه آلهة ؟ ولو أنهم هم اتخذوا لهم آلهة لكان الأمر أقل غرابة من أن يطلبوا إلى رسول رب العالمين أن يتخذ لهم آلهة ، ولكنما هي إسرائيل ! . . . » (٢) .

في هذه الآيات نرى موسى - عليه السلام - قد غضب على قومه غضباً شديداً ، ووصفهم بأنهم قوم يجهلون الحق ، ويبن لهم فساد ما عليه المشركون ، وذكرهم بما حباهم الله - تعالى - به من نعم جزيلة ، يوجب عليهم إفراده بالخضوع والعبادة والطاعة والشكر .

وانظر إلى قوله - تعالى - : ﴿ وَجَوَّزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾ ففيه بيان للمنة العظيمة التي منحهم الله إياها ، وهي عبورهم البحر بعد أن ضربه موسى بعصاه ، فأصبح طريقاً يابساً يسرون فيه بأمان واطمئنان حتى عبروه إلى الناحية الأخرى ، يصحبهم لطف الله ، وتحذوهم عنايته ورعايته .

(١) سورة الأعراف ، آية (١٢٧) .

(٢) في ظلال القرآن (٣/١٣٦٦) .

وفي قوله تعالى : ﴿ فَاتُوا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ﴾ بيان لما شاهدوه من أحوال المشركين عقب عبورهم البحر ونجاتهم من عدوهم ، فماذا كانت نتيجة هذه المشاهدة ؟ لقد كان المتوقع منهم أن يحتقروا ما شاهدوه ، وأن ينفروا مما أبصروه ؛ لأن العهد لم يطل بهم منذ أن كانوا يسامون سوء العذاب في ظل عبادة الأصنام عند فرعون وقومه ، ولأن نجاتهم مما كانوا فيه من ذل وهوان ، قد تمت على يد نبيهم الذي دعاهم إلى توحيد - تعالى - ؛ لكي يزيدهم من فضله ، ولكن طبيعة بني إسرائيل المعوجة لم تفارقهم ، فهاهم أولاء ما إن وقعت أبصارهم على قوم يعكفون ويداومون على عبادة أصنام لهم حتى انجذبوا إليها ، وطلبوا من نبيهم الذي جاء لهدايتهم أن يجعل لهم وثناً كغيرهم ؛ لكي يعبدوه من جديد .

لقد حكى القرآن عنهم أنهم عندما شاهدوا هذا المنظر ، ما لبثوا أن قالوا لنبيهم : ﴿ يَمْوَسِيٰٓ اٰجَعَلْ لَنَا اِلٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ قالوا ذلك لأن الإيمان لم يستقر في قلوبهم ، ولأن ما ألفوه من عبادة الأصنام أيام استعباد فرعون لهم ما زال متمكناً من نفوسهم ، ومسيطرًا على عقولهم ، وهكذا عدوى الأمراض تصيب النفوس كما تصيب الأبدان ، وهكذا طبيعة بني إسرائيل ما تكاد تهتدي حتى تضل ، وما تكاد ترتفع حتى تنحط ، وما تكاد تسير في طريق الاستقامة حتى ترتكس وتنتكس .

وفي قولهم لنبيهم : ﴿ اٰجَعَلْ لَنَا اِلٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ بصيغة الأمر ، أكبر دليل على غباء عقولهم ، وسوء أدبهم ؛ لأنهم لو استأذنوه - مثلاً - في اتخاذ صنم يعبدونه كغيرهم لكان شأنهم أقل غرابة ، ولكن الذي حصل منهم أنهم طلبوا منه - وهو نبيهم الداعي لهم إلى توحيد الله تعالى ، والمنقذ لهم من عدوهم الوثني الجبال - أن يقوم هو بنفسه بصناعة صنم ؛ لكي يعبدوه كغيرهم !! .

يقول القرطبي :

« ونظيره قول جهال الأعراب وقد رأوا شجرة خضراء للكفار تسمى ذات أنواط ؛ - لأنهم ينوطون بها سلاحهم ، أي : يعلقونه - وكان الكفار يعظمون هذه الشجرة في كل

سنة يوماً ، قال الأعراب : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله - ﷺ - : « الله أكبر ، قاتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى : ﴿ أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ ، لتركن سنن من قبلكم حذو القذة بالقذة (١) حتى إنهم لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » (٢) وكان هذا في مخرجه إلى حنين « (٣) .

ولقد غضب موسى - ﷺ - من طلبهم هذا - وهو الغضب بطبيعته لربه ودينه - فرد عليهم ردًا قويًا فيه توبيخ لهم وتعجب من قولهم بعد أن رأوا من المعجزات ما رأوا فقال : ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (١٣٨) أي : إنكم يا بني إسرائيل بطلبكم هذا برهنتم على أنكم قوم قد ملأ الجهل قلوبكم ، وغطى على عقولكم ، فصرتم لا تفرقون بين ما عليه هؤلاء من ضلال مبين ، وبين ما تستحقه الألوهية من صفات وتعظيم ، ولم يقيد ما يجهلونه ؛ ليفيد أنه جهل كامل شامل يتناول فقد العالم ، وسفه النفس ، وفساد العقل ، وسوء التقدير .

« وبعد أن كشف لهم سوء حالهم ، وفرط جهالاتهم ، بين لهم فساد ما طلبوه في ذاته ، وقبح عاقبة من أرادوا تقليدهم ، فقال لهم بأسلوب الاستئناف المفيد للتعليل : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَبَطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٣٩) متبر : من التتبير بمعنى الإهلاك أو التفسير والتحكيم ، يقال : تبره يتبره وتبره أي : أهلكه ودمره » (٤) .

أي : إن هؤلاء الذين تبغون تقليدهم في عبادة الأوثان ، محكوم على ما هم فيه بالدمار ، ومقضى على ما يعملونه من عبادة الأصنام بالاضمحلال والزوال ؛ لأن دين التوحيد سيظهر في هذه الديار ، وستصير العبادة لله الواحد القهار .

(١) القذة : ريش السهم يضرب مثلاً للشئيين يستويان بلا تفاوت .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب الفتن ، باب ما جاء لتركن سنن من كان قبلكم برقم (٢١٨٠) وقال : « حسن صحيح » .

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢٤٢/٧) .

(٤) التحرير والتنوير (٨٢/٩) .

وبهذا الرد يكون موسى - عليهما السلام - قد كشف لقومه عن سوء ما يطلبون ، وصرح لهم بأن مصير ما ييغونه إلى الهلاك والتدمير .

قال الإمام الرازي :

« والمراد من بطلان عملهم أنه لا يعود عليهم من عبادة ذلك العجل نفع ولا دفع ضرر ، وتحقيق القول في هذا الباب أن المقصود من العبادة أن تصير المواظبة على تلك الأعمال سبباً لاستحكام ذكر الله تعالى في القلب حتى تصير الروح سعيدة بحصول تلك المعرفة فيها ، فإذا اشتغل الإنسان بعبادة غير الله تعلق قلبه بغيره ، ويصير ذلك التعلق سبباً لإعراض القلب عن ذكره تعالى ، وإذا ثبت هذا التحقيق ظهر أن الاشتغال بعبادة غير الله متبر وباطل وضائع ، وسعى في تحصيل ضد هذا الشيء ونقيضه ؛ لأننا بينا أن المقصود من العبادة رسوخ معرفة الله - تعالى - في القلب ، والاشتغال بعبادة غير الله يزيل معرفته عن القلب ، فكان هذا ضد الغرض ونقيضاً للمطلوب - والله أعلم - » (١) .

فانظر إلى تعنت هؤلاء القوم وسوء أدبهم وجهلهم في طلبهم ، وصبر نبيهم عليهم ومصابرته في دعوته لهم - ﷺ - .

ومن مشاهد صبر نبي الله موسى - عليهما السلام - وصفحه عن قومه ، وحلمه عليهم ؛ ما ذكره الله من إيذاء بني إسرائيل له بتهمة قاذحة برأه الله منها .

يقول - تعالى - :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾ (٢) .

في هذه الآية يحكي لنا القرآن مثلاً من الإيذاعات التي كان موسى - عليهما السلام - يواجهها من قومه ، فصبر عليها وتحمل ، وعفا عنهم وتحمل .

(١) مفاتيح الغيب (٣٥٠/١٤ - ٣٥١) ، وانظر : تفسير الوسيط ، لطنطاوي (٣٦٤/٥ - ٣٦٦) .

(٢) سورة الأحزاب ، آية (٦٩) .

وهذه القصة التي في هذه الآية بينها لنا النبي - ﷺ - بحديث صحيح عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن موسى كان رجلاً حيباً ستيراً لا يرى من جلده شيء ، فأذاه من آذاه من بني إسرائيل ، وقالوا : ما يستتر إلا من عيب بجلده ، إما برص ، وإما آفة ، وإن الله - تعالى - أراد أن يبرئه مما قالوا ، وإن موسى خلا يوماً وحده فوضع ثيابه على حجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، وأخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : ثوبي حجر ، ثوبي حجر حتى انتهى إلى ملاء بني إسرائيل ، فأروه عرياناً أحسن ما خلق الله - تعالى - ، وأبرأه الله - تعالى - مما يقولون ، فذلك قوله - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذُوا مُوسَى ﴾ (١) .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾ (٦٩) « أي : له وجهة وجاه عند ربه - ﷻ - .

قال الحسن البصري : كان مستجاب الدعوة عند الله . وقال غيره من السلف : لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه ، ولكن منع الرؤية لما يشاء الله - ﷻ - .

وقال بعضهم : من وجاهته العظيمة [عند الله] : أنه شفع في أخيه هارون أن يرسله الله معه ، فأجاب الله سؤاله وقال : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ (٥٣) « (٢) » (٣) .

كذلك من الأمثلة على صبر موسى - عليه السلام - على أذى قومه وحلمه عليهم ؛ ما ذكره الله - تعالى - حكاية على لسانه صراحة في إيدائهم له في قوله تعالى :

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الغسل ، باب من اغتسل عرياناً وحده في الخلوة (٦٤/١) ، برقم (٢٧٨) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الحيض ، باب جواز الاغتسال عرياناً في الخلوة (٢٢٣/١) برقم (٣٣٩) .

(٢) سورة مريم ، آية (٥٣) .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤٨٧/٦) .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ۖ يَاقَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ لِمَ تَقُولُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١) .

في هذه الآية يذكر القرآن خطاباً نبوياً حنوناً فيه من العتاب والملامة ، دافعه المودة وحب الخير من موسى لقومه بسبب استمرار إيذائهم له ، وعصيانهم أوامره ، والتهاون في طاعته على الرغم من معرفتهم ويقينهم بأنه رسول الله حقاً .

يقول سيد قطب - رحمه الله - :

« وإيذاء بني إسرائيل لموسى وهو منقذهم من فرعون وملئه ، ورسولهم وقائدهم ومعلمهم إيذاء متطاوّل متعدد الألوان ، وجهاده في تقويم اعوجاجهم جهاد مضمّن عسير شاق .

ويذكر القرآن في قصص بني إسرائيل صوراً شتى من ذلك الإيذاء ، ومن هذا العناء ، كانوا يتسخطون على موسى وهو يحاول مع فرعون إنقاذهم ، ويتعرض لبطشه وجبروته وهم آمنون بذلتهم له ! فكانوا يقولون له لائمين متبرمين : ﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ (٢) ، كأنهم لا يرون في رسالته خيراً ، أو كأنما يحملونه تبعه هذا الأذى الأخير ! . وما كاد ينقذهم من ذل فرعون باسم الله الواحد الذي أنقذهم من فرعون وأغرقه وهم ينظرون حتى مالوا إلى عبادة فرعون قومه ﴿ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُومُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ (٣) ، وما كاد يذهب لميقات ربه على الجبل ليتلقى الألواح ، حتى أضلهم السامري : ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴾ (٤) ثم جعلوا

(١) سورة الصف ، آية (٥) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (١٢٩) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (١٣٨) .

(٤) سورة طه ، آية (٨٨) .

يتسخطون على طعامهم في الصحراء : المن والسلوى ، فقالوا : ﴿ يَمُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ (١) .

وفي حادث البقرة التي كلفوا ذبحها ظلوا يماحكون ويتعللون ويسيتون الأدب مع نبيهم وريهم وهم يقولون : ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ﴾ (٢) ، ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْهَأَ ﴾ (٣) ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا ﴾ (٤) ﴿ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٥) ، ثم طلبوا يوم عطلة مقدساً فلما كتب عليهم السبت اعتدوا فيه .

وأمام الأرض المقدسة التي بشرهم الله بدخولها وقفوا متخاذلين يصعرون خداهم في الوقت ذاته لموسى : ﴿ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ (٦) ، فلما كرر عليهم التحضيض والتشجيع تبجحوا وكفروا : ﴿ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ (٧) ، ذلك إلى إعنات موسى بالأئلة والاقتراحات والعصيان والتمرد ، والاتهام الشخصي بالباطل كما جاء في بعض الأحاديث .

وتذكر الآية هنا قول موسى لهم في عتاب ومودة : ﴿ يَقَوْمِ لِمَ تُوذُونِي وَقَدْ

(١) سورة البقرة ، آية (٦١) .

(٢) سورة البقرة ، آية (٦٨) .

(٣) سورة البقرة ، آية (٦٩) .

(٤) سورة البقرة ، آية (٧٠) .

(٥) سورة البقرة ، آية (٧١) .

(٦) سورة المائدة ، آية (٢٢) .

(٧) سورة المائدة ، آية (٢٤) .

تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴿١﴾ ، وهم كانوا يعلمون عن يقين ، إنما هي لهجة العتاب والتذكير .

وكانت النهاية أنهم زاغوا بعدما بذلت لهم كل أسباب الاستقامة ، فزادهم الله زيغاً ، وأزاع قلوبهم ، فلم تعد لصالحه للهدى ، وصلوا فكتب الله عليهم الضلال أبداً : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ ﴿٢﴾ ، وبهذا انتهت قوامتهم على دين الله ، فلم يعودوا يصلحون لهذا الأمر ، وهم على هذا الزيغ والضلال « (٣) .

إنك حين تتدبر هذه الآيات ترى فيها اللغة النبوية الحانية من موسى - عليهما السلام - وهو ينادي من آذوه بـ (يقوم) في إشارة إلى أنكم أهلي وعشيرتي وقرابتي أنا منكم وأنتم مني ، فلم هذا الإيذاء ؟ ولم هذا التعنت ؟ ولم هذا العصيان ؟ وهذا خطاب واضح فيه دلالة واضحة على صبر نبي الله موسى على ما كان يعانيه ، وما كان يواجه به هذا الإيذاء ، من حلم وصفح وعفو عن المصبرين بل والسعي إلى هدايتهم وإصلاح أمرهم وتجنبيهم سوء العاقبة في الدنيا والآخرة ، وذلك ناتج عن محبة صادقة ، وخوف وخشية مبعثها الرحمة التي وضعها الله في قلوب أنبيائه لأقوامهم ، والشفقة عليهم .

إن هذا خطاب فيه من الصبر ، والحلم ، والعفو ، وأدب الأخلاق ، ورقة الطبع ، ولين الجانب ، ما يجعلنا نقتدي بهؤلاء الأنبياء في الدعوة إلى الله ، وفي حسن الخلق ، وفي التعامل مع من يسيء إلينا من باب مقابلة الإساءة بالإحسان وذلك من عزم الأمور .

ومن صبر الأنبياء على أتباعهم من أقوامهم ما ذكره الله تعالى عن نبينا محمد - ﷺ - من استغفاره للمنافقين ، وصلاته عليهم في دلالة على صبره وحلمه عليهم ، وصفحه عنهم ، على الرغم من ما جاءه منهم من الإيذاء والتكذيب والنفاق .

(١) سورة الصف ، آية (٥) .

(٢) سورة الصف ، آية (٥) .

(٣) في ظلال القرآن (٦ / ٣٥٥٥ - ٣٥٥٦) .

يقول تعالى : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تُقَمِّ عَلَى قَبْرِهِ ۗ ﴾ (١)
 فقد ذكر الواحد في أسباب نزول هذه الآية بسنده « عن ابن عمر قال : لما توفي عبد الله
 ابن أبيّ جاء ابنه إلى رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - وقال : أعطني قميصك حتى
 أكفنه فيه ، وصل عليه واستغفر له ، فأعطاه قميصه ثم قال : « آذني حتى أصلي عليه ،
 فأذنه ، فلما أراد أن يصلي عليه جذبته عمر بن الخطاب وقال : أليس قد نمّاك الله أن
 تصلي على المنافقين ؟ فقال : أنا بين خيرتين - أستغفر لهم أو لا أستغفر - ثم نزلت عليه
 هذه الآية - ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تُقَمِّ عَلَى قَبْرِهِ ۗ ﴾ (٢) -
 فترك الصلاة عليهم » (٣) .

إن هذا الصبر منه - عليه الصلاة والسلام - وهذا الحلم ، وهذا الصبح لا ينقضي منه
 العجب ، أقصد بصبره وحلمه عن المنافقين الذين كانوا يساكنونه المدنية ، وقد تركوا كل
 آداب الإسلام والمروءة ، وذهبوا يسلكون مع النبي - ﷺ - سلوك المراءغ الخائن لله
 ولرسوله وللمؤمنين ، وكان رسول الله - ﷺ - يعلم ذلك منهم بإعلام الله تعالى له ومع
 ذلك فقد صبر عليهم ، وحلم عنهم وعفا ، مع ما كان يؤذن له على سبيل التخيير في
 تأديبهم والتشديد عليهم ، وما يكشفه الله تعالى من مؤامراتهم وخياناتهم في آيات كثيرة
 وسور خاصة .

وهنا تتجلى غاية حلمه وصفحته وصبره - عليه الصلاة والسلام - وكمال عفوه على
 أولئك الأوغاد ، إذ كلما أذن له في تأديبهم والتشديد عليهم فتح لهم باباً من الرحمة ، فكان
 يستغفر لهم ويدعو لهم ، بل وصلى عليهم كما فعل مع رئيس المنافقين عبد الله بن أبيّ ابن
 سلول سالف الذكر حتى أنزل الله عليه ﴿ أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ الآية ، إلى قوله
 تعالى : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تُقَمِّ عَلَى قَبْرِهِ ۗ ﴾ (٤) .

- (١) سورة التوبة ، آية (٨٤) .
 (٢) سورة التوبة ، آية (٨٤) .
 (٣) أسباب النزول ص (٢٦١) .
 (٤) سورة التوبة ، آية (٨٠ - ٨٤) .

كذلك من الأمثلة على صبر النبي - ﷺ - وحلمه على أصحابه : امتداح الله له في صبره على المسيء ، ولين جانبه ، وكظم غيظه ، وخفض الجناح ، والرأفة والرحمة بالمؤمنين .

فقال تعالى : ﴿ فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ الآية (١) .

« والمراد بهذه الرحمة : ربطه - ﷺ - على جأشه - ﷺ - وتخصيصه له بمكارم الأخلاق ، وجعل الرفق ولين الجانب مسبباً على ربط الجأش ؛ لأن من ملك نفسه عند الغضب كان كامل الشجاعة . قيل : وأفاد الكلام في هذا المقام فائدتين : إحداهما : ما يدل على شجاعته - ﷺ - ، والثانية : ما يدل على رفقته فهو من باب التكميل » (٢) .

يقول ابن عاشور - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية :

« فخلق الرسول مُناسب لتحقيق حصول مراد الله تعالى من إرساله ؛ لأن الرسول يجيء بشريعة يبلغها عن الله تعالى ، فالتبليغ متعين لا مصانعة فيه ، ولا يتأثر بخلق الرسول ، وهو أيضاً مأمور بسياسة أمته بتلك الشريعة ، وتنفيذها فيهم ، وهذا عمل له ارتباط قوي بمناسبة خلق الرسول لطباع أمته ؛ حتى يلائم خلقه الوسائل المتوسل بها لحمل أمته على الشريعة الناجحة في البلوغ بهم إلى مراد الله - تعالى - منهم .

أرسل محمد - ﷺ - مفطوراً على الرحمة ، فكان لينه رحمة من الله بالأمة في تنفيذ شريعته بدون تساهل وبرفق وإعانة على تحصيلها ، فلذلك جعل لينه مصاحباً لرحمة من الله أودعها الله فيه ، إذ هو قد بعث للناس كافة ، ولكن اختار الله أن تكون دعوته بين العرب أول شيء لحكمة أرادها الله - تعالى - في أن يكون العرب هم مبلغى الشريعة للعالم .

والعرب أمة عُرفت بالأنفة ، وإباء الضيم ، وسلامة الفطرة ، وسرعة الفهم ، وهم

(١) سورة آل عمران ، آية (١٥٩) .

(٢) روح المعاني (٤/٤٣٣) .

المتلقون الأولون للدين ، فلم تكن تليق بهم الشدة والغلظة ، ولكنه محتاجون إلى استنزال طائرهم في تبليغ الشريعة لهم ؛ ليتجنبوا بذلك المكابرة التي هي الحائل الوحيد بينهم وبين الإذعان إلى الحق « (١) .

إذن ففي هذه الآية من الامتنان العظيم على رسول الله - ﷺ - بغرس مكارم الأخلاق فيه ما يدل على عظمة أخلاقه ، حتى قال الحسن البصري - رحمه الله - مفسراً هذه الآية : « هذا خلق محمد - ﷺ - بعثه الله - تعالى - به » (٢) .

وهذا الخلق - الحلم والصفح - الذي يدل عليه اللين وعدم الفظاظة والغلظة ؛ لأن كونه - ﷺ - لا يستعمل الغلظة والفظاظة مع الناس بل الرحمة والصبر والعفو والعطف ، ذلك هو عين الحلم الذي تدل عليه مادته ، وهو ما دلت عليه الشواهد الكثير من أحواله - ﷺ - ومع ما كان - عليه الصلاة والسلام - من هذا الخلق العظيم الذي دلت عليه الآية السابقة مقرررة له فيه وممتنة به عليه ، فإنه - ﷺ - لم يزل يحثه على التحلي بكماله والاستمرار على منواله في كل أحواله وأقواله ، فقال تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣) ، فإن هذه الآية تخاطب النبي - ﷺ - بالتحلي بمكارم الأخلاق ، والاستمرار عليها ، والثبات عليها .

وتأمل كيف يكون امتثال النبي - ﷺ - مع ما هو عليه بالفعل ، وفي ذلك دلالة على كمال عظمة تحليه بخلق الصبر والعفو والحلم ؛ لأنه أكمل الخلق امتثالاً لأوامر ربه ، وأعظمهم زكاء في خلقه معه - سبحانه - ومع أمته ، فيترقى في ذلك كمالاً فوق كمال ، وعظمة فوق عظمة ، وهو ما دلت عليه شواهد أحواله - ﷺ - في كل أطوار ومراحل حياته ، حيث صبر وحلم على أعدائه وعفا عنهم ، وحلم على أصحابه وأهله وذويه في صور يُفقد عندها حلم كل حليم ؛ « لأن كل حليم قد عرفت منه زلة ، وحفظت عنه هفوة ، وهو - ﷺ - لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبراً ، وعلى إسراف الجاهل إلا

(١) التحرير والتنوير (١٤٥/٤) .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٤٨/٢) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (١٩٩) .

حلمًا « (١) .

ولذلك يقول الماوردي (٢) - رحمته تعالى - في وصف صبر وحلمه :

« فكان أحلم في النفار من كل حلِيم ، وأسلم في الخصام من كل سليم ، وقد مني بجفوة الأعراب فلم توجد منه نادرة ، ولم يحفظوا عليه بادرة ، ولا حلِيم غيره إلا ذو عشرة ، ولا وقور سواه إلا ذو هفوة ، فإن الله - تعالى - عصمه من نزعات الهوى وطيش القدر بهفوة أو عشرة ؛ ليكون بأتمته رؤوفًا ، وعلى الخلق عطوفًا ، قد تناولته قريش بكل كبيرة ، وقصدته بكل جريرة ، وهو صبور عليهم ومعرض عنهم ، وما تفرد بذلك سفهاؤهم دون حلمائهم ، ولا أراذلهم دون عظمائهم ، بل تمالأ عليه الجلة والدون ، فكلما كانوا عليه من الأمر أشد وألح ؛ أعرض وأصفيح ، حتى قهر فعفا ، وقدر فغفر » (٣) .

لهذا فقد كان صبره وحلمه قائمًا على اتخاذ منهج اتخذ لنفسه ، وهو إسقاط حق نفسه عن المؤاخذة ، مهما كانت الإساءة ، ولا يقوم إلا لحق الله - تعالى - .

وهكذا هم الأنبياء جميعهم ، على هذا الخلق والمنوال ، فصلاة ربي وسلامه عليهم ما صبح بدا ، وما ليل سجي ، وسلم تسليمًا سرمديًا أبدًا .



(١) الشفاء للقاضي عياض (١٠٤/١) .

(٢) هو : الإمام علي بن محمد بن حبيب ، أبو الحسن ، الماوردي ، أفضى قضاة عصره ، له تصانيف كثيرة ، منها : (الحاوي) ، و (أدب الدنيا والدين) ، و (الأحكام السلطانية) ، و (أعلام النبوة) ، توفي سنة (٤٥٠هـ) . انظر : الأعلام (٣٢٧/٤) .

(٣) أعلام النبوة ص (٢٨٨) .

الباب الثاني

أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مع المخالفين

وفيه تمهيد ، وثلاثة فصول :

التمهيد : من هم المخالفون ؟ .

الفصل الأول : أدبهم في المعاملة .

الفصل الثاني : أدبهم في الدعوة .

تمهيد

من هم المخالفون؟

في هذا الباب نستعرض أدب أنبياء الله - عليهم الصلاة والسلام - وتعاملهم مع من خالفهم في المنهج والطريق والدين ، أي : من خالفهم في أساسيات العقائد والأخلاق ، وخالف فطرة الله التي فطر الناس عليها من حيث التوحيد وعدم الإشراك بالله في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات ، والأخلاق الفاضلة ، ويشمل هؤلاء المخالفون القريب والبعيد ، ومن أقوامهم ومن غير أقوامهم ، ممن كان لهم مع أنبياء الله - عليهم الصلاة والسلام - مواقف وأحداث ظهر فيها الأدب النبوي العظيم ، والخلق الكريم في أجمي صوره ، وأجمل مناظره .



الفصل الأول

أدبهم في المعاملة

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مع
المشركين من ذوي القربى .

المبحث الثاني : أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مع
المشركين من أقوامهم .

المبحث الأول

أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مع المشركين من ذوي القربى

لقد كان لأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - القدح المعلى ، والمثل الأعلى في حسن الأدب والخلق والتعامل مع قرابتهم وذوي رحمهم ، ويزداد هذا التعامل والأدب خصوصية مع من كان على غير نهجهم ومخالفاً لديهم .

ولا شك أن التعامل والتعايش مع من يخالف في الدين والعقيدة يقتضي حذراً في التناول ومحاولة التقارب وجذب ذلك المخالف بالدعوة العملية قبل القولية ، وهذا لا يتأتى إلا بحسن المعاشرة بالمعروف ، والإحسان والإشعار بالحب ، والنصح والشفقة وإرادة الخير ، وهكذا كان أنبياء الله - عليهم الصلاة والسلام - ، فقد كانوا امثلة حية على حسن العشرة والخلق مع قرابتهم وأرحامهم ، متأدين معهم بأدب النبوة العظيم ، وخلقها الكريم ، مراعين في ذلك حقوقهم بدافع الفطرة التي فطرها الله في قلب الإنسان ، من محب القريب ، والخوف عليه ، وإرادة الخير له ، مع ما جاءت به الشرائع السماوية من الوصاية بالقريب والإحسان له ، على الرغم من ما كان يجابهه أنبياء الله - عليهم الصلاة والسلام - من شدة كفر هؤلاء الأقارب المخالفين ، وعنادهم ، بل وإيذائهم في بعض الأحيان ، إلا أنهم مع ذلك قابلوا هذه الإساءة بالإحسان والحلم ، والأدب الجم ، وكانوا في ذلك المثل الأعلى ، والقدوة الحسنة في التعامل مع أقاربهم من حيث المعاملة والأدب ، وحسن الخلق .

ومن الأمثلة ما ذكره تعالى حكاية عن نوح - عليه السلام - مع ابنه الكافر الذي لم يمنعه كفره به أن يصله ويسعى في إصلاحه وهدايته ، يقول تعالى : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكِيمِينَ ﴾ (٥٥) قَالَ يَنْحُورُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي

أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ (١) .

قال القاسمي - رحمه الله - :

« إعلام بأن نوحًا حملته شفقة الأبوة وتعطف الرحم والقرابة على طلب نجاته ؛ لشدة تعلقه به واهتمامه بأمره ، وقد راعى مع ذلك أدب الحضرة والسؤال ا.هـ » (٢) .

لقد تذكر نوح في بدء الطوفان ابنه الضال ، فدفعته عاطفة الأبوة أن يناديه ليركب في السفينة مع سائر أهله ، وكان لإصراره على الكفر بمعزل عنهم .

﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِيَّ أَرْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ ﴿٤٢﴾ (٣) .

يقول نوح لابنه : ﴿ يَبْنِيَّ ﴾ ولك أن تنظر إلى عاطفة الأبوة الجياشة ، وما فيها من حنان ورحمة وعطف في أصعب المواقف وأكثرها شدة وبلاء ، وإنما جاءه من باب الأبوة الحانية الصادقة ، حيث إن الولد كفر برسالة نوح النبي ، فلم يجد إلا أن يناديه بالفطرة ؛ لعلها تحرك في الابن ساكنًا ، وتقتل فيه عنادًا ، طالما كابر به أباه وعصاه ولم يطعه .

قال له : يا بني اسمع نصح أبيك وآمن بالله ، وتعال فاركب معنا في السفينة ؛ لتسلم من الغرق ، ولا تكن مع هؤلاء الكافرين حتى لا تهلك معهم .

ومما يلفت النظر في هذه المناداة من نوح - عليه السلام - لابنه أنه حذره بأن لا يكون مع الكافرين ، ولم يقل مع الهالكين أو المغرقين ؛ لأن نهاية الغرق الموت ، أما نهاية الكفر فغضب الله وعقابه والخلود في النار ، ولكن ابن نوح لم يستجب النداء لأبيه ، وأصر على عصيانه وكفره ، وظن أن ما يجري من عوارض الطبيعة أمور عادية ، فقال لأبيه : سألجأ إلى جبل عال لا يصل الماء إلى قمته فأنجو من الغرق .

(١) سورة هود ، آية (٤٥ - ٤٦) .

(٢) محاسن التأويل (٣١٠/٩) .

(٣) سورة هود ، آية (٤٢) .

﴿ قَالَ سَاءَ أَوَىٰ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِن أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مِنْ رَّحْمٍ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ ﴿٤٣﴾ (١) .

وانظر إلى رد نوح على ابنه وما فيه من النصح والشفقة والخوف والإصرار على الدعوة حتى آخر لحظة ، ولهذا قال له : ليس هناك أية قوة تحول بين أحد وبين الغرق الذي قدره الله جزاء للكافرين ، وأبي الابن أن يستجيب لنداء أبيه ، وظن أن محاولته لبلوغ قمة الجبل تنجيه من الغرق ، ولكن قوة المياه ، وهياج الأمواج ، جرفت الابن الضال فكان من جملة الهالكين ، ومع ذلك لم ييأس نوح - عليه السلام - من رحمة الله لابنه ، والطمع في مغفرته له ومرضاته .

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ ﴾ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِن أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلِنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ ﴿٤٦﴾ (٢) .

قال القاسمي - رحمه الله - :

« وقد راعى مع ذلك أدب الحضرة والسؤال ، فقال : ﴿ وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ ﴾ ولم يقل : لا تخلف وعذك بإنحاء أهلي ، وإنما قال ذلك لفهمه من الأهل ذوي القربى والرحم النسبية ، وغفل لفرط التأسف على ابنه عن استثنائه بقوله : ﴿ إِلَّا مِنْ رَّحْمٍ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ (٣) ولم يتحقق أن ابنه هو الذي سبق عليه القول ، فاستعطف ربه بالاسترحام وعرض بقوله : ﴿ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ ﴾ ﴿٤٥﴾ إلى أن العالم العادل والحكيم لا يخلف وعده .

(١) سورة هود ، آية (٤٣) .

(٢) سورة هود ، آية (٤٥ - ٤٦) .

(٣) سورة هود ، آية (٤٠) .

لهذا جاء الجواب من الله : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ الموعود إنجاءهم ، بل من المستثنين لكفرهم أو ليس منهم أصلاً ؛ لأن مدار الأهلية هو القرابة الدينية ولا علاقة بين المؤمن والكافر .

﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ بين انتفاء كونه من أهله بأنه غير صالح ؛ تنبيهاً على أن أهله هم الصالحاء ، أهل دينه وشريعته ، وإنه لتماديه في الفساد والغي كأن نفسه عمل غير صالح ، وتلويحاً بأن سبب النجاة ليس إلا بالصلاح لا قرابته منك بحسب الصورة ، فمن لا صلاح له لا نجاة له . . . اهـ . (١) .

لقد كانت رابطة القربى - وما تزال - من أهم الحوافز التي ينفاد لها الإنسان ويخصها بقسط كبير من تضحيته وميله الشخصي .

والإسلام أعطى لصلة القرابة حظاً كبيراً من العناية والرعاية ؛ لأن طبيعة الإنسان ومصلحته تقوم على مراعاتها والقيام بواجباتها .

ولكن مراعاة القربى لها شرط أساسي للقيام بحقها ، ألا وهو الإيمان بالله ، والسير بموجب شرعته ، فالمسلم عليه أن لا يخص بالود من يكفر بالله ولو كان من أقرب الناس إليه نسباً ، ولهذا فقد جاء في القرآن : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ . . . الآية ﴾ (٢) .

وفي قصة نوح يعرض لنا القرآن مثلاً حياً على ذلك ، فنوح تأخذه عاطفة الشفقة على ولده فيطلب من ربه أن ينجي ابنه من الهلاك ، فيعاتبه الله على ذلك ، ويعتبر عمله من الجهل الذي لا يليق أن يتصف به . فالذي ينشده القرآن من وراء ذلك توجيه الإنسان إلى أن أعماله الصالحة هي المعول عليها في نيل السعادة في الآخرة ، وأنه ليس للشفاعات

(١) محاسن التأويل (٣١٠/٩) .

(٢) سورة المجادلة ، آية (٢٢) .

والقربات أي تأثير في نجابته من عذاب الله إن كان عاصياً .

وهذا ما أكدته القرآن أيضاً بقوله عن امرأتى نوح ولوط - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَاتَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَاتَتَاهُمَا فَلَمْ يَغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴾ (١) .

ففي هلاك امرأة نوح وامرأة لوط بسبب بغيهما وانحرافهما عن الطريق المستقيم عظة قرآنية بليغة ، وهي أن القرابة مهما قربت لا يمكن أن تنفع الإنسان شيئاً يوم القيامة إذا كانت أعماله سيئة .

ومن المواقف الأدبية النبوية العظيمة مع القرابة ؛ أدب نبي الله الخليل - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مع أقرب الناس له أبوه .

« فلقد كان والد إبراهيم - عَلَيْهِ السَّلَامُ - في مقدمة عابدي الأصنام ، بل كان ممن ينحتها ويبيعها ، وقد عز على إبراهيم - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فعل والده وهو أقرب الناس إلى قلبه ، فرأى من واجبه أن يخصه بالنصيحة ويجذره عاقبة كفره .

فبدأ دعوته إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - بدعوة أبيه ؛ لأنه أقرب الناس إليه ، وأولى الناس بما عنده من الخير .

ولقد كان في دعوته إياه مراعيًا آداب النصيحة ، وحسن الأدب مع الكبير ، قوي الحجة ، صابراً محتسباً كل أذى يلقاه في سبيل دعوته وتبليغ الرسالة ، مخاطباً إياه بلهجة تسيل أدباً ورقة ، مبيناً بالبرهان العقلي بطلان عبادته للأصنام ، وهذا ما ذكره القرآن لنا في قوله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنَّي قَدْ

(١) سورة التحريم ، آية (١٠) .

جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا بْتَ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ
 إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا بْتَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ مِّنَ
 الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِن لَّمْ
 تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي
 حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِّن دُونِ اللَّهِ وَادْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ
 بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴿١﴾ .

هذا كلام يهز أعطاف السامعين ، انظر كيف استهل إبراهيم كلامه عند كل نصيحة

بقوله : ﴿ يَا بْتَ ﴾ توسلاً إليه واستعطافاً لقلبه مع استعمال الأدب الجم « (٢) .

« ولقد سلك - عليهما السلام - في دعوته أحسن منهاج ، وأقوم سبيل ، واحتج عليه أبداع
 احتجاج بحسن أدب وخلق جميل ؛ لئلا يركب متن المكابرة والعناد ، ولا ينكب بالكلية عن
 محجة الرشاد » (٣) .

فإذا كان المعبود لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عن عابده شيئاً ، فما الفائدة من
 عبادته ؟ وهو أنقص وأعجز ممن عبده ، وهذا من أقوى الأدلة على بطلان هذه العبادة ،
 ولهذا بدأ إبراهيم - عليهما السلام - بتقديم البرهان العقلي لوالده بقوله : لِمَ تَعْبُدُ جَمَادًا لَيْسَ لَهُ
 قُدْرَةٌ عَلَىٰ إِصَابَتِكَ بِخَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ، فضلاً عن كونه لا يسمع ولا يبصر !! .

ثم تابع إبراهيم - عليهما السلام - دعوة أبيه إلى الحق مترفقاً به : ﴿ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ
 الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ ﴿٤٣﴾ (٤) وانظر إلى هذا الأدب الجم ،
 والخلق النبوي الرفيع ، والتواضع وحسن الخطاب في الدعوة باللين والرفق وانتقاء الألفاظ

(١) سورة مريم ، آية (٤١ - ٤٨) .

(٢) مع الأنبياء في القرآن ، لعفيف طيارة ص (١٠٨ - ١٠٩) .

(٣) تفسير إرشاد العقل السليم (٢٦٧/٥) .

(٤) سورة مريم ، آية (٤٣) .

الغاية في الاحترام والإكرام .

يقول الزمخشري :

« ثنى - عليّ - بدعوته إلى الحق مترفقا به متلطفاً ، فلم يسم أباه بالجهل المفرط ، ولا نفسه بالعلم الفائق ، ولكنه قال : إن معي طائفة من العلم وشيئاً منه ليس معك ، وذلك علم الدلالة على الطريق السوي ، فلا تستكف ، وهب أي وإياك في مسير وعندى معرفة بالهداية دونك ، فاتبعني أنجك من أن تضل وتتيه » (١) .

ثم بين - عليّ - مخاطباً أباه إن الشيطان الذي عصى ربه هو عدوك الذي ورطك في هذه الضلالة التي تؤدي بك إلى عذاب الله وعقابه وغضبه والخسران يوم القيامة .

﴿ يَأْتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ (٢) .

قال القاسمي :

« ثلث - عليّ - بتشيطه ونهيه عما كان عليه بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل بيان أنه مع عزائه عن النفع بالمرّة مستجلب لضرر عظيم ، فإنه في الحقيقة عبادة الشيطان » (٣) .

وانظر إلى خطاب الشفقة والرحمة والخوف من الولد على والده ، والحرص على الهداية بداعي الفطرة التي فطر الله الناس عليها من محبة الولد لوالديه .

﴿ يَأْتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾

﴿ ٤٥ ﴾ (٤) .

(١) الكشف ص (٦٣٨) .

(٢) سورة مريم ، آية (٤٤) .

(٣) محاسن التأويل (١١ / ٨١) .

(٤) سورة مريم ، آية (٤٥) .

يقول الزمخشري :

« ربع - عليهما السلام - بتخويفه سوء العقابة وبما يجره ما هو فيه من التبعة والوبال ، ولم يخل ذلك من حسن الأدب ، حيث لم يصرح أن العقاب لا حق له ، وأن العذاب لاصق به ، ولكنه قال : ﴿ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ ﴾ فذكر الخوف والمس ، ونكر العذاب ، وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه أكبر من العذاب ، وصدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله : ﴿ يَا بَتِ ﴾ توسلاً واستعطافاً » (١) .

فماذا كان جواب الأب ؟

لقد ابتدره قائلاً : أمعرض أنت ومنصرف عن عبادة الأصنام يا إبراهيم ؟ لئن لم ترجع عما أنت عليه من تركٍ ونهي عن عبادة الأصنام لأرجمنك بالحجارة ، فاغرب عن وجهي ، واتركني زماناً طويلاً حتى يهدأ غضبي عنك .

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَتَّهَ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾
﴿ ٤٦ ﴾ قَالَ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿ ٤٧ ﴾ (٢) .

يقول الشنقيطي - رحمه الله - :

« بين الله - جل وعلا - في هاتين الكريمتين أن إبراهيم لما نصح أباه النصيحة المذكورة مع ما فيها من الرفق واللين وإيضاح الحق والتحذير من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ، ومن عذاب الله - تعالى - ، وولاية الشيطان ، خاطبه هذا الخطاب العنيف وسماه باسمه ولم يقل له : (يا بني) في مقابلة قوله له : ﴿ يَا بَتِ ﴾ وأنكر عليه أنه راغب عن عبادة الأوثان ، أي : معرض عنها لا يريد لها ؛ لأنه لا يعبد إلا الله وحده - جل وعلا - ، وهدده بأنه إن لم ينته عما يقوله ليرجمه بالحجارة ، قيل : بالحجارة ، وقيل : باللسان شتماً ، ثم أمره بهجره زماناً طويلاً ، ثم بين أن إبراهيم قابل أيضاً جوابه العنيف بغاية الرفق

(١) الكشف ص (٦٣٨) .

(٢) سورة مريم ، آية (٤٦ - ٤٧) .

واللين في قوله : ﴿ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ (١) .

وقال ابن كثير :

﴿ سَلَّمَ عَلَيْكَ ﴾ أي : لا يصلحك مني مكروه ولا ينالك مني أذى ، بل أنت سالم من ناحيتي ، وزاده خيراً فقال : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ (٤٧) .

قال ابن عباس وغيره : أي : لطيفاً ، وقد استغفر إبراهيم - عليه السلام - لأبيه كما وعده في أذنيه ، فلما تبين أنه عدو لله تبرأ منه (٢) .

ولهذا فقد ورد في الحديث الصحيح عن أبي هريرة - رضى الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قتره وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصني ؟ فيقول له أبوه : فاليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم : يا رب إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون ، فأبي خزى من أبي الأبعد ؟ فيقول الله تعالى : إني حرمت الجنة على الكافرين ، ثم يقال : يا إبراهيم : ما تحت رجلك ، فينظر فإذا هو بذرغ متلطخ ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار » (٣) .

قال الحافظ ابن حجر :

وقيل : الحكمة من مسخه ضبعاً : أن الضبع من أحمق الحيوان ، وآزر كان من أحمق البشر ؛ لأنه بعد أن ظهر له من ولده من الآيات البينات أصر على الكفر حتى مات ، ولأن إبراهيم - عليه السلام - بالغ في الخضوع له وخفض الجناح فأبى واستكبر ، وأصر على الكفر ، فعومل بصفة الذل يوم القيامة (٤) .

(١) أضواء البيان (٤/٣٦٠) .

(٢) قصص الأنبياء ص (١٣١) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله تعالى : ﴿ وَأَتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ

خَلِيلاً ﴾ (٤/١٣٩) برقم (٣٣٥٠) .

(٤) فتح الباري (٨/٦٣٥) .

ولهذا فإن من أعظم ما يتصف به الداعي إلى الله وإلى عبادته هو الصبر على الأذى ،
والتحمل في سبيل الدعوة مع سلامة القلب ، وحسن الخلق ، وسمو الأدب .

وهذا ما يتضح لك من خلال دعوة إبراهيم لأبيه ، فهو قدوة في هذا الجانب ،
ويكفيك أن تعرف حين تتأمل في دعوة إبراهيم ربه حين قال : ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾
﴿ ٨٧ ﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿ ٨٨ ﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿ ٨٩ ﴾ (١) ، وتدبر
قوله : ﴿ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ تعرف موطن العظمة في الخليل - عليه السلام - وهو في قلبه الكبير
الذي وسع الناس جميعاً ؛ لأنه نذر نفسه في سبيل إسعادهم ، سواء كانوا أقرب الناس نسباً
إليه أو لا يمتنون إليه بصلة القربى ، بل إن قلب إبراهيم الكبير لم يطق أن يرى والده يتيه في
الضلال وينغمس في عبادة الأصنام واتباع الشيطان فلا يسعى إلى دعوته باللين والرفق
والعطف والحنان والحرص على هدايته بالعقل والمنطق .

ولكن هذا الوالد الذي تحجر عقله يقابل ابنه بالوعيد والتهديد ، فيجيبه الخليل بقلب
سليم : ﴿ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي ﴾ (٢) .

إن استغفار الخليل - عليه السلام - لوالده بعد أن تلقى تهديده يدل على إخلاصه له ،
كما يدل على قلب كبير ينبض بالحب والحنان ، وهكذا الداعية إلى الحق وإلى طريق
مستقيم .

ومن مواقف الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وأدبهم مع قرابتهم وحسن عشرتهم
ما كان من نبينا محمد - عليه أفضل الصلاة والسلام - ، فقد كان نعم العشير ، وأبر
القريب ، وإحسانه إلى أقاربه إحسان عظيم ، وبر كريم ، وصلة متواصلة تفسر ما ينبغي أن
تكون عليه الصلة والإحسان للأرحام ، والأقارب الذي أمر الله به في القرآن الكريم ، وحث
عليه ، ويستوجب التأسي به والسير على نهجه فيه ، كما هو الحال في جميع ما شرعه الله
- تعالى - في كتابه .

(١) سورة الشعراء ، آية (٨٧ - ٨٩) .

(٢) سورة مريم ، آية (٤٧) .

وقد كان الإحسان إلى الأقارب والأرحام خلقاً عاماً فيه - ﷺ - نشأ عليه وعرف به قبل البعثة ، ولما بعثه الله بالرسالة والتوحيد لم يزد الشرع المطهر إلا توطيداً وتأكيذاً لهذه الصلة ، ومسارة إلى الإحسان والبر بأهلها ؛ لكثرة ما حث الوحي الكريم به ، والشواهد والأدلة على ذلك كثيرة .

فمن ذلك : إحسانه العظيم ، وبره الكريم ، وصلته الجليلة في هدايتهم إلى دين الله تعالى وبذل جهده على إيصال ذلك إليهم ؛ لما يورثهم ذلك من سعادة سرمدية في الدنيا والآخرة . وإن محاولته الجادة مع ناصره وعضده في مكة المكرمة وهو عمه أبو طالب ، خير دليل على ذلك ، فقد حرص - عليه الصلاة والسلام - على إسلام عمه ونفعه وإنقاذه من النار ، وأن يكسب خيري الدنيا والآخرة بكلمة واحدة يقولها ، وهي : شهادة التوحيد ؛ وذلك وفاءً له على مواقفه العظيمة معه في صغره وعند بعثته .

ولهذا لما حضرت عمه الوفاة جعل يقول له النبي - ﷺ - ويناشده : « يا عم : قل لا إله إلا الله أحاج لك بما عند الله » أي : يجادل بما ليدخل بها الجنة من غير عمل يمكن أنه يعملها ، حيث كان في الاحتضار ، وكاد يستجيب له ، لولا أن حال بينه وبين ذلك أدياء الكفر ، وقالوا له : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ وما زالوا به حتى قال : هو على ملة عبد المطلب ، ومات على ذلك . فوجد النبي - ﷺ - وجداً شديداً ، لما يعلمه من العذاب الذي سيلقاه لموته على الكفر بعد أن بلغته الدعوة ، ولكن عظيم بره بعمه وإحسانه له ، ووفاءه له لم يزل يغالبه حتى قال : « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » ، فنهاه الله تعالى عن ذلك وأنزل عليه : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (١) .

فعندئذ لم يزد - عليه الصلاة والسلام - على أن قال : « إنك لا تقدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » (٢) .

(١) سورة التوبة ، آية (١١٣) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب التفسير ، باب قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا =

فتأمل مبلغ إحسانه ووفائه لأقاربه وحسن عشرته لهم ، حيث بذل قصارى جهده في إنقاذ عمه ، فلما لم تفلح جهوده تلك ؛ هَمَّ بأن يطلب من الله تعالى أن يغفر له ، وما ذلك إلا وفاءً منه لنصرتة له وحمائته وقربه منه .

ومن أدبه - عليه الصلاة والسلام - وحسن تعامله مع قرابته ؛ ما جاء من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : لما نزل قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (١) دعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قريشاً فاجتمعوا ، فعم وخص ، وقال : « يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني هاشم : أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد المطلب : أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار ، فإني لا أملك لكم شيئاً من الله ، غير أن لكم رحماً سابلها ببلاها » (٢) .

ومعنى ذلك : أن كفركم وعدم قبولكم دعوتي والإيمان برسالي لا يمنعين من صلة رحمكم في الدنيا ، ولا أغني عنكم في الآخرة من الله شيئاً (٣) .

ولما فتح الله مكة واهزم مشركوا قريش الذين كان أغلبهم من أقارب النبي - صلى الله عليه وسلم - وأطهاره وأنسابه ، لم يفعل كما يفعل الملوك الذين إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وإنما أطلقهم وعفا عنهم .

وقد كان لإحسانه العظيم هذا ، وحرصه الشديد على هداية أقاربه ، وأدبه الجم معهم في التعامل ؛ أثر في هداية من كتب الله تعالى له الهداية ، حيث أسلم جل أقربائه وأرحامه ،

= أن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ . . . ﴿ (٩٦/٦) برقم (٤٦٧٥) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزاع (٥٩/١ - ٦٠) برقم (٢٥) .

(١) سورة الشعراء ، آية (٢١٤) .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (١٦٣/١) برقم (٢٠٤) .

والبلال : هو الماء ، والمعنى : سائلها شبه قطيعتها بالحرارة تطفأ بالماء ، وهذه تبرد بالصلة .هـ . رياض الصالحين ص (١٨١) .

(٣) محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - محمد الصادق عرجون (٣١٣/٦) .

وخذل آخرون ، كأبي جهل وأبي لهب وأبي طالب ؛ لحكمة أرادها الله - تعالى - وقضاها لا تخفى على ذوي الألباب .

ولم يقتصر إحسان النبي - ﷺ - والبر بقرباته على نفسه ، بل إنه وجه للأمة حثاً مباشراً ، وحثاً بالغاً في الإحسان إلى قرباته - عليه الصلاة والسلام - ؛ ليبالغوا في ذلك ، فتقر عينه بقرباته وأمته ؛ لأن إكرام القرابة إكرام له - ﷺ - ، وذلك يبعث على رضاه - عليه الصلاة والسلام - على المحسنين إليهم ، البارين بهم ، ولهذا قال موجهاً خطابيه للأمة : « أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي » (١) .

وفي حديث آخر قال : « إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي ، كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي » (٢) .

وقال - عليه الصلاة والسلام - : « أحبوا أهل بيتي لحيي » (٣) .

والأحاديث في هذا الباب كثيرة عامة وخاصة ، كلها تدل على عظيم حقوق قرابة النبي - ﷺ - على أمة الإسلام ، وتوجب لهم الرعاية والحسنى وزيادة .

فانظر إلى أدب النبي - ﷺ - وحسن تعامله مع قرباته ، وبره بهم ، وإحسانه إليهم ، والوفاء بهم ، والقيام بحقوقهم ، سواء كانوا موافقين له في الدعوة أو مخالفين ، في دلالة واضحة على رقي أدب النبي - ﷺ - ، وعظم خلقه وكرامة نفسه وشهامته ومروءته ، ف - ﷺ - تسليماً كثيراً عدد ما أحسن لأقاربه وأوصلهم ، وأحسن إليهم .



- (١) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل علي (١٤٩٢/٤) برقم (٢٤٠٨) .
 (٢) أخرجه الترمذي في سننه ، باب مناقب أهل بيت رسول الله - ﷺ - (٦٢٢/٥) برقم (٣٧٨٨) .
 (٣) أخرجه الترمذي في سننه ، في الباب السابق (٦٢٢/٥) برقم (٣٧٨٩) ، وضعفه الألباني في تحريج فقه السيرة ص (٢٣) .

المبحث الثاني

أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مع المشركين من أقوامهم

لقد خلق الله - ﷻ - عباده حنفاء موحدين ، ومنذ أن هبط أبو البشر آدم - عليهما السلام - إلى الأرض كان معه التوحيد والإيمان ، واستمر التوحيد في ذريته عدة قرون حتى اجتالتهم الشياطين ، وانحرفت الفطرة ، وتراكم الشرك في النفوس ، فاقتضت حكمة الله - ﷻ - أن يرسل الرسل إلى الناس لهدايتهم ، وردهم إلى الإيمان والهدى ، والخلوص من الشرك وآثاره .

إذن فإرسال الرسل - عليهم السلام - قد بدأ مع ظهور آثار الشرك والانحراف في عقائد الناس ، وهذا من رحمة الله - ﷻ - وفضله وحكمته ، حيث لم يترك عباده هملاً تجتالهم الشياطين وتحرفهم إلى الشر ، بل أرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، واختار لهذه الغاية العظيمة أفضل خلقه ، وصفوة عباده .

ومنذ ذلك الوقت والتاريخ البشري يمثل صراعاً بين الحق والباطل ، بين أتباع الهدى وأتباع الضلال ، بين حزب الله وحزب الشيطان ، وهذا ما يظهر بوضوح للمتأمل في تاريخ البشرية ، حيث يمثل دور الأنبياء وأتباعهم خطأً مستقلاً مرتبطاً ببعضه ببعض ، ويشابه بعضه بعضاً ، الدعوة واحدة ، والمنهج واحد ، ومواقف أهل الجاهلية منهم واحدة ، فالجاهليات تشكل أمة واحدة ، وحزباً واحداً ، في مقابل أمة الإسلام ، ودعوة الحق ، وحزب الله المتمثل في الرسل وأتباعهم .

وإن المتأمل في كتاب الله يجد أن أخبار الأنبياء وصفاتهم وقصصهم مع أقوامهم ، وصبرهم وجهادهم ، كل ذلك قد أخذ حيزاً كبيراً من القرآن الكريم ، وذلك حتى يتأسى الرسول - ﷺ - ومن بعده من المؤمنين بحياة هؤلاء الأنبياء وأتباعهم ، ويتعزوا بصبرهم ودعوتهم ، وهذا من أهم أهداف وأغراض القصص القرآني الكريم .

نوح وقومه :

لقد كان نوح - عليه السلام - أول رسول أرسله الله بالرسالة الإلهية إلى قومه عندما تحولوا إلى عبادة الأصنام ، وأمعنوا في الضلالة والكفر ، وقد جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة - رضي الله عنه - في حديث الشفاعة وفيه : « فيأتون نوحًا فيقولون : يا نوح ، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وسمك الله عبدًا شكورًا ، أما ترى إلى ما نحن فيه » (١) .

ولهذا فهو يعتبر فاتحة الرسل والرسالات ، وأول أولي العزم من الرسل - عليه الصلاة والسلام - .

وإذا علمت أن نوحًا - عليه السلام - لبث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا ، ظهر لك عظم المشقة ومكابدة المصاعب والمتاعب ، وتحمل الأذى ، وأنها مهمة لا يقوم لها إلا أولي العزم والقوة والبأس من الرجال ، بسند من الله ودعم وتوفيق .

لقد لبث في قومه زمنا يدعوهم إلى الله وإلى عبادته وتوحيده ، ولكن هذه المدة لم تؤت ثمارها فيهم ، فلم يؤمن برسالته من الله إلا القليل منهم ، وكان الوالد إذا بلغ ولده سن الرشد يوصيه أن لا يتبع نوحًا أبدًا ما عاش !! ، ولهذا فقد توارثوا الإصرار على الشرك بالله ، وأمعنوا في العصيان .

لقد كان بين نوح و آدم عشرة قرون ، كلها على التوحيد ، كما في الحديث الصحيح عن ابن عباس قال : « كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام » (٢) .

ثم حدثت أمور اقتضا أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام .

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسير : (ود وسواع ويغوث ونسر) « أسماء رجال

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأنبياء ، باب قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا . . . ﴾ (١٣٤/٤ - ١٣٥) برقم (٣٣٤٠) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب أدن أهل الجنة منزلة (١٥٧/١ - ١٥٨) برقم (١٩٤) .

(٢) أخرجه الحاكم في مستدرکه (٤٤٢/٢) عن ابن عباس موقوفًا ، وصححه على شرط البخاري .

صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا ، فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبادت « (١) .

قال ابن حجر - رحمته - :

وقصة الصالحين كانت مبتدأ عبادة قوم نوح هذه الأصنام ، ثم تبعهم على ذلك من بعدهم (٢) .

ولو تدبرت آداب الرسل والأنبياء في الدعوة إلى الله لوجدتهم يتفقون على شيء واحد ، وهو الدعوة إلى التوحيد الخالص ، والنهي عن الشرك ، فنوح وغيره أول ما يقولون لأقوامهم : ﴿ اَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (٣) ، ويكرر هذا الأصل بطرق كثيرة .

ولقد تجلّى الأدب النبوي الكريم في دعوة نوح لقومه الكافرين من الصبر الطويل على العناد والاستكبار وعدم اليأس والقنوط ، « والدعوة إلى الله ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، بكل وقت وبكل حالة يظن فيها نجاح الدعوة ، وأنه يرغبهم بالثواب العاجل بالسلامة من العقاب ، وبالتمتع بالأموال والبنين وإدرار الأرزاق إذا آمنوا ، وبالثواب العاجل وحذرهم من ضد ذلك ، وصبر على هذا صبراً عظيماً كغيره من الرسل ، وخاطبهم بالكلام الرفيق ، والشفقة ، وبكل لفظ جاذب للقلوب محصل للمطلوب » (٤) .

لقد كان نوح - عليه السلام - من أولي العزم من الرسل ، وكان من أخلاقه الصبر الجميل على طول الجهاد في سبيل الله ، والعفو عمن أهانه وضربه من قومه ، مع زهده في الدنيا .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب التفسير ، باب قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَذَرُنَّ وِدًّا . . . ﴾ (١٦٠/٦) برقم (٤٩٢٠) .

(٢) فتح الباري (٦٦٩/٨) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (٦٥) .

(٤) تفسير اللطيف المنان ص (١٠٩ - ١١١) .

وكان يقابل سفه قومه بحلمه الواسع ، وأدبه الجم .

ف عندما دعاهم إلى عبادة الله وحده بقوله : ﴿ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۗ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) رموه بالضلال والسفه وقالوا : ﴿ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢) ، فكان رده عليهم حليماً ، لم يواجهه سوء الأدب والعناد بمثله ، ولم ينزل إلى منزلتهم في تدني الأخلاق وسوء العشرة والأدب ، وإنما قال بأدب الأنبياء الكرام ، أهل الصفوة والاصطفاء : ﴿ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) ﴿ أَلْبَلَّغُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

ولك أن تتدبر هذا التصوير القرآني في بيان استعلاء قوم نوح ورفضهم الاستجابة لدعوة نوح نبيهم ، بل ووصفهم له بالضلالة ، في مقابل تعامل نبيهم الصابر الملائف الذي يحاول انتزاع هذا الوهم من عقولهم بنفي الضلالة عنه كما يزعمون ، وإنما هو رسول من رب العالمين ، يبلغهم ما أرسله الله به من الوصايا والأحكام والشرائع التي تصلح بها أمور دينهم ، مع نصحه لهم بما فيه سعادتهم ، والتحذير مما فيه شقاءهم ، وقد علمه الله ما لا يعلمون .

ومع ذلك فإن نوحاً - عليهما السلام - لم يرد أن يفضل قومه إلا من حيث أداء الواجب والاضطلاع بمهام الرسالة ، والصبر على الإيذاء والاحتمال في ذلك السبيل ، مما جعله مضرب المثل في الخلق الطيب ، والسيرة المرضية ، وبذلك استحق أن يكون عالي الهمة ، كبير النفس ، شريف الغاية ، فقال لهم : ﴿ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٤) ، وذلك رداً على

(١) سورة الأعراف ، آية (٥٩) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (٦٠) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (٦١ - ٦٢) .

(٤) سورة الأعراف ، آية (٦٣) .

قوله لهم له : ﴿ مَا نَزَكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَزَكَ أَبْتَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ (٢٧) . (١) .

وانظر إلى كلمة ﴿ رَجُلٍ مِّنْكُمْ ﴾ وما فيها من التواضع وكرم النفس ، واستمالة القلوب ، وتبين أنه رجل منهم ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، مع ما بينه وبينهم من صلة النسب والقرباة والدم ؛ ليلفت انتباههم إلى الخوف النابع من المحبة لهم التي اقتضتها فطرة الله التي فطر الناس عليها ، من محبة الإنسان لأهله وقومه وعشيرته .

ولقد استمر نوح في دعوته محاولاً إقناع قومه بالحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتي هي أحسن ، شأنه شأن جميع الأنبياء والرسل الذين أرسلوا إلى أقوامهم في الصبر على الدعوة ، وتحمل الأذى ، ومقابلة ذلك بحسن الخلق وأدب المعاشرة .

﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَأَنْتُمْ رَحِمَةٌ مِّن عِنْدِي - فَعَمِيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْزِلُكُمْ مَوْهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ ﴾ (٢٨) . (٢) .

وهذا الجدال دليل على حسن معاملة نوح - عليه السلام - لقومه مع ما يواجهه منهم من سوء الخلق ، ودليل على صبره مع ما يواجهه من إيذاء حسي ومعنوي ، ودليل حكمته مع ما يواجهه منهم من سفه وحمق .

رد عليهم بكل أدب واحترام ، بأنه رسول من عند الله ، وهو على يقين كامل ، وبينه قاطعة بذلك ، وتذكيرهم بأن هذه النبوة وهذه الرسالة رحمة من الله لهم ، وهداية ويقين ، ومع ذلك فهم عمى عن هذه الرسالة ، قد حجبتهم عن الاهتداء إليها جهلهم وغرورهم بأموالهم وجاههم ، فهل يصح أن يكرههم عليها ، فالهداية من الله - سبحانه - ، وما على الرسول إلا البلاغ ، والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي

(١) سورة هود ، آية (٢٧) .

(٢) سورة هود ، آية (٢٨) .

مَنْ يَشَاءُ ﴿١﴾ .

ولهذا لما أراد هؤلاء أن يُملوا على نوح شروطهم للإيمان ، رفض المساومة على ذلك نوح - عليه السلام - ، وكان من شروطهم أن يطرد هؤلاء الفقراء الذين أسلموا وآمنوا به ، فرد عليهم نوح ردًا يتضح لك فيه ما كان عليه نبي الله - عليه السلام - من الخلق العظيم والإحسان في المعاملة ، واحترام إنسانيتهم ، وأن هذا الدين لا يفرق بين الشريف والوضيع ، والكبير والصغير ، والغني والفقير ، فالكل فيه سواء .

﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلِقُوا رَبِّهِمْ ﴾ (٢) .

أي : لست بطارد أحد من الذين آمنوا استجابة لطلبكم ، وبسبب احتقاركم إياهم ، فهم مقربون من الله وسيلاقون ربهم يوم القيامة فيتولى جزاءهم ، وحسابهم على الله ، وهو بهذا الرد يرسل لهم رسالة عظيمة ، ويسن لهم سنة حسنة من حيث التواضع ولين الجانب ، وحسن الخلق الذي يبلغ به صاحبه الدرجات العلا من الجنة .

لقد كان نوح - عليه السلام - من أول الرسل الذين ضربوا أروع الأمثلة في الصبر على الدعوة ، وجمع مع هذا الصبر حسن الخلق ، ولطف المعشر ، فلم يتذمر ولم يقنط ، ولم ييأس من دعوة قومه لما طال به العهد ، على الرغم من عناد قومه له ، ومكابرتهم لدعوته ، وإصرارهم على عصيانه وتكذيبه ، وعلى الرغم من قلة من آمن به من قومه ، ومع هذا كله فلم يصب عزيمته الوهن ، ولم يتكاسل ويركن عن القيام بهذه الدعوة التي لا يتصدى لها إلا أولي القوة من الرجال .

ويكفيك أن تعرف ما كان يتصرفه قومه ويواجهون به هذا النبي العظيم حين يرونه قادمًا إليهم يدعوهم ويعظهم لتعرف شدة الأمر وعظم الصبر .

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبَعَهُمْ فِي ءِذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾

(١) سورة القصص ، آية (٥٦) .

(٢) سورة هود ، آية (٢٩) .

وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ (١) .

لقد أصر قوم نوح - عليهما السلام - على كفرهم وعنادهم ، ورفضوا دعوته ، وكلما زاد إقبالاً عليهم ودعوة لهم ، وتلطفاً وتحبباً إليهم ، زادوا كفرًا وعنادًا ، وازدادوا تكذيباً وفراراً منه ، فلم ينفعهم ذلك لما رأوا بأس الله وعذابه قد حل بهم ، سنة الله التي قد خلت من قبل ، وخسر هنالك المبطلون .



هود وقومه :

إن القرآن الكريم يؤكد على أن أمة عاد هي الجيل الذي استخلفه الله - عز وجل - بعد جيل نوح - عليهما السلام - ، الذي نجاه الله من الطوفان ، كما قال على لسان هود : ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً... الآية﴾ (٢) ، كما يؤكد أن عادًا كانوا يعيشون في عصر سابق لعصر موسى - عليهما السلام - ، وذلك على لسان مؤمن آل فرعون ، وهو يعظ قومه مذكرًا لهم بأخبار السابقين ، ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ (٣) .

وعلى هذا فإن عادًا قد عاشوا في فترة ما بين القرنين الرابع والثالث عشر قبل الميلاد (٤) .

ولقد مكن الله لهذه الأمة تمكينًا في الأرض ، ويسر لهم من أسباب عمارتها ونهوض

(١) سورة نوح ، آية (٧) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (٦٩) .

(٣) سورة غافر ، آية (٣٠ - ٣١) .

(٤) الأصل العربي للحضارات ص (٣٣) .

حضارتها شيئاً عظيماً ، ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَدِ ﴿٨﴾ ﴾ (١) .

وكذلك النعم الكثيرة التي من الله بها عليهم من بنين وأنعام وجنات وعيون ، وإقامة البروج المشيدة والمباني العظيمة ذات المعالم البارزة على الأكمة المرتفعة ؛ أملاً في الخلود ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ (٢) .

كما أنهم كانوا أعظم أهل زمانهم في قوة الأجسام والطول والشدة ، حيث كانوا عمالقة أقوياء إلى الدرجة التي ذكر الله عنهم فيها : ﴿ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ (٣) ، فنشأت عندهم صفة التفاخر والتباهي بقوتهم ، وتعاضمهم على باقي خلق الله ممن حولهم من القبائل ، وكانت لديهم قوة عسكرية أشار إليها القرآن بقوله : ﴿ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ (٤) .

روى ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء قال : « إن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلاً وركاباً » (٥) .

وروى ابن جرير الطبري من حديث حميد الطويل (٦) قوله : « وكانوا مع ذلك قد مشوا في الأرض كلها ، وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله » (٧) .

وهكذا اغتروا بقوتهم واستغلوها في محاربة الله والكفر به والإساءة إلى الضعفاء ، مما

(١) سورة الفجر ، آية (٦ - ٨) .

(٢) سورة الشعراء ، آية (١٢٩) .

(٣) سورة فصلت ، آية (١٥) .

(٤) سورة الشعراء ، آية (١٣٠) .

(٥) تفسير القرآن العظيم (١٥٣/٦) .

(٦) هو : ابن أبي حميدة أبو عبدة البصري محدث ثقة مدلس ، من الطبقة الخامسة ، توفي سنة (١٤٢هـ) .

انظر : التقريب لابن حجر ص (١٨١) .

(٧) تفسير الطبري (٥٠٣/١٢) .

اقتضى أن يرسل لهم رسولا يذكرهم بالله ، ويقوم ما اعوج من أخلاقهم ، ويسدد مسيرتهم ، ويصوب أخطاءهم ، فأرسل إليهم هوداً ، وهذا ما سأبينه في أدب هود - عليهما السلام - مع قومه المخالفين .

ولقد كان هود - عليهما السلام - صالحاً في قومه ، محباً للخير والسلام ، دمث الأخلاق ، وقوراً رزيناً ، رحيماً بالناس ، لين الحديث والمعاملة معهم ، مبعضاً للشر والبغي والظلم والتعدي على حقوق الله وخلقه ، اتهمه قومه بالساحر والكذب ، وآذوه في نفسه وجسده ، فما زاده ذلك إلا حلمًا وجدًا وحسنًا في الخلق والأدب ، وفي ذلك ما يتناسب مع مقام النبوة ومركز الدعوة إلى الله تعالى .

يقول تعالى حكاية عن هود مع قومه : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (١) .

وكلمة : ﴿ أَخَاهُمْ ﴾ أي : واحداً منهم ، وإنما جعل كذلك ؛ لأنهم أفهم عن رجل منهم ، وأعرف بحاله وصدقه وأمانته ولغته ؛ لتكون أخلاقه دليلاً معروفاً على سلوكه فيكونوا أقرب إلى تصديقه ، وانظر إلى قول هود - عليهما السلام - لقومه : ﴿ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ ﴾ (٢) تجد أنها نظير ما قاله نوح - عليهما السلام - قبله لقومه : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ۚ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ ﴾ (٣) ، فالأسلوب واحد ، والمعاني واحدة ؛ لأن الرسل مرسلون من الله تعالى ، والحكمة من الإرسال واحدة ، فلا جرم أن تتشابه دعواتهم كما في الحديث الصحيح : « الأنبياء أبناء علات » (٤) ، فبم أجاب قوم هود نبيهم - عليهما السلام - ؟!

(١) سورة الأعراف ، آية (٥٩) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (٦٥) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (٥٩) .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأنبياء ، باب قوله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرِيَمَ ﴾

(١٦٧/٤) ، حديث رقم (٣٤٤٢) .

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴾ (١) .

كَبُرَ عَلَى الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ أَنْ يَدْعُوهُمْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ إِلَى الْحَقِّ ، وَأَنْ يَطَالِبَهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَتَقْوَاهُ ، وَالْإِقْلَاعَ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ الْمُبِينِ ، فَاَنْطَلَقُوا يَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذْبِ وَالسَّفَاهَةِ ، بَلْ وَأَكْدُوا مَقُولَتَهُمْ بِـ (إِنْ) وَالْجُمْلَةَ الْاسْمِيَّةَ ، وَلاَمِ الْابْتِدَاءِ ، أَيْ : إِنَّا نَعْتَقِدُ اعْتِقَادًا جَازِمًا أَنَّكَ لَفِي سَفَاهَةٍ ، وَالسَّفَاهَةُ هِيَ : سَخَافَةُ الْعَقْلِ ، يُقَالُ : سَفِهَ سَفْهًا أَيْ : صَارَ سَفِيهًا خَفِيفًا نَاقِصَ الْعَقْلِ غَيْرَ رَشِيدٍ (٢) . وَمَا قَالُوا هَذَا إِلَّا لِأَنَّهُ هَجَرَ دِينَهُمْ إِلَى دِينٍ آخَرَ ، وَهَذَا نَظِيرُ مَا قَالَهُ قَوْمُ نُوحٍ لِنَبِيِّهِمْ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (٣) .

فَاسْتَخَفُوا بِعَقْلِهِ وَكَذَّبُوا قَوْلَهُ ؛ عِنَادًا وَاسْتِكْبَارًا وَإِعْرَاضًا عَنِ الْحَقِّ .

وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ لَمْ يَنْزِلْ هُودٌ إِلَى مَسْتَوَاهُمْ غَيْرَ الْأَخْلَاقِيِّ ، وَلَمْ يُجَابِهِ السَّفَهُ بِالسَّفهِ ، بَلْ تَجَلَّى أَدَبُهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَرَجَاحَةُ عَقْلِهِ وَحَسَنُ خَلْقِهِ ، فَرَدَّ عَلَيْهِمْ بِكُلِّ أَدَبٍ وَاحْتِرَامٍ مُضْمِنًا حَدِيثَهُ مَحَبَّةَ الرَّجُلِ لِقَوْمِهِ الَّذِينَ هُوَ مِنْهُمْ ، وَخَوْفَ النَّبِيِّ عَلَى عَشِيرَتِهِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ خَرَجَ مِنْهُمْ وَفِيهِمْ قَائِلًا لَهُمْ : ﴿ قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤) .

خَاطَبَهُمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ يَقَوْمِ ﴾ فَنَسَبَهُمْ إِلَى نَفْسِهِ لِيَسْتَمِيلَ قُلُوبَهُمْ إِلَيْهِ ، وَيَشْعُرَهُمْ بِرَوَابِطِ الدَّمِ وَالنَّسَبِ وَوَشَائِجِ الْقُرْبَى ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ ﴾ وَانظُرْ كَيْفَ يَنْفِي عَنِ نَفْسِهِ تَهْمَةَ السَّفَاهَةِ وَالْكَذْبِ فِي بَسَاطَةٍ وَصِدْقٍ وَأَدَبٍ وَتَوَاضَعٍ دُونَ انْتِصَارِ النَّفْسِ أَوْ اقْتِصَاصِ حَقِّ ، أَوْ غَضَبٍ وَتَهْدِيدٍ وَوَعِيدٍ .

(١) سورة الأعراف ، آية (٦٦) .

(٢) تهذيب اللغة للأزهري ، مادة : (سفه) (١٧٠٩/٢) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (٦٠) .

(٤) سورة الأعراف ، آية (٦٧ - ٦٨) .

بل وزاد على ذلك بأن أظهر صدق نواياه وشدة محبته وإرادة الخير لهم بأن أكد على ذلك بأنه : ﴿ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ .

وهنا لفظة عجيبة بين قول نوح - عليه السلام - وقول هود - عليه السلام - ، فلقد قال الله على لسان نوح : ﴿ وَأَنْصَحُ لَكُمْ ﴾ (١) ؛ لأن الفعل يدل على التجدد ، وكان نوح - عليه السلام - يلح على قومه ليلاً ونهاراً ، وإعلاناً وسراً ، بينما قال عن هود - عليه السلام - : ﴿ لَكُمْ نَاصِحٌ ﴾ ؛ لأن الاسم يدل على الثبوت ، ولأن هوداً - عليه السلام - لم يلح ويكرر كما كان يفعل نوح - عليه السلام - .

« وهو مع هذا البلاغ في غاية النصح لقومه والشفقة عليهم ، والحرص على هدايتهم ، ولا يتغنى منهم أجراً ولا يطلب منهم جعلاً ، بل هو مخلص لله في الدعوة والنصح لخلقه » (٢) .

قال الزمخشري :

« في إجابة الأنبياء - عليهم السلام - من نسبهم إلى الضلال والسفاهة بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء وترك المقابلة بما قالوا لهم مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفهم : أدب حسن وخلق عظيم ، وحكاية الله - عز وجل - ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء ، وكيف يغضون عنهم ، ويسبلون أزيالهم على ما يكون منهم . . . » (٣) .

ويستمر هود - عليه السلام - في دعوة قومه ومناصحتهم بأدب الدعوة وحسن القول ورفق العمل ، محاولاً استمالة قلوب قومه العتاة بكل ما يستطيع لا يألوا في ذلك جهداً ولا يتطلب إلا الثواب والأجر من الله تعالى .

(١) سورة الأعراف ، آية (٦٢) .

(٢) قصص القرآن لابن كثير ص (١٠٥) .

(٣) الكشاف ص (٣٦٨) .

﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَنْقُومُ اللَّهُ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِهِ ۗ إِنَّكُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ (١) .

و حين تقرأ كلمة : ﴿ أَخَاهُمْ ﴾ تجد إشارة القرآن إلى أمر مهم وهو بيان أن هودًا - عليّ السلام - كان من نسبهم بجمعه آصرة القربى والرحم التي بين أفراد القبيلة الواحدة ، ولا يمكن للأخ حيال إخوته إلا التعاطف والتناصح ، ولا يمكن للأخ أن يريد لهم العنت ، بل هو ناصح أمين على ما يبلغهم ، وكان يناديهم : ﴿ يَنْقُومُ ﴾ ؛ استمالة لقلوبهم ، ويتودد إليهم بتذكيرهم بآصرة القربى التي تجمعهم ، آصرة الدم والنسب والقبيلة والأرض ، لعل ذلك يستثير مشاعرهم ، ويحقق اطمئنانهم إليه .

﴿ قَالَ يَنْقُومُ اللَّهُ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِهِ ۗ ﴾ (٢) .

يقول الطبري :

« ليس لكم معبود يستحق العبادة غيره ، فأخلصوا له العبادة ، وأفردوه بالألوهية » (٣) .

وجملة : ﴿ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِهِ ۗ ﴾ حال يقصد بها إبطال شركهم وتشنيعه ، ولذلك قال : ﴿ إِنَّكُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ (٤) .

قال الزمخشري :

« أي : كاذبون باتخاذكم الأوثان له شركاء » (٥) .

(١) سورة هود ، آية (٥٠) .

(٢) سورة هود ، آية (٥٠) .

(٣) تفسير الطبري (٥٧/٧) .

(٤) سورة هود ، آية (٥٠) .

(٥) الكشاف ص (٤٨٦) .

وبيادر هود - عليه السلام - ليوضح لقومه الهدف من دعوته أنها النصيحة والهداية بغير مقابل ، فيقول لهم : ﴿ يَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

وانظر كيف أعاد النداء بـ ﴿ يَقَوْمِ ﴾ ؛ ليسترعي سمعهم ويؤانسهم وليبين أهمية ما يقوله من دفع التهمة عنه أن يكون له وراء دعوته هذه إلى عبادة الله غاية من كسب أو أجر ، وهو يعلم أن قومه الذين انشغلوا بمنافع الدنيا ولهثوا وراء الكسب بكل الطرق المشروعة وغير المشروعة يستبعدون كل دعوة ونصيحة بغير مقابل مادي ، وإن جهلهم بالله وعطائه جعلهم يظنون أن وراء هذه الدعوة النبوية غاية ومصلحة مادية ، لذلك بادرهم هود - عليه السلام - بقوله : ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ الذي بيده خزائن السموات والأرض ، وهو الرازق ذو القوة المتين ، الذي يرزق العباد ، فلم يطلب هود - عليه السلام - رزقاً من البشر .

« إن هوداً - عليه السلام - أراد أن لا يجارب مشاعر قومه وينال من عواطفهم بادئ الأمر ، بل جاراهم وتلطف معهم ، فقد تجدد قوماً ما طغت عليهم عاطفة المال وحبه ، فإذا جئنا نشفه هذه العواطف وننال منها في نفوسهم ، فإن ذلك سيحدث ردة فعل لا تنتج إلا عكس ما نريده ، ونقيض ما نبتغيه ، لكن الطريقة المثلى إذا أردنا أن نستأصل هذه العاطفة ونبعدها ، أن تقوى عاطفة أخرى من العواطف الخيرة ، كالإنفاق في سبيل الله ، وبذل الخير ، فإن أراد الله بهم خيراً فإن ما يحدث أن تتصارع العاطفتان فتقوى إحداهما على الأخرى ، وهذا النهج الذي كان هود - عليه السلام - يتبعه ، فلقد أراد أن يشذب هذا الذي في نفوسهم ، ويهذب تلك العواطف ، فهاهو يقول لهم :

﴿ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ (٢) (٣) .

(١) سورة هود ، آية (٥١) .

(٢) سورة هود ، آية (٥٢) .

(٣) القصص القرآني إيماءه ونفحاته ص (١٠٥) .

يقول الفخر الرازي :

« إن قوم عاد قد خصوا بنوعين من الكمال في الدنيا : أحدهما : أن بساتينهم ومزارعهم كانت في غاية الطيب والبهجة ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ (١) .

والثاني : أنهم كانوا في غاية القوة والبطش ، ولذلك قالوا : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ (٢) « (٣) .

ولهذا لما كان القوم مفتخرين على سائر الخلق بهذين الأمرين وعدهم هود - عليه السلام - أنهم لو تركوا عبادة الأصنام واشتغلوا بالاستغفار والتوبة ، فإن الله يقوي حالهم في هذين المطلوبين ، ويزيدهم فيها درجات كثير .

وهكذا ما ترك هود - عليه السلام - في الدعوة درباً إلا وسلكه ، ولا طريقة ومنهجاً إلا واتبعها مع ما يصاحب ذلك من الأدب الرفيع ، والخلق العالي ، والمعاشرة بالتي هي أحسن ، ولين الجانب ، وحسن الطبع ، والمجادلة بالتي هي أحسن .

ولكنهم أنكروا دعوته ، وعصوا أمره ، وعاندوا واستكبروا ، فأخذهم الله بعذاب عنده ، والله شديد العقاب .



صالح وقومه :

لما أهلك الله قبيلة عاد بسبب كفرها بالريح العقيم التي سلطها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ؛ لعنادها وفسادها ، استخلف الله في الأرض قبيلة ثمود ، فعمرت الأرض ،

(١) سورة الفجر ، آية (٧ - ٨) .

(٢) سورة فصلت ، آية (١٥) .

(٣) مفاتيح الغيب (٣٦٣/١٨) .

واتخذت مساكنها بالحجر ، وقد كانوا في بجوحة من العيش وسعة الرزق ، فكانوا أهل خصب ورفاعة حال ، وكان لهم الكثير من الماشية والوفير من البساتين والجنات ، والعديد من العيون والآبار التي يستقون منها هم وماشيتهم ، وزروعهم ، بدليل قول نبيهم صالح - عليهما السلام - :

﴿ أَتْرَكُونَ فِي مَا هَهُنَا ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعَيْونِ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَحْتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ (١) .

ولقد كانت ثمود على هداية من الأمر ، تعبد الله أولاً ثم طغت وأفسدت في الأرض ، وخالفت أمر الله ، وعبدت غيره ، واتخذت من الأصنام آلهة يعبدونها من دون الله ، يقول تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ (٢) .

ولما زاد إفسادهم وأصبحوا أهل فساد وطغيان ، غير جديرين بعمارة الأرض إلا بالهداية والصلاح وعبادة الله وحده وطاعته ، بعث الله - ﷺ - إليهم هداية لهم رجلاً منهم ، أوسطهم نسباً ، وأفضلهم حسباً ، وهو صالح نبي الله ورسوله - عليه الصلاة وأتم التسليم - ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده ومحضهم نصيحته ، وذكرهم بنعم الله عليهم ، وحذّرهم من عذاب الله ، وبصّرهم بما حدث لقوم نوح من الموت بالطوفان ويقوم عاد من الموت بالريح العقيم بسبب رفضهم دعوة أنبيائهم .

يقول الله تعالى في سورة الأعراف حكاية عن قوم صالح : ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴿٣﴾ ، بعد أن قال قبلها : ﴿ وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (٤) .

وحين نتدبر المناسبة ما بين الآيتين والرابط فيما بينهما ، فإن أول عبرة يجب الالتفات

(١) سورة الشعراء ، آية (١٤٦ - ١٤٩) .

(٢) سورة فصلت ، آية (١٧) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (٧٣) .

(٤) سورة الأعراف ، آية (٧٢) .

إليها أن تكذيب الرسل كان سبب الهلاك ؛ وذلك أن قطع الدابر إلغاء لمن قطع دابره ومحوه من الوجود ، والآية الثانية ذيل بما قصة هود ، فأين آثار قوم هود ؟ وما الذي يدل عليهم ؟ لقد أهلك الله المكذبين بالريح العقيم ، وهكذا طويت صفحة وجودهم مع صحائف الكذابين ، وتحقق النذير بعد إذ لم ينفع التذكير ، ثم تكررت القصة مرة أخرى مع نبي آخر ، وقوم آخرين .

إن الرسل - صلوات الله عليهم - دعوا قومهم إلى الأصل الذي يقوم عليه الوجود كله ، لقد قال صالح - عليه السلام - لقومه مثل ما قال هود لقومه ، وحمل لهم الإنذار ليتقوا الله فيرحموا ولا يتعرضوا للعذاب ، فقال لهم : ﴿ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ^ط ﴾ (١) ينفعكم أو يضركم ، يحييكم ويميتكم ، إنه خطاب صالح - عليه السلام - لقومه ثمود ، وفي ضمنه خطاب غير مباشر لنبينا - ﷺ - لقومه الذين يجاهدونهم بهذا القرآن إنذاراً وتذكيراً بما جرى لقوم ثمود ويحذرهم مصيراً كمصير ثمود ونهايتهم بالعذاب .

لقد كان الرسل - عليهم الصلاة والسلام - من آدم إلى نبينا - ﷺ - يعرضون على أقوامهم حقيقة التوحيد الواحدة التي لا تبدل ، وقد جاءت بنفس الصيغة اللفظية تقريباً : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ^ط ﴾ (٢) مطابقة لدعوة نوح وهود وصالح وشعيب - عليهم السلام - كما قال رسول الله - ﷺ - : « الأنبياء أبناء علات » (٣) .

قال ابن الأثير :

« أراد إيمانهم واحد ، وشرائعهم مختلفة » (٤) .

فالرسالة التي أرسلها الله للبشرية من لدن آدم - عليه السلام - هي نفس الرسالة ، ونفس الحوار ، ونفس العاقبة ، وما ذلك إلا لتظهر أهمية الدعوة إلى الله والنصح لعباده ، ورغبة

(١) سورة الأعراف ، آية (٧٣) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (٧٣) .

(٣) تقدم ترجمته ص (٢٧٣) .

(٤) النهاية في غريب الحديث ص (٦٢٦) .

الأنبياء في هداية قومهم .

ولقد كان نبي الله صالح - عليه السلام - معروفاً لديهم ، ليس بغريب عنهم ، له سابقة في القيم ، وقدم راسخة في الأخلاق معروفة عندهم ، يعرفون حسبه ونسبه ، فهو منهم ومأنوس عندهم ، لذا أضيفت ثمود له بأنه ﴿ أَخَاهُمْ ﴾ كما قال تعالى حكاية عن الرسل : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (١) .

وحين تنظر إلى نبي الله صالح ونهجه الذي انتهجه في الدعوة ، وما صاحب ذلك من حسن الخلق وأدب الدعوة إلى الله تعالى ، يتضح لك مثلاً عظيماً ، وقدوة حسنة في كيفية دعوة المخالفين والمعاندين المستكبرين ، وخصوصاً حين يجاهون هذا الأدب بخلافه من سوء الخلق ، والاستهزاء والمكابرة ورد الحق .

فحين دعاهم إلى عبادة الله وحده ونبذ الشرك والعصيان ﴿ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ (٢) .

وأنت حين تنظر بعد أن دعا صالح قومه لله وحده وعبادته وطاعته وترك ما سواه ، لفت نظرهم إلى الأرض كدليل على التوحيد فقال : ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ .

قال الزمخشري :

« لم ينشئكم منها إلا هو ، وإنشأؤهم منها خلق آدم من التراب » (٣) .

وقد ذكر نعمة الأرض ؛ لأنهم كانوا أهل غرس وزرع ، كما قال تعالى : ﴿ أَتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعَتْهَا

(١) سورة إبراهيم ، آية (٤) .

(٢) سورة هود ، آية (٦١) .

(٣) الكشاف (ص ٤٨٩) .

هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ (١) ، ولأنهم كانوا يبنون في الأرض قصوراً فكانت لهم منافع من الأرض تناسب نعمة إنشائها من الأرض التي أنشئوا منها ، ولذلك عطف عليه : ﴿وَأَسْتَعْمَرَ كُمْ فِيهَا﴾ (٢) أي كلفكم عمارتها .

قال ابن كثير :

« تستغلونها وذلك بالزراعة والصناعة والبناء والتعدين » (٣) .

فخلق الأرض قابلة للعمارة النافعة ، وكون الإنسان قادراً عليها دلالة واضحة على وجود الصانع المختار الذي أوجد هذا العالم على غير مثال سابق ، وهو بهذا الأسلوب يدعو إلى الاعتبار بالآثار ، والوصول إلى الحقيقة من خلال النظر إلى الأرض .

وانظر إلى أدب النصيح والحرص والتوجيه حين قال لهم : ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ (٤) .

قال الطبري :

« ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ﴾ ثم توبوا إليه : أي اتركوا من الأعمال ما يكرهه ربكم إلى ما يرضاه ويحبه » (٥) .

وعطف الأمر هنا بالتوبة بحرف التراخي (ثم) ؛ لأن الدوام على التوبة أهم من طلب المغفرة عما سلف ، ولا حظ هنا جمع الآية لصفات الله المفتحة بالتأكيد ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ فاجتماع هذه الصفات وتجاورها من قرب ، واستجابة توحى بالرأفة

(١) سورة الشعراء ، آية (١٤٦ - ١٤٨) .

(٢) سورة هود ، آية (٦١) .

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣٣١/٤) .

(٤) سورة هود ، آية (٦١) .

(٥) تفسير الطبري (٦٢/٧) .

والإكرام ، وتفتح باب التوبة بمصراعيه للتائبين الذين انتقلوا ببصائرهم من المعقول إلى المحسوس ، فكان في هذا دعوة إلى التخلق بأحسن الأخلاق وأكرمها .

ومع هذا النصح والصدق في الدعوة ، فقد أجابه قومه بـ ﴿يَصْلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنهَنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (١) .

لقد قابلوا دعوته البليغة الملامى إرشاداً وهدياً ونصحاً بالمكابرة وضعف الحجّة وسوء الظن .

وانظر مناداتهم لنيهم بـ ﴿يَصْلِحُ﴾ بقصد التعنيف والتنبيه والتحذير مع الغلظة في القول والجفاء في الخلق ، في حين أنه يقابل هذا التعامل وهذا النداء بقوله ﴿يَقُومُ﴾ ويكرر هذا النداء ؛ لاستمالة القلوب ، وإشعارهم برابط الصلة والقربى التي تدعوه للمحبة وإرادة الخير لهم ، والصدق في النصح .

﴿قَالَ يَقُومُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَعَآتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ (٢) .

قال ابن كثير :

« وهذا تطف منه لهم في العبارة ، ولين الجانب ، وحسن تأت في الدعوة لهم إلى الخير » (٣) .

ويدلك على أدب نبي الله - ﷺ - وحسن خلقه وتواضعه ، إقبال الضعفاء من قومه عليه ، الذين لا جاه لهم ولا سلطان ولا جبروت ، واستجابوا لدعوة الإيمان بالله ، وجدوا فيها النفع لهم ورفع الظلم عنهم ، وتحقيق العدل والمساواة بينهم ، كيف لا وهي

(١) سورة هود ، آية (٦٢) .

(٢) سورة هود ، آية (٦٣) .

(٣) قصص القرآن ص (١١٩) .

شريعة سماوية نزلت من عند أعدل وأحكم الحاكمين ، بينما الملائم من قوم صالح - عليهما السلام - وهم السادة الكبراء كذبوا نبيهم ، وليس لهم وجه حق في تكذيبه سوى قولهم : ﴿ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ (١) ، أي أنهم يشكون في صدق ما يدعوهم إليه ، وجاء ذلك تأكيداً بجرف التأكيد (إن) مع نون الجمع .

قال أبو حيان :

« إنا وإننا لغتان لقريش » (٢) .

أي : في شك موصل إلى شك ، والشك هو استواء النفي والإثبات عند الإنسان .

وقال ابن كثير :

« في شك كثير » (٣) .

وقال الزمخشري :

« ووصف الشك بأنه مرير تأكيداً ، من أرابه إذا أوقعه في الريبة » (٤) .

« وهكذا نرى الجاهلية تنقلب عندهم المفاهيم ، فيرون الحق باطلاً ، والباطل حقاً ؛

لأنهم لا يقيسون الأشياء بمقياس صحيح » (٥) .



لوط وقومه :

لوط - عليه الصلاة والسلام - نبي من أنبياء الله ، ورسول من رسله ، أخبرنا القرآن

(١) سورة هود ، آية (٦٢) .

(٢) البحر المحيط (٢٣٩/٥) .

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣٣٢/٤) .

(٤) الكشاف ص (٤٨٩) .

(٥) الأقوام البائدة ص (٩٦) .

أنه آمن بإبراهيم - عليهما السلام - ، كما كان يدعو قومه إلى الله تعالى وإلى عبادته .

﴿ فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

(١) ﴿٦﴾

ولا يذكر القرآن الصلة بين إبراهيم ولوط ، ولا درجة القرابة بينهما ، ولم يحدد ذلك أيضاً رسول الله - ﷺ - في حديث صحيح له .

ولهذا فتحن نعلم علم اليقين أن لوطاً - عليهما السلام - كان معاصراً لنبى الله إبراهيم الخليل - عليهما السلام - مؤمناً به وبدعوته .

« إن حياة لوط معاصرة لحياة إبراهيم - عليهما السلام - ، وقد كان بين ولادة إبراهيم ونوح (٨٩٠) سنة ، كما تذكر التوراة ، وإذا أضفنا إليها عمر نوح وهو (٩٥٠) سنة استطعنا أن نحدد الفترة التي عاش فيها لوط - عليهما السلام - من تاريخ الإنسانية بعد الطوفان » (٢) .

« وكان هلاك قوم لوط في القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، ويقال : كانت حياة نبيهم ما بين ١٨٦١ - ١٦٨٦ ق . م ، والله أعلم » (٣) .

« ولقد سكن لوط - عليهما السلام - في مدينة سدوم ، وكانت مدينة كبيرة عامرة ، تقع على ضفاف بحيرة طبرية ، مياهها مالحة ، بل شديدة الملوحة ، وترتبتها خصبة وتتوسط سدوم أربع ممالك ، انتشرت حولها : عامورا ، ودومة ، وصابور ، وصامورا ، وأنشأت فيما بينها حلفاً برئاسة ملك سدوم واسمه بارع ، وعلى كل مدينة سور عظيم ، مبني من الحجارة والرصاص » (٤) .

(١) سورة العنكبوت ، آية (٢٦) .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ، فنسك (٢٧/١) .

(٣) العقيدة الإسلامية ، لعبد الرحمن حبنكة ص (٥١٩) .

(٤) نهاية الأرب للنويري (١٢٣/١٣) .

« وكانت سدوم أكبر تلك الممالك ، وهي ذات مركز تجاري ومحطة للمسافرين بسبب موقعها ، وكان عدد سكانها أربعة آلاف » (١) .

وقد كان أهل سدوم شر أهل الأرض وأكثرهم خبثاً ، فقد أنعم الله عليهم برزق وافر ، وأسكنهم في بلاد كثيرة الخيرات ، إلا أنهم بدلاً من أن يشكروه على نعمه عليهم بطروا وأفسدوا في الأرض حتى انحطوا إلى درك الحيوانية في سلوكهم الحياتي ، ومن أفعالهم القبيحة أنهم كانوا يجلسون على الطريق ، فإذا مر مسافر أو عابر سبيل ، رشوقه بالحجارة حتى يدموه ، ثم يبدؤن بالسخرية منه ومما هو فيه ، كما قال تعالى عنهم : ﴿ وَتَقَطُّعُونَ السَّبِيلَ ﴾ (٢) ، أو يختارون واحداً من التجار ويبدأ كل واحد منهم بأخذ قسم قليل من بضاعة ذلك التاجر حتى تنفذ كلها دون أن يستوفي ثمنها هازئين منه ، وكانوا يجلسون في أنديتهم يتبارون بإخراج الريح من أدبارهم وهم يتفاخرون بذلك العمل المنكر ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾ (٣) ، وأعظم من هذا كله أنهم ابتدعوا بدعة جديدة من أكبر الكبائر لم يسبقهم إليها أحد من العالمين ، وذلك أنهم قد هجروا نساءهم وأقبلوا على الذكور يأتونهم في أدبارهم من الخلف ، يستعلنون بذلك ، ولا يرون في ذلك سوءاً ولا قبحاً ، ولهذا قال تعالى فيهم على لسان لوط : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ (٤) .

ولهذا فإن الآيات التي ذكرت فيها قصة قوم لوط ودعوته لهم تشير إلى فساد فطرة قومه ، المتمثلة في إتيانهم الذكران من العالمين ، وترك ما خلق الله لهم من النساء ، وإن كل نبي بعثه الله لهداية قومه ، ولإصلاح ما فسد من اخلاقهم وعاداتهم ، ولهذا فإن ما يلفت النظر في دعوة لوط - عليه السلام - لقومه الشاذين المنحرفين أنه بدأ معهم بداية خاصة لم يبدأها نبي مع قومه ، وبدأ على غير ما بدأه الأنبياء مع أقوامهم .

(١) عرائس المجالس للثعالبي ص (١٠٧) .

(٢) سورة العنكبوت ، آية (٢٩) .

(٣) سورة العنكبوت ، آية (٢٩) .

(٤) سورة الأعراف ، آية (٨١) .

فالمأمل في قصص الأنبياء في القرآن يجد أن كل نبي يبدأ دعوته لقومه إلى عبادة الله وحده ، وعدم عبادة إله آخر معه ، وهو بهذا يصحح فيهم هذا الانحراف والضلال .

أما لوط - عليه السلام - قد واجه انحرافاً من نوع آخر عند قومه ، انحراف خاص بهم لم يكن عند غيرهم ، إذ أن الانحراف عند الأقسام الآخرين كان انحرافاً عقدياً فكرياً ، حيث كانوا يعبدون مع الله الأصنام والأوثان ، ويعتبرونها آلهة أخرى ، فكان كل نبي يبدأ بمعالجة هذا الانحراف الفكري عند قومه .

أما قوم لوط فلم يكن انحرافهم انحرافاً فكرياً ، وإنما كان سلوكياً شنيعاً ، حيث وجد عندهم ممارسات شاذة ، وإغراقاً في الشهوة ، في كيفية تتنافى مع الفطرة الإنسانية ، حيث كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء ، وما فعل قوم قبلهم مثل فعلهم ، ولا شذوا مثل شذوذهم ، فكيف يبدأ مع هؤلاء القوم المنحرفين الشاذين الشهوانيين بالدعوة إلى عبادة الله وتخليص أفكارهم وعقولهم من عبادة غيره ، مع أنهم مشغولون في شذوذهم وانحرافهم وشهواتهم ؟ ولو خاطبهم خطاباً عقلياً هل سيسمعونه ويفهمونه عليه ؟ وهم بهذا الانحراف الشاذ؟! .

لقد أراد لوط - عليه السلام - تطهير أجسامهم من هذه اللوثة الشهوانية الشاذة ؛ ليسمو بهم إلى العفة والطهارة ، ويعددهم لخطاب التوحيد والعبادة .

إن دعوته لهم للإقلاع عن فاحشة الشذوذ وترك إتيان الذكران من العالمين ، هي تهيئة لهم لعبادة الله والتخلي عن الشرك ؛ لأن الدعوة إلى التوحيد لا تنفع مع قوم ملوثين شاذين شهوانيين ، فكأنه يقول لهم : طهروا أجسامكم وأبدانكم أولاً ، وعودوا إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، ثم بعد ذلك تعالوا لنوحّد الله في العبادة بأجسام وأنفس طاهرة زكية من الخبائث والأنجاس والأردان .

ولهذا فقد كان أول ما أنكره عليهم هو هذه الفعلة الشنيعة ، إذ قال لهم :

﴿ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(١) والفاحشة

(١) سورة الأعراف ، آية (٨٠) .

هي : كل شيء جاوز حده وقدره (١) ، وتطلق على الفعل الديني المذموم . وهذه الفاحشة القدرة لم يسبقهم بها أحد من العالمين ، والسبق يستعمل بمعنيين :

سبق مكاني ، وسبق زماني .

وأياً كان ، فإنه لم يعرف أمة من الأمم الفاجرة وصلت إلى ما وصل إليه قوم لوط ، فقد كانوا في هذه القبيحة مسرفين جداً ، فاقوا بها جميع العالمين .

لقد كان نبي الله لوط - عليه السلام - صاحب غيرة على محارم الله ، مع طهارة في النفس والأخلاق ، فلم يرض بهذا الحال ، ولم يقبل هذه الأخلاق الدنيئة ، فذهب يعظ قومه في كل محفل ، وينصحهم في كل مكان وزمان ، ويحذرهم من عواقب هذا الفعل الشنيع إن لم يقلعوا عنه ويتوبوا ، متبعاً في ذلك حسن المعاملة ، وأدب النصح ، وإظهار الأخلاق العفيفة والمروءة والنخوة والغيرة ؛ لعلهم يتأثرون بذلك فيتبعونه ويقتدون به ، إذ أن الداعية لا بد أن يكون قدوة في نفسه وفي أفعاله قبل أن يكون قدوة للناس .

لقد اشتهر بينهم بكرهه لأفعالهم ، وعدم موافقتهم لهذا الشذوذ وهذا الأخلاق ، فاستثقلوا وجوده بينهم ، وامتنعوا من دعوته لهم بتركها ، وشجبه وإنكاره لأفعالهم ، وتشنيعه لحالهم فقالوا : ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴾ (٢) .

وهكذا يعتبر العفاف والطهارة عند هؤلاء القوم الخبيثاء سبة وعاراً ، وسبباً لإخراج لوط وأهله من بلادهم ، وهكذا ينظرون المجرمون دوماً إلى الصالحين نظرة معكوسة ولا يطبقون وجودهم بينهم ، لا لشيء إلا لأنهم لم يشاركوا في إجرامهم ولم ينغمسوا مثلهم في مستنقع الخبث والقذارة .

ولهذا فقد صدر الأمر الإلهي بالفصل بين لوط وأهله وبين قومه المفسدين ، واستثنت

(١) تهذيب اللغة للأزهري (٢٧٤٦/٣) .

(٢) سورة النمل ، آية (٥٦) .

امرأة لوط من أهله ؛ لأنها لم تؤمن به ، وكانت راضية عن جريمة قومها ، وكانت تخبرهم بضيوفه ، وتهدى لهم سبل الفاحشة ، فأصابها ما أصابهم فهلكوا وأصبحوا عبرة لغيرهم .



الفصل الثاني

أدبهم في الدعوة

وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : البلاغ والجدل بالحسنى .

المبحث الثاني : الحرص على الهداية .

المبحث الثالث : الرفق في الأقوال والأفعال .

المبحث الرابع : الشجاعة والجرأة في الحق .

تمهيد

الدعوة إلى الله تعالى ليست نزهة قريبة المنال ، وسلهة المنوال ، بل إنها طريق طويل ، ومسلك وعر ، لا يقطعه إلا عالي الهمة ، قوي الشكيمة ، عظيم العزيمة ، محفوف من بين يديه ومن خلفه بتوفيق الله وفضله ، إنها دعوة تأتي لأناس منغمسين في الرذيلة ، متباعدين عن الفضيلة ، عقائدهم زائفة ، وحياتهم بائرة ، فتأتي إليهم تريد أن تغير ما هم عليه من زيف المعتقد ، ودناءة الخلق ، وبوار الحياة ، وأنى لها ذلك كله ، وقد تأصلت فيهم تلك الخصال ، وأصبحت جزءاً من ذواتهم ، لا تكاد تنفصل عنهم .

إن استئصال ذلك منهم أمر عسير ، إذ تغيير أحوال الكافرين غير يسير ، ولا يصمد لذلك إلا راشد بصير ، ذو عزم كبير ، وقد كان في طليعة أولئك صفوة خلق الله وخيرتهم ، الذين اصطفاهم الله لرسالته ، وحملهم تبليغ شريعته لخليقته ، وأعطاهم من العزم والثبات ، والصبر ، والفظانة ، والبيان ، وسلامة الخلق ، وذكاء الخلق ؛ ما يقدرون به على حمل أعباء الدعوة إلى الله ، وإنقاذ البشرية من الظلام إلى النور ، ومن الرذيلة إلى الفضيلة ، ومن طاعة الشيطان إلى رضوان الرحمن ، ومن دركات النيران إلى درجات الجنان .

أولئك الذين قال الله عنهم مخاطباً نبيه - ﷺ - ؛ ليتأسى بهم : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (١) ، وقال عنهم : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ (٢) ، وقال عنهم - أيضاً - : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ آقْتَدِهِ ﴾ (٣) .

أولئك الذين قص الله علينا من أبناء دعوتهم ما يوجب التأسي بهم فيها ، والسير على منوالهم في مغالبة العوائق واختراق موانع البلاغ ، وحصون الشرك والوثنية والجهالة العتيدة ،

(١) سورة الأحقاف ، آية (٥٣) .

(٢) سورة الأنعام ، آية (٨٩) .

(٣) سورة الأنعام ، آية (٩٠) .

وذلك أن الله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته كما قال - سبحانه - : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (١) ، ففطرهم على توحيده والإيمان به ، وهياهم لذلك ، كما قال - ﷻ - : ﴿ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) فهم مفطورون على العبودية والاعتراف بالربوبية ، ولكن لا سبيل للخلق إلى معرفة الرب - سبحانه - وكيفية عبادته إلا عن طريق المرسلين من عنده - سبحانه - ، يبلغونهم مراد الله تعالى منهم في التوحيد والعبادة والسلوك والمعاملة ، إذ لو لم يفعل ذلك لاقتضتهم فطرهم إلى أن يقرؤا بالألوهية والربوبية لمن ليس كذلك ، ويعدوا من ليس مستحقاً للعبادة اتباعاً لأهوائهم التي تريهم ذلك حسناً ، واقتفاءً للمؤثرات التي تؤثر فيهم الانحراف من آباء ومجتمعات كما لا يخفى أمره ، فتنحرف فطرهم ، وتضل عقائدهم بفعل المضللين من شياطين الإنس والجن ، كما جاء في الحديث : « ما من مولود يولد إلا على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » (٣) ، وفي الحديث القدسي : « إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين » (٤) .

فلهذا كانت حاجة البشر إلى رسل من عند الله تعالى يبلغونهم مراد الله ، أعظم من حاجة البدن إلى روحه ، والعين إلى نورها ، والحياة إلى هوائها وشمسها ، فأى ضرورة وحاجة فرضت ضرورة العبد وحاجته للرسل أكبر كما قال ابن القيم - رحمه الله - في زاد المعاد :

« فلا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل ، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم ، ولا ينال رضا الله إلا

(١) سورة الذاريات ، آية (٥٦) .

(٢) سورة الروم ، آية (٣٠) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي (٩٥/٢) برقم (١٣٥٨) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (١٦٢٤/٤) برقم (٢٦٥٨) .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الجنة ، باب صفات التي عريف بها في الدنيا أهل الجنة والنار (١٧٤١/٤) برقم (٢٨٦٥) .

على أيديهم ، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم ، وما جاؤوا به . . . » (١) .

فلذلك بعث الله تعالى للناس رسلاً مبشرين ومنذرين ؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل يهدونهم إلى الصراط المستقيم ، ويخرجونهم من الظلمات إلى النور ، ويعيدونهم إلى الفطرة السليمة المستقيمة ، التي فطر الله الناس عليها ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطُّغُوتَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ (٢) ، يعني : لم يهتدوا بالرسل ولم ينتفعوا ، بل غلبت عليهم شقوتهم فعاندوهم ، وأصروا على ضلالهم الذي ورثوه ممن أضلهم عن فطرة التوحيد وعبادة الله - ﷻ - ، من آباء وشياطين الإنس والجن ، ومجتمعات الفساد ، وجهلوا وتجاهلوا خالقهم وموجدهم ، لما قد ران على قلوبهم بما كانوا يكسبون من جهالات وضلالات ، وهذا هو سر مشقة دعوة الرسل ، إذ هم مكلفون بتبليغهم مراد الله تعالى منهم ، وبهدايتهم إلى معالم الحق ، وطرق النجاة ، وهم يرون أنهم أتوهم بما لم يأت به آباؤهم الأولون ، وبما لم يألفوه من توحيد الله رب العالمين ، وإفراده بالعبادة فيحاولون أن يصدوهم عن السبيل وعن البلاغ المبين ، مما يحوج رسل الله تعالى إلى مغالبتهم بالحجة والبيان ، والمعجزات والبرهان ؛ ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حي عن بينة ، ولذلك والى تعالى إرسال الرسل ، كلما انقرض رسول بعث رسولاً آخر يقوم بمهمات الدعوة ، كما قال سبحانه : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولًا تَتْرَأُ ﴾ (٣) كُلِّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ (٤) ، وكان كل رسول يقوم بواجب الدعوة إلى الله تعالى كما أمره الله تعالى وأراده منه حتى يؤمنوا به ، أو يهلكهم الله تعالى على كفرهم وعنادهم إذا أصروا عليه .

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٦٨/١) .

(٢) سورة النحل ، آية (٣٦) .

(٣) أي : واحداً بعد واحد ، وأصلها وترٌّ من الوتر وهو الفرد . مختار الصحاح ص (٨٠٧) ، وانظر : تفسير الجلالين ص (٣٤٥) .

(٤) سورة المؤمنون ، آية (٤٤) .

ولقد قص القرآن علينا من نبأ دعوتهم لأقوامهم ما هو معلوم ، ولا ينكر ، وكان يجمع هذه الدعوات صفات الدعوة الناجمة ، من الإخلاص ، والصبر ، والتضحية ، ووضوح البيان .

أما الإخلاص فهو سر نجاح الداعية في دعوته ، وقد كانت رسل الله تعالى في ذروة الإخلاص ، إذ لا حامل لهم على ذلك إلا ابتغاء مرضاة الله ، وتنفيذ أوامره ، وتبليغاً لرسالاته لا غرض لهم في شيء آخر غير ذلك ، بل شعارهم دائماً هو ما حكاه الله عنهم بقوله : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) ، كما قال ذلك نوح وهود وصالح ولوط وشعيب - عليهم الصلاة والسلام - لأقوامهم ، وذكره القرآن على لسانهم ، ولهذا هان عليهم الصبر على المكاره وبذل التضحيات ، وتحمل المشاق التي واجهتهم من أقوامهم ، فصبروا على ما أودوا حتى أتاهم فتح الله تعالى بإيمان من آمن أو إهلاك من أصر على الإباء والعناد ، حتى قتل من قتل من الأنبياء وهم في دعوتهم ماضون ، كما أخبر الله عن أنبياء بني إسرائيل بمثل قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) ، وقوله تعالى عنهم : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (٣) .

وأما وضوح بياهم فإن الله تعالى ما كان يبعث إلى قوم رسولاً إلا بلسانهم ، ومن أبناء جلدتهم ، يعرفون حسبه ونسبه فيهم ، فهو من أفصحهم بياناً ، وأقواهم حجة ، وأكلمهم فطنة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (٤) .

ولذلك كان بياهم إليهم شافياً كافياً قامت عليهم به الحجة ، وانقطعت به اللجاجة ،

(١) سورة الشعراء ، آية (١٠٩) .

(٢) سورة البقرة ، آية (٩١) .

(٣) سورة البقرة ، آية (٦١) .

(٤) سورة إبراهيم ، آية (٤) .

كما شهد الله تعالى بذلك لهم في كتابه بقوله :

﴿ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ
وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ (١) .

وفي هذا الفصل سأستعرض - بعون الله - بعضاً من محاور دعوة وأدب الأنبياء
والرسل - عليهم الصلاة والسلام - لأقوامهم من خلال هذه المباحث الأربعة :

المبحث الأول : البلاغ والجدل .

المبحث الثاني : الحرص على الهداية .

المبحث الثالث : الرفق في الأقوال والأفعال .

المبحث الرابع : الشجاعة والجرأة في الحق والثبات عليه .

فبالله أستعين ، وعليه أتوكل ، وأسأله السداد والتوفيق في القول والعمل .



(١) سورة فاطر ، آية (٢٥) .

المبحث الأول

البلاغ والجدل بالحسن

البلاغ : مصدر بلغ يبلغ : إذا أوصل الأمر منتهاه ؛ لأن البلوغ والبلاغ في اللغة : الانتهاء إلى أقصى المقصد ، والمنتهى : مكاناً أو زماناً أو أمراً من الأمور المقدرة ، فلفظ البلاغ ، والتبليغ يعني إيصال الأمر المراد تبليغه إلى منتهاه (١) ، ومنه قوله تعالى : ﴿ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ ﴾ (٢) ، وقوله سبحانه : ﴿ بَلَّغْ فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٣) .

وإبلاغ الوحي في الشرع : أن يوصل الرسول ما أمره الله تعالى بإيصاله إلى من أرسل إليهم (٤) .

ولهذا فإن مهمة الرسل الأولى التي كلفهم الله تعالى بها إلى الأمم ليخرجوهم من الظلمات إلى النور ، هي التبليغ الذي أوجبه الله تعالى عليهم بمقتضى اصطفتائهم للرسالة التي حملهم إياها ، فيجب عليهم التبليغ ، ويستحيل عليهم الكتمان ، ويجب على المسلمين اعتقاد ذلك فيهم ؛ تصديقاً لشهادة الله تعالى لهم بذلك .

والدليل على وجوب التبليغ عليهم هو النقل والعقل .

أما النقل : فقد صرحت به الآيات الكثيرة التي تحدثت عن بلاغ الأنبياء والمرسلين ، كقوله تعالى : ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴾ (٥) ، أي : ليس عليهم إلا ذلك ، وهذا قصر لواجب الرسالة التي حملوها .

وكقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَيْنَا رِسُولْنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴾

(١) مختار الصحاح ص (٦٣) ، والمفردات للراغب ص (٦٠) .

(٢) سورة إبراهيم ، آية (٥٢) .

(٣) سورة الأحقاف ، آية (٣٥) .

(٤) مختار الصحاح ص (٦٣) ، والمفردات للراغب ص (٦٠) .

(٥) سورة النحل ، آية (٣٥) .

(١) ﴿٩٢﴾ .

وأما العقل : فإنهم لو كتموا شيئاً مما أمروا بتبليغه للخلق لكننا مأمورين بكتمان العلم ؛ لأن الله تعالى أمرنا بالاعتداء بهم ، وكوننا مأمورين بكتمان العلم ، فهذا باطل ، فكتمانهم شيئاً مما أمروا بتبليغه للخلق يكون باطلاً ، فثبت لهم التبليغ ، واستحال عليهم الكتمان ، لشيء مما أمروا بتبليغه ، ويؤيد هذا الدليل العقلي ما أخذه تعالى من العهد على العلماء من بيان العلم وعدم كتمانهم الدالة عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكُتُبِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ﴾ (٢) .

ولقد قام رسل الله - صلوات الله وسلامه عليهم - بواجب ذلك البلاغ أكمل قيام ، حيث بلغوا كل صغيرة وكبيرة ليلاً ونهاراً ، لا يفترون عن ذلك ولا يملون ، حتى قامت الحجة على أقوامهم ، فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة .

وقد كانوا ينالون من جراء ذلك الشدة الشديدة ، والأذى البليغ ؛ وذلك لما هم عليه من الرحمة بأمتهم والشفقة بهم ؛ لعلمهم بما سيحقيق بهم من العذاب إن أعرضوا عن قبول ما بلغوه عن الله تعالى - ﷻ - ، فكان كل واحد يبذل جهده ، ويتفانى في إقناع قومه بقبول ما أمر بتبليغه إليهم ، ويتلطف لهم بالخطاب ليقبلوا ما جاؤوا به من عند الله تعالى ، مع أدب معاشرة ، وحسن أخلاق ، ورحمة بالمبلغين ، فكانوا غير مقتصرين على مجرد البلاغ الواجب عليهم فقط .

بل إنهم كانوا يتفانون في النصيحة لأقوامهم بقوله ، فيجادلونهم ويحاورونهم بالتي هي أحسن حتى يقبلوا أو يئأسوا من ذلك ، فعندئذ لا يسعهم إلا أن يقولوا : ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴾ (٣) ، مع أسفهم على أقوامهم لما لم يقبلوا البلاغ والنصح منهم ، مما

(١) سورة المائدة ، آية (٩٢) .

(٢) سورة البقرة ، آية (١٥٩) .

(٣) سورة يس ، آية (١٧) .

يدل على عظيم رأفتهم بأقوامهم ، وحنانهم عليهم ، فبلغوا جاهدين ، ولكنهم بعدئذ لم يسعهم إلا التسليم بما قضاه عليهم من النكال لما لم يقبلوا شرعه ، ويتبعوا رسله ، وما كان عليهم شيء لو أنهم اكتفوا بإبلاغ رسالات الله تعالى من غير بذل جهد في الجدل ، والحوار والنصيحة ، فإن ذلك هو ما افترضه الله عليهم لا غير ، كما قال تعالى : ﴿ فَهَلْ عَلَيَّ

الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴾ (١) .

ولكنهم - عليهم الصلاة والسلام - ذوو رحمة ورأفة ، لا يبالون بالتضحية إذا علموا أن فيها نفعاً للأمة كلاً أو بعضاً ، بل حتى في جدالهم مع هؤلاء المخالفين كانوا يجادلونهم بالتي هي أحسن من الرفق واللين ، وذلك لما فيه هذا الأسلوب من تسكين لهبهم ، وتبيين شغبهم ، ثم إفحامهم بالحجة الدامغة والبرهان الساطع الذي لا يبقى لهم مفرّاً من التسليم والإذعان ، إن لم يكن عن إيمان فللعجز عن مقاومة الحجة ومكابرة الحق .

ولهذا فإن الدعوة إلى الله تعالى ليست نزهة قريبة المنال ، وسهلة النوال ، بل إنها طريق طويل ، ومسلك وعر ، لا يقطعه إلا عالي الهمة ، قوي العزيمة ، محفوف من بين يديه ومن خلفه بتوفيق من الله وفضله ، خصوصاً أنها دعوة تأتي لأناس منغمسين في الرذيلة ، متباعدين عن الفضيلة ، عقائدهم زائفة ، وحياتهم باترة .

وقد حكى الله تعالى في كتابه مواقف من بلاغ أنبيائه - عليهم السلام - لأقوامهم ، ومجادلتهم بالتي هي أحسن والتلطف في الخطاب ؛ ليقبلوا ما جاءوا به من عند الله تعالى .

بلاغ نوح - عليه السلام - لقومه :

فمن ذلك ما حكاه الله عن نبيه نوح - عليه السلام - من دعوته لقومه وبلاغه الدعوة لهم بكل الطرق وشتى الوسائل ، ويكفي أنه دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً لم ييأس فيها ، ولم يقنط ، ولم يلين عزمه ، أو تضعف شكيمته - عليه السلام - .

(١) سورة النحل ، آية (٣٥) .

﴿ وَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ۖ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ ﴾ (١) ، وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم ، ومع هذه المدة الطويلة لم يؤمن معه إلا القليل ، كما ذكر الله تعالى ذلك في قوله : ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (٢) .

قال أبو إسحاق الثعالبي :

« ولم يبالغ أحد من الرسل في الدعوة مثل ما بالغ - يعني نوحًا عليه السلام - ، وكان يدعو قومه ليلاً ونهاراً ، وإعلاناً وإسراراً ، ولم يلق نبي من أمته من الضرب والشتم وأنواع الأذى والجفاء ما لقي ، فلذلك قال الله تعالى : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴾ (٣) « (٤) .

وقد ذكر الله سبحانه بيان تبليغ نوح لقومه وقصة مجادلته له في أيما موضع من القرآن ، فمن ذلك : ما حكاه في سورة الأعراف بقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ۖ فَقَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ ۖ إِنَّا لَنَرُكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَتَقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ ﴿ (٥) .

ففي هذه الآيات يتضح له بجلاء حرص نبي الله - عليه السلام - على دعوة قومه وهدايتهم ، بل وخوفه عليهم من العذاب الأليم ، ولهذا قال لهم : إني أدعوكم لعبادة الله ،

(١) سورة العنكبوت ، آية (١٤) .

(٢) سورة هود ، آية (٤٠) .

(٣) سورة الذاريات ، آية (٤٦) .

(٤) العرائس ص (٧٠) .

(٥) سورة الأعراف ، آية (٥٩ - ٦٣) .

مبين لكم طريق النجاة ، فاعبدوا الله ولا تشرکوا به شيئاً ؛ لأنني أخاف عليكم إن عبدتم غير الله تعالى أن يأخذكم الله بعذاب من عنده ، ولهذا رد عليه الملائة والسادة والكبراء من قومه بالضلالة ، ونالوا منه ، وبالغوا في أمرهم من العصيان والتعدي ، ومع ذلك فما زال يجادلهم بالتي هي أحسن ، ويتلطف لهم بأحسن العبارات صابراً محتسباً ، فلم يرد عليهم بنفس المبدأ ، ويرد التهمة بالتهمة نفسها أو بغيرها ، بل لم يزد على أن نفى هذه الضلالة في حسن أدب وحوار عن نفسه ، فقال : لست كما تزعمون من أي ضال ، بل على الهدى المستقيم ، رسول من رب العالمين ، مهمتي ورسالتي في هذه الحياة أن أبلغكم هذه الدعوة تبليغاً صادقاً ناصحاً فيه ، طالباً لكم ما عند الهل من الثواب ، وراجياً لكم ما عنده من النعيم ، خائفاً عليكم من عذابه ، فأنا أعلم به منكم .

إن نوحاً - عليهما السلام - وهو من أولي العزم من الرسل ، الذين كانوا أكثر الرسل صبراً وتضحية وبلاءً وامتحاناً ، كان نوحاً - عليهما السلام - صابراً في الدعوة ، ما ترك ذنباً لأمتة إلا وحذرهم منه ، ولا طاعة أو واجباً أو ثواباً إلا ورغبهم فيه ، حتى إنه أنذر قومه من فتنة الدجال ، كما أخرج البخاري من حديث أبي هريرة - روي عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « ألا أحدثكم حديثاً عن الدجال ما حدث به نبي قومه : إنه أعور ، وإنه يجيء معه بمثال الجنة والنار ، فالتى يقول إنها الجنة هي النار ، وإني أنذرتكم كما أنذر نوح قومه » (١) .

لقد قام نوح - عليهما السلام - بواجبه في دعوة قومه إلى عبادة الله وحده ، وبلغهم الدعوة كما أمره الله ، وواصل هذا الطريق وكابد في سبيل هذه الدعوة ما كابد ، من غير توانٍ ولا تكاسل ، مواصلاً تنفيذ شبهات قومه ومجادلتهم بالتي هي أحسن .

يقول تعالى : ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرُكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرُكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلِ بَلْ ﴾

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأنبياء ، باب قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾ (١٣٤/٤) برقم (٣٣٣٨) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب التن ، باب ذكر الدجال وصفته وما معه (١٧٨٢/٤) برقم (٢٩٣٦) .

نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَنِي رَحْمَةً مِّن عِنْدِهِ فَعَمِيتَ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْنَاكُمْ مَوْهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبَّهُمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴿١﴾ .

ولك أن تنظر هنا كيف أن الملائم من قوم نوح كانوا شديدي العناد والمكابرة ، أصحاب كبرو غطرسة وتعالي على الناس ، وهكذا هم أعداء الدين والأنبياء ، كما ذكر الله عنهم ، وكشف حقيقتهم بقوله : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿٢﴾ .

ومع ذلك لم تزد هذه المكابرة والغطرسة والتعالي نبي الله نوحًا - عليهما السلام - إلا صبرًا وتأنياً وحسن تأت في الجدل والدعوة إلى الله على بصيرة وهدى ، فذهب يفتد شبهاتهم التي أثاروها ضده وهي : أنه بشر مثلهم ، وليس رسولاً من عند الله ، والذين اتبعوه وآمنوا به هم أراذل سفهاء مستضعفون ، وهؤلاء الأراذل في رأيهم سدج بلهاء ، لا يفكرون ولا يعلمون عقولهم ، ويتبعون الرأي الذي يبدد ويظهر ، بدون ترو ولا نظر ولا تفكير ، ولذلك فهم يرون أن نوحًا - عليهما السلام - قد استغفلهم وضحك عليهم .

وأيضاً فلا فضل لنوح وأتباعه على القوم ، وما قدموا لهم خيراً أو شيئاً يميزهم عنهم بميزة .

ولهذا فنتيجة لما سبق فإن نوحًا وأتباعه كاذبون في نظرهم ، وقانونهم : ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ ﴿٧﴾ .

ولهذا فقد رد عليهم نوح بيان أنه رسول من عند الله ، وهو على يقين تام وبينه قاطعة بذلك ، ثم إن الله قد أعطاه رحمة من عنده وهي رحمة النبوة والرسالة ، والهداية

(١) سورة هود ، آية (٢٧ - ٢٩) .

(٢) سورة النمل ، آية (١٤) .

واليقين ، ونحن نعلم أن من أعظم نعم الله على عباده إرسال الرسل إليهم هدايتهم ، ودلاتهم على طريق الخير والرشاد ، كما قال تعالى حكاية عن نبيه محمد - ﷺ - : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

كما أن النبوة أيضاً رحمة ونعمة لمن سبغت عليه واصطفاه الله لها ، كما قال حكاية عن موسى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ (٢) .

فنوح - عليه السلام - بين لقومه أن هذه النبوة والرسالة رحمة من الله لي ولكم ، وقد عميت عليكم هذه الرحمة وحجبت عنكم ، حجبتكم عن الاهتداء إليها جهلكم وغروركم بأموالكم وجاهكم ، فهل يصح أن أكرهكم على اعتناقها وأنتم لها كارهون ؟

لهذا فأنا لا أطلب منكم على هدايتي لكم مالا ولا جاهاً ، وإنما أجري على الله وحده ، هو نعم المولى ونعم النصير .

ثم بين لهؤلاء الملاء الذين استكبروا من قومه أن أتباعه المؤمنين ذوو منزلة عالية عند الله ، ولقد علم الله ما في نفوسهم من صفاء ونقاء ، فهداهم للحق ووعدهم الخير والثواب والنعيم ، ولا يضيرهم عند الله أن تزديهم أعين الملاء الكفار ، أو أن يعتبروهم أراذل بادئ الرأي .

قال ابن كثير :

« وهذا الذي رموهم به - أي : استجابتهم لني الله نوح من أول الأمر - هو عين ما مدحوا بسببه - ﷺ - ، فإن الحق الظاهر لا يحتاج إلى روية ولا فكر ولا نظر ، بل يجب اتباعه والانقياد له متى ظهر ، ولهذا قال رسول الله - ﷺ - مادحاً الصديق : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر ، فإنه لم يتلعثم » ، ولهذا كانت بيعته يوم السقيفة أيضاً شريعة من غير نظر ولا روية ؛ لأن أفضليته على من عداه ظاهرة جلية عند

(١) سورة الأنبياء ، آية (١٠٧) .

(٢) سورة مريم ، آية (٥٣) .

الصحابة - ﷺ - « (١) .

وهكذا يمضي نوح - ﷺ - في تبليغ دعوة ربه التي أرسله بها إلى قومه متبعاً كل ما في وسعه من أساليب الدعوة وطرقها وشتى وسائلها ، متخذاً في ذلك أسلوب المجادلة والتي هي أحسن ، والإقناع بالحجة والدليل بنور من الله وبصيرة ، حتى وصل الحال بقومه الذين أعياهم نوح - ﷺ - بإصراره على هذه الدعوة أن سئموا من إقامة الحجج والبراهين عليهم ، فلم يجدوا مناصاً إلا أن قالوا لنوح - ﷺ - : ﴿ يَنْوَحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَتْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٢) .

وهنا اعتراف منهم بأن جادلهم ، وأكثر جدالهم ، وأنه أفحهم وأقام عليهم الحجة ، ومع ذلك فلم يستجيبوا له ، ولم يتبعوه ، بل أصروا على كفرهم وتكذيبهم ، وطلبوا منه أن يوقع بهم العذاب الذي يعدهم به ، ويرهبهم منه ، وهذا مبلغ الحمق بالقوم ومنتهاه عندما صاروا يستعجلون عذاب الله الذي يحدثهم عنه نبيهم ، بل ويسخرون من نوح وهو يصنع السفينة قائلين له : قد كنت نبياً فأصبحت نجاراً ، ومبعث هذه السخرية وذاك استعجال اعتقادهم أن نوحاً ليس صادقاً ، ولن يجلب بهم عذاب أو هلاك .

ولهذا عندما أعوزتهم الحجة التي يردون بها على منطلق نوح - ﷺ - وأدلتها الواضحة ، ذهبوا يهددونه بالقتل والرجم .

﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْوَحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ (٣) .

وهذه حيلة العاجز ، ومنتهى فعله عندما يعجز عن مجارة الحجة بقوة الحجة وسلامة المنهج والمنطق ، يلجأ إلى القوة وفرض الرأي بالاستبداد ومصادرة رأي من يخالفه ، بل ومعاقبته والتنكيل به ، وهذه صفة الطغاة الظالمين ، ولهذا فقد كانت الدائرة على قوم نوح ونصر الله نبيه وأغرقهم بالطوفان ، وأحل عليهم عذاب مقيم ، ونجى الله نوحاً ومن معه في

(١) قصص الأنبياء ص (٧٨) .

(٢) سورة هود ، آية (٣٢) .

(٣) سورة الشعراء ، آية (١١٦) .

الفلك المشحون ، وكان حقاً عليه - ﷺ - ينجي المؤمنين .



بلاغ هود - عليه السلام - لقومه :

ثم جاء من بعد نوح هود - عليه السلام - ، وأكمل مسيرة الدعوة إلى الله والبلاغ الإلهي إلى أهل الأرض ، فأرسله الله تعالى إلى قوم عاد ، وقد كانوا جفاة كافرين ، عتاة متمردين ، فلما جاءهم نبي الله هود - عليه السلام - يدعوهم إلى عبادة الله وحده وترغيبهم في طاعته واستغفاره ، ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة ، قاموا عليه ، وتوعدوه ، وهددوه ، ومع ذلك فقد كان نبي الله هود في غاية الأدب والإغضاء ، وغاية في النصح والشفقة عليهم والحرص على هدايتهم ، مع عدم طلب الأجر أو الثواب منهم ، بل كان مخلصاً في دعوته ، ناصحاً بخلق ، لا يطلب أجراً إلا من الله - ﷻ - .

فبدأ بدعوته لهم وتنفيذ أمر الله له بإبلاغ قومه وإنذارهم : ﴿ وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ التُّنُورُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) .

ومن مستلزمات البلاغ أن يكون الأداء بعبارة فصيحة ، وجملة وجيزة ، جامعة مانعة ، لا يشوبها لبس ، ولا اضطراب ، وهكذا كان الشأن في ذلك النبي الكريم ، فبدأ بدعوتهم أولاً إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونبذ ما سواه من الآلهة ، مبيناً لهم بأسلوب المشفق خوفه عليهم من عذاب كعذاب قوم نوح .

ولهذا عندما قال له الملائكة والسادة من قومه : ﴿ إِنَّا لَنَرُكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٢) في أسلوب تجبر وتغطرس وازدراء ومكابرة للحق جابه ذلك بأحسن

(١) سورة الأحقاف ، آية (٢١) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (٦٦) .

خلق ، وأهدأ بال ، وأرقى خطاب مع تواضع وعدم انتصار للنفس : ﴿ قَالَ يَقَوْمَ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أبلغكم رسالتِ ربِّي وأنا لكم ناصحٌ أمينٌ ﴿٦٨﴾ (١) .

قال ابن كثير :

« والبلاغ يستلزم عدم الكذب في أصل المبلغ وعدم الزيادة فيه والنقص منه ، ويستلزم أدائه بعبارة فصيحة ، وجيزة ، جامعة مانعة ، لا لبس فيها ولا اختلاف ، ولا اضطراب ، وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة في غاية النصح لقومه والشفقة عليهم ، والحرص على هدايتهم » (٢) .

ويتابع هود مخاطبة قومه محاولاً إقناعهم بالرجوع إلى طريق الحق ، مذكراً إياهم بنعم الله عليهم قائلاً لهم : هل أثار إعجابكم واستغرابكم أن يجيئكم إرشاد من ربكم على لسان رجل منكم لينذركم سوء العاقبة بسبب الضلال الذي أنتم فيه .

﴿ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴿٣﴾ .

يقول الشنقيطي - رحمته - :

« أنكر الله تعالى في هذه السورة الكريمة على قوم نوح وقوم هود عجبهم من إرسال رجل ، وبين في مواضع أخرى أن جميع الأمم عجبوا من ذلك . قال في عجب قوم نينا - عليه السلام - من ذلك : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ ﴾ (٤) ، وقــال : ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ

(١) سورة الأعراف ، آية (٦٧ - ٦٨) .

(٢) قصص الأنبياء ، آية (١٠٥) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (٦٩) .

(٤) أضواء البيان (٣٨١/٢) .

منه ^{سورة} ﴿١﴾ .

وصرح بأن هذا العجب من إرسال بشر مانع للناس من الإيمان بقوله : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ ﴿٢﴾ ، ورد عليهم ذلك في آيات كثيرة كقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾ ﴿٣﴾ ، ثم يذكرهم هود - ^{عليه السلام} - بواقع استخلافهم في الأرض بعد قوم نوح - ^{عليه السلام} - ويعطائهم قوة في الأجسام وضخامة في الطول ، مكنتهم من السلطان والسيطرة بقوله : ﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصَلَةً ۗ فَأَذْكُرُوا لَآئِلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ﴿٤﴾ .

« أي : واذكروا فضل الله عليكم ونعمه إذ جعلكم خلفاء الأرض من بعد قوم نوح ، وزادكم في المخلوقات بسطة وسعة في الملك والحضارة ، أو زادكم بسطة في خلق أبدانكم ، إذ كانوا طوال الأجسام ، أقوياء الأبدان ، فاذكروا نعم الله واشكروها له لعلكم تفوزون بما أعده للشاكرين من إدامتها عليكم وزيادتها لكم » ﴿٥﴾ .

والمراد بالتذكر هنا الأثر النفسي والسلوكي الذي يحدثه التذكر من المعرفة بالله ونعمه ، فمن الناس من تكون عنده المعرفة والنعم في غياهب النسيان ، فيسأل عن إهماله وتقصيره بالشكر ويؤاخذ عليه ، ومنهم من يحافظ على المعرفة بنعم الله وتذكرها ، فتكون موجهة لسلوكه من اعتقاد أو عمل ، ولهذا جاءت الحكمة من التنبيه في القرآن على قضية التذكر ؛ لأنه يثير دوافع النفوس ، ويحرك مطالبها ورغائبها ، وقد وصف الله القرآن بأنه ذو

(١) سورة ق ، آية (٢) .

(٢) سورة الإسراء ، آية (٩٤) .

(٣) سورة الأنبياء ، آية (٧) .

(٤) سورة الأعراف ، آية (٦٩) .

(٥) تفسير المنار (٤٩٨/٨) .

الذكر ، وهذه الصفة ملازمة له ، كقوله تعالى : ﴿ وَالْقُرَّانِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ (١) ،
وقوله : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرَّانِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (٢) .

إن هودًا - عليهما السلام - يدعو قومه للتذكر بأنهم من سلالة القوم الذين آمنوا بنوح
- عليهما السلام - ، وأنجاهم الله بالفلك المشحون من الطوفان الذي أهلك من كذب بآيات الله
وكفر بها ، محذراً إياهم من البطر والغرور بأجسامهم الذين يذكروهم نبيهم أيضاً بنعمة البسطة
في الخلق ﴿ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصِطَةً ﴾ (٣) ، وقوله : بصطة : مرادف بسطة ،
الذي هو بالسين ، والبصطة : الزيادة (٤) .

ثم يزيد في التذكير بقوله : ﴿ فَادِّكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ ﴾ والآلاء : جمع إلى ، أي :
النعم (٥) ، ورتب على ذكرهم نعم الله ؛ رجاء أن يفلحوا بذكرها بقوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ
تُقَلِّحُونَ ﴾ (٦) .

وحين تنظر إلى خطاب نبي الله هود - عليهما السلام - وما يتضمنه من ألفاظ فيها استمالة
للقلوب ، وترغيباً لقبول دعوة الحق ، يتضح لك حسن هذا الخطاب وحسن التأني فيه ،
فهو ينادي بـ ﴿ يَاقَوْمِ ﴾ مع إشعارهم بخوفه عليهم ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ ورجاء
الفلاح لهم والنجاة من النار ومن عذاب الله عند تذكيرهم بما يبعث في نفوسهم مكامن
الإذعان والخضوع لله ، والخوف منه ﴿ لَعَلَّكُمْ تُقَلِّحُونَ ﴾ (٦) ، فماذا كان ردهم؟!

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ (٦) .

(١) سورة ص ، آية (١) .

(٢) سورة ق ، آية (٤٥) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (٦٩) .

(٤) تهذيب اللغة للأزهري (١/٣٣٤) .

(٥) المصدر السابق (١/١٧٩) .

(٦) سورة الأعراف ، آية (٧٠) .

وكأنما كان يدعوهم لأمر منكر لا يطيقون الاستماع إليه ولا يصبرون على النظر فيه .

وهكذا أمام مواجهة الحق يلجأون إلى الفرار من التدبر والتفكر بقولهم : ﴿ فَاتَّنا بِما تَعِدُّنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (١) ، استخفافاً منهم بالعذاب ، وتحدياً لنبیهم إِنْ كان صادقاً في وعيده وإنذاره .

وفي موطن آخر يقولون : ﴿ ما جِئنا بِبِئنةٍ وما نَحْنُ بِتارِكِ ءالِهتنا عَنْ قَوْلِكَ ﴾ (٢) ، وفي قولهم : ﴿ بِبِئنةٍ ﴾ أي : بمعجزة حسية .

يقول الزمخشري :

« كذب منهم وجحود ، كما قالت قريش لرسول الله - ﷺ - : ﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ (٣) ، مع فوت آياته الحصر » (٤) .

فهم هنا قد تغافلوا عن الآيات التي ذكرهم بها هود - عليه السلام - من وفرة في الأرزاق ، وخصوبة البلاد ، وكثرة النعم فيها ، وهذه من الآيات لو تدبروا فيها وتمعنوا وتفكروا ﴿ أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ (٥) إن في ذلك لآية ﴿ (٥) ، وكذلك وفرة في الأنعام والأولاد ، ووفرة في القوة والطول ، وزيادة على هذا التكذيب قالوا : ﴿ وما نحن بتاركِ ءالِهتنا عَنْ قَوْلِكَ ﴾ (٦) ، وأصروا على العناد والاستكبار بعد الجحود والنكران وعدم التصديق بقولهم : ﴿ وما نحن

(١) سورة الأعراف ، آية (٧٠) .

(٢) سورة هود ، آية (٥٣) .

(٣) سورة يونس ، آية (٢٠) .

(٤) الكشف ص (٤٨٧) .

(٥) سورة الشعراء ، آية (٧ - ٨) .

(٦) سورة هود ، آية (٥٣) .

لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ (١) .

قال ابن كثير : « أي : بمصدقين » (٢) .

وهكذا يتضح لك - أخي القارئ - مدى ما كان يعانيه هود - عليه السلام - مع قوم مستكبرين معاندين ، قد أصروا على الكفر والضلال ، على الرغم من مناصحته لهم ، وإبلاغه إياهم بكل ما يستطيع من وسائل البلاغ والجدال بالحسنى ، وطرق سبل الدعوة إلى الله على بصيرة وهدى منه - ﷻ - ، فلم يستجيبوا فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، وما كان ربك بظلام للعبيد .



بلاغ صالح - عليه السلام - لقومه ثمود :

وانظر إلى نبي الله صالح - عليه السلام - وبلاغه لقومه وجداله لهم ، وقيامه بأمر الدعوة إلى الله ، والصبر على أذى قومه بأقوالهم وأفعالهم .

وتبدأ قصتهم بقوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴾ (٣) ، وهنا يشير إليهم بالقبيلة ؛ لأنه يخاطب مجتمعاً قليلاً ، لعلمهم يعرفون هذه القبيلة أكثر من معرفتهم لنيبيها ، لذلك لم يصرح به وصرح بما كذبوا به من النذر ، والنذر تخويف ، وهذا دليل على تبليغ نبي الله صالح - عليه السلام - لقومه هذه النذر ، وهذه الدعوة ، وهذه الرسالة ، لهذا قالوا : ﴿ أَبَشْرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ ﴾ (٤) فهم يرون أنفسهم خيراً منه ، فكذبوه لكونه بشراً ، وهم يزعمون أن الله لم يوح إليه ، وهو مثلهم يشاركونهم في البشرية فقاسوه على أنفسهم ، ثم هو واحد وهم جمع ، والجمع لم يوح إليه ، فأحرى ألا يوح للواحد ، لذلك

(١) سورة هود ، آية (٥٣) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤ / ٣٢٩) .

(٣) سورة القمر ، آية (٢٣) .

(٤) سورة القمر ، آية (٢٤) .

كان تكذيبهم له بسبب أنه بشر وأنه واحد ، لذلك أصدروا الحكم وقالوا : ﴿ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَّلٍ وَسُعْرٍ ﴾ (١) ، أي : إنا إذا اتبعنا بشراً واحداً سنكون في ابتعاد عن طريق الحق ، واتجاه إلى طريق الجنون ، أشار إليه بقوله : ﴿ وَسُعْرٍ ﴾ ، والسعر : جمع سعير ، وهو الجنون ، ويقال : ناقة مجنونة (٢) .

وقد قدمت أنهم عرب جاءوا بعد عاد ، ومع ذلك فإنهم لم يعتبروا بما كان من أمرهم ، لهذا قال لهم نبيهم صالح - عليه السلام - : ﴿ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةٌ لِلَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوْهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ الْيَمِّ ﴾ (٣) ، فدعاهم بدعوة الأنبياء قبله وبعده ، وهي قوله تعالى : ﴿ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ ثم ذكرهم بالمعجزة والآية البينة التي أجراها الله - عز وجل - على يده .

قال ابن كثير :

« وقد ذكر المفسرون أن ثموداً اجتمعوا يوماً في ناديهم فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم إلى الله ، وذكرهم وحذرهم ، ووعظهم وأمرهم فقالوا له : إن أخرجت لنا من هذه الصخرة ، وأشاروا إلى صخرة هناك ، ناقة من صفتها كيت وكيت ، وذكروا أوصافاً سموها ونعتوها ، وتعنتوا فيها ، وأن تكون عشراء طويلة ، فقال لهم نبيهم صالح - عليه السلام - : أرأيتم إن أحببتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم أتؤمنون بما جئتمكم به وتصدقوني فيما أرسلت به ؟ قالوا : نعم ، فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك ، ثم قام إلى مصلاه فصلى لله - عز وجل - ما قدر له أن يصلي ، ثم دعا ربه - عز وجل - أن يجيبهم إلى ما طلبوا ، فأمر الله - عز وجل - تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه المطلوب الذي طلبوا ، أو على الصفة التي نعتوا .

(١) سورة القمر ، آية (٢٤) .

(٢) تهذيب اللغة للأزهري (١٦٩٢/٢) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (٧٣) .

فلما عاينوها كذلك رأوا أمراً عظيماً ، ومنظراً هائلاً ، وقدرة باهرة ، ودليلاً قاطعاً ، وبرهاناً ساطعاً ، فأمن كثير منهم ، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم ، ولهذا قال : ﴿ فَظَلَّمُوا بِهَا ﴾ (١) أي جحدوا بها ولم يتبعوا الحق بسببها ، أي أكثرهم « (٢) .

« ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ هذا بيان مستأنف للبينة ، أضافها إلى اسمه الكريم تعظيماً لشأنها ، وقيل : لأنه خلقها على خلاف سننه في خلق الإبل وصفاتها ، وقيل : لأنه لم يكن لها مالك « (٣) .

ثم ذكرهم بنعم الله عليهم ، وكيف أن الواجب عليهم إزاء هذه النعم الشكر وإفراده بالعبادة ، فقال - عليه السلام - : ﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا الْآءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (٤) .

قال القاسمي :

« قال الشهاب : لم يقل خلفاء عاد ، إشارة إلى بينهما زمناً طويلاً ﴿ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : أنزلكم في أرض الحجر ، والمباعدة : المنزل . ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا ﴾ أي : تبنيون في سهولها قصوراً لتسكنوها أيام الصيف . ﴿ وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾ أي : لتسكنوها أيام الشتاء « (٥) .

لقد قام صالح - عليه السلام - بدعوة قومه وبلغهم رسالة الله ، وأقام عليهم الحججة ، وأظهر لهم المعجزة الواضحة ، ومع ذلك فقد رد عليه قومه دعوته ، وأثاروا ضده الشبهات

(١) سورة الإسراء ، آية (٥٩) .

(٢) قصص القرآن ص (١١٧) .

(٣) تفسير المنار (٥٠٢/٨) ، دار المعرفة للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية بالأوفست .

(٤) سورة الأعراف ، آية (٧٤) .

(٥) محاسن التأويل (٥٩١/٧) .

ووجهوا له الاتهامات ، وقام هو بإبطال شبهاتهم ، بل قدم نفسه لهم باعتباره رسولا أميناً لهم ، يأمرهم بطاعته ، وحثهم على تقوى الله .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ (١) .

وأخبرهم بعدم انتظاره الأجر منهم ، وإنما يقوم بواجبه في دعوتهم إلى الله ، وأما الأجر فهو عند الله : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿١٤٥﴾ (٢) .

وذهب يدعوهم إلى التفكير في آيات الله ، وإعمال داعي الفطرة والاستغفار والتوبة إلى الله ، وقال لهم : ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ﴾ (٣) ، وهو مع دعوته لقومه وأمرهم لهم بتقوى الله وطاعته وطاعة صالح نفسه باعتباره رسولا لهم ، فقد نهاهم عن طاعة المسرفين المفسدين الظالمين من كبرائهم وساداتهم : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ ﴿١٥٢﴾ (٤) .

فهذا خلاصة بلاغ صالح - عليه السلام - لقومه ودعوته لهم ، ومجادلته لهم ، فماذا كان ردهم عليه؟! .

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴾ ﴿١٥٣﴾ (٥) .

(١) سورة الشعراء ، آية (١٤١ - ١٤٤) .

(٢) سورة الشعراء ، آية (١٤٥) .

(٣) سورة هود ، آية (٦١) .

(٤) سورة الشعراء ، آية (١٥٠ - ١٥٢) .

(٥) سورة الشعراء ، آية (١٥٣) .

اتهموه بأنه من المسحرين ، فما معنى : ﴿ الْمَسْحَرِينَ ﴾ !؟

قال ابن فارس عن معنى السحر :

« السحر يطلق على أصول ثلاثة متباينة :

الأول : السَّحْرُ : وهو ما لصق بالخلقوم والمريء من أعلى البطن .

والثاني : السَّحْرُ : وهو إخراج الباطل في صور الحق ؛ للخداع .

والثالث : السَّحَرُ : وهو الزمان الذي يكون قبل الصبح » (١) .

قال الراغب :

« قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحَرِينَ ﴾ (٢) قيل : أنت ممن جعل له

(سَحْر) تنيبها إلى أنه محتاج إلى الغذاء ، وهذا كقوله : ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ (٣) ، ونبهوا إلى أنه بشر في قولهم له : ﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ (٤) .

وقيل : معناه : أنت ممن جعل له (سِحْر) يتوصل بلطفه ودقته إلى ما يأتي به ويدعيه » (٥) .

وهذه التهمة التي رموا بها نبيهم صالحاً - عليهما السلام - قادتهم إلى تهمة أخرى بأنه كذاب

في قوله تعالى : ﴿ أَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ ﴾ (٦) .

(١) مقاييس اللغة (١٣٨/٣) .

(٢) سورة الشعراء ، آية (١٥٣) .

(٣) سورة الفرقان ، آية (٧) .

(٤) سورة الشعراء ، آية (١٥٤) .

(٥) المفردات ص (٤٠١) .

(٦) سورة القمر ، آية (٢٥) .

قال السمين الحلبي في معنى : ﴿ أَشْرٌ ﴾ :

« الأشر هو : الفرح المتكبر ، وقيل : الأشر هو : اللجوج في الكذب » (١) .

وانظر كيف رموه بالتهمة تلو الأخرى مع علمهم بصدقه ورجاحة عقله بينهم قبل أن يدعوه إلى التوحيد ونبذ الشرك .

لقد شبَّ صالح - عليهما السلام - في قومه ونشأ فيهم ، ورأوا صفاته الطيبة ، وعرفوه عن يقين ، وكان معقد آمالهم ومحط رجائهم ، وكانوا ينتظرون منه الكثير لهم ، وظنوا أنه سيتابعهم على كفرهم ويشاركهم شركهم بالله ، لذلك جعلوه مرجوًّا فيهم : ﴿ قَالُوا يَصْلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ﴾ (٢) ، لكنهم فوجئوا بنبوته ودعوته إلى التوحيد ، فغيروا رأيهم فيه ، ورأوا أنه قد خيب آمالهم وأخلف ظنهم .

وهذه نظرة جاهلية منهم ، وإلا فإن صالحاً - عليهما السلام - بعد النبوة وبعد أن أرسله الله إليهم هو المنقذ لهم ، والأصل أن يكون محط رجائهم بعدها ؛ لأنه يخرجهم بإذن الله من الظلمات إلى النور ، ومن الشقاء إلى السعادة ، ومن النار إلى الجنة .

ولهذا لما أخبروه بخيبة رجائهم فيه ، وصارحوه بالشك والريبة فيه في قولهم : ﴿ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ (٣) ، رد عليهم صالح - عليهما السلام - بقوله : ﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ (٤) .

لقد أوضح لهم صالح - عليهما السلام - في هذا الرد حقيقة الأمر ، فهو على بينة من ربه ،

(١) عمدة الحفاظ ص (١٠٢) .

(٢) سورة هود ، آية (٦٢) .

(٣) سورة هود ، آية (٦٢) .

(٤) سورة هود ، آية (٦٣) .

وعنده اليقين الكامل ، والقناعة التامة أنه على الحق ، وأنهم على الباطل ، وأن الله أعطاه الآية البينة على ذلك ، ومن عليه برحمة النبوة والوحي ، فكيف يخالف تلك البينة ؟ وكيف يتخلى عن تلك القناعة ؟ وكيف يرد تلك الرحمة ؟ ولماذا يفعل ذلك ؟

هل من أجل أن يلتقي مع قومه ويهادهم وهو يوقن أنهم على ضلال ، وأنه على هدى ، هل يطيعهم ويعصي الله ؟ لو فعل ذلك لكان خاسراً غير رابح ، ولو استجاب لهم ورضي بباطلهم فلن يزيدوه إلا خسارة وضللاً وحسرة وندامة .

ولهذا فلم يكتف قوم صالح الكافرون بما قالوا له ، وبما رد عليهم به ، بل واصلوا عنادهم وتجبرهم ومجادلتهم لنبيهم صالح - عليهما السلام - واتباعه من المؤمنين المستضعفين بهدف تشكيكهم فيما اختاروه ، ولكن أولئك الفئة المؤمنة كانت على يقين من الله وبينه ووضوح .

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ؕ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ ءَمُومُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنَّا بِهِ ءَكْفُرُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ (١) .

وهكذا تكون المواجهة دائماً بين أصحاب الحق والباطل ، في كل زمان ومكان ، وهكذا يتمتع أصحاب الحق بالعلم اليقين والقناعة بما هم عليه الرضى به والثبات عليه ، فيرد عليهم أصحاب الباطل بالإصرار على رفض الحق والكفر به عناداً واستكباراً ، وينتج عن ذلك المفاصلة بين الطريقتين ، والافتراق بين الفريقين ، بدون تميع أرجحة أو مداهنة .

يقول القاسمي :

« عدلوا عن الجواب الموافق لسؤالهم بأن يقول : (نعم) أو (إنه مرسل منه تعالى) مسارعة إلى تحقيق الحق ، وإظهار ما لهم من إيمان ثابت مستمر ، الذي تنبئ عنه الجملة الاسمية ، وتنبئها على أمر إرساله من الظهور بحيث لا ينبغي أن يسأل عنه ، وإنما الحقيقي

(١) سورة الأعراف ، آية (٧٥ - ٧٦) .

بالسؤال عنه هو الإيمان به ، فهذا من الأسلوب الحكيم ، وهو تلقي السائل والمخاطب بخلاف ما يترقب ؛ تنبيهاً على أنه هو الذي ينبغي أن يسأل عنه .

﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِء كَافِرُونَ ﴾ (١) .

وإنما لم يقولوا : إنا بما أرسل به كافرون وإظهاراً لمخالفتهم إياهم ورداً لمقاتلتهم .

قال في الانتصاف :

« ولو طابقوا بين الكلامين لكان مقتضى المطابقة أن يقولوا : إنا بما أرسل به

كافرون ، ولكن أبوا ذلك حذراً مما في ظاهره من إثباتهم لرسالته وهم يجحدونها » (٢) .

ولهذا عندما سمع المستكبرون قول المؤمنين من المستضعفين ازدادوا غيظاً في كفرهم

وقالوا : ﴿ إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِء كَافِرُونَ ﴾ (٣) ، وقابلوا المؤمنين بنفس الصلابة

والثبات ، وب نفس صيغة كلامهم بالجملة الاسمية المؤكدة ، يدفعهم إلى ذلك شهوة السلطان

والتعالي على الضعفاء وعلى الحق ، وأتبعوا الكفر بالقول ، الكفر بالعمل : ﴿ فَعَقَرُوا

النَّاقَةَ ﴾ (٤) .

قال أبو حيان :

« نسب العقر إلى الجميع ، وإن كان صادراً عن بعضهم ، لما كان عقرها عن تماليئ

واتفاق حتى روي أن قداراً لم يعقرها إلا بعد مشاورة الرجال والنساء والصبيان ، فأجمعوا

على ذلك » (٥) .

وعن عبد الله بن زمعة - رضي الله عنه - قال : سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - وذكر الذي عقر الناقة

(١) سورة الأعراف ، آية (٧٦) .

(٢) محاسن التأويل (٥٩٣/٧) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (٧٦) .

(٤) سورة الأعراف ، آية (٧٧) .

(٥) البحر المحيط (٣٣٣/٤) .

قال : « انتدب لها رجل ذو عز ومنعة في قومه كأبي زمعة » (١) .

والعقر هو : النحر . قال الأزهري : « والعقر عند العرب كشف عرقوب البعير ، ثم جعل النحر عقراً ؛ لأن العقر سبب لنحره ، وناحر البعير يعقره ثم ينحره » (٢) .

لقد عقروا الناقة تحدياً منهم لصالح - عليه السلام - واستهتاراً بالناذير ، واستعجالاً للعذاب ، وجهروا بالمعصية ﴿ وَقَالُوا يَصْلِحُ أُنْتَنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٣) .

ولهذا قال لهم صالح : ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ (٤) ، وهي آخر ما بقي لكم من متاع هذه الدنيا ، ﴿ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرِ مَكْدُوبٍ ﴾ (٥) أي : صادق غير كذب ، وقيل : عقروها يوم الأربعاء وهلكوا يوم السبت .

إن الناظر فيما تقدم يرى كيف أن القرآن الكريم من خلال عرضه لأهل الجحود والنكران والعصيان في كل أمة يحض على النظر في آثارهم بقصد التبصير والانتقال من سلوك الغواية وحال الضلالة إلى سلوك الإيمان والهدى والبصيرة والاعتبار .

عن جابر - رضي الله عنه - قال : لما مر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالحجر قال : « لا تسألوا الآيات ، فقد سأله قوم صالح ، فكانت - يعني الناقة - ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم ، فعقروها ، فأخذتهم صيحة أحمدهم الله بها من تحت أديم السماء إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله » قالوا : من هو يا رسول الله ؟ قال :

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأنبياء ، باب قوله تعالى : ﴿ وَاللّٰى تُمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ (١٤٨/٤) برقم (٣٣٧٧) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الجنة ، باب النار يدخلها الجبارون (١٧٣٧/٤) برقم (٢٨٥٥) بزيادة .

(٢) تهذيب اللغة (٥١٣/٣) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (٧٧) .

(٤) سورة هود ، آية (٦٥) .

(٥) سورة هود ، آية (٦٥) .

« أبو رغال ، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه » (١) .

لقد طلبوا الآية من صالح - عليه السلام - شرطاً لإيمانهم فلما عاينوها كفروا ووجدوا واستكبروا ثم عتوا وتحذوا واعتدوا ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ ﴾ (٢) .

وهذه سنة الله في عباده ، وهذا يذكرنا حين سأل الحواريون عيسى بن مريم - عليه السلام - أن ينزل عليهم مائدة من السماء ، تكون آية ودليلاً على صدق نبوته ، فأجابهم الله لطلبهم : ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ (٣) ، واشترط عليهم بعد نزول الآية والمعينة الثبات بالإيمان ، وإلا ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤) ، فهذا الطلب مقرون بالجزاء حين المخالفة .

ولهذا فقد جلب قوم صالح - عليه السلام - هذا العذاب بعتوهم واستكبارهم وتكذيبهم رسولهم صالح - عليه السلام - ، وهذا جزاء موافق ومناسب لأعمالهم السيئة ، لقد كذبت ثمود النذير ، فنزل بهم البلاء فهلكوا ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ ﴾ (٥) .

قال المبرد (٦) :

« أصابهم البلاء فبركوا فيها ، والجاثم : المبارك على رجليه كما يجثم الطير ، أي : أصابهم العذاب فماتوا جاثمين ، أي : باركين » (٧) .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٩٦/٢) ، مسند جابر بن عبد الله برقم (١٤١٦٢) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (٩١) .

(٣) سورة المائدة ، آية (١١٥) .

(٤) سورة المائدة ، آية (١١٥) .

(٥) سورة الأعراف ، آية (٩١) .

(٦) هو : أبو العباس محمد بن يزيد الأزدي البصري المعروف بالمبرد ، إمام النحو ، صاحب كتاب (الكامل) ،

ولد بالبصرة سنة (٢١٠هـ) ، وتوفي ببغداد سنة (٢٨٦هـ) . وفيات الأعيان (٤٨٤/١) .

(٧) تهذيب اللغة للأزهري (٥٣٩/١) .

ولهذا وقف عليهم نبيهم صالح - عليه السلام - والذين آمنوا معه يشاهدون ما جرى على المكذبين من الهلاك والجثوم على الأرض من غير حراك ، والنبي صالح - عليه السلام - يتحسر على ما فاته من إيمانهم ؛ حزناً عليهم ، ورجع به شريط ذكرياته معهم يتذكر مجالس دعوته لهم ومجادلتهم له ومناصحته إياهم ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ ﴾ (١) .

لقد قام صالح - عليه السلام - بواجبه نحو قوم ثمود ، وبلغهم رسالة الله ، ونصح لهم ، وأخلص في نصحه ، وهذا كل ما يملكه تجاههم ، أما هم فقد أغلقوا أمام نصحه قلوبهم ، ورفضوا دعوته لهم ، فوقع بهم العذاب .

وقد أخرج البخاري ومسلم من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما مرَّ على الحجر قال : « لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا ، إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم ، ثم تقنع بردائه وهو على الرحال » (٢) .

والقرآن حين يعرض قصة قوم ثمود يأخذ من أحداث التاريخ ووقائعه ما يحقق أهدافه من التهذيب والوعظ والتأثير في القلوب والتحذير من معصية الله والبشارة برضوان الله إلى تثبيت قلب النبي - صلى الله عليه وسلم - ومن اتبعه : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ﴾ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢﴾ (٣) .



(١) سورة الأعراف ، آية (٧٩) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأنبياء ، باب قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ (١٤٨/٤) ، برقم (٣٣٨٠) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الزهد ، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا (١٨٠٨/٤) برقم (٢٩٨٠) .

(٣) سورة آل عمران ، آية (٦٢) .

بلاغ الخليل - ﷺ - دعوة ربه ورسالته :

ومن الرسل الذي بلغوا رسالات ربهم ، واستفردوا بالتوحيد والحنيفية حين أشرك أهل الأرض جميعاً أبو الأنبياء إبراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - ، وهو من أولي العزم من الرسل الذين صبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصر الله ، وهو الذي قال الله عنه : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) .

وقد بلغ رسالة ربه ودعا أبيه وقومه ولم يأل جهداً ، ولم يترك سبيلاً في الدعوة إلى الله إلا واتبعه ، فأنكر بقلبه ، وحذر بلسانه وحطم الأصنام بيده ، فانتقموا منه ، وأرادوا إحراقه فأنجاه الله من النار .

ولقد عرض لنا القرآن محاورات الخليل - ﷺ - مع أبيه تارة ، ومع قومه تارة ، ومع الملك الذي حاجه تارة أخرى ، في دلالة قاطعة على أن هذا النبي الكريم قد بلغ رسالة ربه التي أرسله بها ، ودعا إلى الله ، وجادل المنكرين في أحسن جدال ، وأقوى حجة ، وأظهر دليل .

واقراً هذه الآيات ، وانظر ما فيها من الأدب الجم ، والحنان الفائق ، والعطف والبر على الوالد الكافر ، والخوف عليه من عذاب الله ، على الرغم من جلالة الوالد وشدته وقسوته .

يقول تعالى : ﴿ وَأذْكَرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي

(١) سورة النحل ، آية (١٢٠) .

يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِن لَّمْ تَتَّهَ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزُ لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴿١﴾ .

وانظر إلى هذا الكلام الذي يهز أعطاف السامعين ، وتدبر كيف استهل إبراهيم - عليه السلام - كلامه عند كل نصيحة بقوله : ﴿يَأْتِ تَوْسَلًا إِلَيْهِ وَاسْتِعْظَافًا لِقَلْبِهِ مَعَ اسْتِعْمَالِ الْأَدَبِ الْجَمِّ ، مَعَ تَقْدِيمِهِ لِأَبِيهِ الْبِرْهَانَ الْعَقْلِيَّ لِعِبَادَاتِهِ حِمَادًا لَا يَسْمَعُ وَلَا يَبْصُرُ ، وَلَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ ، وَلَمْ يَعْزِفْ وَالِدَهُ ، وَلَمْ يَتَّهَمْهُ بِجَهْلٍ مُطْلَقٍ أَوْ غِبَاءٍ مَغْلَقٍ ، كَمَا أَنَّهُ لَمْ يَتَفَاخَرَ عِنْدَ أَبِيهِ بِعِلْمٍ خَفِيٍّ لَمْ يَظْهَرْ لَهُ حَتَّى لَا يَظْهَرَ الْعُلُوُّ عَلَى وَالِدِهِ فَيَنْفِرَ مِنْهُ ، وَمَعَ هَذَا الْأَسْلُوبِ الرَّاقِي وَالْجِدَالِ الْحَسَنِ وَالتَّبْلِيغِ الْبَالِيِّ هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا أَنَا أَبَاهُ وَاجْهَهُ بِغِلْظَةٍ وَتَهْدِيدٍ ، وَإِيْذَاءٍ بَدَنِي وَنَفْسِي وَمِنْ ثَمَّ الطَّرْدُ ، فَلَمْ يَقَالَ تَهْدِيدُ وَالِدِهِ وَطَرْدُهُ إِلَّا بِقَوْلِهِ : ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ﴾ أَي : لَنْ يَصْلِكَ مِنِّي مَكْرُوهٌ وَلَنْ يَنَالَكَ أَذَى ، وَمَعَ هَذَا يَسْتَغْفِرُ لَهُ ، وَيَدْعُو لَهُ بِالْمُهَادَاةِ ؛ طَمَعًا فِي اسْتِجَابَةِ اللَّهِ لِدُعَائِهِ لَهُ لِأَبِيهِ .

فهل هناك أعظم من هذا البلاغ وأرقى من هذا الخطاب ، وألطف وأحسن من هذا الجدل للخليل - عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام - .

ويعمضي إبراهيم - عليه السلام - في تبليغ الرسالة وأداء المهمة العظيمة ، فيدعو قومه الذين يعبدون الأصنام بعد أن دعا أباه ، وقام بنصحه ، وأدى واجبه تجاهه ، وأقام الحجة عليه .

ولا شك أن الخليل - عليه السلام - كان من أقوى الأنبياء حجة ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ تَشَاءٍ﴾ ﴿٢﴾ .

(١) سورة مريم ، آية (٤١ - ٤٨) .

(٢) سورة الأنعام ، آية (٨٣) .

فمن ذلك البلاغ : ما ذكره الله تعالى في سورة الأنعام من مناظرة إبراهيم لقومه في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَيِّهِ ءَازَرَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَىٰ أَرْبَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَأَأَحِبُّ الأَفْلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (١) .

وانظر إلى أسلوب الدعوة وإظهار الحق الذي اتبعه الخليل - ﷺ - مع قومه في هذه الآيات ، فهو يستثير عقولهم ، ويلفت انتباههم إلى ضلالتهم ببرهان العقل والمنطق ، وتحكيم العقل بعيداً عن عاطفة دين الآباء والأجداد الضالين ، فهو هنا في مقام مناظرة وجدال وحجج وبرهان ، وهو يبطل كون هذه الكواكب التي يعبدونها آلهة ، ويتدرج بهم إلى إثبات ألوهية الله وحده ، وقوله : ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾ ليس من باب البحث والنظر ، وإنما من باب جدالهم ونقاشهم .

قال ابن كثير :

« وهذا المقام مقام مناظرة لقومه وبيان لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة لا تصلح للألوهية ، ولا أن تعبد من دون الله ؛ لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة مسخرة ، تطلع تارة ، وتأفل أخرى ، فتغيب عن هذا العالم ، والرب تعالى لا يغيب عنه شيء ، ولا تخفى عليه خافية ، بل هو الدائم الباقي بلا زوال ، لا إله إلا هو ولا رب سواه ، والظاهرة أن موعظته هذه في الكواكب لأهل حران ، فإنهم كانوا يعبدونها ، وهذا يرد من

(١) سورة الأنعام ، آية (٧٤ - ٧٩) .

زعم أنه قال هذا حين خرج من السرب ، ولما كان صغيراً ، كما ذكره ابن إسحاق وغيره ، وهو مستند إلى أخبار إسرائيلية لا يوثق بها لا سيما إذا خالفت الحق » (١) .

فانظر إلى حسن الجدال ، وكيف دعاهم بالأسلوب الذي يطمع في تصديقهم له وإيمانهم به ، وهو الأسلوب العقلي بطريقة هادئة ليس فيها تشنج ولا غضب ولا تهور ، مع قوة حجة وبيان محجة ، فإن قبلوا منه ذلك وآمنوا به فهو ما أراد وتمنى ، وإلا فهو يعلم أن الهداية من الله ، وأن تكذيبهم له قد سبقه تكذيب أمم سابقة ، وليس الواجب على الرسول إلا التبليغ ﴿ وَإِنْ تَكَذَّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴾ (١٨) ﴿ (٢) .



بلاغ شعيب - عليهما السلام - دعوته لقومه :

ومن الأنبياء الذين حملوا على عاتقهم تبليغ الدعوة والقيام بأمر النبوة والرسالة ، وحمل الأمانة ؛ نبي الله شعيب - عليهما السلام - الذي أرسله الله إلى قوم فاسدين ، وهم أهل مدين ، وقد كانوا كفاراً يعبدون الأيكة ، وهي شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها ، وكانوا مع كفرهم بالله - وَعَجَلٌ - يبخسون الناس أشياءهم ، ويطففون المكيال والميزان ، فدعاهم شعيب - عليهما السلام - بدعوة جميع الأنبياء قبله ﴿ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (٣) ، ثم نبههم على ما هم عليه من المعاصي والمنكرات ، وحذرهم بأس الله تعالى وعقوبته ، فكان مما كان ، مما قصه الله عنه في القرآن في غير مكان .

وكان بعض السلف يسمي شعيباً خطيب الأنبياء ؛ لفصاحته وعلو عبارته ، وبلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته (٤) .

(١) قصص الأنبياء ص (١٣٢ - ١٣٣) .

(٢) سورة العنكبوت ، آية (١٨) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (٨٥) .

(٤) قصص الأنبياء لابن كثير ص (١٨٩) .

قال أبو إسحاق الثعلبي :

« وكان يقال له : خطيب الأنبياء ؛ لحسن مراجعته قومه » (١) .

ولا شك أن أنبياء الله - ﷺ - ورسله هم أنصح الناس للناس ، وهم قدوة الدعاة إلى الله - ﷻ - في دعوة أقوامهم ، كيف يخاطبونهم ويتلطفون معهم ، ويصبرون على جهلهم وغباوتهم وإيذائهم .

ويظهر من دعوة شعيب لقومه ومحاورته لهم ومجادلته إياهم أن البيئة التي كان فيها قد انتشر فيها الفساد ، من الشرك ، وأكل أموال الناس بالباطل ، والصد عن سبيل الله ، مع أنهم كانوا في غاية النعمة والعافية ، فبدأ شعيب - ﷺ - دعوته كما بدأها جميع الأنبياء ، وهي دعوة الناس إلى التوحيد ؛ لأن وظيفة الرسل وأتباعهم تعيين الناس لله - ﷻ - وتطويعهم لخالقهم ، فالناس إما عبيد حجر ، أو شجر ، أو بقر ، أو عبيد للطواغيت الذين يحكمونهم بغير الشرع ، ويسوسونهم بغير حكم الله - ﷻ - ، فالداعية يجر الناس من عبادة غير الله ثم يعبدهم الله - ﷻ - ، فيجعلهم يكفرون بالطاغوت ، ويؤمنون بالله ، ويكون في دعوته متأسيًا بالأنبياء الكرام ؛ لأنهم أئمة الدعوة إلى الله ، وهم أعلم الناس بها ، وأقوم الناس فيها ، قال تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ ﴾ (٢) وسوف نجد - بإذن الله تعالى - ذلك واضحًا جليًا في شعيب - ﷺ - ، كيف أن كان يعمل بما يعلمه للناس ولا يخالفهم إلى ما ينهاهم عنه ، وكيف نوع معهم أساليب الدعوة ، فتارة ينهاهم عن تعاطي ما لا يليق من التطفيف وغيره ، وتارة يحذرهم من العقوبة التي لحقت بالمكذبين من الأمم السابقة ، كقوم نوح وعاد وثمود ولوط ، وتارة يذكرهم بنعم الله عليهم ، وكيف أنهم يحافظون عليها بطاعة - ﷻ - ، وتارة يتوجه إلى الله - ﷻ - الذي أرسله بأن يفتح بينه وبين قومه بالحق ، ولذلك كان خاتمة دعوته بعد أن أهلك الله

(١) عرائس المجالس (١٨٧) .

(٢) سورة الأنعام ، آية (١٢٤) .

- ﴿عَلَيْكُمْ﴾ - الظالمين المكذبين ﴿يَقَوْمٍ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَنَصَحْتُ لَكُمْ بِكَيْفِ
ءَأْسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (١) .

وقد ذكر الله - ﴿عَلَيْكُمْ﴾ - في سورة الأعراف جزءاً من بلاغ شعيب قومه ودعوته لهم ،
ومجادلتهم لهم ، ونصحه لهم ، فقال تعالى :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرِهِ قَدْ
جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (٢) .

قال الزمخشري :

« كان يقال لشعيب : خطيب الأنبياء ؛ لحسن مراجعته قومه ، وكانوا أهل بحس
ونقص للمكاييل والموازن .

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ معجزة شاهدة بصحة نبوتي أوجب عليكم الإيمان
بي والأخذ بما أمركم به والانتها عما نهاكم عنه ، ولا بد لمدعي النبوة من معجزة تشهد له
بصدقه ، غير أن معجزته لم تذكر في القرآن كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا محمد
- ﷺ - « (٣) .

وقيل : « المراد بالبينة : الحجة التي أقامها عليهم من بطلان الشرك وسوء أفعالهم ،
وعجزهم عن مجادلته فيها » (٤) .

ولهذا بعد أن أقام شعيب - ﷺ - الدليل على صدقه في البلاغ عقب بالفاء في

(١) سورة الأعراف ، آية (٩٣) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (٨٥) .

(٣) الكشاف ص (٣٧٢) .

(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤١/٨) .

قوله : ﴿ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ ﴾ (١) .

ولقد كان قوم شعيب مع كفرهم أهل بخس وتطيف في البيع والشراء ، ويحتالون على المعايير ويتلاعبون فيها ، فيأكلون بذلك أموال الناس بالباطل .

وبعد أن أمرهم بالوفاء في الميزان والمكيال يأتي على شيء من التفصيل أكثر في حياتهم ، فينهاهم عن البخس في معاملاتهم بقوله : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ (٢) .

والبخس « هو النقص عن الحق مع العلم ، ويقال : بخسته إذا نقصته إياه » (٣) ، والعدالة الاجتماعية تكون في حفظ حقوق الناس في المعاملات كلها ، ولذا قال شعيب - عليه السلام - : ﴿ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ أي : مصالحهم التي تدرج تحتها كافة معاملات الناس .

قال القرطبي - رحمه الله - :

« البخس : النقص ويكون في السلعة بالتعيب والتزهد فيها ، أو المخادعة عن القيمة ، والاحتيال في التزيد في الكيل والنقصان عنه ، وكل ذلك من أكل أموال الناس بالباطل ، وذلك منهى عنه في الأمم المتقدمة والسالفة على ألسنة الرسل ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » (٤) .

وهكذا تكون دعوة شعيب - عليه السلام - لإصلاح جوانب الحياة كلها ، ولم يكتف بإيفاء الوزن والمكيال ، بل ارتقى بهم إلى العدل الكلي .

ثم نهاهم عن الفساد في الأرض بقوله : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ

(١) سورة الأعراف ، آية (٨٥) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (٨٥) .

(٣) الكشف للزمخشري ص (٣٧٣) .

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٢٢٢/٧) .

إِصْلَحَهَا ﴿١﴾ لقد بدأهم أولاً بالمعصية الشنيعة التي كانوا عليها ، وهي التطفيف ، ثم انتقل إلى العام وهو الإفساد في الأرض ، وهذا الإفساد من أخطر أنواع السلوك الإنساني الذي يدخل تحته العدوان والسرقة ، وقطع الطريق ، وغير ذلك من المفاسد .

ولهذا لما كان أهل مدين من المفسدين في الأرض شدد عليهم رسولهم شعيب في النهي عن الإفساد في الأرض بقوله لهم : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٢﴾ .

ويتابع شعيب تحذيرهم بقوله : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ ﴿٣﴾ ، وذلك أنهم كانوا يرابطون في الطرقات العامة التي يمر بها المسافرون ، فيقطعون الطريق ، ويصادرون الأموال .

قال ابن عاشور :

« كانوا يصدون وفود الناس عند الدخول إلى المدينة التي كان بها شعيب - عليه السلام - لئلا يؤمنوا به » ﴿٤﴾ .

وفي هذا النهي تعريض للمشركين من قريش وغيرهم من كل من تصدى لأذى المؤمنين .

ثم يذكرهم عقب ذلك بتكثير الله لهم بعد أن كانوا قليلاً : ﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُم بِطَرَفِ رَبِّكَ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ﴿٥﴾ .
ومعنى تكثير الله لهم : تيسيره أسباب الكثرة لهم بأن قوى فيهم قوة التناسل وحفظهم من أسباب الموت حتى كثروا وتكاثروا .

(١) سورة الأعراف ، آية (٨٥) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (٨٥) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (٨٦) .

(٤) التحرير والتنوير (٢٤٦/٨) .

(٥) سورة الأعراف ، آية (٨٦) .

ثم يذكرهم بأحوال الأمم السابقة التي طغت وبعث وكأني بشعيب - عليهما السلام - يشير بخطابه هذا إلى ما حصل لقوم لوط لقرب زمانهم وأرضهم منهم ، كما جاء في سورة هود :

﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ (١) .

وأخيراً فقد وقف شعيب عند النقطة التي لا يمكن أن يتزحزح خلفها خطة واحدة ، وهي المسألة والتعاش عندما رأى قومه لم يستجيبوا لله ولم يتبعوه ، ولهذا قال لهم : ﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ ، وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۗ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (٢) .

لقد استمرت المحاورة بين شعيب وقومه ، هو يحاورهم بالحجج والبراهين الساطعة ، وهم يواجهون ذلك بالاستكبار والعناد حتى يئس الكفار من عودة شعيب ومن آمن معه إلى ملتهم ، لحينها لجأوا إلى تخويفه وتهديده وفتنه عن دينه ، فقالوا لمن آمن بشعيب :

﴿ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخٰسِرُونَ ﴾ (٣) .

قال ابن كثير :

« يخبر تعالى عن شدة كفرهم وتمردهم وعتوهم وما هم فيه من الضلال ، وما جبلت عليه قلوبهم من مخالفة الحق ، ولهذا أَسْمُوا وقالوا : ﴿ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخٰسِرُونَ ﴾ (٤) ، فلماذا عقب بقوله : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثْمِينَ ﴾ (٥) ، أخبر تعالى أنهم أخذتهم الرجفة ، وذلك كما أرجفوا شعيباً وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء » (٥) .

(١) سورة هود ، آية (٨٩) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (٨٧) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (٩٠) .

(٤) سورة الأعراف ، آية (٩١) .

(٥) تفسير القرآن العظيم (٤٤٨/٣) .

وهكذا خسر المكذبون دنياهم وخسروا أنفسهم في أحرابهم بعد أن وقع عليهم العذاب ، الذي حذرهم منه نبيهم شعيب - عليه السلام - ، ولهذا فقد انصرف عنهم وناداهم وهم هالكون : ﴿ يَقَوْمٌ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأَ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ (١) .

لقد أدى شعيب - عليه السلام - واجبه في تبليغ رسالة ربه ، وحرص على هداية قومه ، وتحمل الأذى ، وصبر عليهم بكل ما استطاع فلم ينفعهم ذلك ، وكانوا من المهالكين .



بلاغ نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - دعوته لقومه وعشيرته :

ومن الأنبياء - أيضاً - حبيبنا محمد - صلى الله عليه وسلم - ، خير الرسل ، وأفضل الخلق ، فلقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خاتم عقد الرسالات الإلهية التي تحملت عن الله وحيه إلى الخلق ؛ ليقوموا بواجبهم نحوه في الاعتقاد والعمارة على وجه الأرض ، على النحو الذي ارتضاه في شرعه المطهر : الإسلام الحنيف .

فكان على النبي - صلى الله عليه وسلم - ما على المرسلين أجمعين من البلاغ المبين عن الله رب العالمين ، وكان عليه من ذلك ما هو أكبر حظاً ، وأكثر جهداً ؛ نظراً لشمولية رسالته ودوامها ، فاقتضى ذلك منه أن يوجه إليه خطاب خاص يلزمه بالبلاغ ، زائداً عن الخطاب العام المستفاد من مقتضى الرسالة ، فقال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢) ، وذلك ليقوم بواجب البلاغ على أكمل وجه وأتمه ، فلا يتوانى ولا يقصر ولا يفرط ، وإن كلفه ذلك ما كلفه ، والمعنى : « إن لم تبلغ القرآن أو ما أوحيت به إليك أو شيئاً مما حملته تكن في حكم من لم يبلغ شيئاً من رسالته ؛ لأن حكم

(١) سورة الأعراف ، آية (٩٣) .

(٢) سورة المائدة ، آية (٦٧) .

الأنبياء وتكليفاتهم أشد ، وليس حكمهم كحكم سائر الناس الذي يتجافى عنهم إذا خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً » (١) .

ولا ريب بأن النبي - ﷺ - قد كان قائماً بذلك الواجب على أكمل وجه ، من يوم أن كلفه الله تعالى بالرسالة ، وأن هذا الخطاب إنما هو من باب قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (٢) أي : داوموا على الإيمان ، واثبتوا عليه ، فهو أمر للتأكيد لا للتأسيس ؛ لأن الإيمان ثابت لهم بدليل وصفهم به ، وكذلك حال النبي - ﷺ - في البلاغ ، والدليل على ذلك : « أن هذه الآية من آخر ما نزل من القرآن ؛ لأن سورة المائدة من أواخر السور نزولاً ، وقد بلغ الرسول - ﷺ - الشريعة وجميع ما أنزل إليه إلى يوم نزولها » (٣) ، فدل ذلك على أن المراد به طلب الدوام ، « وأن الله تعالى قد أراد به قطع تخرص من قد يزعمون أن الرسول قد استبقى شيئاً لم يبلغه ، أو أنه قد خص بعض الناس بإبلاغ شيء من الوحي لم يبلغه للناس ، كما تزعم الروافض ؛ لأنه لو ترك شيئاً منه لم يبلغه ، لكان ذلك مما أنزل عليه ولم يقع تبليغه » (٤) ، وذلك مستحيل في حقه - ﷺ - بمقتضى العصمة الكاملة التي منحها الله تعالى إياه ، والبلاغ الذي أمره الله تعالى به عام شامل لكل ما تحتاج إليه البشرية في عاجلها وآجلها ، ودنياها وأخرها ، وقد قام النبي - ﷺ - بذلك البلاغ كله على أكمل وجه وأتمه ، من يوم أنزل الله تعالى الرسالة وكلفه بالبلاغ بصدر سورة المدثر ، فإنه من حينئذٍ قام بإبلاغ الدعوة وإبلاغ القرآن والسنة على حد سواء ، لا يألوا في ذلك جهداً ، ولا يدخر وسعاً حتى أتم الله له الدين ، وقمع به المشركين ، وأما بلاغ الدعوة فقد قام به منذ أن كلفه حيث قام يدعو إلى الله على بصيرة ، ويبلغ مراد الله تعالى من خلقه إليهم بحكمة وأناة ليلاً ونهاراً .

وقد كان - عليه الصلاة والسلام - قد اتبع أسلوب الدعوة بالسر في بادئ أمره ؛ لما

(١) المفردات للراغب ص (٦٠) .

(٢) سورة النساء ، آية (١٣٦) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٥٥/٦) .

(٤) المصدر السابق (٢٦٠/٦) .

يعلم من حال قومه في الغلظة والجفاء ، وخشيته أن يعوقوه عن إبلاغ رسالته التي حملها من أول أمره .

ونجح هذا الأسلوب ، والتف حول النبي - ﷺ - عدد مبارك ممن آمن به وصدقوه ، وكان في طليعتهم أبو بكر الصديق ، وخديجة زوجته - ﷺ - أجمعين .

ثم أسلم على يد أبي بكر - ﷺ - في بادئ الأمر جماعة من شبان مكة ، كان لهم شأن عظيم في نجاح دعوته وظهور أمره ، كعثمان بن عفان ، والزبير وطلحة (١) .

وظلت الدعوة سرّاً والبلاغ بين المؤمنين نحو ثلاث سنوات ، حيث كان لا يدعى إلا من ترجى إجابته ويركن إلى عقله ، فدخل في هذه الفترة نحو خمسين نفرًا بين رجل وامرأة (٢) ، ولم تكن قريش في هذه الفترة تتجرأ على اعتراض سبيلهم أو إيذائهم ؛ لأنهم لم يجهروا بدعوتهم ، ولا بتسفيه أحلامهم ، فما كانت تظن إلا أن هذا الدين لا يعدو كونه تخففاً عهدته في المتحفين السابقين ، من كونهم اختاروا لأنفسهم ديناً يتبعون به ، ولا سبيل لهم في الناس الآخرين ، فأمنوا بذلك جانبهم في الجملة (٣) .

ولهذا لما تكونت القاعدة الأساسية للانطلاق بالبلاغ والدعوة إلى طور آخر ، حيث فشا الإسلام بمكة ، وأصبح غالب بيوت مكة تساهم في بناء هذه القاعدة ، عندئذ لم يكن بد من أن يأخذ النبي - ﷺ - شكلاً من أشكال البلاغ والدعوة ، وذلك بإعلان الأمر على رؤوس الملائم ، ودعوة كافة الناس إلى الإسلام ، وعندها أوحى الله تعالى إلى نبيه بالجهر والإعلان لهذه الدعوة المباركة ، وذلك بقوله سبحانه : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (٤) ، فما إن نزلت حتى صعد الصفا فجعل ينادي : « يا بني فهر ، يا بني عدي . . . لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ، فجاء أبو هب وقريش ، فقال النبي - ﷺ - : أرأيتم لو أخبرتكم أن

(١) سيرة ابن هشام (٢٧٧/١) .

(٢) المصدر السابق (٢٨٨/١) .

(٣) السيرة النبوية لابن حبان ص (٦٨) .

(٤) سورة الشعراء ، آية (٢١٤) .

خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم صدقي؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً ، قال : **فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد** « فقال أبو لهب - لعنه الله - : **تَبَّا** لك سائر اليوم ، ألهذا جمعنا؟ فنزلت : **﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾** (١) « (٢) ، فطفق رسول الله - ﷺ - من حينئذ يشق طريق البلاغ العلي والكفاح المضني ، ولكن في أوساط عشيرته وقرابته ؛ استجابة لأمر الله تعالى لحكمة بالغة ، وهي أن يقوي نواة هذا الدين ، ويدعم أسسه بمن هم حوله من قرابته وبني عمه .

ثم انتقل الرسول - ﷺ - بالبلاغ إلى طور آخر أوسع مدى ، وأكثر عددًا وبلدًا ، كما هو مقتضى رسالته العامة الخاتمة وذلك حينما أنزل الله عليه : **﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾** (٣) .

عندئذ نهض بأمر الله يبلغ عن الله تعالى « ليلاً ونهاراً ، سرّاً وجهاراً ، لا يصرفه عن ذلك صارف ، ولا يرده عن ذلك راد ، ولا يصدّه عن ذلك صاد ، يتبع الناس في أنديتهم ومجامعهم وفي المواسم ومواقف الحج وغيرها ، يدعو من لقيه من حُرٍّ وعبد ، وضعيف وقوي ، وغني وفقير ، جميع الخلق عنده ذلك على السواء » (٤) ، متخذاً في ذلك كله وسيلة يمكن أن يبلغ بها رسالة الله تعالى بعد أن كان لا يبلغ إلا بوسيلة السر والدعوة الفردية منه - عليه الصلاة والسلام - ، أو ممن أسلم من الصحابة - رضوان الله عليهم - .

فتارة كان يدعوهم للاجتماع ويستنفرهم له ، وتارة كان يقوم بنفسه ويصول ويجول في المجتمعات والنوادي والأسواق ، يبلغ رسالات ربه ، وتارة كان يقوم بتكليف من أسلم بتبليغ من لم يسلم ، كما أرسل مصعب بن عمير - **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** - إلى المدينة يبلغهم الإسلام

(١) سورة المسد ، آية (١) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب التفسير ، باب : **﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾** (١١١/٦) ،

برقم (٤٧٧٠) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب قوله : **﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾**

(١/١٦٤ - ١٦٥) برقم (٢٠٨) .

(٣) سورة الحجر ، آية (٩٤) .

(٤) البداية والنهاية لابن كثير (٤٠/٣) .

ويدعوهم إليه ، إلى غير ذلك من صور البلاغ التي كان يحرص النبي - ﷺ - أن يبلغ بها رسالة ربه ؛ ليهدي الأمة إلى الصراط المستقيم .

ولهذا لما اشتد نشاطه في التبليغ والدعوة إلى دين الحق ، ناصبته قريش العدا ، وآذوه أبلغ الأذى ، وما تركوا حيلة يظنون أنها ستنتفعهم في ثنيه عن الرسالة إلا طرقوها ، ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ ۖ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٨) ، بل ذهبوا لأعظم من هذا عندما قاطعوا النبي - ﷺ - المقاطعة الاقتصادية ضده وضد عشيرته ، فخاب صنيعهم واندحر .

« وفي حديث جابر - رضي عنه - قال : كان النبي - ﷺ - يعرض نفسه بالموقف فقال : « ألا رجل يحملني إلى قومه ، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي » (٢) .

غير أن قريشاً لم تترك له شأنه والناس ، بل استمر عنادها وضلالها في صدر الناس عن تصديقه ، وتحذيلهم عن ذلك ليشاركوهم في الضلال ، فأضلوا وضلوا عن سواء السبيل ، فقد كان أبو لهب - لعنه الله - يقفوا أثر النبي - ﷺ - فكلما أتى قومًا ودعاهم إلى الله كذبه وحذرهم منه (٣) .

ولقنهم الوليد بن المغيرة كلاماً يقولونه لمن يقدم مكة من أهل المواسم ؛ ليحذروه من رسول الله - ﷺ - وهو أن يقول لهم ساحر ، فأكذبه الله تعالى بآيات في كتابه الكريم بقوله : ﴿ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾

(١) سورة الصف ، آية (٨) .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب ثواب القرآن عن رسول الله - ﷺ - ، باب (٢٤) برقم (٢٩٢٥) .

(٣) طبقات ابن سعد (٢١٦ / ١) .

سَأَصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٦﴾ (١) .

غير أنهم مع هذا الجهد الذي بذلوه في الصد عن دين الله وشرعه القويم ، لن يستطيعوا مغالبة قدر الله وإرادته الأزلية في نصره هذا الدين وظهوره ، ولو كره المشركون .

وحين أذن الله لنبيه - ﷺ - بالهجرة إلى المدينة وفضل مخطط اغتيالهم للنبي - ﷺ - ، وهاجر إلى أصحابه من المهاجرين والأنصار ، تلك الهجرة التي قضت مضاجعهم ، وأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وكانت سبباً أساسياً لبلاغ كلمة الله وإعلانها التي بذل كفار قريش جهدهم في إطفائها ، فخيهم الله وأذلهم وقطع دابرهم ، ابتداءً من يوم أن أذن الله تعالى لهم بالجهاد بقوله : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتُلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ ﴿٣٩﴾ (٢) ؛ وذلك بعد أن تمكنوا وتحصنوا في عاصمتهم ، وأصبحوا ذوي عدد وعدة ومنعة ، فتمكن رسول الله - ﷺ - بعد ذلك من البلاغ المبين أيما تمكين ، انطلاقاً من المدينة العاصمة الحصينة ، وبحماية من فيها من أولي الأيد والقوة والعزيمة والبأس ، وعندئذ قام النبي - ﷺ - بتبليغ رسالات ربه على أكمل وجه وأتمه وأفضله ، لا يفتر عن ذلك ليل نهار ، ولا يشغله عن ذلك شاغل ، حتى إنه بعث البعوث مع رسله إلى ملوك الأرض وعظمائها .

وقد أخرج البخاري في صحيحه أن النبي - ﷺ - كتب إلى هرقل عظيم الروم قائلاً : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبد الله رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ، و ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ ﴿٦٤﴾ (٣) » (٤) .

(١) سورة المدثر ، آية (١٦ - ٢٦) .

(٢) سورة الحج ، آية (٣٩) .

(٣) سورة آل عمران ، آية (٦٤) .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب بدء الوحي (٩/١) برقم (٧) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب =

إلى غير ذلك من مكاتباته التي كانت على هذا النحو من البلاغ والإنذار ؛ ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حي عن بينة ، وقد قال أنس - رضي الله عنه - : « إن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي وإلى كل جبار عني يدعوهم إلى الله - صلى الله عليه وسلم - » (١) .

وهكذا كان - عليه الصلاة والسلام - يبلغ الدعوة لا يألوا جهداً ، ولا يدخر وسعاً في إبلاغها ليلاً ونهاراً ، سراً وجهاراً ، وبكل وسيلة يمكن أن يوصل بها البلاغ والدعوة إلى العالمين .

وكذلك إبلاغه القرآن الكريم ، فقد كان أيضاً على هذا النحو من الجهد والمثابرة والعناية ؛ لأنه تعالى قد أرشده إلى ذلك بتوجيه خاص ، حيث قال له : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ (١٦) ﴿ (٢) ، أي : لتبلغه الناس وتتلوه على مهل لتكون ألفاظه ومعانيه أثبت في النفوس (٣) ، فقام بذلك حق القيام ، فكانت له به عناية خاصة في تعليمه ونشره وإذاعته ، فهو يقرؤه لهم على مكث لو عَادَ العاد لأحصاه ، ترتيباً كما أمر الله ، ويسمعهم إياه في الخطب والصلاة ، وفي الدروس ، وفي العظات والدعوة والإرشاد ، وفي الفتوى والقضاء ، ويدارسهم إياه في سمع منهم ويسمعون منه ، ومن لم يكن حاضراً لديه كأهل البلاد المختلفة ، أرسلهم إليهم بعثات القراء ليعلموهم إياه ، ويفقهوهم به ، كما هو معلوم من رسالته وسيرته وسننه (٤) .

وكذلك السنة فلم تكن أقل شأنًا من إبلاغ الدعوة وإبلاغ القرآن ، بل كان مسانراً لهما في كل أطوار البلاغ والدعوة على حد سواء ؛ لأن السنة هي من الوحي الذي أنزل

= الجهاد والسير ، باب كتاب النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (١١١٧/٣) برقم (١٧٧٣) .
 (١) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الجهاد ، باب كتب النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى ملوك الكفار (١١١٩/٣) برقم (١٧٧٤) .

(٢) سورة الإسراء ، آية (١٠٦) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٣١/١٥) .

(٤) مناهل العرفان لعلوم القرآن للزرقاني (٣٠٧/١) .

على النبي - ﷺ - كما قال تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۚ ﴾ (١) ، وإن غايرت القرآن في أمور كثيرة فإنها تتفق معه في التشريع ، وتزيد عليه في إيضاح القرآن وبيانه ، كما ناط الله بها ذلك بقوله : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢) ، وكونها تبين كلام الله يقتضي أن تكون من عند الله ؛ لأنها تبين مراده من كلامه لخلقها ولا يكون ذلك إلا بما يوحى به إلى نبيه ؛ إذ هو العالم بكلامه والمراد منه ، فافتضى ذلك أن يكون وحياً يوحى كما أوضح ذلك النبي - ﷺ - بقوله : « ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه » (٣) ، ولذلك كانت سنته واجبة الطاعة والامتثال ، ككلام الله - تبارك وتعالى - ، كما ألزم الله تعالى ذلك بقوله : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ۚ ﴾ (٤) ، بل وقرن طاعته بطاعة رسوله ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٥) ، ولهذا كان النبي - ﷺ - يعني بإبلاغ السنة كما يعني بإبلاغ القرآن ، بل إن إبلاغه للسنة كان أوسع دائرة ، إذ أن القرآن يعني بجوامع الأمور والأحكام ، بينما السنة جاءت مفصلة وشارحة لما أجمل في القرآن .

ثم إن النبي - ﷺ - لم يكتف بذلك ، بل ذهب إلى أن كلف من بلغه شيء عنه أن يبلغه غيره ؛ ليعم بلاغه الأمة في كل زمان ومكان .

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ - قال : « بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » (٦) .

(١) سورة النجم ، آية (٣ - ٤) .

(٢) سورة النحل ، آية (٤٤) .

(٣) أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب السنة ، باب في لزوم السنة برقم (٤٦٠٤) .

(٤) سورة الحشر ، آية (٧) .

(٥) سورة آل عمران ، آية (١٣٢) .

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (١٧٠/٤) برقم

(٣٤٦١) .

وهكذا أدى رسول الله ﷺ - واجب التبليغ ، تارة بالعبارة ، وتارة بالكتابة ، وتارة بالحث على إبلاغ من لم يبلغه ، لا يألوا جهداً ، ولا يدخر وسعاً في إيصال رسالة الله التي حملها ؛ تنفيذاً لواجب البلاغ الذي تحمله بمقتضى رسالته ، وتنفيذاً لأوامر الله في ذلك ، كقوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ (١) ، فبَلِّغِ الْبَلَّغِ الْمُبِينِ حتى أتاه اليقين - صلوات ربي وسلامه عليه - .

ولقد زكاه الله سبحانه في بلاغه الدعوة ، وشهد له بذلك في كتابه في قوله تعالى : ﴿ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ (٢) ، وقال عنه سبحانه : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَيَّ الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ (٣) أي : ما هو على ما يخبر به من الوحي وغيره بمتهم ، وقرأ الباقون بالضاد من الضن ، وهو البخل ، أي : لا يبخل بالتعليم والتبليغ (٤) .

وهذه شهادة من الله تعالى له وتزكيته بأداء الواجب على أكمل وجه ، ولم يكتف بذلك لحبيبه - ﷺ - بهذه الشهادة ، بل لقد أضاف لها شهادة أخرى بأسلوب آخر حيث قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (٥) ، فإن كمال الدين لا يكون إلا بالتبليغ على أكمل وجه لجميع أحكامه ، وما أوحى الله به في شأنه إلى أهله عن طريق رسول الله - ﷺ - .

ومع ما شهد الله له بالبلاغ المبين ، فإنه - عليه الصلاة والسلام - أحب أن تشهد له أمته بذلك ، فاستنطقها بما لتطمئن نفسه ، وذلك في يوم عرفة في حجة الوداع ، حيث قال لهم في خطبته العظيمة ذلك اليوم : « وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون ؟ » قالوا : نشهد أنك قد بلغت ، وأديت ، ونصحت ، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى

-
- (١) سورة المائدة ، آية (٦٧) .
 (٢) سورة الجن آية (٢٨) .
 (٣) سورة التكوير ، آية (٢٤) .
 (٤) تفسير البيضاوي ص (٧٨٧) .
 (٥) سورة المائدة ، آية (٣) .

الناس : « اللهم اشهد ، ثلاث مرات » (١) .

فصلى الله وسلم على سيدنا محمد رسول الله ، فما أعظم إحساسه بالمسؤولية ، وأجل خشيته لله - ﷺ - ، فنشهد أنه قد بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وجاهد في الله حق جهاده ، حتى أتاه اليقين ، فصلاة ربي وسلامه عليه إلى يوم الدين .



(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الحج ، باب حجة النبي - ﷺ - (٧٢٦/٢) برقم (١٢١٨) .

المبحث الثاني

الحرص على الهداية

من أخلاق الداعية المهمة لنجاحه ونجاح دعوته ، حرصه على ما ينفع مدعويه ، فيجلبه لهم ، ويدفع عنهم ما يضرهم ، ويتفانى في ذلك وي بذل غاية جهده وكامل طاقته ، سواء فطنوا لذلك ، أم جهلوه ، فهو يحرص على ذلك بمقتضى إخلاصه في دعوته إلى تعالى .

وقد كان أئمة الدعاة من رسل الله - عليهم صلوات الله وسلامه - على هذا النحو من الحرص على ما ينفع أقوامهم وأممهم ، ودفع ما يضرهم ، بحيث لم يألوا جهداً ولا يدخرون وسعاً في الحرص على إكسابهم النفع ودفع الضر عنهم .

وليس هناك منفعة أعظم ولا أكبر من منفعة الإيمان ، التي توجب لصاحبه النفع العظيم ، والخير العميم في الدنيا والآخرة .

أما في الدنيا فبعض طاعته ، وصحة العقيدة ، وسعادة الحياة ، كما قال تعالى في ذلك : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ۚ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

وأما في الآخرة فبالنعيم المقيم في جنات النعيم التي فيها من أصناف النعيم ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، والتي أعدها الله تعالى للمؤمنين ، كما قال سبحانه : ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۗ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (٢) .

(١) سورة النحل ، آية (٩٧) .

(٢) سورة الحديد ، آية (٢١) .

ولما كانت رسل الله - عليهم صلوات الله وسلامه - تعلم ذلك الخير العظيم ، حرصت على أن لا يفوت أحداً من العالمين ، فطفق كل رسول يدعو أمته المرسل إليها إلى أن تحوزه ، ، وحرصوا على أن لا يخسره أحد منهم ، فبذل كل رسول جهده وطاقته في معالجة أمته ، حتى تقبل اكتساب مفتاح ذلك الخير وهو الإيمان بالله تعالى ، المترتب عليه الدخول إلى واحات السعادة الدنية والأخروية .

وتسريح النظر في دعوات الرسل أقوامهم إلى اكتساب تلك السعادة ، يدل على مبلغ الحرص الذي كانوا عليه ، والجهد الذي كانوا يبذلونه في الدعوة وتبليغ أقوامهم ما فيه خيري الدنيا والآخرة .

فأول هؤلاء الرسل العظام والدعاة الأعلام ، نبي الله نوح - عليه السلام - ، أول الرسل إلى البشرية ، وقائد أول دعوة سماوية ، وأحد أولي العزم من الرسل ، قام بواجبه في دعوة قومه إلى عبادة الله وحده ، وبلغهم الدعوة كما أمره الله تعالى ، صابراً محتسباً ، لم يتوان في ذلك ولم يتكاسل ، ولم ييأس ، فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، يدعوهم ويرغبهم ، سلك معهم مختلف الأساليب في الدعوة بهدف إقناعهم والتأثير فيهم ؛ ليتخلوا عن الباطل ويتبعوا الحق .

فمن أسلوب الترغيب إلى أسلوب التحبيب إلى أسلوب البرهان ، إلى الدعوة الجهرية والسرية ، إلى الدعوة ف الليل ، إلى الدعوة في النهار ، حريصاً على نجاة قومه من الهلاك ، لا يرجو لهم إلا الخير ، ولا ينتظر منهم مكافأة أو أجرًا ، متلطفًا في خطابهم ، متحبيبا إليهم ، يسلك في دعوته كل مسلك وكل سبيل ، ناصحًا واعظًا ، ومبينًا ومحذرًا ، ولهذا فقد كان قمة في البصر ، وآية من آيات الله في الحلم والأناة ، وسعة الصدر ، وأمة في الجد والمثارة ، وطودًا شامخًا في التواضع وإنكار الذات ، وفوق ذلك كله لم يكن يرجو منهم أجرًا أو مكافأة ، ولا كان يتخذ من الدعوة وسيلة لجمع المال وإحراز المكاسب ، فهل يتعظ بذلك الدعاة الذين سرعان ما يستولي اليأس على نفوسهم ، ويسيتون الظن بأقوامهم ، فيتسرعون في إصدار الأحكام الظالمة عليهم ، وينهزمون أمام أية صدمة يتعرضون لها .

هاهو نوح - عليه السلام - يتحجب إلى قومه ويتلطف لهم في العبارة ؛ حرصاً منه ورجاء

إيمانهم به ، وتصديقهم له بقوله لهم : ﴿ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (١) وقوله : ﴿ يَقَوْمِ ﴾ هو تقرب منه لهم وتحبب ؛ ليقبلوا دعوته ، وهو أخوهم المشفق عليهم ، والخائف عليهم من عذاب الله ، ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٢) ، ونحن نعلم ما تستدعيه الأخوة من الحرص على الهداية وإرادة الخير ، وحب النفع للأخوة التي بنيت على المحبة والشفقة لهم وعليهم ، ولهذا فقد كان دائماً ما يصارحهم بإشفاقه عليهم وحرصه على مصلحتهم ، وخوفه من وقوع العذاب بهم إن هم استمروا على الكفر والعصيان بقوله لهم : ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (٣) ﴿ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ (٤) .

كذلك فهو يرغبهم بنيل الخير والبركة إن استجابوا لدعوته ، وهذا الترغيب إنما هو من باب الحرص على الهداية ومحبة الخير ، فيقول لهم : ﴿ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ (٥) ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ (٦) ﴿ وَيُمِدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِنَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ (٧) .

ثم بين لهم ثمرة استجابتهم لدعوته ، ونتيجة طاعتهم لهم ؛ ترغيباً وشحذاً لهممهم ، فيقول لهم : ﴿ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴾ (٨) ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٩) .

أما عن توظيفه لأحسن الأوقات في الدعوة ، وتخييره لأوقات التأثير فيهم ؛ فلم يغفل عن هذا الأمر ، بل حاول بكل وسيلة ممكنة حتى في اختيار أوقات الدعوة التي يرجو فيها أن تكون نفوس القوم مستعدة لتقبل كلامه ودعوته ، ولذلك أخبر عنها - علياً - في تقريره

(١) سورة الأعراف ، آية (٥٩) .

(٢) سورة الشعراء ، آية (١٠٦) .

(٣) سورة هود ، آية (٢٥ - ٢٦) .

(٤) سورة نوح ، آية (١٠ - ١٢) .

(٥) سورة نوح ، آية (٣ - ٤) .

بقوله : ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۗ ﴾ (١) ، وبقوله : ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۗ ﴾ ﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۗ ﴾ (٢) .

إنه داعية إلى الله ، حريصٌ على هداية قومه ، ساعٍ لاستجابتهم له ، وتصديقهم وإيمانهم به ، فلهذا ذهب يدعوهم في كل الأوقات ومختلف الأزمنة ، يدعوهم في ساعات الليل وساعات النهار ، ويتخير من هذه الساعات والأوقات ما كان أكثر تأثيراً في نفوسهم .

ولم يكتف بهذا - عليه السلام - ، بل ذهب إلى تنويع أساليب الدعوة ، وتغيير وسائلها ، وأماكنها ، فدعاهم الدعوة الجهرية العامة التي تكون على المستوى العام في المجتمع في محافل الناس واجتماعاتهم الكبرى ، ويقرر ذلك بقوله : ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۗ ﴾ (٣) ، ويدعوهم الدعوة العلنية على المستوى الأقل والأضيق من الدعوة الجهرية : ﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ ۗ ﴾ (٤) ، وكذلك يدعوهم الدعوة السرية الخاصة في اللقاءات الفردية الجانبية السرية الخفية : ﴿ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۗ ﴾ (٥) .

وهذه الأساليب قد استغرقت وقته كله ، وعمره كله ، في ليله ونهاره ، واستمر على هذه الأساليب الدعوية : ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ۗ ﴾ (٦) .

إنه رسول داعية ، موقوف على الدعوة والتبليغ ، وقد أدى واجبه طيلة مئات السنين بصبر وثبات ، وجهاد ونشاط ، وهو قدوة للدعاة إلى الله ، الذين كلفهم الله بواجب الدعوة ، وتوظيف أعمارهم التي لا تتعدى عشرات السنين في أداء هذا الواجب .

-
- (١) سورة نوح ، آية (٥) .
 (٢) سورة نوح ، آية (٨ - ٩) .
 (٣) سورة نوح ، آية (٨) .
 (٤) سورة نوح ، آية (٩) .
 (٥) سورة نوح ، آية (٩) .
 (٦) سورة العنكبوت ، آية (١٤) .

ومن الأنبياء الذين حرصوا على هداية أقوامهم ، وبذلوا في سبيل دعوتهم الغالي والنفيس من أجل صلاح من يدعوهم ، وهدايتهم ونجاتهم من عذاب الله ؛ نبي الله هود - عليهما السلام - ، الذي أرسله الله إلى عاد ، أولئك القوم الجفاة المتمردين في عبادة الأصنام ، والعتو في الأرض والتكبر والتجبر .

وحين ننظر إلى خطاب نبي الله هود - عليهما السلام - تجده في غاية الشفقة والنصح ، وترى فيه من الحرص على الهداية والخوف من النهاية شيئاً عجبياً ، ولا غرو في ذلك ، فقد وصفه الله بقوله : ﴿ أَخُوهُمْ ﴾ ، وهذه الأخوة فيها ما فيها من دوافع الحرص والخوف على من يدعوهم من كل مكروه في الدنيا والآخرة ، ولهذا فقد كان يدعوهم بخطاب غاية في التقرب والتحب ، حيث يقول : ﴿ يَقَوْمِ ﴾ ؛ وذلك ليرقق قلوبهم ، ويفتحوا أذانهم ، فهو أخوهم أولاً ، ثم هو واحد منهم ؛ لأنهم قومه وأهله وعشيرته ، وهو حريص على تقديم الخير لهم ، ودفع الضر عنهم ، وهو دائماً ما يتحجب إليهم بأسلوب الترهيب بعد الترغيب ، انظر إلى قوله لهم : ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) .

ولهذا فهم عندما يعلمون حرصه على نصحتهم وإرشادهم وشفقته عليهم ، وخوفه من وقوع العذاب بهم سيهتمون بكلامه ، ويستمعون لدعوته ، هذا إن كانوا يفقهون !! .

لقد أمدهم بالأدلة التي تدفعهم إلى عبادة الله وحده دون غيره ؛ حرصاً منه على هدايتهم فقال حازماً لهم : ﴿ وَأَتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١٣٦) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمٍ وَبَيْنَ ۖ وَجَنَّتِ وَعَيُونَ ﴿ ۱٣٤ ﴾ (٢) .

وهذه أدلة تبين نعم الله في النفس وفي الكون ، وفي الحياة ، وكلها في خدمة هؤلاء القوم ، ولهذا كان هود - عليهما السلام - من حرصه على هداية قومه ينوع وسائل الدعوة وطرق النصيحة ؛ طمعاً في الإيمان به ، وقبول دعوته ، واستجابة لأوامره ، وكان - عليهما السلام -

(١) سورة الأحقاف ، آية (٢١) .

(٢) سورة الشعراء ، آية (١٣٢ - ١٣٤) .

يركز على النعم الواضحة ، ويأتيهم من حيث حاجتهم لها ويقول : ﴿ وَيَقَوْمٍ أَستَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ (١) ،

وهذا من صنف دعوة نوح - عليهما السلام - لقومه في أمرهم بالاستغفار والتوبة والإنابة ؛ لما في ذلك من أجر عظيم ، ومردوده يكون دنيوياً قبل أن يكون في الآخرة ، وهذا حري بالقوم إن رأوه أن يزيد إيمانهم وتصديقهم بأنبيائهم ، فليس الخبر كالمعاينة ، وإن كانوا هؤلاء الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - صادقين بلا شك ، لكنهم مرسلون إلى قوم معاندين ومكذبين تلزم أن يؤتى لهم بما يصدق هذه النبوة ، ويقوي حضور هذه الدعوة ، ولهذا فقد ربط هود - عليهما السلام - لهم بين القيم الإنسانية والسنن الكونية ، وبين لهم أثر الإيمان بالله وطاعته واستغفاره ، وترك معاصيه والتوبة إليه في الرخاء المادي والوفور الاقتصادي ، والتمكين الحضاري ، وهذه سنة ربانية من سنن الله ، تحكم حياة البشرية ، وهي أن الكون وخيراته بيد الله وحده ، ينعم بها من يشاء من عباده ، وإذا آمن الناس بالله وعبده وأطاعوه ، ووظفوا قواهم في عمارة الأرض ، وابتعدوا عن معاصي الله ، وتابوا إلى الله واستغفروه ؛ فإن الله ينعم عليهم بالمزيد من النعم ، ويزيدهم خيراً إلى خيرهم ، وقوة إلى قوتهم ، أما إذا رفضوا هذا الطريق ، وتولوا مجرمين ، فإن الله يسلبهم هذه النعم ، أو يجعلها سبباً في شقائهم ويوقع بهم العذاب والهلاك ، وهذا الذي خشيه هود - عليهما السلام - على قومه وخاف عليهم منه ، فذهب يذكرهم ويحذرهم ؛ حرصاً وشفقة منه عليهم .

بل لقد وصف نفسه بالناصح الأمين في أي ما موضع في القرآن ، ووصف نفسه بالرسول الأمين ، وانظر لكلمة الأمين التي تعني كل معاني الصدق والوفاء والالتزام بأخلاق الفضائل ، وترك الرذائل وعدم الكذب والبهتان ، وهو هنا ليس في مقام مدح لنفسه بقدر ما هو حرص منه - عليهما السلام - في أن يتقبل هؤلاء القوم دعوته ، فتارة يقول لهم : ﴿ أَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ ﴾ (٢) ، والأمانة هي صفة الرسل - عليهم السلام - إلى جانب التبليغ

(١) سورة هود ، آية (٥٢) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (٦٨) .

والنصح ، ولقد لُقّبَ النبي - ﷺ - بالأمين ، بشهادة قومه أنفسهم ، فلما بلغهم رسالة ربه اهتموه بالكذب والافتراء .

وفي تقديم : ﴿ لَكُمْ ﴾ في قول هود - ﷺ - دليل على اهتمامه بما ينفعهم ، وإشارة إلى حرصه عليهم .

وتارة يقول لهم : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ (١) ، وهذا - أيضاً - تأكيد على صدقه وأمانته في تبليغ رسالة ربه لهم ، وحرصه على تأدية ما كلفه الله به من الرسالة ، وحرصه - أيضاً - على استجابة قومه لدعوته ﷺ - من أجل هدايتهم إلى الصراط المستقيم .

كما أنه - ﷺ - أخبرهم أنه لا يريد منهم أجراً ولا مالاً ولا منفعة ، وإنما يقوم بواجبه الذي أوجبه الله عليه في تبليغهم الدعوة والرسالة ، وهذا أسلوب يدل على حرص صاحبه ومبالغته في بيان النصح وإرادة الخير ، حين يفعل الفعل ويقوم بالعمل دون مقابل أو أجر مادي ، في دلالة واضحة على الصدق التام والإخلاص في النية والعمل .

﴿ يَنْقُومَ لَأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

﴿ ٥١ ﴾ (٢) .

يقول ابن كثير :

« وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة في غاية النصح لقومه ، والشفقة عليهم ، والحرص على هدايتهم لا يتبغي منهم أجراً ، ولا يطلب منهم جُعلاً ، بل هو مخلص لله - ﷻ - في الدعوة إليه والنصح لخلقه ، لا يطلب أجره إلا من الذي أرسله ، فإن خير الدنيا والآخرة كله في يديه ، وأمره إليه » (٣) .

(١) سورة الشعراء ، آية (١٢٥) .

(٢) سورة هود ، آية (٥١) .

(٣) قصص الأنبياء ص (١٠٥) .

لقد تناول هود - عليه السلام - كافة الوسائل الممكنة ، فبين دعوة الله برفق ، ووضح الأدلة التي تؤيده هذه الدعوة ، وجعلها أدلة بسيطة تلامس المحسوس عند الناس ، ورجب قومه في نعم عديدة تأتيهم إن آمنوا بخالقهم وعبدوه وحده ، وخوفهم من عذاب الله ينزل بهم إن لم يؤمنوا ، وكل هذا لم يحقق شيئاً عند هؤلاء القوم ، وكان آخر ما قالوا له : ﴿ فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴾ (٧٠) (١) ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، وأرسل عليهم عذابه الأليم .

ومن الأنبياء الذين بلغوا رسالات ربهم ، ودافعوا وذادوا عن حياض العقيدة الإلهية وتوحيد الله الخالق ؛ نبي الله صالح - عليه السلام - الذي أرسل إلى قوم ثمود ، الذين طغوا في الأرض واستحبوا العمى على الهدى ، بعد أن هداهم الله إلى عبادته وصراطه المستقيم ، ولهذا دعاهم نبيهم صالح - عليه السلام - ووعظهم ونصح لهم ، وحرص على هدايتهم ، وذكرهم بنعم الله عليهم ظاهرة وباطنة ، ولفت انتباههم إلى استخلاف الله لهم من بعد قوم عاد الذين هلكوا بالعذاب ، وكأنه يدعوهم إلى العظة والاعتبار ممن سبقهم ، وكيف كان عاقبة ظلمهم ، فقال لهم :

﴿ اَعْبُدُوا اللّٰهَ مَا لَكُمْ مِنْ اِلٰهِ غَيْرِهٖ ۗ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ هَذِهِ نَاقَةُ اللّٰهِ لَكُمْ اٰيَةٌ ۗ فَذُرُوْهَا تَاْكُلْ فِيْ اَرْضِ اللّٰهِ وَلَا تَمْسُوْهَا بِسُوْءٍ فَيَاْخُذَكُمْ عَذَابُ الْاَلِيْمِ ﴾ (٧٣) وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَادْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلَا تَعَثُّوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ (٢) .

فهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وهذا أساس دعوته ودعوة جميع الرسل ، وهو الإيمان بالله وتوحيده وعدم الإشراف به شيئاً في العبادة ، وهكذا نبي الله صالح - عليه السلام - حرص على هذا الأمر ، فبدأ به أولاً وهو عبادة الله وحده هو الإله المتفرد

(١) سورة الأعراف ، آية (٧٠) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (٧٣ - ٧٤) .

بالربوبية والألوهية ، ثم يذكرهم بالمعجزة التي سألوها إياه فأجابهم لذلك ودعاه ربه أن يخرج لهم الناقة التي طلبوها بصفاتها ، وهذا من حرصه - ﷺ - على هداية قومه وصلاحهم أن سأل ربه أمراً خارقاً للعادة حتى يكون مؤيداً لهم ومصداقاً لدعوته ، وحتى يروا هذه البينة ، وهذه المعجزة فيؤمنوا به ويصدقونه .

ولهذا قال النبي - ﷺ - لما مر بالحجر : « لا تسألوا الآيات ، فقد سألها قوم صالح فكانت . . . الحديث » (١) .

فقوم ثمود سألوا نبي الله صالحاً أمراً خارقاً ، ومعجزة تجعلهم يصدقون نبيهم ، فاستجاب لهم صالح بعد أن أخذ عليهم العهود والمواثيق أن يسلموا إن هم رأوا هذا الأمر ، وأخرجه لهم ، فما ازدادوا إلا عناداً واستكباراً وعتواً في الأرض ، حتى إن صالحاً - ﷺ - حذّرهم من مساس الناقة بسوء ؛ خوفاً عليهم من عذاب الله ، مع ما كان يرجوه لهم من الهداية باستمراره في النصيح والإرشاد والتحذير تارة ، والترغيب تارة أخرى ، ومع هذا فقد خالفوا أمر الله ، وارتكبوا الذنب الذي حذّرهم منه صالح مراراً وتكراراً ، ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِّحُ اتِّتْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٢) .

« فجمعوا في كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه منها :

أهم خالفوا الله ورسوله في ارتكابهم النهي الأكيد في عقر الناقة التي جعلها الله لهم آية .

ومنها أنهم استعجلوا وقوع العذاب فاستحقوه » (٣) .

وكان آخر ما قال لهم نبيهم صالح - ﷺ - : ﴿ وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ

(١) تقدم تخريجه ص (٣١٨) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (٧٧) .

(٣) قصص الأنبياء لابن كثير ص (١٢٢) .

لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ ﴿٧٩﴾ (١) ، أي : جهدت في هدايتكم بكل ما أمكنني ، وحرصت على ذلك بقولي وفعلي ونيي ولكن سجاياكم لمن تكن تقبل الحق ولا تريده ، فصرتم إلى ما أنتم عليه (٢) .

وكذلك نبي الله شعيب - عليه السلام - فلقد حرص على هداية قومه أيما حرص ، وسلك في سبيل إصلاحهم كل مسلك ، وذهب في دعوتهم كل مذهب ؛ طمعاً في إيمان وطاعة وتقبل دعوة وتصديق رسالة .

ولو نظرت إلى وعظه ونصحه لقومه لوجدته دائماً يبدأ بما بدأ به إخوته الأنبياء من قبله بكلمة : ﴿يَقَوْمِ﴾ التي تحب وتقرّب ، ونحن نعلم أن من أعظم وسائل الدعوة والهداية هو وسيلة النصح والوعظ والتذكير ، وهذا كان من أوضح دلائل حرص نبي الله شعيب - عليه السلام - على هداية قومه ، وانضوائهم تحت لواء الموحدين لله ، المصلحين في الأرض ولا يفسدون ، ولهذا سمي بـ (خطيب الأنبياء) ؛ لكثرة ما وعظ فيهم ونصح وذكّر ، وحذّر وأنذر ، ورغب ورهّب ، في دلالة واضحة على حرصٍ عظيم ، وشعور بالمسؤولية تجاه قومه .

لقد ربط مشكلات عصره بالعبودية في نصحه وإرشاده لقومه فقال لهم : ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ (٣) .

ففي هذه الآيات وغيرها تأكيد من الله تعالى على أن الذين يعبدون الله حق عبادته ، لا ينقصون المكيال والميزان ، ولا يبخسون الناس أشياءهم ، ولا يفسدون في الأرض ، وعن غير هذا الطريق لا يكون هناك إصلاح ، ولا عدل ولا مساواة بين الناس .

(١) سورة الأعراف ، آية (٧٩) .

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير (١٢٥) .

(٣) سورة هود ، آية (٨٤) .

كثيراً ما كان ينصح قومه ويحذرهم من أفعال الفساد الديني والدينيوي ، وأن كلا الأمرين مرتبطين لا ينفكان عن بعضهما البعض ، مكملان لبعضهما في إشارة إلى أن الدين إنما هو من أجل صلاح الدنيا ، والدنيا ما هي إلا مكان إظهار شعائر هذا الدين وتطبيقه على أرض المشاهدة والواقع .

لقد حرص شعيب - عليه السلام - على أن يجعل مجتمع قومه مجتمعاً صالحاً لعمارة الأرض بالتوحيد والعبادة ، والعدل ، والصدق ، والمساواة ، واحترام الحقوق ، وعدم الظلم ، والبخس والسرقة .

لقد وجد شعيب - عليه السلام - عند قومه جرائم اقتصادية تتعلق ببخس المكيال والميزان ، والإفساد الاقتصادي ، ولذلك دعاهم إلى الإقلاع عن هذه الجرائم الاقتصادية والاجتماعية التي جعلت من مجتمع قوم مدين مجتمعاً فاسداً معوجاً بعيداً عن منهج الله .

وكذلك نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - ، فلقد حرص على إيمان الناس كافة ، وعلى نفعهم بكل ما يقدر على بذله وفعله ، حتى بلغ ذلك الحرص مبلغاً لم يبلغه حرص أحد ممن سبقه من النبيين والمرسلين ، وذلك لما كان عليه من الرأفة والرحمة بالمؤمنين خاصة ، وبأمة دعوته عامة ، كما وصفه الله بذلك ولم يصف أحداً من رسله به ، حيث قال سبحانه :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) ، وحيث قال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٢) .

فلقد كان كل نبي يبذل قصارى جهده في النصيحة والصبر والتضحية ، فإذا رأى أنه قد يئس من إيمان قومه دعا عليهم ، فأقر الله عينه بإهلاكهم وهو ينظر ، كما فعل نوح ، وكما فعله بقوم هود وصالح ولوط وغيرهم - عليهم السلام - .

(١) سورة التوبة ، آية (١٢٨) .

(٢) سورة الأنبياء ، آية (١٠٧) .

أما نبينا محمد - ﷺ - ، فإنه لم يفعل ذلك ، ولم يئس من هداية قومه ، أو هداية من يخرج من أصلابهم مع ما كان يناله الأذى من قومه ، وعداوتهم وبغضائهم ، وما يراه من مكابرتهم للحق ، وصددهم عن دين الله ، ومع ذلك فقد كان يمضي في دعوته إياهم ، والصبر عليهم وتحمل أذاهم ، ولا يدعو عليهم ، ولقد وصف الله حاله معهم بقوله :

﴿ وَلَقَدْ نَعَلْمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ ﴿٩٧﴾ (١) .

ومع ذلك فقد حرص كل الحرص على إيمانهم ونفعهم ، وعدم طلب استئصالهم بالعذاب من الله ، بل ما كان يزيده كثرة الأذى منهم إلا حلمًا عليهم وصبرًا على عنتهم ، وعداوتهم ومكرهم ، وكان يقول - عليه الصلاة والسلام - : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » (٢) ، ويرادوه ملك الجبال في أن يطبق عليهم الأخشبين (٣) فيقول : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئًا » (٤) .

فهكذا كان يقابل إساءتهم إليه بالإحسان إليهم ، فما ملّ ولا كلّ من دعوتهم إلى الله ؛ لينقذهم من النار مع عظيم عنادهم ، وكبير جفائهم ، وغلظتهم ، وكان يدعوهم ويقول : « يا معشر قريش : اشترُوا أنفسكم ، لا أغني عنكم من الله شيئًا ، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئًا ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئًا ، يا صفية عمّة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئًا ، ويا فاطمة بنت محمد سأليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئًا » (٥) .

(١) سورة الحجر ، آية (٩٧) .

(٢) الدلائل للبيهقي (٢١٥/٣) .

(٣) هما : الجبلان المطيفان بمكة ، أبو قبيس وقعيقان . غريب الحديث لابن حجر ص (٨٢) .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب بدء الخلق ، باب إذا قال أحدكم آمين (١١٥/٤) برقم

(٣٢٣١) .

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب التفسير ، باب ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ﴿٦١٤﴾ (١١١/٦) -

(١١٢) برقم (٤٤٧١) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾

﴿٦١٤﴾ (١٦٤/١) برقم (٢٠٦) ، وأخرجه أيضًا في كتاب الجهاد والسير ، باب ما لقي النبي - ﷺ -

من أذى المشركين (١١٣٣/٣) برقم (١٧٩٥) .

ولا غرو في أن يكون سيدنا محمد بن عبد الله - عليه صلاة ربي وسلامه - بهذه المثابة من الحرص على الناس في الإيمان الذي هو سبب نجاتهم من النار ، ونيلهم السعادة الأبدية ، فإنه رؤوف رحيم ، كما وصفه الله تعالى بذلك حيث قال : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

« والرأفة : رقة تنشأ عند حدوث خير بالمرؤوف ، والرحمة : تقتضي الإحسان للمرحوم » (٢) ، وهما من صيغ المبالغة ، أي : أنه شديد الرأفة ، شديد الرحمة .

وعن ذلك نشأ حرصه وهو شدة رغبته - ﷺ - في نفع الناس كافة ، نفعاً لا يعادله نفع ، ولا توازيه مصلحة ؛ لأنه نفع للجسد والروح ، في الدنيا والآخرة ، وكان ذلك خلقاً له وسجية فيه ، ظهر أثره في رفقه بأمته ، وبذل جهده فيما يسعدهم ويعددهم من عذاب الله .

ولقد بلغ حرصه - ﷺ - على أمته مبلغاً كاد يزهق روحه ، ويقضي على نفسه الشريفة العزيزة ، حتى ترفق الله له في ذلك وعاتبه على شدة حرصه وقال له : ﴿ فَلَعلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (٣) ، وقال في موضع آخر : ﴿ لَعلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٤) .

فالله - ﷻ - يشفق عليه ويتلطف بـ ﴿ لَعلَّ ﴾ التي هي للترجي والإشفاق ؛ لأن يقتصر على ما هو واجب عليه من البلاغ المبين ، لا أن يجهد نفسه ويصل بها إلى حد الإهلاك أسفاً على عدم الإيمان بالله ، وبما جاء به من عنده - ﷻ - ، ولهذا قال له في آية أخرى :

-
- (١) سورة التوبة ، آية (١٢٨) .
 (٢) التحرير والتنوير (٧٣/١١) .
 (٣) سورة الكهف ، آية (٦) .
 (٤) سورة الشعراء ، آية (٣) .

﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (١) .

إلى غير ذلك من الآيات التي توضح طبيعة مهمته بأنها لا تعدو البلاغ ، والهداية بعد ذلك إلى الله هو مسديها لمن يشاء من عباده ؛ وذلك ليخفف عن نفسه العبء الذي تحمله بمقتضى رأفته ورحمته ، غير أن خُلُقِي الرأفة والرحمة ألبا عليه إلا الاستمرار على ذلك النهج من الحرص ، فلم يزل ذلك دأبه ودأبهم حتى أقنعه الله تعالى بعدم جدوى حرصه مع من كتب عليهم الشقاء ، فقال له :

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) ، وقال له أيضاً : ﴿ إِن تَحْرَصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ (٣) .

فعدتد لم يكن بد من قطع الطمع الشديد في إيمانهم ، ولم يكن بد من الاقتصار على التبليغ والإنذار والتبشير ، فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فعليها ؛ عملاً بقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ۗ فَمَنْ أِهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۗ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ (٤) .

أي : فتحبرهم على الهدى ، غير أنه - ﷺ - لم يفتأ حريصاً على نفع المؤمنين من أمته ، فما من خير إلا ودلهم عليه وحثهم به ، وما من شر إلا وحذرهم منه ، وذلك ليزدادوا خيراً وهدى وإيماناً ، فيزداد أجراً ، وصلاح دينهم وديانهم ، حتى قال تعالى فيه : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۗ ﴾ (٥) ؛ وذلك لما علمه الله من شفقتة على أمته وحرصه عليهم ونصحهم ، فجعله أولى بهم من أنفسهم ، وحكمه فيهم مقدماً على

(١) سورة فاطر ، آية (٨) .

(٢) سورة يوسف ، آية (١٠٣) .

(٣) سورة النحل ، آية (٣٧) .

(٤) سورة الزمر ، آية (٤١) .

(٥) سورة الأحزاب ، آية (٦) .

اختيارهم لأنفسهم (١) .

وقد كان - ﷺ - يفصح ذلك لأمته ، ويقول : « إنما أنا لكم بمنزلة الوالد » (٢) .

ويحثهم على التخلي عن النظر في مصالح أنفسهم إذا كان قد دلهم على مصيبتها ، أو إثارة أنفسهم على نفسه الشريفة بأبي هو وأمي - ﷺ - فيقول : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين » (٣) ؛ وذلك لأنه لا يأمرهم ولا يرضى منهم ، ولا يرضى لهم ، إلا ما فيه صلاحهم ، ونجاحهم بخلاف النفس ، فإنها قد تأمره بالسوء والفحشاء ، وتورده المهالك ، فلذلك وجب على المؤمنين أن يكون النبي - ﷺ - أحب إليهم من أنفسهم وأمره أنفذ فيهم من أمرها ، وشفقتهم عليه ، أتم من شفقتهم عليها (٤) .

ولهذا لما كان - ﷺ - في الحرص عليهم والنصح لهم بهذه المثابة ألزم أمته اقتفاء أثره ، واتباع سنته ، والابتعاد عن مخالفته أو الابتداع في شريعته حتى ينالوا الخير العميم ، والنفع الجسيم في الدارين ، وذلك بمثل قوله - عليه الصلاة والسلام - : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » (٥) .

وكذلك قوله - ﷺ - : « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما ، كتاب الله وسنة نبيه » (٦) .

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٨٠/٦) .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب الطهارة ، باب كراهية استقبال القبلة برقم (٦) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب حب النبي - ﷺ - من الإيمان (١٢/١) برقم (١٥) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب وجوب محبة رسول الله - ﷺ - (٦٩/١) برقم (٤٤) .

(٤) تفسير البيضاوي ص (٥٥٢) .

(٥) أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب السنة ، باب لزوم السنة برقم (٤٦٠٧) .

(٦) تقدم تخريجه ص (١٥٠) .

فهذه وصيته - عليه الصلاة والسلام - لأمته ؛ ليتمسكوا بها ؛ ليكون حالهم بعد موته
كما كان قبل وفاته ، فيفوزوا بما يرجوه لهم من خيري الدنيا والآخرة .



المبحث الثالث

الرفق في الأقوال والأفعال

الرفق في اللغة : النفع ، يقال : أرفق فلان فلانًا إذا مكنه منه ، مما يرتفق به ، ومنه مرافق البيت للمواضع التي ينتفع بها زيادة على ما لا بد منه ، ورفيق الرجل في السفر يسمى بذلك ؛ لانتفاعه بصحبته .

وفي الاصطلاح : هو اليسر في الأمور واللطف فيها ، والسهولة في التواصل إليها ، وضده العنف ، وهو التشديد في التواصل إلى المطلوب (١) .

ونحوه اللين ؛ إذ هو في اللغة السهولة ، يقال : لان الشيء لينًا وليانًا : سهل وانقاد ، ولاينه ملاينة إذا لاطفه .

وفي الاصطلاح : ضد الخشونة والصعوبة (٢) .

فهما إذا بمعنى واحد في الدلالة على سماحة الخلق ، والرأفة بالخلق ومعالجة الأمور بسهولة ويسر ، وهما من المكارم التي نحن في صدد بيانها في الجانب النبوي العظيم ، ويدل على أنهما من مكارم الأخلاق العظيمة تنويه القرآن الكريم بالمتحلين بها تنويهاً عظيماً ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَالْكٰظِمِيْنَ الْغَيْظَ وَالْعَٰفِيْنَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللّٰهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِيْنَ ﴾ (٣) ، وكظم الغيظ عن المسيء وعدم مؤاخذته هو عين الرفق به والعفو عنه بعد إساءته هو لين في معاملته وزيادة ، وفعل ذلك يدل على زكاء الخلق ، وعظيم النبل ، وكريم السجايا ، التي يحبها الله تعالى ويجب أهلها ، ولذلك كان جزاؤهم عنده سبحانه أن نظمهم في سلك المحسنين الذين أوجب لهم محبته فضلاً منه ومنّة .

ولما كانت هذه الأخلاق الكريمة ترشح لنيل محبة الله تعالى ندب الله عباده من المؤمنين

(١) الفروق في اللغة للعسكري ص (٢١٣) .

(٢) المفردات للراغب ص (٤٥٧) .

(٣) سورة آل عمران ، آية (١٣٤) .

إلى نيل ذلك منه سبحانه ، بأخذهم بأسباب محبة الله ، من كرائم الأخلاق ، كخلق الرفق واللين الذين حث الله تعالى عليهما في غير ما آية ، وذلك كما في قوله - جل شأنه - مخاطباً نبيه - ﷺ - : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١) ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٢) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حُظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (٣) ،

فهذه خطابات وجهها الله تعالى لخير خلقه ، وخاتم أنبيائه ، سيدنا محمد بن عبد الله - عليه أفضل الصلاة والسلام - الذي أرسله رحمة للمؤمنين ، شواهد له بأنه رؤوف رحيم ، بل وأقسم سبحانه وهو العلي العظيم أنه على خلق عظيم ، فتراه بعد ذلك يوجهه الله تعالى إلى الرفق بأمته ، واللين معهم بأخذ العفو ، أي : اليسير من أخلاق الناس وأعمالهم ، وأن يتساهل معهم ولا يطلب منهم ما يشق عليهم ، وأن يأمرهم بالمعروف أي المستحسن من الأفعال ، وأن يعرض عن الجاهلين فلا يماريهم ولا يكافؤهم. تمثل أفعالهم ، وهذه الآية جامعة لمكارم الأخلاق ، أمرة له باستجماعها (٣) .

وكذلك الآية الثانية فإنها ترشد إلى معال الأخلاق من الرفق واللين في القول والفعل ، وتبين عظيم أثرهما في الهداية والألفة والمحبة ، وأنها أدعى لقبول ما يقدمه الإنسان لغيره من الدعوة إلى الله بأحسن أسلوب ، وألين قول وأرفق فعل .

ولقد تمثل خلق الرفق واللين في الأقوال والأفعال في أدب أنبياء الله ورسوله ، وكانوا المثل الأعلى ، والقدوة الأسمى في تطبيق هذا الخلق الجليل ، كيف لا وهم الذين أرسلهم الله تعالى رحمة وهداية للناس ، ومنازراً وعلامات يهتدى بها في طرق الضلالة والغواية ، ونحن نعلم أن الرحمة والهداية تنبع من أساس الرفق واللين قولاً وعملاً ، حتى وإن ظهر منهم شدة

(١) سورة الأعراف ، آية (١٩٩) .

(٢) سورة فصلت ، آية (٣٤ - ٣٥) .

(٣) أنوار التنزيل للبيضاوي ص (٢٣٢) .

في بعض أحيائهم ، وقسوة في بعض أقوالهم ، فإنما هو نابع من باب الحرص على الهداية ، والسعي الحثيث لإنقاذ البشر من عذاب الله ومن منطلق :

فقسى ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس أحياناً على من يرحم

لهذا لو تدبرت خطاب أنبياء الله ورسله لأقوامهم وردة فعلهم تجاه ما يواجهه به أقوامهم من التكذيب والاستهزاء لوجدت الرفق واللين في أروع صوره ، وأبهى مناظره ، ويكفيك الوصف العاطفي الذي يورده القرآن عندما يبدأ بذكر قصة أحدهم عندما يخاطب قومه فيبدأ بذكر أنه (أخاهم) وهذه كلمة عندما تطرق الأسماء تذهب إلى كل معنى جميل ، تتضمن هذه الأخوة من المحبة والعطف والحرص على الهداية ، والسعي للنفع والرفق في القول والفعل المبني على منفعة الدنيا والآخرة .

بل إن كل نبي من أنبياء الله ورسله - عليهم الصلاة والسلام - لا يبدأ خطابه ودعوته لهم إلا بكلمة : ﴿ يَقُومُ ﴾ هذه الكلمة التي تشعر من يوجه له الخطاب بالألفة والقرب الروحي والجسدي فيكون مدعاة لقبول الحديث وفطنة تقبل هذه الدعوة واستجابتها ، فنوح - عليه السلام - يقول لقومه :

﴿ يَقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) .

وتأمل قوله : ﴿ يَقُومُ ﴾ ، وقوله : ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ وما فيهما من الرفق واللين والإحساس بالشفقة والمحبة ، فلا يخاف عليك إلا من يحبك ، وشعورك بالخوف على أحد هو نوع من أنواع الرفق واللين حينما تعبر له عن هذا الشعور بالقول ، وكيف لا ومن يتحدث هنا هو نبي الله نوح - عليه السلام - أول أنبياء الله ورسله من أولي العزم من الرسل ، الذي مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً لم يدع فيها مجال للرفق واللين قولاً وعملاً إلا وسلوكه ؛ ابتغاء هداية قومه ، ونجاتهم من العذاب .

(١) سورة الأعراف ، آية (٥٩) .

بل إنه لم يدع على قومه ولم ييأس من عدم إيمانهم إلا عندما أخبره الله بذلك ،
وأوحى بقوله :

﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدَّ ءَأَمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا
كَأَنُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (١) .

وحيثما طلب منه الملائ الذين كفروا من قومه المتكبرين المتغترسين أن يطرد الضعفاء
من قومه الذين آمنوا به وسموهم أراذل لم يستجب لهم ورد عليهم بكل رفق ولين على
هؤلاء الضعفاء ، وقال : ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَأَمَنُوا إِنَّهُمْ مُّلِقُوا رَبِّهِمْ ﴾ (٢) ،
وقال : ﴿ وَيَقَوْمٍ مِّن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدْتُهُمْ ﴾ (٣) ، فانظر كيف تمثل بخلق
الرفق واللين وأدب الدعوة بإكرام هؤلاء الضعفاء المستضعفين من أراذل القوم ، فلم يطردهم
عندما طلب سادة القوم من نوح - عليهما السلام - هذا الأمر ، بل بين مكانهم في الدين وقدرهم
عند ربهم ، وأن طردهم قد يعرضه هو لعقوبة وعذاب يحتاج فيه إلى نصره منه وخلاص .

فهنا يظهر لك جلياً تمثل أدب نبي الله نوح - عليهما السلام - في الرفق واللين في دعوته
لقومه واضحاً جلياً .

وكذلك نبي الله هود - عليهما السلام - وصالح وشعيب ، كل هؤلاء الرسل تمثلوا بخلق اللين
والرفق قولاً وفعلاً .

فهود حينما اتهم قومه بالسفاهة والكذب لم يتبرم ولم يغضب لنفسه ولم يتهور ، بل
أجاب قومه بكل رفق وحلم ولين فقال : ﴿ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ
الْعَالَمِينَ ﴾ (٦٧) أبلغكم رسالت ربّي وأنا لكم ناصح أمين ﴿ (٦٨) ﴾ (٤) .

(١) سورة هود ، آية (٣٦) .

(٢) سورة هود ، آية (٢٩) .

(٣) سورة هود ، آية (٣٠) .

(٤) سورة الأعراف ، آية (٦٧ - ٦٨) .

وانظر في هذا الأدب النبوي العظيم ، الذي تهتز له القلوب والأسماع وترتقي به النفوس إلى قمم الخلق النبيل ، والشيم والمروءة ، فقوم هود - عليّاً - ينتقصون منه ويتهمون به في عقله بالسفاهة ، وفي لسانه بالكذب ، ومع ذلك لم تأخذه هذه السفاهة من قومه ولم تزده إلا حلمًا ورفقًا ولينًا ، بل ومع هذا فيتقرب إليهم ويتودد لهم بكل رفق ولين بأنه ﴿ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ ، الناصح الذي يريد لكم الخير ويطلب لكم النفع ، ويدلكم على النجاة ويصدقكم بأمانته ، فلا يغشكم ، ولا يخدعكم ، ولا يلبس عليكم حقًا ، ولا يريد لكم باطلاً .

لهذا فإن على الدعاة أن يهتموا بالرفق واللين ، ويجعلوا من أنبياء الله ورسله في دعوتهم لأقوامهم قدوة حسنة ؛ ليصلوا إلى غرضهم ، ولا يجعلوا همهم الغضب والانتقام ؛ لأن ذلك ينفر المدعوين منهم ، ولا يجيبهم في استماع الدعوة وتفهمها .

يقول الإمام الغزالي :

« أما حسن الخلق بعد العلم والورع ، فضرورة ليتمكن من اللطف والرفق ، وهو أصل الباب ، وأسلمه ، والورع والعلم لا يكفيان فيه ، فإن الغضب إذا هاج لم يكف مجرد العلم والورع في قمعه ما لم يكن في الطبع قبوله وعلى التحقيق ، فلا يتم الورع إلا مع حسن الخلق والمقدرة على ضبط الشدة والغضب ، وبه يصبر المحتسب على ما أصابه من دين الله ، وإلا فإذا أصيب عرضه أو ماله أو نفسه نسي الحسبة ، وغفل عن دين الله واشتغل بنفسه ، بل ربما يقدم عليه ابتداء لطلب الجاه والاسم » (١) .

ويقول الشيخ علوي الحداد :

« على الدعاة أن يكونوا على نهاية من الصبر والاحتمال وسعة الصدر ولين الجانب ، وخفض الجناح ، وحسن التأليف وإن دخل عليهم شيء من أذى الجاهلين عليهم أن يصبروا ويعرضوا ويقولوا خيراً ؛ لأنهم من عباد الرحمن الذين إذا خاطبهم الجاهلون قالوا

(١) الدعوة الإسلامية للدكتور أحمد غلوش ص (٤٥٣) .

سلاماً» (١) .

ولما لخلق اللين والرفق من أهمية وتأثير ، فقد وجه الله - ﷻ - نبيه موسى أن يلين في القول في دعوته لفرعون الطاغية بقوله تعالى :

﴿ قُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ (٢) .

فوجه الله نبيه موسى ونبيه هارون - ﷺ - أن يحسنا مخاطبة فرعون بالقول اللين ؛ ليصلا إلى قلبه ، ويستخرجنا كوامن الخير فيه .

قال ابن كثير - رحمه الله - :

« هذه الآية فيها عبرة عظيمة ، ففرعون كان في غاية العتو والاستكبار ، وموسى هو صفوة الله من خلقه في ذلك الوقت ، ومع هذا أمر الله موسى أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين .

قال يزيد الرقاشي يناجي ربه :

يا من يتحجب إلى من يعاديه فكيف بمن يتولاه وينادي به

أي أن الله يتحجب إلى عدوه فرعون ، ويطلب رسوله موسى وهارون بمخاطبته بالقول اللين ، رجاء أن يتخلى عن كفره ويؤمن بالله .

فإذا كان الله يفعل هذا بعدوه ، فكيف يكون تحببه إلى أوليائه؟! .

ثم ذكر أقوالاً في المراد بالقول اللين وقال بعدها : والحاصل من تلك الأقوال أن دعوتها له تكون بكلام رقيق لين ، سهل رقيق ؛ ليكون أوقع في النفوس ، وأبلغ وأنجع ، وهذا كقوله تعالى :

(١) الدعوة التامة ص (٩) .

(٢) سورة طه ، آية (٤٤) .

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (١) « (٢) .

ولهذا فقد طلب الله من موسى وهارون - عليهما السلام - أن يقولوا لفرعون قولاً ليناً ، فقد يستمع فرعون لهذا القول اللين ويتفاعل معه ، ويفتح له عقله وقلبه ، وبذلك يتذكر الحقائق والبديهيات ، ويعرف الحق من الباطل فيتخلى عن ما هو عليه من كفر وطغيان ، ويؤمن بالله ويطيعه ويخشاه .

وكذلك في موضع آخر قال له :

﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَزَكَّى ﴿٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿٩﴾ ﴾ (٣) .

وهذا مثال للقول اللين الذي يجب أن يقال لفرعون ، ولهذا قال له موسى - عليه السلام - : هل لك يا فرعون أن تتزكى وتتطهر وتتخلى عن ما أنت فيه ؟ ما رأيك أن تستمع وتستجيب لي ، فإني أريد أن أهديك إلى ربك ، وأخذ بيدك إلى الطريق التي يرضى ربك عنها ، فإن لك رباً هو الله ، ربك ورب العالمين .

وهذا يعني أن القول اللين في أسلوب التعبير ، وكيفية القول ونبرة الصوت ، يكون سبباً وأدعى إلى استماع فرعون له وتأثره به ، وهكذا يعلم الله - تعالى - نبيه موسى أسلوب القول اللين الذي يوقظ القلب ، ولا يهيج الكبرياء قولاً يرغب في الامتثال وقبول الحق ، فالقول اللين موعظة تدخل إلى القلب برفق ولين لا بزجر وتأنيب وتقبيح ، تنفر سامعها منها ؛ لأن النفس الإنسانية لها كبرياؤها وعنادها ، ويثقل عليها المواجهة بالإثم ، واللين في القول من شعار الدعوة إلى الله تعالى ، ومن أسس الحكمة في القول ؛ إذ المقصود من دعوة الرسل حصول الاهتداء ، لا إظهار العظمة وغلظة القول .

(١) سورة النحل ، آية (١٢٥) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢٩٤/٥ - ٢٩٥) .

(٣) سورة النازعات ، آية (١٧ - ١٩) .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمته - :

« ولا بد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الرفق ، ولا بد أن يكون حليماً صبوراً على الأذى ، فإنه لا بد أن يحل له أذى ، فإن لم يصبر ويحلم كان ما يفسد أكثر مما يصلح ، وينقل ما قاله القاضي أبو ليلى ، لا يأمر ولا ينهى إلا من كان رفيقاً فيما يأمر به ، رفيقاً فيما ينهى عنه ، حليماً فيما يأمر به ، حليماً فيما ينهى عنه » (١) .

وهنا لا بد أن أشير إلى أمر مهم في هذا المبحث ، وهو أن الأمر بالليوننة هنا إنما هي تكون في أسلوب الدعوة وطريقة عرضها لا في مضمونها .

فليس القول اللين يأتي في ماهية القول ، ومضمون العبارة ، ولا في حقائق الفكر والتصور ، ولا في التنازل عن المبادئ ، فهذا المضمون لا يقبل الليونة ؛ لأن الليونة فيه تعني التحريف والتغيير والتبديل ، ولكن التوجيه الرباني هنا والأدب النبوي إنما جاء في باب الطريقة والأسلوب والعرض لهذه الدعوة ، وهذا الخلق ، ولنا في خاتم الأنبياء - عليه الصلاة والسلام - القدوة الحسنة ، فلقد تمثل خلق الرفق واللين في النبي - صلى الله عليه وسلم - في جميع جوانب حياته الخاصة والعامة ، وقد علمنا أن الله - عز وجل - وهو أصدق القائلين شهد لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالرفقة والرحمة للمؤمنين ، وبالخلق العظيم ، وباللين الكريم في معاملته لهم ، وإن وقائع أحواله - صلى الله عليه وسلم - في الرفق بأمتة ولينه لهم كثيرة شهيرة .

ويكفي في ذلك قوله تعالى واصفاً نبيه - عليه الصلاة والسلام - بهذا الوصف

العظيم :

﴿ فِيمَا رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ لَنتَ لَهُمْ ^ط وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ^ط فَاعْفُ عَنْهُمْ ^ط وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ^ط وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ^ط ﴾ (٢) .

فمن الأفعال الدالة على رفقته - بأبي هو وأمي عليه الصلاة والسلام - أنه لم يستعمل عذاب قومه الذين آذوه وحاولوا صدده عن إبلاغ رسالته بكل ما أوتوا من قوة حسية أو

(١) الحسبة في الإسلام ص (٢٨١ - ٢٨٢) .

(٢) سورة آل عمران ، آية (١٥٩) .

معنوية ، وألحقوا به الأذى ، ومع ذلك لما رأف به ربه - جل وعلا - وأرسل إليه ملكاً يستأذنه في استئصالهم ، قال - عليه الصلاة والسلام - : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله » (١) ، ولما قال له أصحابه الكرام - رضوان الله عليهم - : يا رسول الله ، ادع على المشركين ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : « إني لم أبعث لعاناً ، إنما بعثت رحمة » (٢) .

ولما هاجر إلى المدينة ، ونشأ في دار مهاجرة النفاق والمنافقون الذي كانوا أخطر على دعوته ودولته من أعدائه المشركين في الخارج ، ومن اليهود في الداخل والخارج ، وكان كثيراً ما يكشف نفاقهم الواحد تلو الآخر ، والجماعة تلو الجماعة ، فيستأذنه أصحابه البررة - ﷺ - في قطع دابرهم واستئصال شأفتهم ، فيقول - عليه الصلاة والسلام - : « لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » (٣) .

بل ربما أوصله رفقهم بهم إلى أن يعزم أن يصلي على من مات منهم أو يستغفر له ، ويكفنه بثوبه ، كما حدث له مع رئيس المنافقين عبد الله بن أبي (٤) .

وكل ذلك من أجل أن يتألف قلوب الناس ويكسبهم محبته - ﷺ - رفقاً بهم رجاء أن يذروا النفاق الذي هم عليه ، ويمحضوا النصح لله ورسوله والمؤمنين ، فينالوا بذلك خيرهم - ﷺ - ؛ وذلك لما جبل عليه - ﷺ - من الرأفة والرحمة والرفق واللين .

وقد كان - ﷺ - يسلك هذا المسلك من الرفق واللين مع عتاة المجرمين الجهلة ، والزعماء الوثنيين وغيرهم من المؤلفلة قلوبهم ، أو من يطمع في إسلامهم .

(١) تقدم تخريجه ص (٣٥٠) .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها (١٥٩٢/٤) برقم (٢٥٩٩) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب التفسير ، باب قوله : ﴿ أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ ﴾ (١٥٤/٦) برقم (٤٩٠٥) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً (١٥٨٦/٤) برقم (٢٥٨٤) .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الجنائز ، باب الصلاة على المنافقين (٩٧/٢) برقم (١٣٦٦) .

ولما فتح الله تعالى عليه الفتوح كان يعطي الرجل منهم الغنم بين الجبلين ، والمائة والمائتين من الإبل والغنم ونحوها ؛ ليثبت إيمانهم ؛ كرمًا منه وجودًا وسخاءً .

وهكذا كان - عليه الصلاة والسلام - يتألف قلوب الناس ، ويرفق بهم في المعاملة ، ويلين لهم في القول ؛ ليكسب ولاءهم له ، وتعزيدهم لدولته ، ومدافعتهم عنها ؛ ليعود خير ذلك لهم في الدنيا والآخرة .

وكما كان يطبق ذلك بفعله فقد كان يعبر عنه بمقاله ؛ ليحث ولاة أمور أمته على الرفق برعاياهم واللين لهم ، ويرغبهم في ذلك ، ويحذرهم من ترك ذلك ، أو من الجور على الرعايا .

فقد كان يبعث ولاته ويقول لهم : « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » (١) .

وكان يبتهل إلى الله - ﷻ - ويدعو ويقول : « اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به » (٢) .

وفي هذا من الترغيب والترهيب في الرفق بالرعية ما يحمل على ذلك بدون تردد ، إن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ؛ طمعاً في نيل رفق الله تعالى وفراراً من وقوع مشقته عليه ، كما دعا بذلك نبيه المستجاب دعاؤه - ﷺ - .

وكان يحذر ولاة المسلمين من عدم الرفق برعاياهم ويقول : « إن شر الرعاة الحطمة » (٣) ، والحطمة هو العنيف برعاية الإبل في السوق والإيراد والإصدار ، ويلقي بعضها على بعض ، ويعسفها ، وهو مثل ضربه النبي - ﷺ - لوالي السوء (٤) ، فمن لم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب العلم ، باب ما كان النبي - ﷺ - يتخولهم بالموعظة (٢٧/١) برقم (٦٩) .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الإمارة ، باب فضيلة الإمام العادل (١١٥٩/٣) برقم (١٨٢٨) .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الإمارة ، باب فضيلة الإمام العادل (١١٦١/٣) برقم (٨٣٠) .

(٤) النهاية لابن الأثير (٤٠٢/١) .

يرفق برعيته كان شرّاً راع ، والله سائله عن ذلك كما قال - عليه الصلاة والسلام - :
« كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته . . . » (١) .

ولم تقتصر أخباره - عليه الصلاة والسلام - في الرفق على حث الولاة عليه ،
وترغيبهم فيه ، وتحذيرهم من تركه ، بل إن رفقته - ﷺ - كان خلقاً عاماً ظهر أثره في
استعماله إياه مع الخلق كافة ، فقد كان - عليه الصلاة والسلام - يقول : « إن الرفق
لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه » (٢) ، وقال لعائشة
- رضي الله عنها - ذات يوم وقد ركبت بعيراً فيه صعوبة ، فجعلت تردده فقال لها - ﷺ - :
« عليك بالرفق ، فإن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا
شانه » (٣) ، وكان - عليه الصلاة والسلام - يقول : « من يحرم الرفق يحرم الخير » (٤) ،
ويقول : « ألا أخبركم بمن يحرم على النار ، أو قال : بمن تحرم عليه النار ؟ تحرم على كل
قريب هين سهل » (٥) .

وبهذا تعلم أن الرفق واللين كانا خلقاً ثابتاً عند الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -
كسائر أخلاقهم العظيمة ، وكانوا يعالجون به أممهم ، وسائر خلق الله تعالى حتى ملك
نواصيهم ، واجتمعت قلوب الخلق على محبتهم وتعظيمهم في النفوس ، وتقديم محبتهم على
النفوس والمال والأهل والولد ، ودانت لهم بهذه السياسة الحانية قلوبهم وعقولهم إلا من غلبت
عليه الشقاوة .



- (١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأحكام ، باب قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾
(٦٢/٩) برقم (٧١٣٨) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الإمارة ، باب فضيلة الإمام العادل
(١١٥٩/٣) برقم (١٨٢٩) .
- (٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب فضل الرفق (١٥٩٠/٤) برقم
(٢٥٩٣) .
- (٣) تقدم تحريجه في الهامش السابق .
- (٤) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب فضل الرفق (١٥٨٩/٤) برقم
(٢٥٩٢) .
- (٥) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب صفة القيامة ، باب رقم (٤٥) (٥٦٤/٤) برقم (٢٤٨٨) .

المبحث الرابع

الشجاعة والجرأة في قول الحق

الشجاعة في اللغة : مصدر شجع الرجل شجاعة إذا كان جريئاً مقداماً .

قال ابن فارس :

« الشين والجيم والعين ، أصل واحد يدل على جرأة وإقدام ، ومن ذلك الرجل الشجاع وهو المقدم » (١) .

وفي الصحاح :

« الشجاعة : شدة القلب عند البأس » (٢) .

وعرفها الجاحظ (٣) بقوله :

« الشجاعة هي الإقدام على المكاره والمهالك عند الحاجة إلى ذلك ، وثبات الجأش عند المخاوف والاستهانة بالموت » ثم قال : « وهذا الخلق مستحسن من جميع الناس وهو بالملوك وأعوانهم أليق وأحسن ، بل ليس بمستحق للملك من عدم هذه الخلة قال : فأكثر أخطاراً ، وأحوجهم إلى اقتحام الغمرات هم الملوك ، فالشجاعة من أخلاقهم الخاصة بهم » (٤) .

أما الثبات فهو الدوام والاستمرار .

(١) معجم مقاييس اللغة (٣/٢٤٧) .

(٢) الصحاح للجوهري (٣/١٢٣٥) .

(٣) هو : عمرو بن بحر بن محبوب الكندي بالولاء ، الليثي ، المكنى بأبي عثمان ، كبير أئمة الأدب ، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة ، له تصانيف كثيرة مطبوعة ومخطوطة ، منها : (البيان والتبيين) في الأدب ، و (كتاب الحيوان) ، و (الرسائل) وغيرها ، توفي سنة (٢٥٥هـ) . انظر : بغية الوعاة ص (٢٥٦) ، والأعلام (٥/٧٤) .

(٤) تهذيب الأخلاق للجاحظ ص (٢٧) .

قال الراغب :

الثبات ضد الزوال ، يقال : ثبت يثبت ثباتاً (١) ، وهو فرع عن الشجاعة ؛ إذ لا يثبت المرء إلا إذا كان شجاعاً .

وتعد الشجاعة والثبات من أمهات الأخلاق النفسية ؛ لما يندرج تحتها من فضائل الأخلاق ، كالكرم ، والنجدة ، والحلم ، والصبر ، والثبات ، والنبيل ، والشهامة ، والوفاء ، ولما يكتنفها من رذيلتي الجبن والتهور ، المتفرع عنهما رذائل حجة من رذائل الأخلاق (٢) .

وحيث كانت الشجاعة بهذه المكانة المتميزة في الأخلاق الفاضلة ، فلا بد أن تكون لها العناية الكافية في القرآن الكريم ، وعند تسريح النظر في آياته الكريمة نجد أن الحديث عنها فيه أخذ حيزاً كبيراً من جملة الأخلاق الحميدة ، حيث تحدث القرآن عنها في مقام الأنبياء وفي مقام المؤمنين على سبيل التنويه بها ، والحث عليها ، والترغيب فيها ، ومدح المتحلين بها ، والتنفير من ضدها وهو الجبن ، كل ذلك بألفاظ تدل عليها وإن لم تذكر مادة الشجاعة في القرآن إلا أن معناها مراد من كل هذه الأساليب .

ومن أبرز من تحدث القرآن عن شجاعتهم وثباتهم في الحق ، وجرأتهم في الوقوف ضد الباطل بقول كلمة التوحيد ؛ هم صفوة الخلق ، ومشاعل النور ، ودعاة الحق ، أنبياء الله ورسله - عليهم الصلاة والسلام - ، فهم بما جبلهم الله تعالى عليه من كرم الأخلاق ، وزكاء النفس ، قد بلغوا الذروة في الشجاعة والإقدام في مواطن البأس والبلاغ ، شجاعة أدبية ، وشجاعة قتالية .

وقبل الحديث عن شجاعتهم القتالية نتحدث عن شجاعتهم الأدبية التي مكنتهم من إبلاغ رسالات ربهم إلى عتاة أقوامهم بثبات وصرامة ، وقد كانت شجاعة الرسل الأدبية ناشئة عما كانوا يتحلون به من الشعور بمسؤولية البلاغ والدعوة ، وما يتمتعون به من فطنة كاملة ، وثقة بالله تعالى ووعدده ونصره .

(١) المفردات ص (٧٨) .

(٢) معراج القدس في مدارج معرفة النفس للغزالي ص (٩٦ - ٩٧) .

فقد كانوا يواجهون أممهم وأولي الأيد والقوة منهم بشجاعة نادرة في الخطاب ،
والدعوة والبلاغ ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا
يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (١) .

وقد قصَّ الله تعالى علينا من شجاعتهم الأدبية ما لم تعرفها البشرية لغيرهم .

من ذلك : شجاعة إبراهيم - عليهما السلام - في دعوة أبيه ، وملك وقته وقومه الطغاة
الأشقياء ، فقد واجههم جميعهم بشجاعة أدبية نادرة ، بقلب ثابت ، ولسان بين .

فواجه أباه بما قصه الله تعالى بقوله :

﴿ وَأذْكَرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ
يَأْتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي
مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ
الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ
الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ (٢) .

ومعلوم أن للأب هيمنة وسلطاناً على الولد ، فلا يقدر الولد - في الغالب - على
مواجهته. يمثل هذا الأسلوب الجدلي المفحم مع ما فيه من الأدب الجم ، والبر الواضح ، إلا
أن يكون ذا شجاعة أدبية بالغة كإبراهيم - عليهما السلام - ، ولذلك غضب الأب من مواجهته
إياه بهذا الكلام ، ورد عليه بقوله :

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا
﴿٤٦﴾ ﴾ (٣) .

(١) سورة الأحزاب ، آية (٣٩) .

(٢) سورة مريم ، آية (٤١ - ٤٥) .

(٣) سورة مريم ، آية (٤٦) .

وكما واجه أباه بهذا الأسلوب المؤثر ، واجه من هو أعتى من أبيه ، وأشد تجبراً وتكبراً ، وهو ملك وقته النمرود الذي لم يقف على حد التجبر والتكبر حتى ادعى الربوبية ، فأنكر عليه إبراهيم - عليهما السلام - ذلك وقال له ما ذكره الله تعالى بقوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢٥٨) . (١)

فانظر كيف استطاع مواجهته بهذا الجدل المفحم الذي قطع به حججه ولججه ، وفضحه أمام قومه وجنده ، مما جعل ذلك المتكبر يشتاظ عليه غضباً ويأمر بإحراقه .

وكما وقف مثل هذه الوقفات مع أبيه وملك وقته بشجاعة أديبة نادرة ، فقد كان له مع من أرسل إليهم من أبناء بلده وقومه وقفات لم تكن بأقل شأنًا من مواجهته مع من سبق ، حيث إن عداوتهم له ولدعوته كانت على النحو من عداوة أبيه آزر والنمرود ، كما قص الله علينا بذلك بقوله :

﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٦﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَكِفِينَ ﴿٦٨﴾ قَالِ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٦٩﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَّالِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٢﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٣﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٧٧) . (٢)

وقال أيضًا في موطن آخر قاصًا لما جرى منه :

(١) سورة البقرة ، آية (٢٥٨) .

(٢) سورة الشعراء ، آية (٦٩ - ٧٧) .

﴿ إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا
 وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبِيدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾
 قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينِ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ
 أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ
 ﴿٥٨﴾ ﴾ (١) .

فانظر كيف استطاع بشجاعته الأدبية أن يواجه من يظن منهم إيصال الأذى إليه من غير مبالاة بهم ولا التفات إلى ما قد يحدث من رد فعل عدائي منهم ، ولولا ثبات قلبه ، وكمال فطنته ، لما قدر على مواجهتهم بهذه الشجاعة النادرة ، والجرأة في قول الحق .

ومن ذلك - أيضاً - شجاعة نبي الله موسى - عليه السلام - الذي استطاع مواجهة طاغية وقته (فرعون) مصر الذي أذل بني إسرائيل غاية الإذلال ، إذ طغى عليهم وتجبر ، وقتل الذرية واستحيا النساء للاسترقاق والخدمة ، وفعل بهم الأفاعيل العظام ، وأخافهم وأرعبهم أيما خوف ورعب ، فما كان أحد يجرأ على مواجهته بما لا يجب .

لكن نبي الله موسى - عليه السلام - استطاع مواجهته بما يكره ، بفضل شجاعته الأدبية البالغة ، إذ دعاه إلى الإيمان بالله تعالى وترك ادعاءاته الربوبية والألوهية وأفعاله الجبروتية .

وقال له هو وأخوه هارون - عليه السلام - :

﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بِنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّنْ
 رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ أَتَبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ
 كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ
 شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي

(١) سورة الأنبياء ، آية (٥٢ - ٥٨) .

كَتَبَ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ (١) .

ولما قال له فرعون : ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ ﴿١١﴾ (٢) أجابه موسى - عليه السلام - بجواب صلب مفعم بالشجاعة والتحدي ، حيث قال : ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفْرَعُونَ مُثْبُورًا﴾ ﴿١٢﴾ (٣) .

إلى غير ذلك مما قصه الله تعالى في كتابه الكريم من مواقفه الشجاعة مع فرعون الذي ادعى الربوبية ، « وكان من أبرز صفاته الشراهة في سفك الدماء ، والتمادي في احتقار الرعايا ، فواجهه موسى في مواقفه تلك بدعوة تهد كيانه من أساسه ، وتنتزع من بين أضلاعه الألوهية التي يستخف بها قومه ويستعبدهم ، وما كان لموسى الذي تربى وليداً في بيت فرعون أن يقف هذا الموقف لو لم يكن على أكبر جانب من الشجاعة » (٤) .

هذه شجاعة الوقوف أمام الباطل مهما كانت قوته ، شجاعة الصدح بالحق عند السلطان الجائر ، الشجاعة الأدبية التي تستلزم الجرأة في قول الحق مهما كان المقابل عدواً أو صديقاً ، قريباً أو بعيداً ، ومهما عظمت قوته ، وبلغ جبروته .

أما الشجاعة الأخرى وهي شجاعة مواطن البأس ، وعند التحام الصفوف ، إذ أن الإقدام على المكاره والاستهانة بالموت عندها بين عياناً ، بخلافه في الشجاعة الأدبية ، فإن المكاره عندها وإن كانت غير متوقعة إلا أنها مظنونة وليس الخطر المعاین كالخطر المظنون ؛ إذ ليس الخبر كالمعاينة ، وما راء كمن سمع ، وقد كان لرسول الله - صلوات ربي وسلامه عليهم - شجاعات متتالية فائقة ، ولهم في ذلك السبق والقدح المعلى ، ومضرب المثل في الشجاعة والإقدام عندما تحين مواعيد اللقاء ، ويشند الوغى بينهم ، وبين أعداء الله من أهل

(١) سورة طه ، آية (٤٧ - ٥٢) .

(٢) سورة الإسراء ، آية (١٠١) .

(٣) سورة الإسراء ، آية (١٠٢) .

(٤) أولوا العزم من الرسل لمحمد السمان ص (١١٣) .

الكفر والإلحاد .

وقد قص القرآن نماذج من شجاعتهم فمن ذلك :

ما قصه الله - ﷻ - عن نبي الله داود - عليه السلام - في إقدامه لقتال طاغية وقتله جالوت ، الذي سام بني إسرائيل سوم العذاب ، كما قالوا في فيما قصه الله تعالى على لسانهم :

﴿ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ﴾ (١) ،
وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ
فَجَاسُوا خِلَلِ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴾ (٢) .

فإن ملك بني إسرائيل طالوت لما تهيأ لقتال عدوه جالوت ، وندب من يتصدى لجالوت فيقتله ، انتدب داود - عليه السلام - لهذه المهمة ، وتقاعس كثير من شجعان بني إسرائيل ؛ رهبة من الموت ، ورغبة في الحياة ، كما قص الله تعالى في كتابه بقوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلِئِكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ إِنَّهُمْ أَبْعَثَ
لَنَا مَلَكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (٣) إلى قوله : ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا
رَبَّنَا أفرغ علينا صبرًا وثبت أقدامنا وأنصرنا على القوم الكافرين ﴾ (٤) فهزمهم
يأذن الله وقتل داود جالوت وءاتته الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ﴾ (٤) ،
فهذا نموذج واحد لشجاعة أنبياء الله تعالى ورسله يعطي صورة واضحة عن شجاعة الرسل
كافة ؛ لأن ما ثبت لأحدهم من الكمال الخلقى يثبت لسائرهم وإن تفاوتت نسبته فيهم .

وقال - ﷻ - :

-
- (١) سورة البقرة ، آية (٢٤٦) .
(٢) سورة الإسراء ، آية (٥) .
(٣) سورة البقرة ، آية (٢٤٦) .
(٤) سورة البقرة ، آية (٢٥٠ - ٢٥١) .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيشُونَ ^(١) كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ ^(٢) .

« والمعنى : كثير من الأنبياء قاتلهم معهم لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه جماعة من الأتقياء والعباد ، فما ضعفوا من الجراح ، واستشهدوا بعضهم ؛ لأن الذين أصابهم إنما هو في سبيل الله وطاعته ، وإقامة نصرته ودينه ، ونصرة رسله » ^(٣) .

وإذا كان هذا وصفاً لأتباع الأنبياء في شجاعتهم وثباتهم مع أنبيائهم في مواطن القتال ، فما بالك بحال الأنبياء أنفسهم ، فإنهم على هذه الصفة في أوضح صورها .

ولولا أنهم كانوا كذلك لما تربت تلك الشجاعة في نفوس أتباعهم ، ولا ريب في ذلك ، فقد قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ﴾ ^(٤) ، وقال سبحانه : ﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴾ ^(٥) .

فنفى عنهم الخشية والخوف لغيره سبحانه ، وذلك دليل على شجاعتهم الكاملة ، إذ من لازم نفي الخشية والخوف ثبوت ضدها وهي الشجاعة ، وحيث حلت الشجاعة في القلب نجم عنها الإقدام في مواطن البأس من غير تردد ولا رهبة ، كما تجلت مظاهر تلك الشجاعة في صفوة الرسل وخاتم الأنبياء سيدنا محمد بن عبد الله - ﷺ - التي اقتضت ظروف بعثته أن يخوض المعارك الحربية أكثر من غيره ، فخاضها بأوفى صور الشجاعة ، بحيث لم يعرف التاريخ لها مثيلاً في عالم البشرية ، والتي كان القرآن لا يفتأ من توجيهه إليها وتثبيته عليها ؛ إذ كان ينزل عليه أمثال قوله تعالى : ﴿ فَكَتَلْنَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا

-
- (١) جمع ربي ، وهو المتبع لشريعة الرب ، مثل الرباني والمراد بهم هنا أتباع الرسل وتلامذة الأنبياء . هـ .
 التحرير والتنوير (١١٨/٤) .
 (٢) سورة آل عمران ، آية (١٤٦) .
 (٣) محاسن التأويل للقاسمي (١٤٨/٢) .
 (٤) سورة الأحزاب ، آية (٣٩) .
 (٥) سورة النمل ، آية (١٠) .

نَفْسِكَ وَحَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ
بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ فِيمَا تَتَّقْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ
مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ ﴿٥٧﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ
وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلظْ عَلَيْهِمْ وَمَا أُوْنَهُمْ جَهَنَّمَ وَيُتَسَّ الْمَصِيرُ ﴾ ﴿١﴾ (٣) .

ولهذا فقد كان نبينا - ﷺ - في ذروة الذرى من الشجاعة ، كما هو شأنه في كل
خلق كريم ، بشهادة الله تعالى له بعظمة الأخلاق كافة ، والشجاعة إحدى أمهات الأخلاق
التي برزت عظمتها من جنبه بروزاً لم يكن في أحد من البشر كما كان في رسول الله
- ﷺ - .

وأول ما تعرف دلائل الشجاعة عند المرء في ثبات قلبه عند مخاطبة الكبراء ، وذوي
السلطان وأهل الكبر والطغيان ، ولهذا عدّها النبي - ﷺ - أفضل أنواع الجهاد الذي لا يقوم
إلا على الشجاعة ، وذلك حيث قال : « إن من أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان
جائر » (٤) .

وقد عرف النبي - ﷺ - بشجاعته الأدبية من خلال تلك المخاطبات والمحاورات منذ
صغر سنّه ، وبزوغ نجمه في قومه ، إذ ما كان يخشى من قول الحق أحداً .

فقد نشأ في بيئة عريقة بالوثنية والإشراك وعبادة الطاغوت ، لا يرى أهل تلك البيئّة
ديانة أحسن من دياتتهم ، فهم يسخرون من اليهودية والنصرانية رغم أصلها الإلهي حينئذٍ ،
فيرون أنهم أحسن حالاً منهم بوثنيتهم الموروثة ، فكان أهل مكة في أوج اعتزازهم بهذه

(١) سورة النساء ، آية (٨٤) .

(٢) سورة الأنفال ، آية (٥٧) .

(٣) سورة التحريم ، آية (٩) .

(٤) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب الفتن ، باب ما جاء في أفضل الجهاد كلمة عدم عند سلطان جائر برقم
(٢١٧٤) ، وابن ماجه في سننه ، كتاب الفتن ، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر برقم (٤٠١١)
بلفظ : « أفضل الجهاد » .

الديانة التي وجدوا عليها آباءهم فهم على آثارهم يقتفون (١) .

ومع ذلك فإن نبينا - عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم - يأبى أن يشارك أقرباءه هذا الشعور ، بل نشأ بفطرته ، فلا يقرب لهم وثناً ، ولا يشهد لهم عيداً ، ولا يعظم لهم آلهة من آلهتهم المزعومة ، حتى أنكر عليه أعمامه وعماته ذلك ، وحذروه من أن تمسهم آلهتهم بسوء ، فرفض الاستجابة كما جاء في حديث أم أيمن قالت : « بوانة : صنم تحضره قريش وتعظمه وتنسك له النساءك ، ويخلقون رؤوسهم عنده يوماً إلى الليل ، وذلك يوماً في السنة ، وكان أبو طالب يحظر هذا اليوم مع قومه ، وكان يكلم رسول الله أن يحضر ذلك العيد مع قومه فيأبى رسول الله - ﷺ - ذلك ، حتى رأيت أبا طالب قد غضب عليه ، ورأيت عماته غضبن عليه يوماً أشد الغضب ، وجعلن يقلن : إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا ، وجعلن يقلن : ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً ولا تكثر لهم جمعاً » (٢) .

ولقد قال يوماً للراهب الذي أراد أن يختبره في مخايل النبوة ، التي رآها في النبي - ﷺ - في قصة سفرة متاجرته للشام ، يا غلام ، أسألك بحق اللات والعزى إلا أخبرتني عما أسألك ؟ فقال له رسول الله - ﷺ - : « لا تسألني باللات والعزى ، فوالله ما أبغضت شيئاً بغضهما » (٣) .

فتأمل مبلغ ثبات قلبه في هذه المعارضة التي أبداهها لأقربائه ومجتمعه الذين لا يرون ديناً أفضل من دينهم الوثني ، فيأتي هذا الغلام فيحيد عما هم عليه ، فكم يكون مبلغ الحق عليه حتى من أقرب المقربين لديه ، ومع ذلك فلا يعبأ بحنقهم عليه ولا معارضتهم طالما وأنه على الحق ، الذي هداه عقله وواءم فطرته ، فنشأ أمة وحده ، لا يعبأ بمن خالفه ، هكذا كان في طفولته وشبابه ، فلما بلغ الأربعين من عمره إذا به يفاجئ قومه بالدعوة إلى دين لم يعرفوه ، وإلى نبد ما ألفوه من ديانة وثنية وعبادات وعادات جاهلية ، وعندئذٍ تغير عليه الناس

(١) بطل الأبطال لعبد الرحمن عزام ص (١٩ - ٢٠) .

(٢) طبقات ابن سعد (١/١٥٨) .

(٣) المصدر السابق (١/١٥٤) .

أجمعون ، فكأنه يقوم قد انقلبت أحوالهم إلى ذئاب تحاول جاهدة أن تفترسه ، بعد أن كانت معجبة بخُلُقِه وخُلُقِه ، فلم يعرضهم المصطفى - عليه الصلاة والسلام - أي اهتمام ، بل سرعان ما دعاهم إلى اجتماع عن بكرة أبيهم ويقول لهم : « إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » فيجيبه عمه أبو لهب الشقي : تبا لك سائر اليوم ، لهذا جمعنا (١) .

غير أنه لم يبال بهذا الرد القبيح السافر ، بل واصل دعوته لهم إلى الله ، وتسفيه أحلامهم ، وتضليل آباءهم ، غير عابئ بعداوتهم ، ولا هياب من إيذائهم ومكرهم ، فواصل الدعوة إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً ، سرّاً وجهاراً ، لا يصدده صاد ، ولا يروعه أهل العناد ، ولا كيد الحساد .

وظل يدعو إلى الله بين ظهري كفار قريش في مكة ثلاث عشرة سنة ، لا يزيده عنادهم وشدة آذاهم إلا صلابة وشجاعة واستمراراً ، حتى أذن الله له بالهجرة ، فهاجر إلى الله يواصل الدعوة ، وينشر هدي الإسلام ، وهناك لم تقل شجاعته وجرأته في الحق عما كان عليه في مكة ، فإنه - ﷺ - قد لقي في المدينة من الأعداء من لم تقل عداوتهم عن عداوة المشركين في مكة ، إنهم يهود ومنافقون يعملون صفاً واحداً لإطفاء نور الله الذي جاء به لهداية البشرية وإخراجها من النور إلى الظلمات ، وهذا العداً يحتاج إلى شجاعة عظيمة للتغلب عليه ، وتجاوز عراقيله التي توضع أمام البلاغ المبين ، وهو ما كان يتحلى به النبي - ﷺ - في مرحلة المدينة ، فقد صمد أمامهم يدعوهم إلى الله تعالى والإيمان به ، والعمل على نصرته ، غير عابئ بعنادهم ومكرهم ومؤامرتهم التي كانت تنكشف بين حين وآخر ، ويطفح بها لحن قولهم وفتنات لسانهم ، وهو - ﷺ - يعلم خطر تلك المؤامرات والمكر التي تستهدف استئصال المسلمين كما كشفتها محنة يوم الأحزاب ، أو اغتياله - عليه الصلاة والسلام - كما حدث مع اليهود غير مرة ، ومن المنافقين في غزوة تبوك .

والنبي - ﷺ - مع ذلك رابط الجأش ، مصر على البلاغ والدعوة والحرص على الهداية ، وهذه الشجاعة لا تقل عن شجاعته - بأبي هو وأمي - في مواطن الجلال والنزال ، وذلك حينما يستفحل الأمر ، وتتألب أحزاب الشيطان على حزب الرحمن لإبادته وإيذائه .

(١) تقدم تخريجه ص (٣٣٢) .

وقد ضرب النبي - ﷺ - في هذه المواطن أعلى أمثلة الشجاعة البشرية إذ « كان - ﷺ - في ذلك بالمكان الذي لا يجهل ، قد حضر المواقف الصعبة ، وفر الكمأة والأبطال عنه غير مرة ، وهو ثابت لا يبرح ، ومقبل لا يدبر ، ولا يتزحزح ، وما شجاع إلا وقد أحصيت له فرة ، وحفظت عنه جولة سواه - ﷺ - » (١) .

وقد عرف النبي - ﷺ - بهذه الشجاعة منذ صغر سنّه ، فقد اشترك مع أعمامه في حرب الفجار (٢) ، فكان يرد عنهم نبل عدوهم إذا رموهم بها ، وعمره حينذاك عشرون سنة ، وقيل : ابن خمس عشرة سنة (٣) .

وقد تجلت مظاهر شجاعته بعد أن كون دولته وأذن الله له بالدفاع عن نفسه وأمته وعقيدته بقوله تعالى : ﴿ أذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (٤) ، فكانت شجاعته مثلى تقوم على الإقدام لا التهور ، فيشتد في مواطن الشدة ، ويلين في مواطن اللين ، ويرحم بها الضعفة والمسنين .

فلقد شهد المعارك كلها ، والتي تبلغ مجموعها سبعا وعشرين غزوة ، كان القتال في كثير منها أدارها بنفسه وسهمه وسيفه ورمحه ، بشجاعة وحنكة فريدين لم يجاريه فيها أحد من الشجعان المعدودين في تأريخ البشرية قديمها وحديثها ، وقد كان يقول عنه علي بن أبي طالب الخليفة الشجاع المقدم ، يقول - رحمته - : « كنا إذا أحمراً البأس ، ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله - ﷺ - فما يكون من أحد أدنى من القوم منه » (٥) .

ويكفيك مواقفه البطولية في غزوات بدر وأحد والخندق وحنين ، وما ظهر فيها من مواقف بطولية لم يدانه في مثلها أحد من الشجعان ، مما يجعل نواصي الشجعان في تأريخ

(١) الشفاء للقاضي عياض (٢٣٥/١) .

(٢) هي : حرب كانت بين قريش ومن معها من كنانة ، وبين قيس عيلان ، وسميت بذلك ؛ لأنها حصلت في

الشهر الحرام . الروض الأنف (٢٠٩/١) .

(٣) الروض الأنف (٢٠٩/١) .

(٤) سورة الحج ، آية (٣٩) .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥٦/١) .

البشرية تتواضع لشجاعته إكباراً لها وتبجيلاً وخجلاً منها واستحياءً .

ولذلك قال أنس - رضي الله عنه - : « كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أحسن الناس ، وأجود الناس ، وأشجع الناس » (١) .

وحيث كان - صلى الله عليه وسلم - قد فضل على الناس بهذه الشجاعة المثلى ، فلا بدع إذا أن تكون مواقف الشجاعة منه على ذلك النحو الفائق ؛ لأنه تفضيل من الله تعالى له بالكمال من كل خلق عظيم ، ولذلك قال الله تعالى له :

﴿ قَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسِ الدِّينِ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا ﴾ (٢) .

وقد فهم بعض العلماء من هذه الآية ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مأمور بأن يقاتل المشركين إذا واجهوه حتى ولو كان وحده ، يعني : لكمال شجاعته .

ومع كمال هذه الشجاعة البالغة التي كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يتحلى بها إلا أنها لم تكن شجاعة تهور ، يوصل أثرها إلى كل أحد وفي كل حال ، إنما كانت مضبوطة بالعقل ، ومشوبة بالرحمة ، فلذلك لم يستعلمها إلا في مواطن الوعى في الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ، فلم ينتقم لنفسه ، ولم يضرب بيده إلا في سبيل الله كما قالت عائشة - رضي الله عنها - : « ما ضرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شيئاً قط بيده ، ولا امرأة ولا خادماً ، إلا أن يجاهد في سبيل الله ، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله ؛ فينتقم لله - عز وجل - » (٣) .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الجهاد ، باب الحمائل وتعليق السيف بالعنق (٣٩/٤) برقم (٢٩٠٨) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الفضائل ، باب شجاعة النبي - صلى الله عليه وسلم - وتقدمه إلى الحرب (١٤٣٧/٤ - ١٤٣٨) برقم (٢٣٠٧) .

(٢) سورة النساء ، آية (٨٤) .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الفضائل ، باب مبادئه - صلى الله عليه وسلم - للاثام (١٤٤٧/٤) برقم (٢٣٢٨) .

بل إن شجاعة النبي - ﷺ - التي استخدمها لقتال أعداء الله في مواطن القتال هي مظهر من مظاهر رحمته ؛ إذ هو يجاهدهم ليدخلوا في دين الله تعالى فيفوزوا بخيري الدنيا والآخرة ، وإلا فقد كان بوسعه أن يدعو عليهم فيستجيب الله له فيهلكهم كما أهلك من قبلهم ، ويستريح منهم ، لكن الرحمة المهداة - ﷺ - أبي ذلك وقال : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله » (١) .



(١) تقدم تخريجه ص (٣٥٠) .

الباب الثالث

أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مع غير البشر ، وأثر هذا الأدب

وفيه فصلان :

الفصل الأول : أدبهم - عليهم الصلاة والسلام - مع
غير البشر .

الفصل الثاني : أثر أدب الأنبياء - عليهم الصلاة
والسلام - .

الفصل الأول

أدبهم - عليهم الصلاة والسلام - مع غير البشر

وفيه ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول : أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مع الملائكة .
- المبحث الثاني : أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مع الجن .
- المبحث الثالث : أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مع الحيوان .

المبحث الأول

أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مع الملائكة

الملائكة عالم غير الإنس والجن ، وهو عالم كريم ، كله طهر ونقاء وصفاء ، كرام أتقياء ، يعبدون الله حق العبادة ويقومون بتنفيذ ما يأمرهم به ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

والملك أصله : ألك ، والمألكة ، والمألك : الرسالة . ومنه اشتق الملائك ؛ لأنهم رسل الله .

وقيل : اشتق من (لَ أ ك) والمألكة : الرسالة . وألكني إلى فلان : أي بلغه عني .
والملاك : الملك ؛ لأنه يبلغ عن الله تعالى .

وقال بعض المحققين : المَلَك من المُلْك . قال : والمتولي من الملائكة شيئاً من السياسة يقال له : مَلِك ، ومن البشر : مَلِكٌ (١) .

والإيمان بالملائكة أصل من أصول الإيمان ، لا يصح إيمان عبد ما لم يؤمن بهم .

قال تعالى : ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (٢) .

« والإيمان بالملائكة ينتظم في معان :

أحدها : التصديق بوجودهم .

(١) انظر : بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي (٥٢٤/٤) .

(٢) سورة البقرة ، آية (٢٨٥) .

الثاني : إنزالهم منازلهم وإثبات أنهم عباد الله وخلقه ، كالإنس والجن مأمورون ومكلفون ، لا يقدرون إلا على ما أقدرهم الله عليه ، والموت عليهم جائر ، ولكن الله تعالى جعل لهم أمداً بعيداً ، فلا يتوفاهم حتى يبلغوه ، ولا يوصفون بشيء يؤدي إلى إشراكهم بالله ، ولا يدعون آلهة كما دعتهم الأوثان .

الثالث : الاعتراف بأن منهم رسلاً يرسلهم الله إلى من يشاء من البشر ، وقد يجوز أن يرسل بعضهم إلى بعض ، ويتبع ذلك بالاعتراف بأن منهم حملة العرش ، ومنهم الصافون ، ومنهم خزنة الجنة ، ومنهم خزنة النار ، ومنهم كتبة العمال ، ومنهم الذين يسوقون السحاب ، فقد ورد القرآن بذلك كله أو بأكثره (١) .

وقد خلقت الملائكة من مادة النور . ففي صحيح مسلم عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجن من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » (٢) .

ولم يبين لنا الرسول - عليه الصلاة والسلام - أي نور هذا الذي خلقوا منه ، ولذلك فإننا لا نستطيع الخوض في هذا الأمر لمزيد من التحديد ؛ لأنه غيب لم يرد فيه ما يوضحه أكثر من هذا الحديث .

ولما كانت الملائكة أجساماً نورانية لطيفة ، فإن العباد لا يستطيعون رؤيتهم ، خاصة أن الله لم يعط أبصارنا القدرة على هذه الرؤية .

ولم ير الملائكة في صورهم الحقيقية من هذه الأمة إلا الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، فإنه رأى جبريل - عليه السلام - مرتين في صورته الحقيقية التي خلقه الله عليها ، وقد دلت النصوص على أن البشر يستطيعون رؤية الملائكة ، إذا تمثلت الملائكة في صورة البشر ، وأما على خلقهم وهيئتهم الحقيقية فلم يحصل ذلك إلا للنبي - عليه الصلاة والسلام - بالنص الصريح في

(١) الحباتك في أخبار الملائك للسيوطي ص (١٠) .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الزهد والرقائق ، باب في أحاديث متفرقة (٤/١٨١٤) برقم

(٢٩٩٦) .

القرآن في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ (٢٣) (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴾ (١٥) (٢) .

وقد وصف الله ملائكته في كتابه الكريم بأوصاف كريمة ، وأخلاق حميدة ، تدل على مكانتهم وفضلهم وعلو منزلتهم ، فمن ذلك يقول تعالى واصفا إياهم : ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ (١٦) (٣) .

أي أن القرآن الكريم بأيدي سفرة أي : الملائكة ؛ لأنهم سفراء الله إلى رسله وأنبيائه .
قال البخاري :

« سفرة : الملائكة وأحدهم سافر ، وسفرت : أصلحت بينهم ، وجعلت الملائكة إذا نزلت بوحي الله تعالى وتأديته كالسفير الذي يصلح بين القوم » (٤) .

ووصف الله تعالى لهؤلاء الملائكة بأنهم كرام بررة ، أي : خلقهم كريم حسن شريف .
وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة ، ومن هنا ينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله وأقواله على السداد والرشاد .

وقد روى البخاري عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « مثل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له مع السفرة الكرام ، ومثل الذي يقرأ القرآن ويتعاهده ، وهو عليه شديد فله أجران » (٥) .

(١) سورة التكوير ، آية (٢٣) .

(٢) سورة النجم ، آية (١٣ - ١٥) .

(٣) سورة عبس ، آية (١٥ - ١٦) .

(٤) صحيح البخاري ، في كتاب التفسير ، باب سورة عبس (١٦٦/٦) .

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب التفسير ، باب سورة عبس (١٦٦/٦) برقم (٤٩٤٧) .

وكذلك أثنى الله تعالى على ملائكته الكرام بأنهم مطبوعون على طاعته ، والاستجابة لأوامره : ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (١) ، فتركهم للمعصية وفعالهم للطاعة جبلة ، لا يكلفهم أدنى مجاهدة .

وهم عباد الله المكرمون ، المتصفون بكل صفات العبودية ، ومن تمام عبوديتهم أنهم لا يتقدمون بين يدي ربهم مقترحين ، ولا يعترضون على أمر من أوامره ، بل هم عاملون بأمره ، مسارعون مجييون ، ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ (٢) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

تسيحهم لله دائم لا ينقطع : ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ (٤) .

خوفهم من الله وخشيتهم له وتعظيمهم له عظيمة ﴿ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ (٥) .

ويبين شدة خوفهم من ربهم ، ما رواه البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ - قال : « إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله ، كالسلسلة على صفوان . قال علي وغيره : صفوان ينفذهم ذلك ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذي قال : الحق ، وهو العلي الكبير . . . » (٥) .

ومن أخلاق الملائكة التي أخبرنا بها الرسول - ﷺ - : الحياء .

ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن عائشة - رضي الله عنها - « أن الرسول ﷺ - كان مضطجعا في بيتها ، وكان كاشفاً عن فخذه أو ساقه ، فاستأذن أبو بكر

(١) سورة التحريم ، آية (٦) .

(٢) سورة الأنبياء ، آية (٢٦ - ٢٧) .

(٣) سورة الأنبياء ، آية (٢٠) .

(٤) سورة الأنبياء ، آية (٢٨) .

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب التفسير ، سورة الحجر (٨٠/٦) برقم (٤٧٠١) .

فأذن له وهو على تلك الحال فتحدث ، ثم استأذن عمر فأذن له وهو على تلك الحال فتحدث ، ثم استأذن عثمان فجلس الرسول - ﷺ - وسوى ثيابه فدخل فتحدث ، فلما خرج قالت عائشة : دخل أبو بكر فلم تفتش له ولم تباله ، ثم دخل عمر فلم تفتش له ولم تباله ، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك ، فقال : ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة » (١) .

وبعد ، فهذه مقدمة في بيان أصل الملائكة ، وتبيين فضلهم ومكانتهم ، وذكر شيء من فضائلهم وأخلاقهم ، وسأورد في هذا المبحث شيئاً من أدب الأنبياء معهم في القرآن ، والمتتبع لنصوص القرآن وقصصه لا يجد فيه كثير ذكر للملائكة مع الأنبياء ، ولا يقرأ تفاصيل وقائع وقعت مع بعضهم البعض ، ظهر فيها أدب واضح ، أو خلق جلي إلا ما حصل مع نبي الله إبراهيم - عليه السلام - مع ضيوفه الملائكة حين مروا به وهم ذاهبون إلى قوم لوط ، وكذلك ما حصل أيضاً مع نبي الله لوط - عليه السلام - حين قدم إليه هؤلاء الملائكة واستضافهم وهو لا يعلم عن كنههم شيء ولا عن سبب مجيئهم .

الملائكة مع إبراهيم - عليه السلام - :

فقد قضت مشيئة الله تعالى بأن يهلك قوم لوط - عليه السلام - الذين يفعلون فاحشة لم يسبقهم لها أحد من العالمين ، وهي إتيان الذكران وترك النسوان ؛ شهوة ورغبة ، ولهذا حق عليهم العذاب من الله تعالى ، فأرسل ملائكة لإنزال العذاب والهلاك بهم ، ولكنهم أمروا قبل أن يذهبوا إلى قرى قوم لوط أن ينزلوا ضيوفاً على خليل الرحمن ونبي الله إبراهيم - عليه السلام - بصورة فتيان ، وكان نبي الله إبراهيم - عليه السلام - وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم - مشهوراً بالكرم والحدب على الضيف ، وسنعرف صدق هذا عندما ترى استقباله لهم ، وكرمه معهم ، وقيامه بواجب الضيافة أتم قيام وأكرم مقام .

وهكذا هم الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - جبلوا على مكارم الأخلاق ، وأرفع

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب فضائل الصحابة - عليه السلام - ، باب من فضائل عثمان بن عفان (١٤٨٦/٤) برقم (٢٤٠١) .

الشمائل وأكملها ، وأتم الأفعال وأجملها ، ومنها خلق الكرم الذي جاء بحضه القرآن والسنة .

والقصص القرآني لا يشتمل على عرض وقائع تاريخية ، أو أحداث زمنية فقط ، بل هو قصص فيها من العظة والاعتبار ، وفيه من معاني التضحيات والإيثار ، وكذلك فيه تعليم وتنبية لمكارم الأخلاق وأرفعها ، ولفت الانتباه لفضائل الطباع الإنسانية وما تجبل عليه ، كيف لا وأبطال هذه القصص أنبياء الله ورسله ، وأكرم خلقه عليه ، ومن أعظم الفضائل والأخلاق التي يمكن أن يتصف بها المرء خلق الكرم ، الذي يستر من يتصف به كل قبيح فيه ، ويكشف من يفقده كل سوء فيه .

والكرم في اللغة : ضد اللؤم (١) .

وفي الاصطلاح : « إعطاء الشيء عن طيب نفس قليلاً كان أو كثيراً » (٢) .

فهو جامع المكارم والأخلاق ، فكل خصلة من خصال الخير أو خلة من خلال البر أو سجية تضاف إلى محاسن الطباع والاعتراف يصدق عليها اسم الكرم (٣) .

ولا بدع ، فإن صاحب الخلق الكريم يكون كريماً في أخلاقه الذاتية والاجتماعية ؛ إذ كرم نفسه يأبي عليه خلاف هذه الحقيقة ، وما كرم النوال إلا صورة لكرم النفس ، ومن هنا سميت الأخلاق الحسنة بمكارم الأخلاق .

ومن أمثلة هذا الكرم النبوي : قصة إبراهيم - عليهما السلام - النبي الكريم مع ضيوفه الملائكة الكرام وأدبه معهم .

يقول تعالى حكاية عن نبيه الخليل : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِى قَالُوا سَلٰمًا قَالَ سَلٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِىذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ

(١) الصحاح للجوهري (٢٠١٩/٥) ، والقاموس المحيط (١٧٠/٤) .

(٢) الفروق في اللغة لأبي هلال العسكري ص (١٦٨) .

(٣) الخلق الكامل لمحمد أحمد جاد مولى (٢٦٠/٤) .

نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۗ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ لُّوطٍ ﴿٧﴾ ﴿١﴾ .

فهذه الآيات تتحدث لنا عن مبلغ كرم إبراهيم - عليه السلام - وأدبه في ضيافته لهؤلاء الملائكة ، حيث أسرع في القرى بحيث لم يلبث أن أحضر لهم عجلاً حنيذاً ، أي : مشويّاً سميناً ، وهم نفر ثلاثة وهم : جبريل وميكائيل وإسرافيل - عليهم السلام - (٢) ، فكم يأكل هؤلاء الثلاثة من هذا العجل السمين كما نصت عليه آية الذاريات حيث قال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ ۖ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ ﴿٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ (٣) .

ولك أن تنظر في هذه الآيات وتتدبر في معانيها ومدلولات ألفاظها التي تنبيك عن غاية الإكرام ، وقمة الأدب والاحترام ، إذ فيها بيان آخر لبعض سور الإكرام الذي قام به أبو الأنبياء إبراهيم - عليه السلام - ، فقد أثبت الله تعالى إكرامه لهم بقوله : ﴿ الْمُكْرَمِينَ ﴾ وهذا ما يقتضيه السياق ، وهو أحد قولي أهل التأويل في ذلك (٤) .

والثاني : أنه إخبار عن وصفهم الثابت ، كما في قوله تعالى : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ (٥) .

وكان من صور إكرامه لهم قيامه بنفسه وأهله بخدمتهم ، والاعتناء بهم ، والاحتفاء بهم ، بدءاً من رد التحية بأحسن منها حين قالوا له : ﴿ سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ﴾ .

(١) سورة هود ، آية (٦٩ - ٧٠) .

(٢) الكشف للزمخشري ص (٤٩٠) .

(٣) سورة الذاريات ، آية (٢٤ - ٢٧) .

(٤) تفسير البيضاوي ص (٦٩١) .

(٥) سورة الأنبياء ، آية (٢٦) .

قال الزمخشري :

« ﴿ سَلَامًا ﴾ أصله نسلم عليك سلام ، وأما ﴿ سَلَمٌ ﴾ فمعدول به إلى الرفع على الابتداء ، وخبره محذوف معناه : عليكم سلام ؛ للدلالة على ثبات السلام ، كأنه قصد أن يجيئهم بأحسن مما حيوه به ؛ أخذًا بأدب الله تعالى ، وهذا أيضًا من إكرامه لهم » (١) .

كذلك من أدبه مع ضيوفه وإكرامه لهم أنه استل نفسه من بينهم ؛ لئلا يعوقوه عن تقديم الضيافة لهم ، كما يحدث من بعض الأضياف ، وهو ما يدل على كلفة ﴿ فَرَاغَ ﴾ الدالة على الاختفاء ، « فإنه لا يقال : راغ إلا إذا ذهب على خفية » (٢) ، وذهب يحضر لهم القرى بسرعة عجيبة ولهفة تدل على فرح وسعادة بقدوم هؤلاء الضيوف ، وإشارة إلى اعتياد هذا النبي الكريم على هذه العادة الكريمة والخلق الحميد ، ولم يلبث - عليه السلام - أن جاء بعجل سمين حنيد مشوي ، والحنيد هو : المشوي على الحجارة المحماة بالنار .

قال ابن فارس :

« الحنذ : إنضاج الشيء ، يقال : شواء حنيد : منضج ، وذلك بأن تحمى الحجارة وتوضع عليه حتى ينضج » (٣) .

« وتقديم إبراهيم - عليه السلام - عجلًا مشويًا ناضجًا لهم فور دخولهم عليه ، دليل على كرمه ، ومبالغته في إكرامه لهم ، فكان يكفيه أن يقدم لهم شيئًا من اللحم أو يقدم لهم خروفاً ، أما أن يقدم لهم عجلًا وسمينًا فهذا لا يصدر إلا عن رجل كريم » (٤) .

ولقد كان من سرعة إكرام إبراهيم - عليه السلام - لضيفه وتقديم القرى لهم ، أن حمل بعض المفسرين (٥) أن يقول : إن الطعام كان مهينًا من قبل !!.. غير أن هذا القول يقتضي إخراج النص عن ظاهره الدال على إنجازه في ذلك الوقت ؛ لأنه أزيد في العناية ، وأبلغ في

(١) الكشاف ص (١٠٥٢) .

(٢) روح المعاني للألوسي (١٩/٢٧) .

(٣) مقاييس اللغة (١٠٩/٢) .

(٤) القصص القرآني ، للدكتور صلاح الخالدي (٤١٩/١) .

(٥) هو أبو حيان في البحر المحيط (١٣٩/٨) .

الإكرام ، فإن خير البر عاجله .

ولهذا لما أحضره لهم لم يجوجهم إلى القيام له ، بل وضعه بين أيديهم ليتناولوه ، وقربه إليهم ولم يقربهم إليه ، وهذه إشارة إلى عظيم أدب ، ورقة إحساس ، ثم تطف بهم في دعوتهم إليه بقوله : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ ؟ .

قال ابن كثير - رحمه الله - :

« وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة ، فإنه جاء بطعامه من حيث لا يشعرون بسرعة ، ولم يمتن عليهم أولاً فقال نأتيكم بطعام ؟ بل جاء به بسرعة وخفاء ، وأتى بأفضل ما وجد من ماله ، وهو عجل فتي سمين مشوي ، فقربه إليهم ولم يضعه وقال : اقتربوا ، بل وضعه بين أيديهم ، ولم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغة الجزم . بل قال : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ على سبيل العرض والتلطف ، كما يقول القائل اليوم : إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل » (١) .

وهذه هي آداب الضيافة وآداب الأنبياء - عليهم السلام - ، ولهذا جاء ذكرها في القرآن الكريم على سبيل المدح والثناء والتقدير ، فكانت تشريعاً ؛ لما دلت عليها من أحكام .

قال القرطبي - رحمه الله - :

« في هذه الآيات من أدب الضيف أن يعجل قراه فيقدم الموجود الميسر في الحال ، ثم يتبعه بغيره إن كان له جِدة ، ولا يتكلف ما يضر به . قال : والضيافة من مكارم الأخلاق ، ومن آداب الإسلام ، ومن خلق النبيين والصالحين ، وإبراهيم - عليهم السلام - أول من أضاف » (٢) .

لوط - عليه السلام - مع أضيافه الملائكة :

ومن الأنبياء الذين كان لهم موقف مع الملائكة ظهر فيه أدب النبوة ، وكمال الخلق ؛

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/٤٢١) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٩/٥٧) .

نبي الله لوط - عليهما السلام - .

فإنه لما أراد الله تدمير قوم لوط أرسل عليهم مجموعة من الملائكة في صورة رجال وشبان حسان ؛ مبالغة في فتنة قوم لوط ، وإقامة الحججة عليهم .

وكما أن إبراهيم - عليهما السلام - لم يعرفهم لما قدموا عليه وظنهم ضيوفاً بشراً حقيقيين ، فإن لوطاً كذلك لم يعرف أنهم ملائكة في صورة بشر ، وظنهم ضيوفاً بشراً عليه .

ولهذا لما نظر إليهم ورآهم رجالاً حسناً على صورة جميلة سيء بهم وضاق بهم ذرعاً ، وتمنى لو لم يأتوه .

قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ

عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ (١) .

والمعنى : أنه أصابه الهم والغم والحزن والسوء عندما حلوا بيته ، وضاق بهم ذرعاً ولم يعرف ماذا يفعل ، ولا كيف يتصرف ، واعتبر هذا اليوم الذي قدموا فيه عليه وحلوا رحالهم بيته يوماً عصيباً شاقاً قاسياً ، له نتائج خطيرة قد تؤذيه هو كثيراً ، لكن لماذا أصابه هذا الهم ، وضاق ذرعاً بضيوفه ؟ أليس إكرام الضيف واجب ومطلوب ، ومن علامات المروءة والشهامة والكرم ؟ وهو النبي الكريم - عليهما السلام - ؟ .

لماذا لم يحسن استقبالهم ولم يفرح بهم ، كما فعل إبراهيم - عليهما السلام - عندما قدموا عليه وقدم لهم عجلاً حنيذاً ؟ .

لقد كان نبي الله لوط - عليهما السلام - من أكرم الناس وأبذلهم للمال والقرى ، وأكثرهم مروءة وشهامة ونخوة ، لكنه ابتلي بقوم فاسقين شاذين منحرفين عن الفطرة السوية والخلق الكريم ، إنهم يرتكبون فاحشة اللواط ، ويأتون الرجال شهوة من دون النساء ، حتى انتشر هذا الشذوذ وفشا فيهم ، وأصيبوا بالسعار الذي لا شفاء منه ، ولا يتركون أحداً يقدر على الفجور به سالماً ، وضيوف لوط - عليهما السلام - رجال غرباء ، ذوو هياة وملاحة

(١) سورة هود ، آية (٧٧) .

وجمال ، وعندما يروهم هؤلاء القوم الشاذون فيهم - بلا شك - سيهجمون عليهم ؛ ليفجروا بهم ، ولوط - عليه السلام - لا يقدر على الدفاع عنهم ، وصد الأذى عنهم ، في ضيافته وبيته ، ولهذا فقد تمنى لو لم يأتوا إلى بلده أصلاً ، وأن لم يدخلوها أبداً ، ولهذا لما رآهم وعلم شدة البلاء الذي سيواجهه لوجودهم معه قال : ﴿ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ ﴿٧٧﴾ أي : شديد بلاؤه ، يقال : عصبه ، أي : شده . ويقال : يوم عصيب إذا حدث فيه أمر عظيم (١) .

قال ابن كثير - رحمته - :

« يخبر تعالى عن قدوم رسله من الملائكة بعدما أعلموا إبراهيم بهلاكهم وفارقوه وأخبروه بإهلاك قوم لوط في تلك الليلة ، فانطلقوا من عنده ، فأتوا لوطاً - عليه السلام - وهو على ما قيل في أرض له ، وقيل في منزله ، ووردوا عليه وهم في أجمل صورة تكون على هيئة شبان حسان الوجوه ؛ ابتلاءً من الله ، وله الحكمة والحجة البالغة فسأه شأنهم ، وضاعت نفسه بسببهم ، وخشي إن لم يضيفهم أن يضيفهم أحد من قومه ، فينالهم بسوء : ﴿ وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ ﴿٧٧﴾ » (٢) .

وبدأ هذا اليوم العصيب ، وحصل ما كان يخشاه ويتوقعه لوط - عليه السلام - ، من قومه الفاجرين .

ف عندما علموا بقدوم الضيوف وهم شبان حسان حتى جاءوا مسرعين ، مسعورين بشهوات عارمة ، وطباع غليظة ، وهم يتلمظون ويتحرقون لفعل الفاحشة ، في دلالة واضحة على تمكن الشذوذ فيهم - والعياذ بالله - ، وإشارة لوصولهم إلى مرحلة متقدمة من انتكاسات الفطرة وانقلابها .

ولك أن تتدبر معنى كلمة : ﴿ يَهْرَعُونَ ﴾ ﴿٣﴾ وكيف أتت في هذا السياق ؛ لتسجل

(١) الكشف ص (٤٩١) .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٣٦/٤) .

(٣) سورة هود ، آية (٧٨) .

أدق تفاصيل هذا الشذوذ وهذه الانتكاسة ، في تصوير للرغبة الشاذة المحمومة التي حركتهم ودفعتهم للمجيء ؛ لما علموا بوجود هؤلاء الحسان عند لوط .

قال الإمام الراغب في المهرع :

« يقال هَرَع وأهْرَع : ساقه سَوْقًا بعنف وتخويف ، والهَرِيع : السريع المشي » (١) .

ولاحظ أن فعل : ﴿ يَهْرَعُونَ ﴾ في الآية مسند لغير الفاعل أي : مبني للمجهول . ولهذا لفظة لطيفة ، فالقوم الشاذون أتوا إلى بيت لوط - عليه السلام - مسرعين ، يحركهم شيء قوي بداخلهم ، ويسوقهم سوقًا بعنف ، ألا وهو الانحراف والشذوذ ، الذي يعميهم عن رؤية الحقائق ، فما إن شاهدوا الرجال الحسان حتى أصيبوا بحمى وهستيريا الشذوذ ، وتوجهوا إليهم ؛ ليمارسوا معهم الشذوذ .

بل لقد استبشروا بهم وسُرُّوا وفرحوا بقدمهم ﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾

(٢) ﴿ ٦٧ ﴾ فيما بينهم ويخبرون بعضهم وينشرون ذلك في متدياتهم ومجالسهم ، في لفظة واضحة لانتشار هذه الفاحشة بينهم ، وتغلغلها وتمكنها من نفوسهم وداخل مجتمعهم ﴿ وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ (٣) وهذا - أيضًا - فيه إشارة إلى ذكر الغرض الذي من أجله جاءوا يهرعون ، وقد صار لهم دأبًا لا يسعون إلا لأجله ، « ومن قبل مجيئهم إلى دار لوط كانوا في ناديهم يعملون السيئات ، فلما بلغهم نبأ ضيوف لوط الحسان تركوا ما هم فيه من السيئات التي كانوا يعملونها » (٤) ، وطلبوا من لوط - عليه السلام - أن يسلمهم ضيوفه ؛ ليفجروا بهم ، ويمارسوا معهم شذوذهم ، لدرجة أنهم أصروا على ذلك أشد الإصرار ، وراودوه أشد الراودة .

(١) المفردات للراغب ص (٨٤٠) .

(٢) سورة الحجر ، آية (٦٧) .

(٣) سورة هود ، آية (٧٨) .

(٤) معارج التفكير ودقائق التدبير لعبد الرحمن حبنكة (٤٥٦/١٠) .

﴿ وَلَقَدْ رَؤِدُوهُ عَن ضَيْفِهِ ۖ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٧﴾ ﴾ (١) .

لقد هاج سعارهم الشاذ الملوث ، وساوروا لوطاً يريدون الاعتداء المنكر على ضيوفه وقالوا : ﴿ أَوْلَمْ تَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (٢) ، وذكرت المراودة هنا في موقف لوط -عليه السلام- حين أراد الدفاع عن ضيوفه ، وأراد قومه أخذ ضيوفه ، وتنازعت الإرادتان فكانت المراودة .

قال الراغب :

« الإرادة في الأصل : قوة مركبة من شهوة وحاجة وأمل ، وجعل اسماً لنزوع النفس إلى الشيء ، مع الحكم فيه بأنه ينبغي أن يفعل ، أو لا يفعل . . » (٣) .

« والمراودة : أن تنازع غيرك الإرادة ، فتريد غير ما يريد ، أو ترود غير ما يرود ، وراودت فلاناً عن كذا » (٤) .

ولما طلب قوم لوط -عليه السلام- منه أن يسلمهم الرجال الحسان الذين استضافهم ، وقف لوط -عليه السلام- أمام قومه بقوة ، ودافع عن ضيوفه دفاعاً مجيداً ، وقام بواجبه تجاههم خير قيام ، في موقف يدل على أدب كامل ، وخلق رفيع ، وكرم ومروءة وشهامة ونخوة لا توجد إلا في القلة من الرجال .

لقد حاول في بداية الأمر أن يوقف فيهم الفطرة السليمة ، والرغبة الإنسانية الصحيحة التي ركبها الله في الإنسان وفق المنظور الشرعي السليم ، فوجههم إلى الجنس الآخر الذي خلقه الله للرجال ، وجعله مكماً له ، وموضعاً لشهوته ، ومكاناً لسد حاجته الفطرية التي ركبها الله في خلقته البشرية ، فقال لهم : ﴿ قَالَ يَقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ

(١) سورة القمر ، آية (٣٧) .

(٢) سورة الحجر ، آية (٧٠) .

(٣) المفردات ص (٣٧١) .

(٤) المصدر السابق .

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۗ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ (١) .

لقد أبى لوط - عليه السلام - أن يسلم ضيوفه ، ودافع عنهم ، وهذا موقف كريم يذكرنا بواجب إكرام الضيف ، والاعتناء به ، ودفع الأذى عنه ، وبذل أقصى الجهد والطاقة في ذلك ، والاعتناء في ذلك بنبي الله لوط - عليه السلام - .

لقد استجاش لوط - عليه السلام - في قومه تقوى الله ، ولمس قلوبهم لمسة إيمانية ، وافتتح ندائه لهم بكلمة : ﴿ يَاقَوْمُ ﴾ ترفيقاً لنفوسهم الغليظة ، وتلييناً لقسوتهم ، وإيقاظاً لضميرهم الميت ، وتهيجاً لمشاعر الصلة والقربة التي تقطعت أو اصرها بينه وبينهم ، ثم قال لهم : ﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ وهذه دعوة الفطرة السليمة ، والرغبة السوية ، والطهر النقي .

دعا لوط قومه إلى التفكير الفطري السليم في تصريف الشهوة ، بأن يتجه كل منهم إلى الجنس الآخر ، إلى البنت الأثنى ، التي فطر الله الرجل السوي المستقيم على التفكير فيها ، والتوجه إليها .

لقد دعاهم إلى الإقلاع عن التفكير الشاذ ، وطلب قضاء الشهوة عند الرجال ، باعتبارهم من نفس الجنس ؛ لأن هذا انحراف وشدوذ طالما نهاهم عنه وحذرهم منه ، لهذا دعاهم إلى الزواج من بناته ، والمراد هنا : بنات القوم ونسأؤهم .

قال مجاهد :

« لم يكن بناته ، ولكن من أمته ؛ لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد » (٢) .

ويجوز أن يكون قد عرض بناته عليهم مبالغة في تواضعه لهم ، وطمعاً في أن يرقوا له ويستحيوا .

(١) سورة هود ، آية (٧٨) .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٣٧/٤) .

والراجح أنه يقصد بنات القوم ؛ إذ لم يكن له إلا ابنتان وهذا من قبيل التشبيه البليغ .
أي : هؤلاء نساؤهن كبناتي ، وهو المناسب لجعلهن لقومه إذ قال : ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ ،
قال الطبري : « في التزويج » (١) .

وقيل : « أنظف فعلاً ، وأقل فحشاً ؛ لعلهم يرجعون عن الفواحش
والسيئات » (٢) .

وقال الشوكاني - رحمه الله تعالى - :

« أراد بقوله : ﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي ﴾ النساء جملة ؛ لأن نبي القوم أب لهم . وقالت
طائفة : إنما كان هذا لقول منه على طريق المدافعة ، ولم يرد الحقيقة ، ومعنى : ﴿ هُنَّ
أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ أي : أحل وأنزه . والتطهر : التنزه عما لا يحل ، وليس في صيغة أظهر دلالة
تفضيل ، بل هي مثل : الله أكبر » (٣) .

كما حاول لوط - عليه السلام - أن يثير في قومه النخوة والمروءة اللتين تقتضيان إكرام
الضيف والإحسان إليه ، لا العدوان عليه والنيل منه ، مما يسبب الخزي والعار لمضيفه ، ولا
يفعل ذلك من يتقي الله أو كان راشداً عاقلاً .

لقد لفتهم التفاتة نفسية اجتماعية ، حين ذكروهم أن هؤلاء الرجال الذين يطلبونهم هم
ضيوفه ، والمضيف يجب عليه أن يكرم ضيفه ويساعده ويدافع عنه ، كما أن على جيران
المضيف وأقاربه وقومه يجب أن يساعده في هذا الواجب ، ويقفون معه ، ويكونون عوناً
له ، لا منتهكين لهذه الحرمة ومعطلين لهذا الواجب .

لقد خاطبهم بمنطق المروءة ، وأثار فيهم معاني الحياء والتحمل ؛ إذ أن هذه الأخلاق
تجعل الإنسان يحاول أن لا يقصر في إكرام ضيوفه ، فضلاً عن أن يؤذيهم أو يسيء إليهم ،

(١) تفسير ابن جرير (٨٣/٧) .

(٢) أنوار التنزيل للبيضاوي (٤٦٤/١) .

(٣) فتح القدير (٧١٥/٢) .

ولهذا قال لهم : ﴿ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۗ ﴾ من الخزاية وهي الفضيحة (١) ، أي : ولا تهينوني وتفضحوني في شأنهم ، فإنه إذا أخزي ضيف الرجل أو جاره فقد أخزي الرجل ، وذلك من عراقة الكرم ، وأصالة المروءة (٢) .

ومع كل هذا النصح وتلك المواعظ وتلك المحاولات من لوط - عليهما السلام - ليدفع قومه عن ضيوفه ، إلا أن سعارهم ما زال مشتعلًا في نفوسهم ، وشذوذهم يسوقهم للفاحشة ، ويعميهم عن اليقظة والرشد ، فردوا عليه قائلين : ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۗ ﴾ (٣) ، مصارحة في الشذوذ ، في قمة الوقاحة والردالة والخسة والانحطاط ، وانتكاس الفطرة ، ومجاهرة بالمعصية .

وهذه إشارة إلى تمكن الشذوذ والانحراف فيهم ، بحيث صار هو الوضع الصحيح لديهم ، وصار التوجه إلى النساء ومعاشرتهن هو الوضع الشاذ .

لقد كان انحراف القوم كبيرًا وخطيرًا ، بحيث غطى على كل شيء ، وأبغضهم من في السموات والأرض ، ومقت أفعالهم ، واستنكر أخلاقهم حتى الحيوان والنبات والجماد الذي يسبح الله ولا يرضى بعصيانه ، فاستحقوا بذلك عذاب الله الأليم .

يقول محمد رشيد رضا :

« يعنون أن الحق عندهم نكاح الذكور ؛ مستشهدين بعلمه به تمكّمًا ، أو الحق هنا الحاجة والأدب ، والمعنى : لقد علمت ما لنا في بناتك من حاجة أو رغبة في تزوجهن فتصرفنا بعرضهن علينا عما نريده ، أو لقد علمت الذي لنا في نسائنا اللواتي تسميهن بناتك من حق الاستمتاع وما نحن عليه معهن ، فلا معنى لعرضك إياهن علينا ؛ لصرفنا عما نريد ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۗ ﴾ من الاستمتاع بالذكران ، وإننا لا نؤثر عليه شيئًا ، وتعرف

(١) أنوار التنزيل (٤٦٤/٤) دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، طبعة : ١٤٠٨ هـ .

(٢) محاسن التأويل (٣٢٣/٤) .

(٣) سورة هود ، آية (٧٩) .

ذلك حق المعرفة « (١) .

وأصر لوط - عليه السلام - على الدفاع عن ضيوفه ، والذود عنهم بكل ما يستطيع من قوة ، وأصر قومه على أخذهم منه ، وأمام دفاعه وثباته أرادوا اقتحام بيته وفتح أبوابه بالقوة ، وإخراج ضيوفه بالقوة ، فصاح فيهم قائلاً : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِيَّ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ (٢) .

قال ابن كثير - رحمته - :

« ذكر المفسرون وغيرهم أن نبي الله لوط - عليه السلام - جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم والباب مغلق ، وهم يرومون فتحه وولوجه ، وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباب ، فلما ضاق الأمر وعسر الحال ، قال ما قال ، ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِيَّ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ (٣) لأحلت بكم النكاح » (٣) .

لقد كان لوطاً - عليه السلام - وحيداً بينهم ، وليس واحداً منهم ، وليس له في القرية أقارب أو عشيرة أو أهل وأنصار ، ليس معه أفراد من البشر ينصرونه ، ولذلك تمنى لو أنه له بهم قوة من البشر تواجههم وتجاههم وتمنعهم وتدفعهم .

ولقد قال نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - : « يرحم الله لوطاً ، لقد كان يأوي إلى ركن

شديد » (٤) .

(١) تفسير المنار (١١٢/١٢) ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ م .

(٢) سورة هود ، آية (٨٠) .

(٣) قصص الأنبياء ص (١٨٣) .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأنبياء ، باب قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ . . . ﴾

(١٥٠/٤) برقم (٣٣٨٧) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب زيادة طمأنينة القلب

(١٢١/١) برقم (١٥١) .

قال النووي في شرح مسلم :

« فالمراد بالركن الشديد هو الله - ﷻ - ، فإنه أشد الأركان وأقواها وأمنعها ، ومعنى الحديث - والله أعلم - : أن لوطاً - عليهما السلام - لما خاف على أضيافه ، ولم يكن له عشيرة تمنعهم من الظالمين ، ضاق ذرعه ، واشتد حزنه عليهم ، فغلب ذلك عليه فقال في الحال : لو أن لي بكم قوة في الدفع بنفسي أو آوي إلى عشيرة تمنع لمنعتكم ، وقصد لوط - ﷻ - إظهار العذر عند أضيافه ، وأنه لو استطاع دفع المكروه عنهم بطريق ما لفعله ، وأنه بذل وسعه في إكرامهم والمدافعة عنهم ، ولم يكن ذلك إعراضاً منه - ﷻ - عن الاعتماد على الله تعالى ، وإنما كان لما ذكرناه من تطيب لقلوب الأضياف ، ويجوز أن يكون نسي الالتجاء إلى الله تعالى في حمايتهم ، ويجوز أن يكون التجأ فيما بينه وبين الله تعالى ، وأظهر للأضياف التألم وضيق الصدر ، والله أعلم . اهـ » (١) .

وعلى هذا فيعلم أن نبي الله لوط - عليهما السلام - لم ينس قوة الله تعالى وركنه الشديد ، فهو نبي رسول لا يغيب عنه هذا المعنى ، وإنما أراد - والله أعلم - القوة المادية ، التي تقف في مواجهة ومجاهمة لقوة قومه العددية والبشرية .

أراد أن يأوي إلى ركن مادي بشري ، وقوة ومنعة مادية ، وركن واقعي من عالم الواقع البشري المحسوس ، ولقد أخبرنا نبينا - ﷻ - أن كل نبي بعد لوط كان في منعة من قومه . فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷻ - : « رحم الله لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد وما بعث الله نبياً إلا وهو في ثروة من قومه » (٢) .

لهذا فإن بعد أزمة لوط - عليهما السلام - مع قومه وغربته الغربية بينهم ، كان يُبعث كل نبي أو رسول من بعده ومعه ركن بشري ، بحيث يكون هذا النبي واحداً من قومه ، وله أقارب وعشيرة ، ومعلوم أن رهط الرجل وعشيرته قوة بشرية ، يدفع الله بها الأذى عن نبيه .

(١) شرح صحيح مسلم (٢/٣٦٢) .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب تفسير القرآن ، باب من سورة يوسف (٥/٢٧٣ - ٢٧٤) برقم

(٣١١٦) .

فها هو شعيب - عليه السلام - وكان بعد لوط - عليه السلام - قد جعل الله له عشيرة يرتكن إليهم ، وأخبره قومه الكفار بأنه لولا هذه العشيرة وهذا الركن لآذوه ورجموه ﴿ **وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمَنَّكَ** وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ (١) .

وغيره من الأنبياء من بعده إلى خاتم الأنبياء وأفضل المرسلين نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - ، الذي أرسله واختاره من قبيلة قريش القوية المنيعة المهابة الجانب ، ثم اختار من هذه القبيلة أفضل وأقوى بطونها ، وهم بنو هاشم الذين كانت لهم السيادة في قريش .

وهكذا - أخي القارئ - يتضح لك ما كان من نبي الله لوط - عليه السلام - من أدبه وكرمه لأضيافه الكرام من الملائكة ، حتى بلغ به الحال في الإكرام - فضلاً عن مدافعتهم عنهم والذود عن حياضهم - أن عرض بناته على أهل السوء في سبيل إكرام أضيافه ، الذين أراد قومه الإساءة إليهم .

فلقد أراد أن يقي أضيافه من هؤلاء الفسقة بأعز ما يقدر عليه ، ولا يقدر عليه غيره ، وهو بناته وفلذات كبده ، وفي هذا العرض صورة لأبلغ كرم ، وأعظم أدب وقع ، وسواء كان ذلك العرض تزويج بالفعل - كما ذهب إليه أهل التفسير - ، أو مبالغة في التواضع والاستعطاف لهم ؛ ليرقوا له فيتركوا أضيافه ، فإن مبلغ كرمه في الحالين واضح .

أما على الأول : فَلَمَّا فِيهِ مِنْ بَذْلِ بَنَاتِهِ لِمَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى بَذْلِهَا لَهُمْ ؛ لَفَجْوَرِهِمْ وَكُفْرِهِمْ ، لَوْلَا إِكْرَامُ الضَّيْفِ .

وأما على الثاني : فَإِنْ بَالِغَ حِرْصِهِ عَلَى إِكْرَامِهِمْ أَحْوَجَهُ - وَهُوَ الْعَزِيزُ الْجَنَابُ بِاللَّهِ تَعَالَى - إِلَى أَنْ يَبْذُلَ مَا هُوَ فَوْقَ وَسْعِهِ ، مِنْ تَوَاضُعٍ وَإِذْلَالٍ نَفْسٍ لِهَؤُلَاءِ السَّيِّئِينَ فِي سَبِيلِ إِكْرَامِ ضَيْفِهِ ، وَفِي ذَلِكَ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى عَظِيمِ كَرَمِهِ وَأَدْبِهِ مَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى بَرَهَانٍ أَوْ مَزِيدٍ بَيَانٍ .



(١) سورة هود ، آية (٩١) .

المبحث الثاني

أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مع الجن

الجن في اللغة : - بالكسر - : اسم جنس جمعي ، واحده جني ، وهو مأخوذ من الاجتنان وهو التستر والخفاء ، وقد سموا بذلك لاجتنانهم من الناس فلا يرون ، والجمع جنان وهم الجنَّة (١) .

وعلى هذا فهم ضد الإنس ؛ لأن الإنس سمي بذلك لظهوره وإدراك البصر إياه ، فيقال : أنست الشيء إذا أبصرته . ويقال : لا جن بهذا الأمر : أي لا خفاء به ولا ستر .

والجن بالكسر : هو الترس ؛ لأن المقاتل يستتر به من الرامي والطاعن وغير ذلك . وكل شيء وقيت نفسك به واستترت به فهو جنه (٢) .

ومنه قول الرسول ﷺ - : « الصيام جنة » (٣) أي : وقاية ؛ لأنه يقي صاحبه من المعاصي .

وجن الرجل جنوناً فهو مجنون : إذا خفي عقله واستتر .

وسمي الجنين جنيناً ؛ لاستتاره في بطن أمه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ (٤) .

وهكذا نلاحظ مما تقدم أن لفظة (جن) وما شابهها مما يطلق على كثير من الأشياء إنما تفيد مجموعها معنى الخفاء والاستتار ؛ لأن الجن في عالم الخفاء ، فلا يرون في الحالات العادية .

(١) لسان العرب (٩٥/١٣) .

(٢) الزينة في الكلمات الإسلامية العربية (١٧٢/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الصوم ، باب فضل الصوم (٢٤/٣ - ٢٥) برقم (١٨٩٤) ، ومسلم في باب فضل الصيام (٦٦٣/٢) برقم (١١٥١) .

(٤) سورة النجم ، آية (٣٢) .

الجن في الاصطلاح :

ورد لفظ الجن في القرآن الكريم في آيات كثيرة ، وسميت سورة باسمهم ، هي سورة الجن ، وورد في السنة المطهرة كذلك ذكر الجن في مواضع متعددة ، وكل ذلك إنما يدل على أهمية هذا المخلوق ؛ إذ إنه يشاطر الإنس في التكليف .

قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٥٦) (١) .

ويستخلص من التعريفات المتعددة للجن : بأنهم : « نوع من الأرواح العاقلة المريدة المكلفة على نحو ما عليه الإنسان ، مجردون من المادة ، مستترون عن الحواس ، لا يرون على طبيعتهم ولا بصورتهم الحقيقية ، ولهم قدرة على التشكل ، يأكلون ويشربون ويتناكحون ، ولهم ذرية ، محاسبون على أعمالهم في الآخرة » (٢) .

وهذا التعريف يعطي الصفات البارزة لهذا العالم الذي نجهل الكثير عن طبيعة حياته ؛ لأنه غائب عن حواسنا . وسنأتي - إن شاء الله فيما بعد - على تفصيل صفات هذا المخلوق .

وبناء على ما تقدم فإن الجن خلق يغاير طبيعة البشر من حيث الشكل ، وأصل المادة التي خلقوا منها ؛ إذ أنهم مخلوقون من النار ، بعكس الإنسان الذي خلق من الطين .

قال تعالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ﴿١٥﴾ (٣) .

وكذلك فإن هذا المخلوق له حياته الخاصة من حيث الطعام والشراب يختلف فيها عن الإنسان ، وغير ذلك مما يختص به من الصفات .

(١) سورة الذاريات ، آية (٥٦) .

(٢) العقائد الإسلامية لسيد سابق ص (١٣٣) .

(٣) سورة الرحمن ، آية (١٤ - ١٥) .

ولقد وضحت النصوص القرآنية أن خلق الجن سابق على خلق الإنسان .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارِ السَّمُومِ ﴿٧﴾ ﴾ (١) .

قال قتادة :

« وهو إبليس خلق من قبل خلق آدم » (٢) .

وقال الألويسي في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ ط ﴾ (٣) :

« وتقدم الجن لأنهم أعرف من الإنس ، وأكثر عددًا ، وأقدم خلقًا » (٤) .

وصرح القرآن أيضًا بذكر المادة التي خلق منها الجن في قوله تعالى : ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارِ السَّمُومِ ﴿٧﴾ ﴾ (٥) في مقابل الحديث عن خلق الإنسان من الطين .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾ (٦) .

وكذلك فيما ورد في صحيح مسلم من حديث عروة عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجن من مارج من نار ،

(١) سورة الحجر ، آية (٢٦ - ٢٧) .

(٢) الدر المنثور (٧٠/٥) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (١٧٩) .

(٤) روح المعاني (١٥٨/٩) .

(٥) سورة الحجر ، آية (٢٧) .

(٦) سورة الرحمن ، آية (١٥) .

وخلق آدم مما وصف لكم» (١) .

والجن لا يألون جهداً في إضلال الإنس وإغوائهم ، محتفين وظاهرين ، بالوسوسة وغيرها ، وقد أوتوا قدرات تفوق قدرة الإنس في سرعة التنقل والاطلاع على بعض الأمور التي لا يشاهدها الإنسان .

ومع ذلك فقد يسخرون لبعض الإنس فيقهرونهم ويستعملونهم في الأعمال المختلفة ، كما حصل لرسول الله - ﷺ - عندما جاءه الشيطان ليقطع عليه الصلاة ، فأخذه وخنقه ، حتى هم أن يربطه إلى أحد سواري المسجد ليلعب به ولدان المدينة ، ولكن الذي حال دون ذلك دعوة أخيه سليمان - عليه السلام - حينما قال : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾ (٢) ، وكما روي أن عمار بن ياسر - رضي الله عنه - قاتل الشيطان فصرعه عندما لقيه في صورة الإنس .

فعن الحسن قال : كان عمار يقول : قاتلت مع رسول الله - ﷺ - الجن والإنس ، أرسلني إلى بئر بدر فلقيت الشيطان في صورة الإنس فصارعني فصرعته ، فجعلت أدقه بفهر (٣) معي ، أو حجر معي فقال رسول الله - ﷺ - : « عمار لقي الشيطان عند البئر فقاتله ، فما عدا أن رجعت فأخبرته فقال : ذاك الشيطان » (٤) .

والجن في واقع الأمر أشد خوفاً من الإنس من خوف الإنس منهم ، لكن هذا الخوف من الإنس إنما يكون من المؤمنين الذين ليس للجن سبيل عليهم ، وأما الكفار فإن الجن والشياطين تتلاعب بهم وتسخرهم في معصية الله (٥) .

وليس أحد من الناس تطيعه الجن طاعة مطلقة كما كانت تطيع نبي الله سليمان

(١) تقدم تخريجه ص (٣٨٣) .

(٢) سورة ص ، آية (٣٥) .

(٣) الفهر : الحجر ملء الكف .

(٤) مجمع الزوائد (٢٩٦/٩) .

(٥) النبوات ص (٢٧٨) - باختصار - .

- **عليه السلام** - بتسخير من الله وأمر منه من غير معارضة فهو التسخير الشرعي من قبل الله الذي يترتب على مخالفة أمره العقاب الشديد مقابل الثواب على طاعته .

وفي ذلك يقول تعالى :

﴿ وَلَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوهاَ شَهْرًا وَرَوَاحهاَ شَهْرًا وَأَسَلناَ لَهُ عَيْنَ القَطْرِ وَمِنَ الجِنِّ مَن يَعمَلُ بَيْنَ يَدَيهِ بِإِذْنِ رَبِّهٖ وَمَن يَزِغُ مِنْهُم عَن أَمْرِنَا نَذِقُهُ مِن عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٣﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالجَّوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ المَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتِهِ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي العَذَابِ المَهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَحَشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ

﴿ ١٧ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكناَ فِيهاَ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَن يُغْوِصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُم حَفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهٖ جَسَدًا ثُمَّ أَنابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرناَ لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيْطَانِ كُلِّ بَنَاءٍ

(١) سورة سبأ ، آية (١٢ - ١٤) .

(٢) سورة النمل ، آية (١٧) .

(٣) سورة الأنبياء ، آية (٨١ - ٨٢) .

وَعَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَاٰخَرِيْنَ مُقَرَّرِيْنَ فِي الْاَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هٰذَا عَطَاؤُنَا فَاْمُنْ اَوْ اَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ (١) .

لقد تسلم سليمان الملك بعد أبيه داود - عليه السلام - ، وآتاه الله من شؤون الملك ما لم يكن ولا يكون لغيره ، كما هو مبين في الآيات السابقات ، فقد سخر الله له الريح تأتمر بأمره وتنقله إلى حيث شاء على جناح السرعة ، وسخر له الطير فكان يفهم لغتها ويستعملها في مراسلاته ، ومن حملتهم الهدهد الذي طلبه سليمان يوماً فافتقده ولم يجده ، فتوعده بالعذاب على غيابه ، وقد كانت غيبته أن ذهب إلى اليمن فاستطلع أخبار مملكة بلقيس ، فأخبر سليمان - عليه السلام - بذلك ، فكان هذا عذراً من الهدهد أبحاه من العذاب (٢) .

وقد أخرج الحاكم في المستدرك عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : « كان سليمان ابن داود يوضع له ستمائة كرسي ، ثم يجيء أشراف الإنس فيجلسون مما يليه ، ثم يجيء أشراف الجن فيجلسون مما يلي أشراف الإنس ، ثم يدعو الطير فتظلمهم ، ثم يدعو الريح فتحملهم ، قال : فيسير في الغداة الواحدة مسيرة شهر » (٣) .

وأسأل الله له عيناً من النحاس تخرج من الأرض ، فيستعمله في الصناعات المختلفة ، ويشكله كيفما شاء ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ (٤) .

ومن الملك الذي آتاه الله لسليمان : تسخير الجن له تسخييراً لا نظير له ، فقال تعالى : ﴿ وَمَنْ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ (٥) فقد سخرهم الله له يطيعونه ويأتمرون بأمره وينتهون نهيته ، « فيعملون بين يديه ما يأمرهم به » (٦) .

(١) سورة ص ، آية (٣٤ - ٣٩) .

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير ص (٤١١) .

(٣) المستدرك للحاكم (٦٤٤/٢) .

(٤) سورة سبأ ، آية (١٢) .

(٥) سورة سبأ ، آية (١٢) .

(٦) تفسير الطبري (٣٥٤/١٠) .

قال الفخر الرازي في قوله تعالى :

﴿ وَحَشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (١)

« فالحشر هو الإحضار والجمع من الأماكن المختلفة ، والمعنى : أن الله جعل كل هذه الأصناف جنوده ، ولا يكون كذلك إلا أن يتصرف بمراده » (٢) .

« وذكر ابن كثير أنه كان يركب في هذه الأصناف من الجن والإنس والطير في أجرة عظيمة ، وعمرة كبيرة ، وقد كان الإنس هم الذين يلونه ، والجن من بعدهم في المنزلة ، والطير منزلتها فوق رأسه فإن كان حر أظلمته بأجنحتها ، وقد كان يكف هذه الأصناف أولها على آخرها ؛ لئلا يتقدم عليه أحد في المسير ، كما يفعل الملوك اليوم » (٣) .

ولا يخفى أن هذا التعليل في وصف مجلس سليمان - عليه السلام - وكيفية مسيره مما لم يدل عليه القرآن ، بل هو مما تلقى عن بني إسرائيل فلا يصح الجزم به ، وقد قال - عليه الصلاة والسلام - : « تحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج » (٤) ، وقال - أيضاً - : « إذا حدثكم بنو إسرائيل فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » (٥) .

وقد كان حضور الجن بين يدي نبي الله سليمان - عليه السلام - رحمة من الله لا يترتب عليه مفسدة ؛ لأنه حضور بإذن الله سبحانه ، وهذا التسخير من الله أيضاً كان تكليفاً للجن ؛ لأنه بأمر منه سبحانه يترتب على مخالفته العذاب الشديد (٦) ، وذلك قوله تعالى :

(١) سورة النمل ، آية (١٧) .

(٢) التفسير الكبير (٥٤٨/٢٤) .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٨٣/٦) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٦/٤) عن أبي هريرة - عليه السلام - ، وأبو داود في سننه ، كتاب العلم ، باب الحديث عن بني إسرائيل برقم (٣٦٦) .

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ما جاء عن بني إسرائيل (٤٩٦/٦) عن عبد الله بن عمر .

(٦) التفسير الكبير (١٩٨/٢٥) .

﴿ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ (١) .

قال الطبري :

« ومن يزل ويعدل من الجن عن أمرنا من طاعة سليمان نذقه عذاب السعير في الآخرة وذلك عذاب جهنم الموقدة » (٢) .

وقد ذكر الفخر الرازي أقوالاً في سبب طاعة الجن له .

الأول : أنه تعالى وكل بهم جمعاً من الملائكة بأيديهم مقارع من نار ، أو جمعاً من مؤمني الجن .

الثاني : أن الله سخرهم له بأن حبب إليهم طاعته وخوفهم من مخالفته .

الثالث : قال ابن عباس - رضي الله عنه - في قوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾

﴿ (٣) يريد وسلطانه مقيم عليهم يفعل بهم ما يشاء (٤) . ﴾

وقد ذكر الفخر الرازي أيضاً أن التسخير إنما كان للكافرين منهم دون المؤمنين ، وأيد ذلك بوجهين :

الأول : إطلاق لفظ الشياطين على المسخرين ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ

الشَّيْطَانِ مَنْ يَغْوِصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ ﴾ (٥) .

الثاني : قوله : ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ (٦) فإن المؤمن إذا سخر في أمر

(١) سورة سبأ ، آية (١٢) .

(٢) تفسير الطبري (٣٥٤/١٠) .

(٣) سورة الأنبياء ، آية (٨٢) .

(٤) التفسير الكبير (١٧٠/٢٢) .

(٥) سورة الأنبياء ، آية (٨٢) .

(٦) سورة الأنبياء ، آية (٨٢) .

لا يجب أن يحفظ ؛ لثلا يزيغ عن أمر الله في طاعة سليمان ، وإنما يجب ذلك في الكافر (١) .

أما ما ذكره الفخر الرازي في المسألة فالحق أن السبب الذي دلت عليه الآيات السابقة أن طاعة الجن لسليمان إنما هي تكليف لهم بذلك ، وما جعل الله لسليمان من القدرة على قسرهم ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ (٢) .

وإذا كان الجن مكلفين بطاعة سليمان والقيام له بالأعمال المختلفة ، فإن المؤمن التقي منهم يؤدي ما كلف به اختياراً ، والكافر والفاسق يؤديه قسراً ، كما قال تعالى : ﴿ وَالشَّيْطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ (٣) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿ (٣) .

وظاهر قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَلْجَنُّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۗ ﴾ (٤) يدل على أن قسماً من الجن سخروا له وليس جميعهم .

وإذا كان الجن قد سخروا لسليمان عليه ، فما هي الأعمال التي كان يسخرهم للقيام بها ؟

قال تعالى في ذلك : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ ۗ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٥) .

فأخذ الجن يعملون له محارِب ، وهي الأماكن الحسنة وصدور المجالس ، وقال الضحاك : وهي المساجد ، وذكر مجاهد أنها بنايات دون القصور ، وقال أبو عبيدة : هي

(١) التفسير الكبير (١٧٠/٢٢) .

(٢) سورة ص ، آية (٣٨) .

(٣) سورة ص ، آية (٣٧ - ٣٨) .

(٤) سورة سبأ ، آية (١٢) .

(٥) سورة سبأ ، آية (١٣) .

أشرف بيوت الدار ، وغير ذلك من الأقوال (١) .

ولا شك أنها بنايات حسنة عظيمة ، سواء أكانت مساجد أو بنايات للسكن أو غيرها .

وكانوا يقومون بصناعة التماثيل .

قال القرطبي :

« تماثيل : جمع تمثال ، وهو كل ما صور على مثل صورة حيوان أو غير حيوان .
وقيل : كانت من زجاج ونحاس ورخام ، تماثيل أشياء ليست بحيوان » (٢) .

وقال ابن كثير :

« وهي الصور في الجدران ، وكان هذا سائغاً في شريعتهم وملتهم » (٣) .

ولا شك أن هذه التماثيل التي كانت تقوم الجن بعملها لها شأن ؛ لما هي عليه من الضخامة والإبداع ، ولهذا نوّه الله بذكرها .

وإذا كان التمثال اسماً للصورة سواء كانت لحيوان أو غير حيوان ، فإنه لا يمكن الجزم بأن تماثيل سليمان كانت لحيوانات ، وإن قدر أنها كانت تماثيل حيوانات أو منها ما هو كذلك ، فهو مما كان سائغاً في شريعتهم كما قال ابن كثير .

قال عبد الوهاب النجار :

« وقد ذكرت كتب العهد القديم العمائر التي قامت الجن في عهد سليمان - عليه السلام - بعملها ومن بينها سور القدس القديم وتدمر في بلاد الشام وغير ذلك .

ومن نظر إلى هذه الأعمال وفخامتها و ضخامة أحجارها لم يستبعد أن يكون للجن

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن (٢٤٠/١٤) .

(٢) نفس المصدر (٢٤٠/١٤) .

(٣) قصص الأنبياء لابن كثير ص (٤٢٠) .

عمل عظيم في ذلك وبخاصة تدمر ، وبعض آثارها الضخم ماثل إلى اليوم ، وقد ذكر النابغة الذبياني تسخير الجن لسليمان في شعره الذي يتعذر به إلى النعمان إذ يقول :

ولا أرى فاعلاً في الناس يشبهه ولا أحاشي من الأقوام من أحد (١)
 إلا سليمان إذ قال الإله له قم في البرية فاحدها عن الفند (٢)
 وخيس الجن أني قد أذنت لهم بينون تدمر بالصفاح والعمد (٣)

هذا ، والكتابات التي على مباني تدمر - ماثلة اليوم - تدل على أنها هياكل لعبادة الكواكب ، والكتابة رومانية ، غير أنه لا مانع من أن تكون المدينة التي بنيت في عهد سليمان ، فلما جاء الرومان حولوا بعض مبانيها إلى هياكل وكتبوا عليها ما كتبوا (٤) .

وقد جاء في كلام الجاحظ ما يتضمن إنكاره على أهل تدمر نسبتهم بناء المدينة إلى غير الجن فقال : « وأهل تدمر يزعمون أن ذلك البناء قبل زمن سليمان - عليه السلام - بأكثر مما بيننا اليوم (٥) وبين سليمان بن داود - عليه السلام - ، قالوا : ولكنكم إذا رأيتم بنياناً عجيباً وجهلتم موضع الحيلة فيه أضفتموه إلى الجن ، ولم تعانوه بالفكر » (٦) .

وليس هناك ما ينفي أن يكون بناء تدمر وسور القدس من عمل الجن ، خاصة إذا علمنا أن هذه المناطق كانت مملكة نبي الله سليمان ، إضافة إلى أن الجن يقدر على مثل هذه الأمور كما وصف القرآن الكريم ذلك ، ولكن ليس لدينا دليل يوجب الجزم في هذه القضية .

وأما الجفان : فهي ما يوضع به الطعام ، والجواب : جمع جابية ، وهي الحوض الذي

(١) أحاشي : أستثنى .

(٢) احدها : احبسها . الفند : الخطأ في الرأي والقول .

(٣) خيس : ذلل . تدمر : بلد بالشام . الصفاح : حجارة عراض رفاق . العمد : السواري من الرخام .

انظر : ديوان النابغة الذبياني ص (٣٣) .

(٤) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص (٣٣٢ - ٣٣٣) .

(٥) أي زمن الجاحظ .

(٦) كتاب الحيوان (١٨٦/٦) .

يجي فيه الماء ، وقد كانت الجفان واسعة كحياض الإبل التي تشرب منها (١) ، وذكر أنها كانت من الضخامة بحيث يجلس على الجفنة الواحدة ألف رجل (٢) .

وأما القدور : فهي ما يطبخ فيه الطعام وينضج على النار ، وقد كانت لعظمها لا تتحرك من أماكنها (٣) .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب :

« وفي وصف الجفان بهذه الضخامة والاتساع ، ووصف القدور بهذه الأحجام العظيمة دليل على سعة ملك سليمان وما بسط الله له من رزق ، حتى ليطعم على مائدته هذه الأعداد الكثيرة من الناس التي أعدت لها تلك الأواني والأدوات لتهيئة الطعام لها » (٤) .

وبالإضافة إلى هذه الأعمال فقد كان هناك من الشياطين من يعملون في البحار ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَن يَغْوِصُونَ لَهُ ، وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ (٥٢) وقال سبحانه : ﴿ وَالشَّيْطَانِ كُلِّ بَنَاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ (٣٧) وَءَاخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿ (٥٨) ﴾ (٥) .

وهذه الشياطين كانت تغوص في البحار فتستخرج منها اللآلئ والجواهر ، وكانوا يتجاوزون ذلك إلى الأعمال والمهن وبناء المدن والقصور ، واختراع الصنائع العجيبة كما قال تعالى : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ﴾ (٦) .

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٥٠٠/٦) .

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٤٤/١٤) .

(٣) انظر : المصدر السابق (٢٤٤/١٤) .

(٤) التفسير القرآني للقرآن (٧٩٠/١١) .

(٥) سورة ص ، آية (٣٧ - ٣٨) .

(٦) سورة سبأ ، آية (١٣) .

وأما الصناعات فكأخذ الحمام والثورة (١) والطواحين والقوارير وغير ذلك (٢) .

وأما من تمرد وعصى ، وامتنع من العمل وأبى ، أو قد أساء في صنيعه واعتدى منهم ، فإنه كان يقيدهم بالسلاسل والأغلال (٣) ، وهذا يدل على كمال سلطته عليهم .

وقيل : إنه لم يكن يفعل ذلك إلا بكفارهم ، فإذا آمنوا أطلقهم (٤) .

وهكذا كان في خدمة سليمان - عليه السلام - النبي الملك أفواج من الجن تقوم بمختلف الأعمال في البر والبحر ، يأترون بأمره ، نعمة ورحمة من الله ، كما قال تعالى مخاطباً إياه : ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٥) ، « فهو عطاؤنا الذي أعطيناك إياه من الملك العظيم الذي طلبته ، فأعط من شئت ، لا حساب عليك ، فمهما فعلت فهو جائز لك » (٦) .

« أمنن على من شئت منهم فأعتقه ، وأمسك من شئت واستخدمه ، فليس عليك في ذلك حساب ، وقال ابن عباس : اعتق من الجن من شئت وأمسك من شئت » (٧) .

وفي تسخير الجن لسليمان - عليه السلام - للقيام بهذه الأعمال العظيمة ما يدل على أن الله قادر على تسخير من يشاء من عباده المؤمنين ، فيكونون ضعفاء أذلاء بين يديه ، لا يملكون مخالفة أمره ، وهو أمر ذو أهمية ، إذ أن كثيراً من الناس يتصورون أن الجن مخلوقات لها سلطان وقوة في الأرض ، وأنها قادرة على أن تفعل بالإنسان ما تشاء ، حتى جاء القرآن فأبطل هذه التصورات من خلال الآيات التي تتحدث عن تسخير الجن للنبي

(١) النورة : ما يتخذ من الحجر الذي يحرق ويسوى من الكلس ويخلق به شعر العانة . انظر : لسان العرب (٢٤٤/٥) .

(٢) انظر : التفسير الكبير (١٦٩/٢٢) ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٥٩/٥) .

(٣) انظر : تفسير القرآن العظيم (٧٣/٧) .

(٤) تفسير فتح القدير (٥٧١/٤) .

(٥) سورة ص ، آية (٣٩) .

(٦) تفسير فتح القدير (٥٧٣/٤) .

(٧) انظر : تفسير الطبري (٥٨٧/١٠) .

سليمان - عليهما السلام - ، وكيفية تعامله معها ، تلك المعاملة التي تتضمن العدل والمساواة ، وعدم الظلم أو التجبر والغطرسة ، وهضم الحقوق ، وسوء الاستغلال ، بل ومشاورتهم في بعض الأحيان ، وإشراكهم في تسيير أمور الملك والدولة ، والإحسان والثواب للمحسن منهم والمطيع ، وعقاب وإذلال العاصي المعاند منهم ، وهذا فيه من الأدب والخلق ما لا يخفى على كل ذي لب حصيف .



المبحث الثالث

أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مع الحيوان

من صور أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - رحمتهم بالحيوان البهيم ، ووفائهم له ، وإنصافهم وعدلهم معه .

ولم أقع على كثير من مواطن لها في القرآن الكريم ، إلا أن نبينا محمد - ﷺ - قد ورد عنه في كتب السنة من هذا الأمر ما يستحق ذكره ، ويروى أثره ، وأما بقية الأنبياء فلم يرد عنهم إلا النزر اليسير الذي يلمح ولا يصرح ، ويشير إلى رحمتهم وحسن تعاملهم مع هذه البهائم .

فمن ذلك ما ورد عن نبي الله صالح - ﷺ - مع الناقة التي أرسلها الله معجزة له وآية على نبوته في قومه حين قال لقومه :

﴿ يٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مَا لَكُمْ مِّنْ اِلٰهٍ غَيْرُهُۥ ۚ قَدْ جَاءتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ ۗ هٰذِهِ نَاقَةُ اللّٰهِ لَكُمْ اٰيَةٌ ۗ فَذُرُوها تَاْكُلْ فِيْ اَرْضِ اللّٰهِ وَلَا تَمْسُوها بِسُوٓءٍ فَيَاْخُذْكُمْ عَذَابٌ اَلِيْمٌ ﴿٧٣﴾ (١) .

ففي هذه الآية نرى صالح - ﷺ - قد ميز هذه الناقة بثلاثة أمور :

١ - أنه أضافها إلى لفظ الجلالة في قوله : ﴿ نَاقَةُ اللّٰهِ ﴾ وفي هذا من التعظيم والتشريف ما لا يخفى .

يقول الألوسي :

« وإضافة الناقة إلى الاسم الجليل لتعظيمها ، كما يقال : بيت الله

(١) سورة الأعراف آية ٧٣ .

للمسجد» (١) .

وقال الزمخشري :

« وإنما أضيفت إلى اسم الله تعظيماً لها وتفخيماً لشأنها ، وأنها جاءت من عنده
مكوّنة من غير فحل وطروقة ، آية من آياته ، كما تقول : آية الله » (٢) .

٢- أنه أوصى قومه ثمود بما خيراً من حيث تركها ترعى وتأكل في أرض الله
بلا مضايقة حين قال لهم : ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ﴾ ، وهذا
فيه من حسن الخلق بالحيوان والرحمة به ومعاملته بالإحسان والرفقة .

وانظر إلى إضافة الأرض لله - ﷻ - في بيان ودلالة أن الناقة ناقة الله ، والأرض أرض
الله فلها في هذه الأرض مثل ما للإنسان من حق الأكل والشرب ، فهذه الأرض ليست
ملكاً لأحد يمنع منها هذه الحيوانات والبهائم أن تأكل فيها وترعى مما رزقها الله منها .

يقول الألويسي :

« وأضيفت الأرض إلى الله سبحانه قطعاً لعذرهم في التعرض ، كأنه قيل : الأرض
أرض الله تعالى ، والناقة ناقة الله تعالى ، تأكل في أرضه ، فليست الأرض لكم ولا ما فيها
من النبات من إنباتكم ، فأبي عذر لكم في منعها ، وعدم التعرض للشرب ؛ للاكتفاء عنه
بذكر الكل . وقيل : لتعميمه له أيضاً كما في قوله : علفتها تبناً وماءً بارداً . وقد ذكر ذلك
بقوله سبحانه : ﴿ لَهَا شَرِبٌ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴾ (٣) « (٤) .

٣- إنه - عليه السلام - فهاهم عن مس هذه الناقة بأذى أو سوء ، بل وعلق هذا بنجاحهم
من العذاب ، فإن مسوها وقع عليهم العذاب الذي وصفه بالآليم .

(١) روح المعاني (٥٥٧/٨) .

(٢) الكشف ص (٣٦٩) .

(٣) سورة الشعراء ، آية (١٥٥) .

(٤) روح المعاني (٥٥٧/٨) .

وانظر إلى كلمة : ﴿ تَمَسُّوْهَا ﴾ وهو أدنى الأذى ، ومقدمة الإصابة بالشر ، وفي هذا مبالغة في الزجر والنهي وتعظيم أمر هذه الناقة وخطورة أذاها ، وفي نهيمهم عن أن يمَسُّوها بسوء تنبيه بالأدنى على الأعلى ؛ لأنه إذا كان قد نهاهم عن مسها بسوء إكراماً لها فنهيهم عن نحرها أو عقرها أو منعها من الكلاً والماء من باب أولى ، فالجملة الكريمة وعيد شديد لمن يمَسُّها بسوء .

« وأنيط التَّهْيِ بالمس بالسَّوء ؛ لأن المس يصدق على أقل اتِّصال شيء بالجسم ، فكل ما ينالها ممَّا يراد منه السَّوء فهو منهي عنه ؛ وذلك لأنَّ الحيوان لا يسوؤه إلاَّ ما فيه ألم لذاته ؛ لأنَّه لا يفقه المعاني النفسانية » (١) .

فهذا مثال على رحمة أنبياء الله مع الحيوان البهيم وحسن التعامل معه ، والعطف عليه ، وعدم التعرض له بأذى أو ظلم بدون وجه حق .

كذلك من مشاهد تعامل أنبياء الله مع الحيوان ، ما ذكره الله على لسان نبيه موسى - عليهما السلام - عند وصفه البقرة التي أمر الله بني إسرائيل بذبحها ، وبداية هذه القصة ما روى المفسرون (٢) أنه كان في بني إسرائيل رجل غني ، وله ابن عم فقير لا وارث له سواه ، فلما طال عليه موته قتله ليرثه ، وحمله إلى قرية أخرى فألقاه فيها ، ثم أصبح يطلب ثأره ، وجاء بناس إلى نبيهم موسى - عليهما السلام - يدعي عليهم القتل ، فسألهم موسى - عليهما السلام - فجحدا ، فسألوه أن يدعو الله ليبين لهم بدعائه القاتل الحقيقي ، فدعا موسى ربه فأوحى الله تعالى إليه أن يطلب منهم أن يذبحوا بقرة ، فقال لهم موسى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانَ بَيْنَ ذَلِكَ فافعلوا مَا تُوَمَّرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْهَانَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقْعُ لَوْهَانَهَا تَسْرُ النَّظِيرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَ

(١) التحرير والتنوير (٢١٩/٨) .

(٢) انظر : تفسير ابن جرير (٣٧٩/١) ، وتفسير القرآن العظيم (٢٩٧/١) ، وروح المعاني (٣٨٧/١) .

تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَّا ذُلُولٌ تُثِيرُ
 الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْكُنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَّحُوهَا
 وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧﴾ (١) وحين طلب موسى - عليه السلام - ذبح هذه البقرة تعنتوا في
 ذلك وبالغوا في طلب أوصافها ، وكان مما وصفها لهم موسى - عليه السلام - في قوله حكاية
 عنه : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَّا ذُلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةٌ لَّا
 شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْكُنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٢) .

فهذه الآية فيها إشارة على أن بعض الحيوانات إنما خلقت لبعض الأعمال دون
 بعض ، وبعضها مدرب على بعض الأعمال دون بعض .

وانظر إلى قوله : ﴿ لَّا ذُلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ ﴾ أي : بمعنى أنهما
 لا تصلح أن تكون للحرث والسقي ، فهي ليست مذللة لهذا العمل ومدربة عليه ،
 « والذلول - بفتح الذال - فاعول ، من ذل ذلاً - بكسر الذال - في المصدر بمعنى لان
 وسهل ، والمعنى : أنهما لم تبلغ سن أن يحرث عليها ، وأن يسقى بجرها أي هي عجلة
 قاربت هذا السن » (٣) .

وفي صحيح البخاري : « ﴿ لَّا ذُلُولٌ ﴾ لم يذها العمل ، ﴿ تُثِيرُ الْأَرْضَ ﴾ :
 ليست بذلول تثير الأرض ولا تعمل في الحرث » (٤) .

ولا شك أن هذا الوصف من موسى - عليه السلام - دليل على أن هذه الحيوانات إنما
 تستعمل في ما خلقت من أجله وجبلت عليه من الأعمال ، واعتادت عليه وتدربت على

(١) سورة البقرة ، آية (٦٧ - ٧١) .

(٢) سورة البقرة ، آية (٧١) .

(٣) التحرير والتنوير (١ / ٥٥٥) .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأنبياء ، باب قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ
 يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً ﴾ (١٥٧ / ٤) .

فعله ، وهذا فيه من الإحسان لها والرحمة والرفقة بها وعدم تكليفها ما لا تطيق .

وكذلك فإن إجبارها أو استعمالها فيما لا تحسنه ولا تطيقه ، أو يكون عليها مشقة فيه إنما هو من القسوة عليها وعدم الرحمة بها ، وهذا منهي عنه .

وقد ورد في صحيح البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « بينما رجل راكباً على بقرة التفت إليه فقالت : لِمَ أُخْلِقُ لهذا ، خُلِقْتُ للحرثاة » (١) .

قال في الفتح :

« استدل به على أن الدواب لا تستعمل إلا فيما جرت العادة باستعمالها فيه ، ويحتمل أن يكون قولها : إنما خلقنا للحرث ؛ للإشارة إلى معظم ما خلقت له ، ولم ترد الحصر في ذلك ؛ لأنه غير مراد اتفاقاً ؛ لأن من أجل ما خلقت له أنها تذبح وتوكل بالاتفاق » (٢) .

فانظر إلى أدب الرحمة والرفقة النبوية قد طال حتى الأنعام ، ونالها منه الشيء الجميل .

كذلك من مشاهد الأنبياء مع الحيوان في القرآن وتعاملهم معها ، ما حكاه الله تعالى عن نبيه سليمان - عليه السلام - مع النمل والمهدد .

وقد أشار القرآن الكريم إلى فضل الله الذي آتاه سليمان وداود - عليهما السلام - ، وكيف قابلا ذلك الفضل بشكر الله تعالى وحمده ، فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) ، وفي التعبير بقوله تعالى : ﴿ فَضَّلْنَا عَلَى كَثِيرٍ ﴾ دلالة على حسن أدبهما ،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب المزارعة ، باب استعمال البقر للحرثاة (٣/١٠٣) برقم

(٢٣٢٤) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أبي بكر الصديق

(١٤٨١/٤) برقم (٢٣٨٨) .

(٢) فتح الباري (٦/٦٣٤) .

(٣) سورة النمل آية ١٥ .

وتواضعهما ، حيث لم يقولوا : فضلنا على جميع عباده .

وهذه الإشارة تمهيد للحديث عن قصة سليمان - عليه السلام - مع النمل والهدد ، ولهذا فقد انتقل السياق مباشرة إلى الحديث عن فترة حكم سليمان - عليه السلام - ، حيث ورت أباه داود - عليه السلام - في النبوة والملك ، فقال تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ (١) .

وفي هذه الآيات بيّن سليمان نعمة من نعم الله عليه حين اختصه بتفهمه منطق الطير ولغتها ، فكان يعلم ما تقول ، ويفهم ما تنطق به ، ويكلمها وتكلمه وتفهم ، عنه ما يقول .

قال الراغب :

« النطق في التعارف : الأصوات المقطعة التي يظهرها اللسان وتعيها الآذان ، ولا يكاد يقال إلا للإنسان ، ولا يقال لغيره إلا على سبيل التبع .

وقولهم : الناطق الصامت ، يراد بالناطق ما له صوت ، وبالصامت ما ليس له صوت .

وقد يقال : الناطق لما يدل على شيء ، وعلى هذا قيل لحكيم : ما الناطق الصامت ؟

فقال : الدلائل المخبرة والعبر الواعظة .

وقوله : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَمَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ (٢) إشارة إلى أنهم ليسوا من

جنس الناطقين ذوي العقول ، وقوله : ﴿ أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (٣)

قيل : أراد الاعتبار ، فمعلوم أن الأشياء كلها لا تنطق إلا من حيث العبرة .

(١) سورة النمل ، آية (١٦) .

(٢) سورة الأنبياء ، آية (٦٥) .

(٣) سورة فصلت ، آية (٢١) .

وقوله : ﴿ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ﴾ (١) فإنه سمي أصوات الطير نطقاً اعتباراً بسليمان الذي كان يفهمه ، فمن فهم من شيء معنى فذلك الشيء بالإضافة إليه ناطق ، وإن كان صامتاً وبالإضافة إلى من لا يفهم عنه صامت ، وإن كان ناطقاً « (٢) .

لهذا فقد كان تعليم الله منطق الطير لسليمان - عليه السلام - معجزة خصه بها دون غيره من العالمين .

يقول ابن كثير - رحمه الله - :

« أخبر سليمان بنعم الله عليه ، فيما وهبه له من الملك التام ، والتمكين العظيم ، حتى إنه سخر له الإنس والجن والطيور ، وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضاً ، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر - فيما علمناه - مما أخبر الله به ورسوله ، ومن زعم من الجهلة والرعا ع أن الحيوانات كانت تنطق كنطق آدم قبل سليمان بن داود - كما يتفوه به كثير من الناس - فهو قولٌ بلا علم ، ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة ، إذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم ، ويعرف ما تقول ، فليس الأمر كما زعموا ، ولا كما قالوا ، بل لم تنزل البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خلقت إلى زماننا هذا على هذا الشكل والمنوال ، ولكن الله - سبحانه وتعالى - ، كان قد أفهم سليمان - عليه السلام - ما يتخاطب له الطيور في الهواء ، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها ، ولهذا قال : ﴿ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي : مما يحتاج إليه الملك ، ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ (١٦) أي : الظاهر البين لله علينا « (٣) .

بعد ذلك عرض لنا القرآن نماذج ومشاهد توضح لنا حصول هذه النعمة - نعمة معرفة منطق الطير ولغة الحيوانات - لسليمان - عليه السلام - وذكر لنا أمثلة عليها .

فمن هذه المشاهد مشهد نبي الله سليمان وجيشه مع النمل حين مر على واديهم .

(١) سورة النمل ، آية (١٦) .

(٢) المفردات ص (٨١١ - ٨١٢) - باختصار - .

(٣) التفسير (١٨٢/٦) .

يقول تعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُم لَّا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَن أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وِلْدَانِي وَأَن أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ (١) .

في هذه الآيات يبين الله - ﷻ - مشهداً من مشاهد ملك سليمان العظيم ، حين سار يوماً مع جيشه العسكري الجرار الكثيف المكون من الإنس والجن والطير ، ورغم اختلاف أجناس الجيش إلا أنه جيشاً منظماً متناسقاً مرتباً ، في دلالة واضحة على تحكم سليمان - عليه السلام - وتمكنه ، وقوة شخصيته وحزمه ، وطاعة القادة والجنود له ، وقد أشارت الآيات إلى هذا التنظيم في كلمة : ﴿ يُوزَعُونَ ﴾ .

يقول ابن كثير - رحمه الله - :

« وقوله : ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (١٧) أي : يكف أولهم على آخرهم ؛ لئلا يتقدم أحد على منزلته التي هي مرتبة له .

قال مجاهد : جعل على كل صنف وزعة ، يردون أولها على آخرها ؛ لئلا يتقدموا في المسير ، كما يفعل الملوك اليوم » (٢) .

وقال الراغب :

« وزعته عن كذا : كففته عنه ، قال تعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (١٧) وهذا إشارة إلى أنهم مع كثرتهم وتفاوتهم لم يكونوا مهملين ومبعدين كما يكون الجيش الكثير ، بل كانوا مسوسين ومقموعين .

(١) سورة النمل ، آية (١٧ - ١٩) .

(٢) التفسير (١٨٣/٦) .

وقيل : حبس أولهم على آخرهم » (١) .

وسار هذا الجيش المنظم ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ ﴾ ووادي النمل هذا مبهم في القرآن ولم يرد في تبيينه حديث صحيح صريح في السنة ، وإنما ورد فيه أقوال المفسرين (٢) معتمدة على إسرائيليات ليس لها أساس .

وحين أتوا على وادي النمل : ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمٌ وَجُنُودُهُ ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٣) .

لقد رأت النملة هذه الحشود وهذا العسكر الجحفل الذي لم تألف مثله من قبل ، فخافت بطبيعتها على نفسها ، ومن ضخامة هذا الحشد خافت أيضاً على الوادي أجمع ، فطلبت من جميع النمل الدخول في مساكنهم ؛ حماية لأرواحهم ، وخوفاً أن يتحطموا تحت أقدام هذا الحشد الضخم الذي لا يشعر بمن تحته من ضخامته وكثرته .

وانظر إلى جملة : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ لتعرف حكمة هذه النملة ، وما في تنبيهها ونصحها لجماعتها من النمل من العقل والفتنة ، وكأنها بذلك تعتذر عن نبي الله سليمان عن ما قد يحصل منه وجنوده ، من تحطيم وإيذاء ، بسبب عدم شعورهم بهذا الفعل وقصدهم هذا التحطيم ، وأنهم لو شعروا بهم فلن يفعلوا ، وهذا حسن ظن به ، وتبرئة له - عليه السلام - ولجنوده ، ودلالة على رأفته ورحمته بالحيوان ، وأن هذا طبعه وخلقه ، وهو بهذا الملك لم يتجبر ولم يتغترس ولم يغتر حتى مع أضعف خلق الله من الحيوان .

وهذا ما دعاه أن يتبسم - عليه السلام - ضاحكاً من قولها ، ومن اعتذارها لفعله ، ومن حكمتها وخوفها على قومها ، ومن نعم الله عليه حين سمع ووعى قول هذه النملة الصغيرة التي لا تكاد ترى بالعين المجردة .

(١) المفردات ص (٨٦٨) .

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٨٤/٦) .

(٣) سورة النمل ، آية (١٨) .

يقول الزمخشري :

« فإن قلت : ما أضحكه من قولها ؟ قلت : شيطان ، إعجابه بما دل من قولها على ظهور رحمته ورحمة جنوده وشفقتهم ، وعلى شهرة حاله وحالهم في باب التقوى ، وذلك قولها : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٨) تعني أنهم لو شعروا لم يفعلوا . وسروره بما آتاه الله مما لم يؤت أحداً ، من إدراكه بسمعه ما همس به بعض الحكل (١) الذي هو مثل في الصغر والقلة ، ومن إحاطته بمعناه ، ولذلك اشتمل دعاؤه على استيزاع الله شكر ما أنعم به عليه من ذلك ، وعلى استيفاقه لزيادة العمل الصالح والتقوى » (٢) .

لهذا فقد ذهب سليمان - عليه السلام - يشكر الله على هذه النعم العظيمة ، يقول : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدِيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٣) .

« ﴿ رَبِّ ﴾ بهذا النداء القريب المباشر المتصل ، ﴿ أَوْزِعْنِي ﴾ اجمعني كلي ، اجمع جوارحي ومشاعري ولساني وجناني وخواطري وخلجاتي ، وكلماتي وعباراتي ، وأعمالي وتوجهاتي ، اجمعني كلي ، اجمع طاقاتي كلها ، أولها على آخرها على أولها (وهو المدلول اللغوي لكلمة ﴿ أَوْزِعْنِي ﴾) (٤) ؛ لتكون كلها في شكر نعمتك عليّ وعلى والديّ .

وهذا التعبير يشي بنعمة الله التي مست قلب سليمان - عليه السلام - في تلك اللحظة ويصور نوع تأثيره ، وقوة توجهه ، وارتعاشه وجدانه ، وهو يستشعر فضل الله الجزيل ، ويتمثل يد الله عليه وعلى والديه ، ويجس مس النعمة والرحمة في ارتياح وابتهاج . ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدِيَّ ﴾ ، ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا

(١) الحُكْلُ : - بضم الحاء وسكون الكاف - الحيوان الذي لا يسمع له صوت كالذر والنمل . انظر : لسان العرب (١٨٥/٤) .

(٢) الكشاف ص (٧٧٩) .

(٣) سورة النمل ، آية (١٩) .

(٤) انظر : مفردات القرآن للراغب ص (٨٦٨) .

تَرْضَهُ ﴿﴾ ، فالعمل الصالح هو كذلك فضل من الله يوفق إليه من يشكر نعمته ، وسليمان الشاكر الذي يستعين ربه ليجمعه ويقفه على شكر نعمته ، يستعين ربه كذلك ليوفقه إلى عمل صالح يرضاه .

وهو يشعر أن العمل الصالح توفيق ونعمة أخرى من الله .

﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿١٩﴾ أدخلني برحمتك ، فهو يعلم أن الدخول في عباد الله الصالحين رحمة من الله ، تتدارك العبد فتوفقه إلى العمل الصالح ، فيسلك في عداد الصالحين ، يعلم هذا ، فيضرع إلى ربه أن يكون من المرحومين الموفقين السالكين في هذا الرعيل ، يضرع إلى ربه وهو النبي الذي أنعم الله عليه ، وسخر له الجن والإنس والطير ، غير آمن مكر الله حتى بعد أن اصطفاه ، خائفاً أن يقصر به عمله ، وأن يقصر به شكره ، وكذلك تكون الحساسية المرهفة بتقوى الله وخشيته ، والتشوق إلى رضاه ورحمته ، في اللحظة التي تتجلى فيها نعمته كما تجلت والنملة التي تقول وسليمان يدرك عنها ما تقول بتعليم الله له وفضله عليه « (١) .

فانظر إلى أدبه - عليه السلام - ورأفته ورحمته بالحيوان ، حتى لقد شهد له الضعيف والصغير منها ، وهو النمل ، واشتهر بذلك وعرف وشاع أمر العدل والرحمة فيه عندهم وانتشر .

كذلك من مشاهد تعامل أنبياء الله مع الحيوان في القرآن مشهد نبي الله سليمان مع الهدهد ، وهذا المشهد تابع لما قبله من مشهد النمل .

فإن نبي الله سليمان - عليه السلام - بعدما سمع كلام النملة ، وتبسم ضاحكاً من قولها ، ودعا الله وذكره وشكره ؛ تابع الجيش سيره بعدده الضخم ، وفرقه الكبيرة من الجن والإنس والطير ، وكان سليمان - عليه السلام - يشرف على هذا الجيش الكثيف إشرافاً مباشراً ، يتفقد الجنود ، ويراقب أداءهم ، وهذا مظهر من مظاهر قوته وحزمه وحسن إدارته .

(١) في ظلال القرآن (٥/٢٦٣٧) .

و حينما قام بتفقد جنوده ومنهم الطير ، اكتشف غياب الهدهد .

﴿ وَتَقَدَّ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِي لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾^(١)
 لِأَعْدَبْتَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لِأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ (١) والتفقد :
 تطلب الشيء ومعرفة أحواله ، ومنه قولهم : تفقد القائد جنوده ، أي : تطلب أحوالهم
 ليعرف حاضرهم من غائبهم .

والطير : اسم جنس لكل ما يطير ، ومفرده طائر ، والمراد بالهدهد هنا : طائر معين
 وليس الجنس ، أي : وأشرف سليمان - عليه السلام - على أفراد مملكته ليعرف أحوالها ، فقال
 بعد أن نظر في أحوال الطير : ﴿ مَا لِي لَا أَرَى الْهُدْهَدَ ﴾ أي : ما الذي حال بيني وبين
 رؤية الهدهد ، ثم تأكد من غيابه فقال : بل هو من الغائبين .

يقول الألوسي :

« والظاهر أن قوله - عليه السلام - ذلك ، مبني على ظن حضوره ، ومنعه مانع له من
 رؤيته ، أي : عدم رؤيتي إياه مع حضوره ، لأي سبب ؟ ألسائر أم لغيره ، ثم لاح له أنه
 غائب ، فأضرب عن ذلك وأخذ يقول : ﴿ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ كأنه يسأل
 عن صحة ما لاح له . فَأَمْ هِيَ الْمَنْقُطَةُ ، كما في قولهم : إنها لإبل أم شاء ... » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ لِأَعْدَبْتَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لِأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ ﴾
 ﴿١﴾ (٣) بيان للحكم الذي أصدره سليمان - عليه السلام - على الهدهد بسبب غيابه بدون
 إذن .

أي : لأعذب الهدهد عذاباً شديداً يؤلمه ، أو لأذبحه ، أو ليأتيني بحجة قوية توضح
 سبب غيابه ، وتقنعني بالصفح عنه ، وبترك تعذيبه أو ذبحه .

(١) سورة النمل ، آية (٢٠ - ٢١) .

(٢) روح المعاني (٢٣٩ / ١٩) .

(٣) سورة النمل ، آية (٢١) .

فهنا نرى أن سليمان - عليه السلام - وهو النبي الملك الحكيم العادل ، يقيد تعذيب الهدهد أو ذبجه بعدم إتيانه بالعدر المقبول عن سبب غيابه ، أما إذا أتى بهذا العذر فإنه سيعفو عنه ، ويترك عقابه ، وهذا من العدل والإنصاف حتى مع الحيوان ! .

فكأنه - عليه السلام - يقول : هذا الهدهد الغائب إما أن أعذبه عذاباً شديداً ، وإما أذبجه بعد حضوره ، وإما يأتيني بعدر مقبول عن سبب غيابه ، وفي هذه الحالة سأعفو عنه .

وانظر إلى الاستدراك من نبي الله سليمان - عليه السلام - حين أعطى الهدهد فرصة ليقدم عذره ويبرئ ساحتها من هذا الغياب بسطان مبين ، وحجة واضحة ؛ لترى مبلغ العدالة والحكمة التي كان يتعامل بها مع جميع من هم تحته من الجنود والخدم والحشم ، حتى لو كانوا من الحيوانات ، فلا يمنع كونها حيوانات أن يقيم العدل فيها ، ويعطيها حقها ، وينصفها كما ينصف الإنس والجن .

ولا شك أن هذا خلق الأنبياء - عليهم السلام - وأدهم في العدل والإنصاف والرحمة بهذه المخلوقات التي سخرها الله سبحانه لخلقهم ، ينتفعون منها في الأكل والشرب والركوب والزينة .

ونبينا محمد - ﷺ - كان له الخلق العظيم مع هذه الحيوانات وهو خلق الرحمة .

فلقد كان للنبي - ﷺ - تحن على الحيوانات ورحمة ورأفة لم تعرفها البشرية لأحد غيره ، حيث كان يرأف بها بنفسه ، ويوصي بذلك أمته ، حتى رقت لها أفئدتهم ، ورأف بها عتاقهم ، وكم لذلك من شواهد ودلائل وإن لم ترد في القرآن شيئاً منها إلا أن القرآن بيّن مبلغ الرحمة التي جعلها الله في نبيه - عليه الصلاة والسلام - حين قال عنه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١) ولا شك أن عموم رحمته تقتضي أن يكون للحيوان حظ منها ؛ لمقتضى الدلالة اللفظية ، ولأن الدلائل النقلية تؤكد ذلك .

فعن سهل بن الحنظلية - جهنمته - قال : مر رسول الله - ﷺ - ببعير قد لحق ظهره

(١) سورة الأنبياء ، آية (١٠٧) .

ببطنه - يعني من الجوع - فقال : « اتقوا الله في هذه البهائم ، فاركبوها سالحة ، وكلوها سالحة » (١) .

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : كنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في سفر فانطلق لحاجته فرأينا حُمرة (٢) معها فرخان فأخذنا فرخيها ، فجاءت الحمرة فجعلت تفرش (٣) ، فلما جاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها إليها » قال : ورأى قرية من النمل قد أحرقناها فقال : « من أحرق هذه ؟ » قلنا : نحن ، فقال : « إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار » (٤) .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إياكم أن تتخذوا دوابكم منابر ، فإن الله إنما سخرها لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، وجعل لكم الأرض فعليها فاقضوا حاجتكم » (٥) .

ودخل - عليه الصلاة والسلام - حائطاً لرجل من الأنصار ، فإذا به حمل ، فلما رأى النبي - صلى الله عليه وسلم - حن وذرفت عيناه ، فأتاه النبي - صلى الله عليه وسلم - فمسح ذفراه (٦) فسكت فقال : « من رب هذا الجمل ؟ لمن هذا الجمل ؟ » فجاء فتى من الأنصار فقال : لي يا رسول الله ، فقال له : « أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها ، فإنه شكا إلي أنك تجيعه وتدئبه » (٧) أي : تتعبه في العمل .

(١) أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب الجهاد ، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم برقم (٢٥٤٨) ، بإسناد صحيح كما قال النووي في رياض الصالحين ص (٣٥٣) باب أدب السير والنزول والمبيت .

(٢) هي نوع من العصافير ، أحمر اللون .

(٣) أي : تفرش جناحيها ، وتقرب من الأرض وترفرف .

(٤) أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب الجهاد ، باب كراهية حرق العدو بالنار برقم (٢٦٧٥) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٠٤/١) ، والحاكم في مستدركه (٢٣٩/٤) .

(٥) أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب الجهاد ، برقم (٢٦٦٧) .

(٦) أي : أصل أذنيه .

(٧) أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب الجهاد ، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم برقم (٢٥٤٩) ، والحاكم في مستدركه (٩٩/٢) وقال : صحيح الإسناد على شرط مسلم .

فانظر إلى هذه التوجيهات النبوية المفعمة بالرفقة والرحمة بالحيوان التي ما كانت لتعلم بيانه وتوجيهه - ﷺ - لذلك ، وما كانت البهائم ستنال حظها من الرحمة لولا ذلك الندب والحظ منه - عليه الصلاة والسلام - .

بل الأعظم من هذا ، وفأوه - عليه الصلاة والسلام - للحيوان ، فإن الوفاء لمثل هؤلاء عزيز جداً ، ولكن كانت من النبي سجية لا تتغير .

فقد ثبت أن امرأة أبي ذر - رضي الله عنه - أقبلت بعد غزوة ذي قرد فقالت : يا رسول الله ، إني نذرت لله أن أنحرها إن نجاني الله عليها ، فتبسم رسول الله - ﷺ - ثم قال : « بئس ما جزيتها إن حملك الله عليها ونجاك بها ثم تنحرينها؟! إنه لا نذر في معصية الله ، ولا فيما تملكين ، إنما هي ناقة من إبلي ، فارجعي إلى أهلك على بركة الله » (١) .

فلقد تعجب - عليه الصلاة والسلام - على هذه المجازاة التي جازت بها الناقة ، إشارة منه إلى أنه كان ينبغي أن تفي معها بالإحسان إليها في الإطعام والرعاية ، لا أن تنحرها ، ثم لم يقرها على ذلك النذر - عليه الصلاة والسلام - .

فهذه مواقف وأمثلة تدل على أدب الرحمة والرفقة والإنصاف والوفاء من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ، بلغت حتى الحيوان البهيم ، الذي لا يفقه ولا يعقل ، ولكنه الأدب النبوي الكامل ، وأخلاق النبوة العظيمة التي جاءت في صورة الحسن والتمام ، فصلوات ربي وسلامه على أولئك المصطفين الأخيار .



(١) سيرة ابن هشام (٢ / ٢٤٤) .

الفصل الثاني

أثر أدب الأنبياء

- عليهم الصلاة والسلام -

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : أثر أدب الأنبياء - عليهم الصلاة
والسلام - على الموافقين .

المبحث الثاني : أثر أدب الأنبياء - عليهم الصلاة
والسلام - على المخالفين .

المبحث الأول

أثر أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - على الواقفين

لقد كانت آثار أدب أنبياء الله ورسوله - صلوات ربي وسلامه عليهم - وأخلاقهم بالغة في معاصريهم ومشاهديهم ، ومجتمعهم عامة ، ولا بدع أن يكون مجتمعهم ومعاصروهم ، كذلك من التأثير بأدب أنبيائهم - عليهم الصلاة والسلام - ، فإنهم يشاهدون أنواره ، وتنعكس عليهم معارفه وآثاره ، فهم بذلك أدري الناس بعظمة أدب وأخلاق الأنبياء ، وأدرك الناس لثمار التحلي بتلك الأخلاق ؛ لمعاينتهم تلك الآثار والثمرات بحواسهم التي يأتي عن طريقها العلم اليقيني ، ومن كان كذلك لا يبقى في نفسه شك ، ولا يدخر في نفسه جهداً عن التحلي بتلك الأخلاق ، طلباً لنيل ثمارها ، إذ ليس الخبر كالعيان ، وما راء كمن سمع ، غير أن آثار آدابهم وأخلاقهم - عليهم الصلاة والسلام - لم تكن قاصرة على من شاهد تلك الأنوار وانعكست عليه أشعتها ، بل إن آدابهم وأخلاقهم مستمرة التأثير في أنفس البشرية ما دامت البشرية على وجه البسيطة ، إذ ما من أحد يسمع بهذه الآداب أو يقرأ سيرهم فيجد ذلك بنفسه إلا شهد بعظمة أخلاقهم وآدابهم ، وعلم أنه لم يكن في البشرية مثلهم كمالاً وعظمة ، فيحمله ذلك على اتباع طريقهم والثبات على نهجهم والتحلي بآدابهم وأخلاقهم في سلوكهم مع ربهم ومجتمعهم وأقوامهم .

ولا شك أن آثار هذه الآداب والأخلاق النبوية الكريمة مستمرة ، فدلائلها واضحة للعيان ، إذ أن المتبعين لأنبياء الله ، المصدقين برسوله ورسالاته ينشدون مكارم أخلاق أنبيائهم ، والسعيد منهم من لم يأل جهداً في التأسّي بهم فيما علمه من آدابهم وأخلاقهم ، بعضاً أو كلاً ؛ وذلك لاعتبارات كثيرة منها :

- ١ - شعورهم بكمال الغبطة في ذلك ، وهو ما لا يكابره فيه أحد .
- ٢ - لما يقتضيه منهم الاتباع والإيمان من وجوب التأسّي بهم - عليهم الصلاة والسلام - في كل الشؤون ، ولا سيما في الأخلاق والآداب التي ما كانت

البعثة إلا لتمام مكارمها .

٣- أنهم - عليهم الصلاة والسلام - ناطقوا بالأخلاق بالإيمان ، إما ليحققوه أو ليدرك كماله ، ويتضح ذلك من دعواتهم المتكررة لأقوامهم بالتحلي بمكارم الأخلاق ومعاليها ، وتجنب سفاسفها وأراذلها ، وقرن ذلك بالإيمان بالله .

٤- أنهم - عليهم الصلاة والسلام - أوجبوا هذه الآداب تارة وحضوا عليها تارة أخرى ، كما أنهم رغبوا بعظيم الأجر عند التحلي بها ، وحذروا عند التحلي عنها بعظيم الوزر .

٥- ما يحمله المؤمن بهم المتبع لهم في جوانحه من المحبة الصادقة والكمال لأنبياء الله ورسوله - عليهم الصلاة والسلام - بمقتضى إيمانهم بهم ، والمحبة بنفسها موجبة للتخلق بأخلاقهم ، والتحلي بآدابهم ، (فإن المحب لمن يحب مطيع) ، ويتضح هذا أكثر في طلب الله تعالى في كتابه من مدعي محبة نبيه محمد - ﷺ - ، حيث جعل طاعته ومتابعته دليل صدق في دعوى محبة الله تعالى ، كما قال سبحانه : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ (١) .

فجعل اتباع الرسول - ﷺ - في أخلاقه وأعماله وآدابه والافتداء بسنته وهدية من علامات محبته تعالى ، فمن كان صادقاً في دعواه ظهرت فيه هذه العلامات وإلا فلا .

فلهذه الأسباب لا يفتأ المسلمون من التأسي برسول الله - ﷺ - في أخلاقه وسلوكه من الأقوال والأفعال ، في جميع سلوكهم وأحوالهم ، ولا يدعون ذلك بأي حال من الأحوال في السلوك الذاتي أو التعامل ؛ لأنهم لا يمشون في الحياة هملًا ، بل هم معنيون في السير على منهج إسلامي واضح ، ولا مرجع لهم في التأسي بسيرته في هذه الحياة إلا أنبياء الله ورسوله ، وعلى رأسهم نبينا محمد - ﷺ - .

(١) سورة آل عمران ، آية (٣١) .

« وسيرته مرآة صافية للدنيا كلها ، يرى فيها كل إنسان صورته وروحه ، ظاهرة وباطنة ، وقوله وعمله ، خلقه وأدبه ، وهديه وسنته ، وفي استطاعته أن يصلح أخلاقه ويثقف عوجه بحسب ما يراه في تلك المرآة الصافية » (١) .

لهذا فإن الأمة المسلمة قاطبة شأنها الأساسي التأثير والاقتران والتأسي برسول الله وأنبيائه - عليهم الصلاة والسلام - في آدابهم وأخلاقهم وسلوكهم الاعتقادي والتعبدي والأخلاقي ، لا ينأى عن ذلك إلا من فقد الإسلام من أساسه ، بأن يكون يزعمه والإسلام منه براء ، بل المسلمون كلهم الصادقون في إسلامهم وإيمانهم شأنهم الأول الاقتران برسول الله وأنبيائه ، في الأخلاق والعبادات ومنهج الحياة كلها حقيرها وجليلها .

الاقتران بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - :

لقد جعل الله الأنبياء والمرسلين قدوة لعباده المؤمنين ، وأمر بذلك في كتابه فقال :
 ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ آقَدِهِ ﴾ (٢) ، أي : اقتدوا بمؤلاء الرسل الذين هداهم الله وأقامهم على الحق قولاً وعملاً ، وذلك أن الإنسان لا يمكنه أن يعيش بغير قدوة ، وكل إنسان يقتدي - طوعاً أو كرهاً - بغيره ، إما في الخير أو الشر ، أو ساعة وساعة ، والقدوة الكاملة لا تكون إلا في الأنبياء والمرسلين .

وقد يقول قائل ويسأل سائل : كيف نقتدي بالأنبياء ما دام أن الله قد أوجب ذلك علينا ؟ وما هو الطريق الذي ندرك به القوة الكاملة ؟

والجواب : أننا لا يمكن أن نقتدي بالرسل إلا إذا وقفنا على سيرتهم وسنتهم ؛ وذلك لأن الاقتران بهم يدور على أمور ثلاثة : الاعتقاد ، والأقوال ، والأفعال .

وعندما ننظر إلى عقيدة الرسل سنجد أنهم جميعاً على عقيدة (التوحيد) ، فهم جميعاً قد أوحى الله إليهم بقوله : ﴿ لَيْنَ أَشْرَكَتَ لِيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنْ

(١) انظر : الرسالة الحمديّة للسيد سليمان الندوي ص (١٢٨) .

(٢) سورة الأنعام ، آية (٩٠) .

الْخَسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴿١﴾ ، ولذلك فإن الذين يخالفون عقيدة التوحيد التي جاء بها الرسل - عليهم الصلاة والسلام - يخرجهم ذلك من الإيمان إلى الكفر ، كما قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ ﴿٢﴾ .

وأما الاقتداء بالأنبياء في العبادة فإننا إذا تدبرنا ذلك الأمر في كتاب الله فإننا نجد أن أصول العبادات واحدة ، وإنما وقع التفاوت بينهما في الهيئة والكيفية فقط ، فقد قال تعالى لموسى - عليه السلام - : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ ﴿٣﴾ ، وقال عن إسماعيل - عليه السلام - : ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ﴾ ﴿٤﴾ ، وقال عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب - عليهم السلام - : ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾ ﴿٥﴾ ، وقال سبحانه عن الصوم : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿١٨٣﴾ ﴿٦﴾ ، وقال لنييه إبراهيم - عليه السلام - : ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ ﴿٧﴾ ، وقد ثبت أن جملة من الأنبياء قد حجوا بيت الله الحرام كل في زمانه الذي بعث فيه .

ونحن نتحدث عن القدوة الحسنة للأنبياء ينتقل بنا الحديث إلى مواضع هذه القدوة وأثرها في سلوك أتباعهم .

فإن الله قد جعل أنبياءه ورسله قدوة لنا في كل شأن ، فإنهم - صلوات ربي وسلامه

(١) سورة الزمر ، آية (٦٥) .

(٢) سورة المائدة ، آية (٧٢) .

(٣) سورة طه ، آية (١٤) .

(٤) سورة مريم ، آية (٥٥) .

(٥) سورة الأنبياء ، آية (٧٣) .

(٦) سورة البقرة ، آية (١٨٣) .

(٧) سورة الحج ، آية (٢٧) .

عليهم أجمعين - قدوة للحكام والمحكومين ، وقدوة للعلماء والدعاة ، والعامّة والخاصّة ، والأغنياء والفقراء ، والصحيح المعافي والمريض الذي نزل به الداء ، وهم كذلك قدوة لمن رزقه الله الذرية وقدوة لمن حرمه منها ، فهم قدوة للجميع وأئمتهم .

وإني أشير هنا إلى أمثلة من هذه القدوة الحسنة نستخرج بها فائدتين عظيمتين :

الأولى : العبرة والعظة ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ (١) .

الثانية : تثبيت الفؤاد ﴿ وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ (٢) .

ومن هذه الأمثلة :

المثال الأول : تدبر قوله تعالى عن نوح - عليه السلام - : ﴿ فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ ﴾ (٣) مع قوله تعالى : ﴿ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (٤) .

والدعاة إلى الله هم أشد الناس حاجة إلى مثل هذا الدرس ، وهذه القدوة العظيمة ، فلا نياس من دعوة غيرنا ، حتى وإن وجدنا إعراضاً أو صدوداً وإنكاراً وجحوداً .

المثال الثاني : المقارنة بين ما كان من شأن نوح مع ابنه ، وما كان من شأن إبراهيم - عليه السلام - مع أبيه ، فنوح - عليه السلام - هو قدوة الآباء الصالحين مع الأبناء العاقين ، وإبراهيم - عليه السلام - هو قدوة الأبناء البررة مع الآباء الكفرة الفجرة !! .

المثال الثالث : المقارنة بين دعوة موسى - عليه السلام - وهو محتاج إلى الطعام في سفره

(١) سورة يوسف ، آية (١١١) .

(٢) سورة هود ، آية (١٢٠) .

(٣) سورة العنكبوت ، آية (١٤) .

(٤) سورة هود ، آية (٤٠) .

مع قلة ذات اليد والغربة ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (١) ، ودعوة سليمان - عليه السلام - : ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (٢) ، فظاهر السياق أن موسى - عليه السلام - يطلب الكفاف ، وسليمان - عليه السلام - يطلب الدنيا بأسرها ، فبمن يقتدي؟! .

والجواب : أن الناس يتقلبون بين الغنى والفقر ، والمؤمن في حال فقره فإنه يقتدي بموسى - عليه السلام - ويلجأ إلى الله كما فعل ، وفي حال غناه فإنه يقتدي بسليمان في قوله بعد أن أعطاه الدنيا : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وِلْدَانِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٣) .

وهذه حكمة الله بالغة ، فلو كان الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - كلهم فقراء لما وجدوا المؤمن الغني أحدًا من الأنبياء يقتدي به .

المثال الرابع : عندما يشتد بالمؤمن المرض ويطول البلاء يذهب إلى ربه يطلبه الشفاء ، وله في نبي الله إبراهيم - عليه السلام - قدوة حين قال : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (٤) ، وله كذلك في نبي الله أيوب - عليه السلام - أسوة حسنة ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ (٥) ، فإذا ذهب المؤمن إلى طبيب فإنه قلبه لا يلتفت إليه ، وإنما يراه سببًا ظاهرًا قد يجري الله الشفاء على يديه ، وقد لا يفعل .

المثال الخامس : قد يحرم المؤمن من الذرية لحكمة يعلمها الله ؛ وذلك لأنه ﴿ يَهَبُ

(١) سورة القصص ، آية (٢٤) .

(٢) سورة ص ، آية (٣٥) .

(٣) سورة النمل ، آية (١٩) .

(٤) سورة الشعراء ، آية (٨٠) .

(٥) سورة الأنبياء ، آية (٨٣) .

لِمَنْ يَشَاءُ إِنِثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الدُّكُورَ ﴿٤٩﴾ (١) ، فإذا أراد أن يطلب الذرية فإنه يجد في نبي الله زكريا - عليه السلام - أسوة وقدوة في قوله : ﴿ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ ﴿٣٨﴾ (٢) ، وتدبر كيف اشترط أن تكون الذرية طيبة ، فإن الذرية الفاسدة لا خير فيها ، ومثالها ولد نوح ، والغلام الذي قتله الخضر .

والحرمان من الذرية خير من ذرية فاسدة ، فتدبر وتفكر !! .

المثال السادس : قد ينزع الشيطان بين المسلم وإخوته ، أو بينه وبين إخوانه ، فيجد في يوسف قدوة يقتدي به في قوله : ﴿ لَا تَتَّيِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ (٣) .

وقد يسجن المسلم ظلماً ومع هذا فهو يصبر ويرضى ويؤثر السجن على الوقوع فيما حرم الله ، ويقول كما قال يوسف - عليه السلام - : ﴿ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ (٤) .

وبعد ، فإن كل موضع في كتاب الله تحدث عن نبي من أنبياء الله ، يكون لنا فيه أسوة وقدوة .

وعالم اليوم يمجج بالفتن ، وقد ابتلي المؤمنون فيه وزلزلوا زلزلاً شديداً ، ولا ملجأ من الله إلا إليه ، ولا مفر منه إلا إليه ، وليس أمامنا إلا أن نعود إلى الله عوداً حميداً ، وأول الهداية : كلمة التقوى التي نحن أحق بها وأهلها ، وأن نفتني أثر الأنبياء والمرسلين ، فقدوتنا ليست في شرق أو غرب ، وإنما في وحي أنزله الله ، ورسوله أرسله الله نفتدي هديه ونفتني أثره إلى يوم الدين .

ولا شك أن هذا الاقتداء إنما هو ناتج من الحبة العظيمة ، والود العميق ، فاجتمع مع

(١) سورة الشورى ، آية (٤٩) .

(٢) سورة آل عمران ، آية (٣٨) .

(٣) سورة يوسف ، آية (٩٢) .

(٤) سورة يوسف ، آية (٣٣) .

المحبة والولاء اقتداء وتأسي واتباع لهؤلاء الرسل العظام - عليهم من ربي أزكى صلاة وأتم سلام - .



المبحث الثاني

أثر أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - على المخالفين

من أعظم دلائل نبوة أنبياء الله ورسله - صلوات الله وسلامه عليهم - الكثيرة ، عظمة أخلاقهم وآدابهم وسمو أفعالهم ، واستقامة سلوكهم ؛ لأنه لم يكن في عصرهم من قارهم في فضلهم ولا داناهم في كمال خلقهم وخلقتهم ، قولاً وفعلاً ، وذلك مما أدل أولي الألباب على نبوتهم - عليهم الصلاة والسلام - ، ومعرفة صدقهم ، ودعوتهم إلى الفطر السليمة ، والعادات الحميدة ، التي حثت عليها وشرعتها الرسالات السماوية السمحة .

وانظر إلى قوم صالح حين اعترفوا له بالفضل والتقدم في الخلق والعلم بقولهم له : ﴿ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ﴾ (١) أي : قد كان لنا رجاء فيك لعلمك وعقلك وصدقك وحسن تدبيرك ، وهذا فيه اعتراف بالصدق حتى وإن أظهروا خلاف ذلك ، مما يدل دلالة واضحة على الاستكبار والإعراض عن الحق واتباع الطريق المستقيم .

بل إن من أعظم تلك الدلائل ما كان لبنينا محمد - ﷺ - من فراسة زوجه خديجة بنت خويلد - قبل إسلامها - ، حيث استدلت بكرم أخلاقه ، وعظيم آدابه - ﷺ - على أن الله تعالى قد هيأه بتلك الفضائل الخلقية والسجايا الأدبية لما هو أعظم منها وهي النبوة ، فإنها ما إن سمعت ما قصه عليها من لقائه بالملك بغار حراء ، وما جرى له معه من ضغط وما تخوفه على نفسه ، ما إن سمعت بذلك حتى بشرته بالخير ، فاستدلت على ذلك بما هو عليه من مكارم الأخلاق فقالت له : « كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » ، فهكذا استدلت بما تعلمه مما أجراه الله من العادة من أن صاحب المكارم الأخلاقية والآداب العظيمة لا يمسه سوء ، وأقسمت على ذلك قسماً مؤكداً ، أن مثل هذه الآداب العظيمة إنما ترشح صاحبها للخير والفضل ، وليس هناك من فضل يمكن أن يتحلى به النبي - ﷺ - بعد ما هو عليه من الكمال ، أجدر به من النبوة التي قد أظل زمانها ، وطال ارتقاها .

(١) سورة هود ، آية (٦٢) .

وكذلك هرقل ملك الروم ، فقد استدل على نبوة رسولنا محمد - ﷺ - بما يعلمه من أخلاق الأنبياء وصفات تعاملهم مع الناس ، والتي سأل ألد أعدائه عنها آنذاك : سفيان ابن حرب ، فأجابه بما لم يقدر على نكرانه من مكارم الأخلاق ، وجميل السلوك ، فعلم من ذلك صدق دعواه الرسالة ، وهكذا استدل بما يعرفه من أخلاق النبيين وصفاتهم على صحة رسالة النبي - ﷺ - ، وصدق دعوته ، حيث وافق واقع حاله مع ما كان يعلم من أحوال الأنبياء وصفاتهم .

« ومن تأمل ما استقرأه هرقل من هذه الأوصاف تبين له حسن ما استوصف من أمره ، واستبرأه من حاله ، والله دره من رجل ، ما كان أعقله لو ساعدته المقادير بتخليد ملكه والاتباع » (١) ، غير أنه أثر مداراة قومه وشعبه ، فظل على شركه وكان من الخاسرين .

وهكذا كانت آداب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - إحدى دلائل نبوتهم ، يعرفهم بها من عرف أخبار الأنبياء ، ودلائل نبواتهم ، ومن تجرد عن حظوظ النفس ، وشهوات الحياة ، وأنصف الحق من نفسه ، فاهتدى وهدى ، ونجا من مهاوي الردى ، وفاز بعيش السعداء في الآخرة والأولى .

أما من غلبت عليهم شقوتهم ، وطغت عليهم أنانيتهم ، فكابروا عن الحق ، وطمسوا الحقائق ، فإنهم يتجاهلون هذه الدلائل ، ويتعمون عنها كبراً وعناداً ، ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ (٢) ، ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ (٣) .

لقد كان لأدب وأخلاق هؤلاء الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - أثر بالغ في جذب الناس إلى دعوتهم ، يتبين ذلك من عامة أدبهم وأخلاقهم من حيث الصبر والحلم والعفو على

(١) انظر : إرشاد الساري للقسطلاني (٧٧/١) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (١٤٦) .

(٣) سورة يس ، آية (٤٦) .

من خالفهم وآذاهم ووقف بطريقهم عنادًا واستكبارًا .

ويكفينا في هذا المقام نبينا محمد - ﷺ - ، ففيه المثل الأعلى والقدر المعلى .

فلقد كان لصبره - ﷺ - على قومه وأمته أعظم الأثر في إسلام كثير منهم ، حيث لم يمل من دعوتهم ، ولم يتبرم من أذيتهم ، بل ظل صابراً محتسباً يدعو إلى الله تعالى على بصيرة ، ليلاً ونهاراً ، سرّاً وجهاراً ، لا يصدّه عن ذلك صاد ، ولا يحول بينه وبين ذلك حائل ، مع عظيم الإيذاء ، وجليل المخاطر ، وما كان له من عاصم يعصمه عن أن يختار تعجيل النكال بهم ومبادرتهم بطلب الاستئصال والعذاب إلا الصبر على ذلك ، رجاء أن يسلموا ، أو أن يخرج الله تعالى من أصلاهم مسلمين ، وقد حقق الله تعالى له ما رجاه ، فلم يطل الزمن حتى أضحت مكة دار إسلام ، وآمن قومه أجمعون ، إلا من حقت عليه كلمة العذاب قبل أن يكون الفتح المبين .

ولم يمض وقت كبير حتى غدت جزيرة العرب كلها دار إسلام ، وأهلها كلهم جنوده ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وما كان هذا ليتحقق كله لولا فضل الله أولاً ، ثم تحلي رسول الله - ﷺ - بخلق الصبر ، والدعوة إلى الله بالحكمة ، ولو أنه ضاق بقومه ذرعاً وهم يأذونه أشد أنواع الإيذاء في نفسه الشريفة ، وقرابته القريبة ، وأصحابه الكرام من يوم أن جهر بالدعوة إلى أن يحقق الله له النصر المبين ، لو ضاق ذرعاً بذلك ودعا الله تعالى عليهم كما دعا الأنبياء من قبله على أقوامهم ، أو اختار هلاكهم كما كان يراود ذلك أو اختار استجابتهم لما يطلبونه من آيات تعجزية ، يكون بعدها إهلاكهم إن لم يسلموا ويؤمنوا .

لو أنه فعل ذلك لما تحقق له ما يرجوه من إسلامهم ، وما يؤمله من نصرتهم له ولدين الله الذي بعث به ، ومن رجاه أن يحملوه للبشرية في أقطار الأرض ، وعلى وجه البسيطة ، لكنه - ﷺ - لم يفعل ذلك ، بل صبر وصابر ، وحلم وثابر ، وجد واجتهد ، حتى أتى ثمر هذا الأدب والخلق يانعا نظراً ، يسر الناظرين .

وكما كان لهذه الآداب والأخلاق أثر في قبول هذه الرسائل الربانية ، والشرائع

السماوية ، كذلك فقد كان لها أكبر الأثر في إعلائها ونشرها من حيث النصره على الأعداء ، والتغلب على جيش الباطل حين كانت الشجاعة من أعظم الآداب والأخلاق التي تحلى بها هؤلاء الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ، فجاهموا أعداءهم ، ونصروا دين الله ، ونشروا التوحيد ، وأقاموا العدل .

ولو رجعنا للوراء قليلاً لتذكرنا مواقف وأمثلة عظيمة تؤيد هذا وتنصره ، وقد سبق في هذا البحث ذكر شجاعة الخليل إبراهيم - عليه السلام - في جملة مواطن ، فمنها عند محاجة الجبابرة وصبره - عليه السلام - على الإلقاء في النار ، ومقابلة ذلك بجلد وشجاعة وثقة في الله ، وتوكل عليه ، وكذلك إقدامه على ذبح ولده ، ولُب فؤاده ، ومدى امتثاله لأمر الله في ذلك الأمر ، وقبل ذلك تكسيره لأصنام قومه ، وما فيه من الجرأة لدين الله - عز وجل - والصبر والثبات على المبدأ .

وكذلك تقدم أيضاً في مواقف موسى - عليه السلام - مع فرعون الطاغية ، ومجاهته له ولعناده وبطشه واستكباره ، وكذلك دخوله الأرض المقدسة التي كتب الله لهم أن يدخلوها مع ما فيها من الجبابرة والظلمة .

وكذلك الشأن في قصة نبي الله داود - عليه السلام - المجاهد المغوار ، ذا الأيد والقوة والشجاعة ، وما قصه الله لنا في كتابه من شأن طالوت الملك عندما واجه جالوت العدو وجنوده ، وكان من بين هؤلاء المقاتلين من جند طالوت الملك نبي الله داود - عليه السلام - فقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أفرغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أقدامَنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِأَدْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ . . . (١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ فيه دلالة على شجاعة داود - عليه السلام - وأنه قتله قتلاً أذل به جنده ، وكسر جيشه ، ولا أعظم من غزو يقتل فيها ملك عدوه ، فيغنم بسبب ذلك الأموال الجزيلة ، ويأسر الأبطال ، والشجعان ، والأقران ،

(١) سورة البقرة ، آية (٢٥٠ - ٢٥١) .

وتعلو كلمة الإيمان على الأوثان ، ويدال لأولياء الله على أعدائه ، ويظهر الحق على الباطل .

فهنا يتبين أثر هذا الأدب العظيم والخلق الكريم ، وهو الشجاعة في النصر على العدو وإظهار الحق ونشر الدعوة ، وهكذا هم الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - بلغوا من مكارم الآداب والأخلاق أعلاها وأكملها .

بل إن من أعظم آثار هذه الآداب ونتائجها عظمة هؤلاء الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - في النفوس وبقاء ذكرهم وعلوه وارتفاع شأنهم عند القريب والبعيد ، والصدق والعدو ، والموافق والمخالف .

ولا أدل من ذلك وأوضح من آداب وأخلاق نبينا محمد - ﷺ - ، وما كان لها من شذى فياح وصدى بالغ الأثر في الأوساط غير الإسلامية ، فإنها أبلغ في الدلالة على المقصود لما فيه من شهادة الغير ، والفضل ما شهدت به الأعداء ، فما من أحد من باحثي الشرق والغرب يقرأ سيرة رسول الله - ﷺ - بروح نزيهة بعيدة عن التعصب والحنق والكراهية والحظوظ النفسية الرخيصة ، إلا شهد شهادة الحق ، واعترف لرسول الله - ﷺ - بجلال العظمة الخلقية وعلى أنه الدرة اليتيمة التي لم يأت مثلها في الجنس البشري كمالاً وعظمة .

فلقد شهد غير المسلمين لنبينا محمد - عليه الصلاة والسلام - بمكارم الأخلاق ، وذلك لما علموا أن أخلاقه - عليه الصلاة والسلام - كانت فوق ما يعرفونه من مستويات الناس في مكارم الأخلاق ، فما أمكنهم بعد ذلك إلا أن يذعنوا ويشهدوا له - ﷺ - بعظمة الخلق إكباراً له وإعظاماً .

يقول السير (وليام موير) الإنجليزي (١) في كتابه حياة محمد :

« ومن صفاته الجديرة بالتنويه والإجلال : الرقة والاحترام اللتين كان يعامل بهما

(١) هو : مستشرق بريطاني أسكتلندي الأصل ، أمضى حياته في خدمة الحكومة ، وتعلم الحقوق في جامعتي (جلاسجو) و (إيدنبرج) ، وتقلد مناصب كثيرة ، ومن بينها مديراً لجامعة (إيدنبرج) سنة (١٨٨٥م) إلى أن توفي سنة (١٩٠٥م) ، وله مؤلفات كثيرة . انظر : الأعلام (٨/١٢٤) .

أتباعه حتى أقلهم شأنًا ، فالتواضع والرفقة والإنسانية ، وإنكار الذات ، والسماحة والإخاء ، تغلغت في نفسه ، ووثقت به محبة كل من حوله » .

وقال أيضًا : « وبالاختصار فإنه مهما درس الباحث حياة محمد وجد فيها على الدوام كتلة فضائل مجسمة مع نقاء سريرة وخلق عظيم ، وستبقى تلك الفضائل عديمة النظير على الإطلاق في جميع الأزمان في الماضي والحاضر والمستقبل » (١) .

ويقول (غوستاف لوبون) في كتابه (حضارة العرب) :

« كان محمد شديد الضبط لنفسه ، كثير التفكير ، صموثًا ، حازمًا ، سليم الطوية ، وديعًا ، وكان مقاتلاً ماهراً ، فكان لا يهرب أمام الأخطاب ، ولا يلقي بيده إلى التهلكة ، وكان يعمل ما في الطاقة لإنماء خلق الشجاعة والإقدام في بني قومه » (٢) .

بل إن هؤلاء المخالفين لم يكن يسعهم بعد أن يدركوا مبلغ تلك الآثار العظيمة ، التي أحدثتها بعثة النبي - ﷺ - وآدابه وأخلاقه ، إلا أن يشهدوا له بالعظمة والكمال .

فقد قال الفونس (دولامارتين) الفرنسي :

« إن محمداً فوق البشر ودون الإله ، أي أنه نبي فهو رسول بحكم العقل ، ودلالات المعجزات تعضد ذلك ، وإن اللغز الذي حله محمد في دعوته فكشف فيها عن القيم الروحية ثم قدمها لأمة العرب ديناً سماوياً ، هو أعلى ما رسمه الخالق لنبي البشر » (٣) .

وقال (ويل ديورانت) مؤلف كتاب (قصة الحضارة) في مقدمة كتابه ذاك :

« وإذا حكمنا على العظيم بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا : إن محمداً كان من أعظم عظماء التاريخ ، فقد أخذ على أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي في شعب القت به في دياجير الهمجية صرارة الجو ، وجذب الصحراء ، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحاً

(١) الإسلام والرسول في نظر منصفى الشرق والغرب لأحمد بوطامي ص (١٣٩) .

(٢) الرسول في كتابات المستشرقين لنذير حمدان ص (٤٩) .

(٣) المثل الأعلى في الأنبياء ص (٧ - ٨) .

لا يدانيه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله » (١) .

وعظم هذه الآثار التي تركها نبينا محمد - ﷺ - في الأوساط غير المسلمة من الأجناس التي تقول الحق وتعترف به ، هي التي جعلت العالم الأمريكي (مايكل هارت) أن يختار نبينا محمداً - ﷺ - لصدارة المائة العظماء الذين اختارهم في كتابه (الخالدون مائة) ؛ لاعتبار عظم الأثر الذي خلفوه في المجتمعات البشرية ، فقد قال في مقدمة كتابه ذلك :

« لقد اخترت محمداً في أول هذه القائمة ، ولا بد أن يندهش كثيرون لهذا الاختيار ، ولكن محمداً - ﷺ - هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحاً مطلقاً على المستوى الديني والديني ، وهو قد دعا إلى الإسلام ونشره كواحد من أعظم الديانات ، وأصبح قائداً سياسياً وعسكرياً ودينياً ، وبعد ثلاثة عشر قرناً من وفاته ، فإن أثر محمد - ﷺ - ما زال قوياً متجدداً » (٢) .

وقد صرح كثير من غير هؤلاء بعظمة رسول الله - ﷺ - لما رأوا عظمة آدابه وأخلاقه وعظمة آثارها في الشرق والغرب .

فقد قال الدكتور (شبلي شميل) وهو نصراني شرقي بجائة :

« لا يوجد دين في الأديان يتفق مع الرقي الاجتماعي والعلمي سوى دين الإسلام ، وأن محمداً هو أكمل وأعظم بشر في الأقدمين والحاضرين ، ولا يتصور وجود مثله في المستقبل ، ثم أنشأ يقول :

نعم المدبر والحكيم وأنه	رب الفصاحة مصطفى الكلمات
رجل الحجا رجل السياسة والدهى	بطل حليف النصر في القارات
بلاغة القرآن قد خلب النهى	وبسيفه انحى على الهامات
من دونه الأبطال في كل الورى	من سابق أو لاحق أو آت (٣)

(١) الإسلام والرسول في نظر منصفى الشرق والغرب ص (١٦٦) .

(٢) الخالدون مائة أعظمهم محمد ص (١٣) .

(٣) الإسلام والرسول في نظر منصفى الشرق والغرب ص (١٨٣) .

وأقوال المتأثرين بآداب وأخلاق النبي - ﷺ - من مستشرقى النصراني واليهود ونحوه ، الناشئة عن قراءتهم لسيرته ، وإطلاعهم على شمائله كثيرة جداً ، لا يأتي على مثلها الحصر هنا .

وقد كانوا بعد تلك المعرفة على حالين : منهم من هدى الله فأمن به واتبع النور الذي أنزل عليه فأسلم وآمن ، ومنهم من حقت عليه الضلالة فأضله الله عن علم ودراية ، وكان من الخاسرين ، وأقواله تلك شهادة أولاً على نفسه بالضلال ، حيث عرف الحق ثم لم يتبعه ، وشاهدة لرسول الله - ﷺ - بعظمة الخلق وزكائه وعظمة شريعته وتعاليمه وهديه ، وتلك الشهادات من أعظم الشهادات قبولاً ورسوخاً في أذهان السامعين ، كما قال الشاعر :

شهد الأنام بفضله حتى العدا والفضل ما شهدت به الأعداء

لأنه إذا كان وهو عدو في الحال لا يقدر على مكابرة تلك الحقائق التاريخية التي قرأها عن رسول الله - ﷺ - ، بل دفعت باطله الذي حمّله على الإصرار على عدائه لرسول الله - ﷺ - ، فما كان منه إلا أن عرف الفضل لذويه والحق لأهله ، إن ذلك هو أكبر الدلائل على عظمة الرسول - ﷺ - ؛ لأنها ناشئة عن نفاذ المحاولات للمكابرة على الباطل ، ولو قدروا على أقل ما يمكن قوله لما ترددوا عنه .

أما من كان ذا عقل حصيف يهديه لأرشد أمره ، لا يكون إمعة على غيره ، ولا متعصباً لهوى قومه وجنسه ، فإنه لا يبرح بعد أن يعرف تلك الحقائق العالية العظيمة ، الدالة على عظمة رسول الله - ﷺ - - خَلْقًا وَخُلُقًا ، لا يبرح أن يشهد شهادة الحق ، فيتبع النور الذي جاء به ، وستبقى تلك الكلمات دالة على النبيل أولاً ، ودالة على عظيم خلق رسول الله - ﷺ - وأدبه ، وصدق دعوته ثانياً ، وهكذا يهدي الله من يشاء ، ويضل من يشاء ، وذلك بعد قيام الحجة على الجميع ؛ حتى لا يكون لهم عذر ، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، نسأل الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد .





الخاتمة

الخاتمة

الحمد لله وكفى ، وصلاة وسلاماً على عباده الذين اصطفى ، وعلى سيدنا محمد النبي المقتضى ، وآله وصحبه ومن اهتدى .

وبعد . . .

فإن آداب وشمائل أنبياء الله العظام ورسله الكرام - صلوات ربي وسلامه عليهم أزكى صلاة وأتم سلاماً - ، مما تفنى الأعمار في تحريرها ، ولا تزال فيها فيوض لمستدرك على سابقه ، أو متعقب على من عني بالتأليف فيها .

ورحم الله القائل :

فإن فضل رسول الله ليس له حد فيعرب عنه ناطق بفم

وقد أتيت والله الحمد والمنة ، بفضل منه وتوفيق ، بمفردات تلك الآداب والأخلاق العظيمة ، مما كان لها دلالة صريحة ، أو إشارة في القرآن الكريم ، إلا ما ند الفكر عنها ، أو غفل الإنسان عن موضعها ، كما هو الشأن في أحوال البشر عامة من القصور والنسيان .

ومن خلال هذا البحث الشامل في آداب أنبياء الله - صلوات ربي وسلامه عليهم - التي أنبأنا القرآن الكريم عنها ، ندرك عظمة تلك الأخلاق والآداب بالبرهان العملي المقترن بالتصديق الإيماني .

وعلينا بعدئذ أن نعرض سلوكنا مع الله - تبارك وتعالى - في الإيمان والعبادة ، ومع ذواتنا في السجاي النفسية ، وفي بيوتنا ومجتمعاتنا في الأمور التعاملية ؛ لنرى أين نحن من سلوك أنبياء الله وآدابهم في كل تلك الأحوال ؟ ؛ لأن بعثتهم ما كانت إلا لتزكية البشرية وإتمام مكارم الآداب والأخلاق فيها ، فتمثلها في سلوكهم وأقوالهم وأفعالهم ليكونوا لنا أسوة في ذلك .

وقد رأينا أنهم - عليهم الصلاة والسلام - قد تمثلوا أعظم الآداب وأكرمها في ذاتهم

وسلوكلهم مع رهم وأنفسهم ، في بيوتهم ومجتمعاتهم ، كأوفى ما يكون التمثل وأعظمه ، وبذلك وافق الخبر الخبر ، واتضح لنا ما كان خافياً عن الإدراك والنظر ، وتجلت لنا حقائق كثيرة ما كان عندنا فيها خبر .

ومن أبرز ما تجلى لنا في هذا البحث من حقائق ونتائج ما نسطره كالتالي :

١- منزلة الأنبياء العظيمة ومكانتهم المرموقة في الإسلام ، ويتضح ذلك من اهتمام القرآن الكريم البالغ بذكر قصصهم وتكرارها ومجرياتهم وأخبارها ، التي أخبرتنا عن تلك الآداب العظيمة ، والأخلاق الكريمة المكتسبة برداء النبوة وثوب الرسالة .

٢- أن من غايات بعثة الله لأنبيائه ورسله - عليهم الصلاة والسلام - تزكية آداب وأخلاق الأمم ، كما أخبرت بذلك آيات كثيرة عن نبينا محمد - ج - ، منها قوله تعالى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ . . . ﴾ (١) .

٣- عظم المكانة والمنزلة التي يتبوؤها صاحب الأخلاق الفاضلة والآداب في الدنيا والآخرة .

٤- شمول الآداب النبوية لجميع مناحي الحياة الدينية والدنيوية ، بحيث لم يبق حال من أحوالهم في حياتهم إلا وقد صبغوه بصيغة الآداب والأخلاق ، كما دلت على ذلك الدلائل الكثيرة ، والمواقف الأثيرة في قصصهم التي ذكرها القرآن الكريم .

٥- أن عظمة وآداب أنبياء الله وأخلاقهم - عليهم الصلاة والسلام - كانت معلومة منذ أن شبوا وترعرعوا ، حيث أدبهم رهم ، وأنشأهم على مكارم الأخلاق لا يرضون عنهم بديلاً .

(١) سورة البقرة ، آية (١٥١) .

٦- أن بعثتهم - عليهم الصلاة والسلام - واصطفأؤهم بالنبوة والرسالة زادت أخلاقهم العظيمة كمالاً ورسوخاً ، وتأسيساً وتفصيلاً .

٧- أنهم - عليهم الصلاة والسلام - كانوا يترجمون الوحي الإلهي والتشريع السماوي بسلوكهم وآدابهم في باطنهم وظاهرهم ، وأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ، وأن سلوكهم كله كان مرآة لعظمة ذلك التشريع ورؤيته .

٨- توازن آدابهم وأخلاقهم - عليهم الصلاة والسلام - بحيث كانت جميعها كأها قلب واحد ، تتعاون ولا تتناقض ، في ذاتهم وأفعالهم - صلوات ربي وسلامه عليهم - .

٩- ثبات آدابهم - عليهم الصلاة والسلام - ثباتاً راسخاً مدة حياتهم ، بحيث لم يحصل منهم ما يناقض أخلاقهم وآدابهم العظيمة في أي حال من الأحوال ، مع القريب والبعيد ، والصديق والعدو .

١٠- عظم الأثر التي تركته تلك الآداب في نفوس مشاهديهم أو قارئ سيرتهم في حياتهم وبعد مماتهم - عليهم الصلاة والسلام - .

إلى غير ذلك من النتائج التي كانت تمر أثناء تقرير الآداب النبوية في القرآن الكريم ، وعلى ضوء هذه النتائج الواضحة والمهمة التي دللنا على خطر الآداب والأخلاق البالغ ، وضرورتها في الحياة الإنسانية ، وأهميتها القصوى فيه ، على مستوى الفرد والمجتمع ، والسائس والمسوس ، وفي الدين والدنيا .

وعلى هذا الضوء كان لا بد لي من إبداء بعض المقترحات لعل الله تعالى أن ينفع بها ، وأن تأخذ بعين الاعتبار ، وهذه المقترحات هي :

١- دعوة العلماء والأدباء إلى التركيز في استخراج الآداب النبوية العظيمة والأخلاق الإسلامية من منبعها الأصيل ، الكتاب والسنة ، بأسلوب يناسب حال العصر ؛ كي تسهل الاستفادة منها عند أبناء أمتنا ، ومن تكتب له الهداية من غيرنا .

٢- أن يكون للأخلاق النبوية والشمائل الكريمة لأنبياء الله ورسله - صلوات ربي وسلامه عليهم - نصيب من العناية الكبرى في مناهج التعليم ، بحيث توضع مادة مستقلة تعنى بالأخلاق ، تدرس في جميع مراحل الدراسة ، ابتداء من المرحلة الابتدائية ، وانتهاء بالمرحلة الجامعية ، في كل مرحلة ما يناسبها من المنهج الذي يقوم بوضعه أناس ذو كفاءة عالية من العلم والعمل والأخلاق .

٣- أن يوفر مناخ عملي لهذه المادة في التعليم والتطبيق ؛ حتى تتدعم قلوب الأجيال الناشئة بالأخلاق الفاضلة التي أتت بها الشريعة الإسلامية ، والقرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ، وخصوصاً فيما يتعلق بأداب أنبياء الله ورسله ، فتلفت لها أنظارهم ، ويرون فيها القدوة المثلى والأسوة الحسنى ، باعتبارها ذات مكانة عظيمة عليا في الحياة وبعد الممات .

٤- إنني أدعو ذوي الأقلام السيالة من الكتاب والأدباء والقصاصين الإسلاميين إلى إبراز جانب الأدب النبوي في أعمالهم الأدبية ؛ حتى تدرك الأمة خطر الآداب والأخلاق وعظمتها ، فتحيا في المجتمعات الإسلامية الروح الأخلاقية الكريمة ، والشمائل الأدبية العظيمة التي كان عليها أنبياء الله ورسله - صلوات ربي وسلامه عليهم - وعلى نبينا محمد سيد الأولين والآخرين والذي تمثل أصحابه الكرام أخلاقه من بعده ، فكانت سلاحاً فعالاً عظيماً في جذب الناس للإسلام ، حيث كانت الأمم تدخل في الإسلام لتأثرها بأخلاق المسلمين الذين يصلون إلى بلدانهم دعاة أو فاتحين ، كما ثبت تاريخياً من أحوال انتشار الإسلام في المعمورة .

وإن ما نشاهده اليوم من خلل وفوضى بين المسلمين أدت إلى انتقاص رقعة الإسلام واضطهاد أبنائه ، لهو ناتج عن عدم تخلق المسلمين بأداب الإسلام وتعاليمه ، ولعل في إحياء نفوسهم بأداب الإسلام وأخلاقه أول الطريق لإعادة مجد هذه الأمة وعظمتها .

هذا ، ولا يسعني وأنا في صدد اختتام بحثي هذا إلا أن أبتهل وأضرع إلى الله - جل في علاه - أن يتقبل مني هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، ويجعله لي ذخراً يوم ألقاه ، وأن يعم

النفع به عامة المسلمين ، وأن يحشرنى في زمرة سيد الأولين والآخرين ، ويشفعه فينا وفي والدينا وأزواجنا ومشايخنا وأحبابنا في الدين ، وأن يسقينا من حوضه الشريف ومن يده الكريمة شربة لا نظماً بعدها أبداً .

كما أنه لا يسعني في نهاية هذا البحث إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل - بعد شكر الله ﷻ - لفضيلة شيخى الدكتور **محب الدين عبد السبحان واعظ** الذي تشرفت بمرافقته طيلة كتابة هذا البحث ، على ما بذله لي من الجهد والوقت - على كثرة مشاغله - ، وما أسداه لي من توجيهاته المسددة ، وملاحظاته المرشدة ، وعلى سعة خلقه وكرم تعامله ، فله منى جزيل الشكر والثناء .

كما أسأل الله - جل وعلا - أن يهدينا لأحسن الآداب والأخلاق ، فإنه لا يهدي لأحسنها إلا هو ، وأن يصرف عنا سيئها ، لا يصرف عنا سيئها إلا هو ، وأن يعز كتابه وسنة نبيه ، وعباده المؤمنين ، ويخذل الكفرة والملحدين ، ويجعل بأسهم بينهم إلى يوم الدين .

والحمد لله رب العالمين بدءاً وختاماً ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .



الفهارس

وتشتمل على الفهارس التسعة التالية :

- ١- فهرس الآيات القرآنية .
- ٢- فهرس الأحاديث النبوية .
- ٣- فهرس الآثار .
- ٤- فهرس الأعلام .
- ٥- فهرس الكلمات المشروحة .
- ٦- فهرس الأماكن والبلدان .
- ٧- فهرس الأبيات الشعرية .
- ٨- فهرس المصادر والمراجع .
- ٩- فهرس المحتويات .

ل فهرس الآيات القرآنية

الآية	رقم الآية	الصفحة
سورة البقرة		
﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ﴿٥٣﴾	٥٣	٤٢
﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ ﴿٥٤﴾	٥٤	٢١٦ ، ٢١٨
﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَحَدِيدٍ فَاذْعُ لَنَا رَبِّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِئُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ ﴿٦١﴾	٦١	٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤٣ ، ٢٩٤

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقْعَ لَوْهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ ﴾ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذُلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْكُنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ	٦٧ - ٧١	٢٢٣ ، ٢٤٣ ، ٤١٨
﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾	٨٣	١٠٠
﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٩١﴾	٩١	٢٩٤
﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ ﴿٩٢﴾	٩٢	٢١٧

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾	١٢٤	٦٦ ، ٤٢
﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾	١٢٥	٧٥
﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ		
الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿١٣١﴾	١٣١	٦٣ ، ٦٢
﴿ وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَبْنَى إِنَّ		
اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ		
مُسْلِمُونَ ﴾ ﴿١٣٢﴾	١٣٢	٦٣ ، ٦٢
﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ		
إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي ﴾	١٣٣	٦٨ ، ٦٧
﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ﴾	١٣٥	٧٣
﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ		
إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ .	١٣٦	٧٤
﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا		
عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ ﴾	١٥١	٤٤٩
﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ		
وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكُتُبِ		
أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴾ ﴿١٥٩﴾	١٥٩	٢٩٧
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ		
كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ		
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ﴿١٨٣﴾	١٨٣	٤٣٤

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾	٢٣٣	٢٠٠
﴿ وَلَا تَعَزَّمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ﴾	٢٣٥	٨٠
﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلِإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴾	٢٤٦	٣٧٢
﴿ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقْتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِينِنَا وَأَبْنَانَا ﴾	٢٤٦	٣٧٢
﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِمْ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٣٥﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾	٢٥٠ - ٢٥١	٣٧٢ ، ٨٩ ، ٤٤٢
﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ .	٢٥٣	٤١
﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾	٢٥٥	٣٢
﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾	٢٥٨	٣٦٩
﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾	٢٨٥	٣٨٢

الآية	رقم الآية	الصفحة
سورة آل عمران		
﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾	٣١	٤٣٢
﴿ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ ﴿٣٨﴾	٣٨	٤٣٧
﴿ إِنْ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ﴿٦٢﴾ .	٦٢	٣١٩
﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾	٦٤	٣٣٤
﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾	٦٨	٧٥
﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ﴿١٣٢﴾	١٣٢	٣٣٦
﴿ وَالْكُفْرَ الَّذِينَ الْغَيْظَ وَالْعَفِيفِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿١٣٤﴾	١٣٤	٣٥٥
﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾	١٤٦	٣٧٣
﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾	١٥٥	١٩٩

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فِظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنَّهُمْ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَاَسْأَلُكُمْ فِي الْأَمْرِ فَاِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (١٥٩)	١٥٩	٨٠ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٦ ، ٢٤٦ ، ٣٦٢
﴿ وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (١٨٦)	١٨٦	٨٠
سورة النساء		
﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾	١	١٠١
﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ ﴾	٨	١٠١
﴿ وَأَنْ تَصَبِّرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾	٢٥	٢٢٩
﴿ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾	٣٦	١٥٣
﴿ وَعَظْمَهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (١٣)	٦٣	٢٢٤

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾	٨٤	٣٧٨ ، ٣٧٤
﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾	١٢٥	٧٣ ، ٤٢
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَوَلَّمْتَهُ الْقَهَّاءَ إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾	١٣٦ ١٧١	٣٣٠ ٤٣
سورة المائدة		
﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾	١٢	٢٢٠
﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يٰ قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ يٰ قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالُوا يٰ مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنُودُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا لَنُودُونَ ﴿١٨﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ =		

الآية	رقم الآية	الصفحة
= فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣٣﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٣٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴿٣٧﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴿٤٠﴾ ﴿٤١﴾ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴿٤٢﴾ ﴿٤٣﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴿٤٤﴾ ﴿٤٥﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَي رِسُولُنَا الْبَلِّغُ الْمُبِينُ ﴿٤٦﴾ ﴿٤٧﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَنزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ ﴿٤٨﴾ ﴿٤٩﴾	٢٠ - ٢٦	٢١٩ ، ٢٤٣
٤٦	٤٦	٤٢
٥٤	٥٤	٨٥
٦٧	٦٧	٣٢٩ ، ٣٣٧
٧٢	٧٢	٤٣٤
٩٢	٩٢	٢٩٧
١١٥	١١٥	٣١٨

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ إِن تُعَدِّبِهِمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ ۗ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾	١١٨	٢٠٤
سورة الأنعام		
﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا ﴾	٣٤	٢٣٠
﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأبيهِ ءَازَرَ اتَّخِذْ أُصْنَامًا ءَالِهَةً ۗ إِنِّي أَرِنكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾		
﴿ وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَيَكُونُ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾		
﴿ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَأُحِبُّ الأَفْلِينَ ﴾		
﴿ الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾		
﴿ فَلَمَّا رَأَى السَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾		
﴿ فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾	٧٤ - ٧٩	٣٢٢
﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الكِتَابَ وَالحَكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۗ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِكَافِرِينَ ﴾		
﴿ هَدَى اللَّهُ فِيهِدُهُمْ أَقْتَدِهِ ﴾	٨٩ - ٩٠	٤٣٣ ، ٢٩١ ، ٧٧

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾	١٢٤	٣٢٤ ، ٤٩
﴿ قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾	١٦١	٧٢

سورة الأعراف

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أَبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

٢٦٨ ، ٢٧٣ ،

٥٩ - ٦٣

٢٧٤ ، ٢٧٥ ،

٢٩٩ ، ٣٤١ ،

٣٥٧

﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

٢٦٧ ، ٢٧٣

٦٥

٢٧٤ ، ٣٠٤

٦٦

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾	٦٧ - ٦٨	٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٣٠٥ ، ٣٤٤ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩
﴿ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءً مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصِطَةً فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾	٦٩	٢٧١ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧
﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَنَذْرًا مَّا كَانَ يُعْبَدُ آبَاؤَنَا فَأَنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾	٧٠	٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٤٦
﴿ وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾	٧٢	٢٧٩
﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ =		

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٨٠﴾	٨٠	٢٨٧
﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ ﴿٨١﴾	٨١	٢٨٦
﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٨٥﴾	٨٥	٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧
﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ ۚ ﴾	٨٦	٣٢٧
﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِآلِذِي أُرْسِلَتْ بِهِ ۚ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ﴿٨٧﴾	٨٧	٣٢٨
﴿ لِّئِن أَتَبِعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخٰسِرُونَ ﴾ ﴿٩٠﴾	٩٠	٣٢٨
﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جٰثِمِينَ ﴾ ﴿٩١﴾	٩١	٣١٨ ، ٣٢٨

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ يَقُومُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِّن رَّبِّكُمْ وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ (١٣)	٩٣	٣٢٥ ، ٣٢٩
﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرُكَ وَآءِهُتَكَ ﴾	١٢٧	٢٣٧
﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾	١٢٩	٢٤٢
﴿ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَيَبْطُلُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (١٤٠)	١٣٨ - ١٤٠	٢٢٢ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩
﴿ أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١٤٦)	١٤٢	٥٨
﴿ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمِي ﴾	١٤٤	٤٢
﴿ وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا إِيَّاهِ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾	١٤٦	٤٤٠

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمَ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ (١٤٨)	١٤٨	٢١٧ ، ٥٤
﴿ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١٤٩)	١٤٩	٢١٧ ، ٥٤
﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ (١٥٠)	١٥٠	٥٥
﴿ ابْنِ أُمَّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ﴾ (١٥٠)	١٥٠	٥٧ ، ٥٦
﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ﴾ (١٥١)	١٥١	٥٩
﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ ﴾ (١٥٤)	١٥٤	٥٣
﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعُ بِهِمْ ﴾ (١٧١)	١٧١	٢٢٣
﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ ﴾ (١٧٩)	١٧٩	٤٠٣
﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١٩٩)	١٩٩	٣٥٦ ، ٢٤٧

الآية	رقم الآية	الصفحة
-------	-----------	--------

سورة الأنفال

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾	٣٠	١٩٤
﴿ فَأَمَّا تَتَقَنَّاهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ ﴿٥٧﴾	٥٧	٣٧٤
﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ﴿٦٧﴾		
﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ		
﴿ ﴿٦٩﴾	٦٧ - ٦٩	٢٠٣ ، ٢٠٤ ،

٢٠٥

سورة التوبة

﴿ يَبْشِرُهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ ﴾	٢١	١٢٤
﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ . . . وَلَا تُوَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾	٨٠ - ٨٤	٢٤٥
﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ ﴾	١١٣	٢٦٢

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾	١٢٨	٣٥١ ، ٣٤٩
سورة يونس		
﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ ﴾	٢	٣٠٥
﴿ لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ آيَةً مِّنْ رَبِّهِ ﴾	٢٠	٣٠٨
﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يُقَوْمِ إِنِ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا وَإِنِ كُنْتُمْ مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾		
﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾	٨٤ - ٨٦	٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣
﴿ رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ وَأَشْدُدْ عَلَيْنَا قُلُوبَهُمْ ﴾	٨٨	٢٠٤
سورة هود		
﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ إِلِيمِ ﴿٢٦﴾ ﴾	٢٥ - ٢٦	٣٤١
﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِأَدْيِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا =		

الآية	رقم الآية	الصفحة
= مِنْ فَضْلِ بَلٍ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِّن عِنْدِهِ ۖ فَعَمَيْتُ عَلَيْكُمْ أَنْذَرْتُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كُرْهُونَ ﴿٧٨﴾ وَيَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبَّهُمْ وَلَكِنِّي أَرِنُكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٧٩﴾	٢٧ - ٢٩	٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٣٥٨ ، ٣٥١
﴿ وَيَقَوْمٍ مَّن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ ﴾ ﴿ يَنْوُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَتَانَا بِمَا تَعِدُّنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ . ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدَّ ءَامَنَ ﴾ ﴿ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ ﴿ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ أَبْنَاهُ وَكَانَ فِي مَعْرَلٍ يَبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ﴿ قَالَ سَأُووِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِن أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾	٣٠ ٣٢ ٣٦ ٤٠ ٤٠ ٤٢ ٤٣	٣٥٨ ٣٠٣ ٣٥٨ ٢٥٤ ٢٩٩ ، ٤٣٥ ٢٥٣ ٢٥٤

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَنْوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ	٤٥ - ٤٦	٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥
﴿ وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ ﴿٥٠﴾	٥٠	٢٧٦
﴿ يَنْقُومُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٥١﴾	٥١	٢٧٧ ، ٣٤٥
﴿ وَيَنْقُومِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ ﴿٥٢﴾	٥٢	٢٧٧ ، ٣٤٤
﴿ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٥٣﴾	٥٣	٣٠٨ ، ٣٠٩
﴿ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ ﴿٦١﴾	٦١	٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٣١٢

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنهَنَّا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾	٦٢	٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٣١٤ ، ٤٣٩
﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾	٦٣	٢٨٣ ، ٣١٤
﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾	٦٥	٣١٧
﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلَنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٦﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾	٦٩ - ٧٠	٣٨٨
﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾	٧٤	٩٨
﴿لَحَلِيمٌ أَوْهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾	٧٥	٩٨
﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾	٧٤ - ٧٦	٩٨
﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾	٧٧	٣٩١ ، ٣٩٢

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ وَجَاءَهُمْ قَوْمُهُ يُهَرِّغُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۗ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ (٧٨) . . .	٧٨	٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧
﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ (٧٩)	٧٩	٣٩٧
﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ (٨٠)	٨٠	٣٩٨
﴿ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۗ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴾	٨٤	٣٤٨
﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ (٨٩)	٨٩	١٨٤ ، ٣٢٨
﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ (٩١)	٩١	٤٠٠
﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا ثُبَّتْ بِهِ ۗ فَوَادِّكَ ﴾	١٢٠	٢٣١
سورة يوسف		
﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (٣)	٣	١٤٧ ، ١٤٩

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ يَأْتِ بِإِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتَهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ ﴿٤﴾ .	٤	١٤٥
﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِاحُونَ ﴾ ﴿١١﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعِ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لِيَحْزُنْتِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الدَّثْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الدَّثْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴾ ﴿١٤﴾	١١ - ١٤	١١١ ، ١٠٣
﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذُهَبْنَا نَسْتِيقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا فَأَكَلَهُ الدَّثْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ	١٦ - ١٨	١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٩
﴿ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾	٣٣	٤٣٧

الآية	رقم الآية	الصفحة
-------	-----------	--------

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ
 وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ
 قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ
 أَنِّي أَوْفَى الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن
 لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا
 تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَوِّدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ
 ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفَتِينِهِ اجْعَلُوا بَضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ
 لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ
 يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

١٢٨ ، ١١٠ ،

٥٨ - ٦٢

١٢٩

﴿ فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا
 الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَّكَتِلْ وَإِنَّا لَهُ
 لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا
 كَمَا ءَامَنُتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ
 حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا
 مَتَعَهُمْ وَجَدُوا بِبَضْعَتِهِمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا
 مَا نَبْغِي هَذِهِ بَضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا
 وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ
 كَيْلُ يَسِيرٍ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ
 تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتَنِي بِهِ إِلَّا =

الآية	رقم الآية	الصفحة
= أن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَبْنِي لَأَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَحْكَمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾	٦٧ - ٦٣	١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤
﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسٍ يَعْتُوبَ قَضَاهَا﴾	٦٨	١١٤
﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾	٦٩	١٣٠ ، ١٣١
﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧١﴾﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ =		

الآية	رقم الآية	الصفحة
-------	-----------	--------

لظلمون ﴿٧٨﴾	٧٦ - ٧٩	١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٦٤ ، ١٣٥
-------------------	---------	--------------------------

﴿٧٨﴾ فَلَمَّا أَسْتَيْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاءَكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٧٩﴾ أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨٠﴾ وَسَأَلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨١﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٢﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٣﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَقْتَوُوا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٤﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٥﴾ يَسِنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا =

الآية	رقم الآية	الصفحة
-------	-----------	--------

= مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأَيَّسُوا مِنْ رَوْحِ
اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأَيَّسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ
الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾

٨٠ - ٨٧ ، ١١٠ ، ١١٥ ،

١١٦ ، ١١٧ ،

١١٨ ، ١١٩ ،

١٢٠ ، ١٢٥ ،

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا
وَأَهْلْنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّةٍ فَأَوْفِ لَنَا
الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي
الْمُتَّصِدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ
يُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا
أءِيبُكَ لِأَنْتَ يُونُسُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا
أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ
فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا
تَاللَّهِ لَقَدْ أَتَرَكْنَا اللَّهَ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا
لَخَطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ
يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ﴿٩٢﴾ .

٨٨ - ٩٢ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ،

١٣٨ ، ١٣٩ ،

١٤٠ ، ١٤١ ،

١٤٢ ، ١٤٣ ،

١٤٤ ، ١٤٥ ،

٤٣٧

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ﴾	٩٣	١٢٥
﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُقِنُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾	٩٤ - ٩٨	١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦
﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَأَمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾	٩٩ - ١٠٠	٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾		
﴿ ١٠٣ ﴾	١٠٣	٣٥٢
﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾	١٠٨	١٥٠
﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لأُولَى الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾	١١١	١٤٧ ، ٤٣٥
سورة الرعد		
﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾	١١	٢١٦
﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾		
﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَعُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عِزِّي الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾	٢٤ - ٢١	١٠٢ ، ٢٢٨

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾	٢٥	١٠٢
﴿ ٢٥ ﴾		
سورة إبراهيم		
﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾	٤	٢٨١ ، ٢٩٤
﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدَّبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾	٦ - ٨	٢١٣
﴿ ٦ ﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾		
﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿٣٦﴾	٣٦	٢٠٤
﴿ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ ﴾	٥٢	٢٩٦
سورة الحجر		
﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ تَارِ السَّمُومِ ﴿٧﴾ ﴾	٢٦ - ٢٧	٤٠٣

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ ﴿٦٧﴾	٦٦	٣٩٣
﴿ أَوْلَمْ تَنْهَكْ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٧٠﴾	٧٠	٣٩٤
﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿٩٤﴾	٩٤	٣٣٢
﴿ وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ ﴿٩٧﴾	٩٧	٣٥٠
سورة النحل		
﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴾ ﴿٣٥﴾	٣٥	٢٩٨، ٢٩٦
﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾	٣٦	٢٩٣
﴿ إِن تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ ﴿٣٧﴾	٣٧	٣٥٢
﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ﴿٤٤﴾	٤٤	٣٣٦
﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْشَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ﴾	٩٧	٣٣٩
﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ أَجْتَبَاهُ وَهَدَيْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ =		

الآية	رقم الآية	الصفحة
= الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ	١٢٠ - ١٢٣	٦٤ ، ٧٢ ، ٣٢٠ ، ٢١٥
﴿١٢٣﴾	١٢٥	٢٢٤ ، ٣٦١
﴿١٢٤﴾	١٢٦	٢٢٩
﴿١٢٥﴾	١٢٧ - ١٢٨	٢٣٠
سورة الإسراء		
﴿١٢٦﴾	١	٨٦
﴿١٢٧﴾	٣	٢١٥
﴿١٢٨﴾	٥	٣٧٢
﴿١٢٩﴾		
﴿١٣٠﴾		
﴿١٣١﴾		
﴿١٣٢﴾		
﴿١٣٣﴾		
﴿١٣٤﴾		
﴿١٣٥﴾		
﴿١٣٦﴾		
﴿١٣٧﴾		
﴿١٣٨﴾		
﴿١٣٩﴾		
﴿١٤٠﴾		
﴿١٤١﴾		
﴿١٤٢﴾		
﴿١٤٣﴾		
﴿١٤٤﴾		
﴿١٤٥﴾		
﴿١٤٦﴾		
﴿١٤٧﴾		
﴿١٤٨﴾		
﴿١٤٩﴾		
﴿١٥٠﴾		
﴿١٥١﴾		
﴿١٥٢﴾		
﴿١٥٣﴾		
﴿١٥٤﴾		
﴿١٥٥﴾		
﴿١٥٦﴾		
﴿١٥٧﴾		
﴿١٥٨﴾		
﴿١٥٩﴾		
﴿١٦٠﴾		
﴿١٦١﴾		
﴿١٦٢﴾		
﴿١٦٣﴾		
﴿١٦٤﴾		
﴿١٦٥﴾		
﴿١٦٦﴾		
﴿١٦٧﴾		
﴿١٦٨﴾		
﴿١٦٩﴾		
﴿١٧٠﴾		
﴿١٧١﴾		
﴿١٧٢﴾		
﴿١٧٣﴾		
﴿١٧٤﴾		
﴿١٧٥﴾		
﴿١٧٦﴾		
﴿١٧٧﴾		
﴿١٧٨﴾		
﴿١٧٩﴾		
﴿١٨٠﴾		
﴿١٨١﴾		
﴿١٨٢﴾		
﴿١٨٣﴾		
﴿١٨٤﴾		
﴿١٨٥﴾		
﴿١٨٦﴾		
﴿١٨٧﴾		
﴿١٨٨﴾		
﴿١٨٩﴾		
﴿١٩٠﴾		
﴿١٩١﴾		
﴿١٩٢﴾		
﴿١٩٣﴾		
﴿١٩٤﴾		
﴿١٩٥﴾		
﴿١٩٦﴾		
﴿١٩٧﴾		
﴿١٩٨﴾		
﴿١٩٩﴾		
﴿٢٠٠﴾		

الآية	رقم الآية	الصفحة
= وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٣٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الدُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمَهُمَا		
كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾	٢٣ - ٢٤	١٥٦
﴿وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾	٢٦	١٠١
﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾	٣٧	٨٣
﴿كُلُّ ذَلِكْ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾	٣٨	٨٣
﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا ﴿٥٥﴾	٥٥	٤٢ ، ٤١
﴿فَظَلَمُوا بِهَا ﴿٥٩﴾	٥٩	٣١١
﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾	٨٥	١٦٥
﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ ..	٩٤	٣٠٦
﴿إِنِّي لَأُظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١١١﴾	١٠١	٣٧١
﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَاطِرٍ وَإِنِّي لَأُظُنُّكَ يَفْرَعُونَ مُتَّبِعًا ﴿١٠٢﴾	١٠٢	٣٧١
﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْتٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٠٦﴾	١٠٦	٣٣٥

الآية	رقم الآية	الصفحة
-------	-----------	--------

سورة الكهف

٣٥١	٦	﴿ فَلَعلَّكَ بَخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَيَّ أَثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ ﴿٦﴾
٢٢٨	٢٨	﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ ﴿٦٨﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنَّا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٧٠﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴿٧١﴾ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٧٢﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٧٣﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٧٤﴾ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَيَّ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٦﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَيَّ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٧٨﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ =

الآية	رقم الآية	الصفحة
-------	-----------	--------

= لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخْرَقْتُهَا لِتُغْرَقَ أَهْلُهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَ غُلَمًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ ﴿٧٧﴾ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٨﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾

١٦٣ ، ٥١ ٧٨ - ٦٠

١٦٥ ، ١٦٤

١٦٧ ، ١٦٦

١٦٩ ، ١٦٨

١٧١ ، ١٧٠

سورة مريم

١٥٢

١٤

﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ ﴾

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ ﴿ وَأذْكَرْفِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ يَا بَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا بَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا بَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا بَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلِّمْ عَلَيَّ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾	٣٢	١٥٠ ، ١٥١
﴿ وَأذْكَرْفِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ .	٥١	٣٧
﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾	٥٢	١١٥

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿ وَأذْكَرْفِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا	٥٣	٣٠٢ ، ٢٤١
﴿ ﴿٥٤﴾	٥٤	٥٠
﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ ﴾	٥٥	٤٣٤
سورة طه		
﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ ﴿١٤﴾	١٤	٤٣٤
﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِمْ أَزْرَى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾	٣٥ - ٢٥	٤٨٨ ، ٥٩ ، ٥٦ ، ١٩٧
﴿ وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ ﴿٤١﴾	٤١	٤٢
﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى	٤٤	٣٦٠
﴿ ﴿٤٤﴾	٤٤	٣٦٠
﴿ إِنَّا رَسُولًا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعْدِبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَأَلْسَلْنَا عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ =		

الآية	رقم الآية	الصفحة
= أَوْحَىٰ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَىٰ ﴿٥٢﴾	٤٧ - ٥٢	٣٧١
﴿٥٣﴾ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنِ قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ ﴿٥٣﴾ .. ﴿٥٤﴾ حُمَلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٥٧﴾	٨٣	٥٣
﴿٥٨﴾ فَخَرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورًا فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنسَىٰ ﴿٥٨﴾ .. ﴿٥٩﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٥٩﴾	٨٧	٥٥
﴿٦٠﴾ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٦٠﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٦٣﴾	٨٨	٢٤٢ ، ٥٤
﴿٦٤﴾ يَنْبُؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٦٤﴾	٨٩	٥
﴿٦٥﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٦٨﴾	٩٢ - ٩٣	٥٨ ، ٥٥
﴿٦٩﴾ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿٦٩﴾	٩٤	٥٨ ، ٥٦
﴿٧٠﴾	٩٨	٥٣
﴿٧١﴾	١١٤	١٦٥

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾	١١٥	٨٠
سورة الأنبياء		
﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾	٧	٣٠٦
﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾	٢٠	٣٨٥
﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾	٢٣	٤٩
﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾	٢٦ - ٢٧	٣٨٥، ٣٨٨
﴿ وَهُمْ مِّنْ خَشِيَّتِهِءِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾	٢٨	٣٨٥
﴿ إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِءِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾	٥٢ - ٥٨	٣٧٠
﴿ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ ...	٦٥	٤٢٠

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدٌ ﴾ ﴿٧٣﴾	٧٣	٤٣٤
﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ ﴿٧٩﴾ ...	٧٨ - ٧٩	٨٩ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤
﴿ وَلَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴾ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ ﴿٨٢﴾	٨١ - ٨٢	٤٠٥ ، ٤٠٨ ، ٤١٢
﴿ وَيُوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ ﴿٨٣﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴾ ﴿٩٠﴾	٨٣	٤٣٦
﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ﴿١٠٧﴾ .	١٠٧	٣٠٢ ، ٣٤٩ ، ٤٢٧

الآية	رقم الآية	الصفحة
-------	-----------	--------

سورة الحج

٤٣٤	٢٧	﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتُلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ
٣٧٧ ، ٣٣٤	٣٩	عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا
٣١ ، ٣٠	٥٢	إِذَا تَمَنَّىَ الْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ
٧٥	٧٨	مِنْ قَبْلُ﴾

سورة المؤمنون

٢٩٣	٤٤	﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولَهَا كَذَّبُونَهُ﴾
-----	----	--

سورة الفرقان

٣١٣	٧	﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾
٨٤	٦٣	﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾
٦٦	٧٤	﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ ﴿٧٤﴾

سورة الشعراء

٣٥١	٣	﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٣﴾ ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمَا أَنْبَتْنَا فِيهَا
٣٠٨	٨ - ٧	مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾	٣٤ - ٣٥	١٩٣
﴿ وَآتَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِمِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾	٦٩ - ٧٧	٣٦٩
﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾	٨٠	٤٣٦
﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾	٨٧ - ٨٩	٢٦١
﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ .. ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾	١٠٦	٣٤١
﴿ قَالَوا لَنْ لَمْ تَنْتَهَ يَنْوُحُ لَتَكُونَنَّ مِنْ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾	١٠٩	٢٩٤
...	١١٦	٣٠٣

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ (١١٥)	١٢٥	٣٤٥
﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ (١٢٩) ..	١٢٩	٢٧٢
﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ (١٣٠)	١٣٠	٢٧٢
﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١٣٦)		
﴿ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمٍ وَبَيْنَ ۙ وَبَيْنَ ۙ وَجَنَّتِ وَعُيُونِ		
﴿ (١٣٦) ﴾	١٣٢ - ١٣٤	٣٤٣
﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ		
أَخُوهُمْ صَلِّحْ وَلَا تَنْتَهِنَ ۙ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ		
أَمِينٌ ۙ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۙ وَمَا أَسْأَلُكُمْ		
عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۙ إِنِ اجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ		
الْعَالَمِينَ ﴾ (١٤٥)	١٤١ - ١٤٥	٣١٢
﴿ أَتْرَكُونَ فِي مَا هُنَّ آمَنِينَ ﴾ (١٤٦) فِي		
جَنَّتِ وَعُيُونِ ۙ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعُهَا هُضِيمٌ		
﴿ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴾ (١٤٩) ..	١٤٦ - ١٤٩	٢٧٩ ، ٢٨٢
﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۙ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ		
الْمُسْرِفِينَ ۙ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ		
وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ (١٥٢)	١٥٠ - ١٥٢	٣١٢
﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ (١٥٣) ..	١٥٣	٣١٢ ، ٣١٣
﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾	١٥٤	٣١٣
﴿ لَهَا شَرْبٌ وَلَكُمْ شَرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴾ (١٥٥) ..	١٥٥	٤١٦
﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (١٦٤)	٢١٤	٢٦٣ ، ٣٣١

الآية	رقم الآية	الصفحة
-------	-----------	--------

سورة النمل

٣٧٣	١٠	﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ ... ﴾ ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾
٣٠١	١٤	﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ﴾
٤١٩	١٥	﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾
٤٢١ ، ٤٢٠	١٦	﴿ وَحَشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنْ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وِلْدَانِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾
٤٢٢ ، ٤٠٥	١٧ - ١٩	﴿ ... ﴾
٤٢٤ ، ٤٢٣		﴿ ... ﴾
٤٣٦ ، ٤٢٥		﴿ ... ﴾
		﴿ وَتَقَدَّ الطَّيْرُ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لِأَعَذَّبْنَاهُ عَذَابًا =

الآية	رقم الآية	الصفحة
= شَدِيدًا أَوْ لَا أَدْبَحْنَهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٦٦﴾	٢٠ - ٢١	٤٢٦
﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُوْنَ ﴾ ﴿٣٣﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ ﴿٣٣﴾	٣٢ - ٣٣	١٩٣
﴿ أَخْرَجُوا ءَالَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴾ ﴿٥٦﴾	٥٦	٢٨٨

سورة القصص

﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ ۖ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَوَكَّزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَاصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۖ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنِ ارَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ =

الآية	رقم الآية	الصفحة
-------	-----------	--------

= عَدُوَّهُمَا قَالَ يَمْوَسَىٰ أَتْرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي
 كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۗ إِنَّ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ
 تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ
 مِنَ الْمَصْلِحِينَ ﴿١٩﴾

١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٩ - ١٥

١٧٤ ، ١٧٥

١٧٦ ، ١٧٧

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ
 النَّاسِ يَسْكُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ
 تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى
 يُصَدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى
 لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا
 أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا
 تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ
 لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ
 عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ
 الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ
 اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ
 الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى
 ابْنَتِي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَابٍ
 فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ
 أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ
 الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا =

الآية	رقم الآية	الصفحة
-------	-----------	--------

= الْأَجَلِينَ قَضَيْتُ فَلَا عُدُونَ عَلَيَّ وَاللَّهُ

عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكَيْلٌ ﴿٣٨﴾

١٧٨ ، ١٧٩ ،

٢٣ - ٢٨

١٨٠ ، ١٨١ ،

١٨٢ ، ١٨٣ ،

١٨٤ ، ١٨٥ ،

١٨٦ ، ١٨٧ ،

١٨٨ ، ١٨٩ ،

٤٣٦

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ۚ
 ءَأَنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا
 إِنِّي ءَأَنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي ءَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ
 جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٣٨﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا
 نُودِيَ مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ
 الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا
 اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٩﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا
 رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدَبِّرًا لَمْ
 يَعْقِبْ يَمُوسَىٰ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ
 الْأَمِينِينَ ﴿٤٠﴾ أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرَّجَ
 بِيضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ
 الرَّهْبِ فَذَكَرْنَاكَ بِرَهْنَانٍ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
 وَمَلَائِهِ ؕ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ
 ﴿٤١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ
 يَقْتُلُونِ ﴿٤٢﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي =

الآية	رقم الآية	الصفحة
= لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون ﴿٣٤﴾	٢٩ - ٣٤	٨٨ ، ٨٧ ، ٦٠
﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصُرُونَ ﴾ ﴿٤١﴾	٤١	٦٦
﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾	٥٦	٢٧٠
﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ ﴿٦٦﴾	٦٦	٢٧
سورة العنكبوت		
﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ ﴾	١٤	٢٩٩ ، ٣٤٢ ، ٤٣٥
﴿ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَدَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴾ ﴿١٨﴾ ..	١٨	٣٢٣
﴿ فَتَأْمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ﴿٦٦﴾	٢٦	٢٨٥ ، ٧١
﴿ وَتَقَطُّعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾	٢٩	٢٨٦
﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّا أَهْلُهَا =		

الآية	رقم الآية	الصفحة
= كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾	٣١ - ٣٢	٩٦
سورة الروم		
﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فِطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾	٣٠	٢٩٢
سورة لقمان		
﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾	١٣	٢١٧
﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ ﴾	١٤	١٥٣ ، ١٥٢
﴿ وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾	١٥	١٥٤
﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾	١٨ - ١٩	٨٤ ، ٨٣
سورة السجدة		
﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بَائِتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾	٢٤	٦٦

الآية	رقم الآية	الصفحة
-------	-----------	--------

سورة الأحزاب

٣٥٢	٦	﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۗ ﴾ ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمَنْ تُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ ۗ ﴾ . ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾
٤١	٧	﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ ﴾
٢٠٨	٢١	﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ ﴾
٤٩	٣٦	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ۗ ﴾
٣٧٣ ، ٣٦٨	٣٩	
٢٤٠ ، ٨٨ ، ٢٤١	٦٩	

سورة سبأ

﴿ وَلسَلِّمْنَ الرِّيحَ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحِها شَهْرٌ
وَءَاسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ وَمِنَ الجِنَّ مَن يَعْمَلُ
بَيْنَ يَدَيْهِ يَأْذَنُ رَبُّهٗ وَمَن يَزِغْ مِنْهُم عَن ءَأْمْرِنَا
نُذِقْهُ مِّنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٣﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا
يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجِئَانٍ
كَالجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ ؕ اَعْمَلُوا =

الآية	رقم الآية	الصفحة
= ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشُّكُورِ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَاتِهِمْ فَلَمَّا خُرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ..	١٢ - ١٤	٢١٥ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٢
سورة فاطر		
﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ ﴿٨﴾	٨	٣٥٢
﴿ وَإِن يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾	٢٥	٢٩٥
سورة يس		
﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴾ ﴿١٧﴾	١٧	٢٩٧
﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ ﴿٤٦﴾	٤٦	٤٤٠
سورة الصافات		
﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾ ﴿٨٣﴾	٨٢	٦٩
﴿ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا بَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ ﴿١٠٢﴾ .	١٠٢	٥٠ ، ٥١

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ أَنْ يَأْبِرَ هَيْمٌ ﴿١٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَّاءَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾	١٠٤ - ١٠٥	٥٢
﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾	١٠٦	٥٢
﴿ وَفَدَيْنَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٧﴾ ﴾	١٠٧	٥٢
﴿ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾	١٢٢	٨٦
سورة ص		
﴿ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ ﴾	١	٣٠٧
﴿ أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَلَا تُكْرِهْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾	١٧	٣٧
﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾	٢٠	٩١ ، ٨٩
﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٢٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٢٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٢٧﴾ وَءَاخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٢٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣١﴾ ﴾	٣٤ - ٣٩	٤٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤٣٦

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ نَعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ﴿٤٤﴾	٤٤	٨٦
﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ ﴾	٤٥	٨٦ ، ٣٧
سورة الزمر		
﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا ﴾	٢٣	١٤٩ ، ١٤٨
﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ أِهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ ۖ فَمَنْ أَشْرَكَ كَفَرَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلِتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ﴿٦٥﴾	٤١	٣٥٢
٤٣٤	٦٥	
سورة غافر		
﴿ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴾ ﴿٣١﴾	٣٠ - ٣١	٢٧١
سورة فصلت		
﴿ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾	١٥	٢٧٨ ، ٢٧٢
﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾	١٧	٢٧٩
﴿ أَنْطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾	٢١	٤٢٠

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٣٤) وَمَا يُلقَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلقَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾	٣٤ - ٣٥	٣٥٦
سورة الشورى		
﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾	١٣	٤١ ، ٣٥
﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٨﴾	٣٧ - ٣٨	٢٠٠ ، ١٩٤
﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾	٤٠	١٤٣
﴿ وَلَمَنْ اتَّصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ (٤١)	٤١	١٤٢
﴿ الدُّكُورَ ﴾ (٤٩)	٤٩	٤٣٧

الآية	رقم الآية	الصفحة
-------	-----------	--------

سورة الأحقاف

﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ أَلَّا تَعْبُدُوا﴾	٢١	٣٠٤ ، ٣٤٣
﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾	٣٥	٢٩١ ، ٧٩ ، ٤١
﴿بَلِّغْ فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿٢٥﴾	٥٢	٢٩٦

سورة محمد

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطُّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ ﴿٣٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ ﴿٣٣﴾ .	٢٢ - ٢٣	١٠٢
--	---------	-----

سورة الفتح

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾	٢٩	٨٥
--	----	----

سورة الحجرات

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾	٥	٢٢٩
---	---	-----

سورة ق

﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾	٢	٣٠٦
﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ ﴿٤٥﴾	٤٥	٣٠٧

الآية	رقم الآية	الصفحة
-------	-----------	--------

سورة الذاريات

﴿ هَلْ أَتَكَ حَدِيثٌ ضَيَّفَ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ
 ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ
 مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ
 سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ

﴿٢٧﴾ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ،
 ٣٩٠

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا

فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ ٢٩٩ ٤٦

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ

﴿٥٦﴾ ٤٠٢ ، ٢٩٢ ٥٦

سورة النجم

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ

يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ٣٣٦ ٤ - ٣

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ

الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ ٣٨٤ ١٥ - ١٣

﴿ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴿٣٢﴾ ٤٠١ ٣٢

سورة القمر

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٣٢﴾ ٣٠٩ ٢٣

﴿ أَبَشْرًا مِّنَّا وَاحِدًا يَّتَّبَعُهُ إِنْآ إِذَا لَفِيَ ضَلَلٍ

وَسَعْرٍ ﴿٣٤﴾ ٣١٠ ، ٣٠٩ ٢٤

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ أَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشْرٌ ﴾ ﴿٣٥﴾	٢٥	٣١٣
﴿ وَلَقَدْ رَوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ ۖ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٧﴾ ﴾	٣٧	٣٩٤
سورة الرحمن		
﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾	١٤ - ١٥	٤٠٢ ، ٤٠٣
سورة الحديد		
﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾	١٦	١٤٩
﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾	٢١	٣٣٩
سورة المجادلة		
﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾	٢٢	٢٥٥
سورة الحشر		
﴿ فَآتَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾	٢	١٢١
﴿ وَمَا ءَاتَكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾	٧	٣٣٦

الآية	رقم الآية	الصفحة
-------	-----------	--------

سورة الصف

		﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ۖ يَاقَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ لِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ۗ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاجَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ ۖ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ ...
٢٤٤ ، ٢٤٢	٥	
٣٣٣	٨	

سورة التحريم

		﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ۗ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ۚ تَبَتَّغَى مَرَضَاتَ أَزْوَاجِكَ ۖ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ . ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ۗ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ۖ وَأَغْلظْ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَأَمْرَأَةَ لُوطٍ ۖ
١٥٧	١	
١٧٥	٤	
٣٨٥	٦	
٣٧٤	٩	
٢٥٦	١٠	

سورة الملك

		﴿ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ ۖ ...
٢١٨	٣	

الآية	رقم الآية	الصفحة
سورة القلم		
﴿ أَنْ أَغْدُوا عَلَى حَرِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَرْمِينَ ﴾ ﴿٢٢﴾	٢٢	٩٢
سورة نوح		
﴿ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴾ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٤﴾	٣ - ٤	٣٤١
﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ ﴿٥﴾	٥	٣٤٢
﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾	٧	٢٧١
﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ ﴿٩﴾	٨ - ٩	٣٤٢
﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيُنِينٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَرًا ﴾ ﴿١٢﴾	١٠ - ١٢	٣٤١
﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا ﴾ ﴿١٣﴾	٢٦	٢٠٤
سورة الجن		
﴿ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولًا مِنْ رَبِّهِمْ ﴾	٢٨	٣٣٧

الآية	رقم الآية	الصفحة
سورة المدثر		
﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكْبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمُنْ بِتَسْكَرٍ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ ﴾	٧ - ١	٥
﴿ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِأَيْتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأَرْهُقُهُ صُعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَكُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصَلِّيه سَقَرًا ﴿٢٦﴾ ﴾	٢٦ - ١٦	٣٣٤
سورة الإنسان		
﴿ قَوَائِرًا ﴿٥﴾ قَوَائِرًا ﴾	١٦ - ١٥	٢٣٥
سورة النازعات		
﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَزْكَى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿١٩﴾ ﴾	١٩ - ١٧	٣٦١
سورة عبس		
﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿٦﴾ ﴾	١٦ - ١٥	٣٨٤
سورة التكويد		
﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٣٢﴾ ﴾	٢٣	٣٨٤
﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾	٢٤	٣٣٧

الآية	رقم الآية	الصفحة
-------	-----------	--------

سورة الفجر

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرْمَ
ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ

..... ﴿٨﴾

٢٧٢ ، ٢٧٨

٦ - ٨

سورة الليل

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ
بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيْرُهُ لِيْسْرَى ﴿٧﴾ ...

٢٢٦

٥ - ٧

سورة القارعة

﴿ وَتَكُوْنُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾

٩٢

٥

سورة المسد

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾

٣٣٢

١



فهرس الأحاديث النبوية

الصفحة	الحديث
	حرف الألف
٢٠٥	أبكي للذي عَرَضَ عليَّ أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عَرَضَ عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة ، وأنزل الله
٤٢٨	اتقوا الله في هذه البهائم ، فاركبوها سالحة ، وكلوها سالحة
٢٦٤	أحبوا أهل بيتي لحي
٤٣	اختر إما عبداً رسولاً وإما نبياً ملكاً
٤٠٧	إذا حدثكم بنو إسرائيل فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم
	إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله ،
٣٨٥	كالسلسلة على صفوان
	أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في
٢٦٤	أهل بيتي
	أذني حتى أصلي عليه ، فأذنه ، فلما أراد أن يصلي عليه جذبه عمر بن
٢٤٥	الخطاب وقال : أليس قد نمك الله أن تصلي على المنافقين ؟
١٤٣	اذهبوا فأنتم الطلقاء
	أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى
٢٦٧	قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم
	اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فيصير من
٢٢٦	أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء فيصير لعلم أهل الشقاء
	أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها ، فإنه شكا إلي أنك
٤٢٨	تجيعه وتدئبه
	أكرمهم أتقاهم . قالوا : يا نبي الله ليس عن هذا نسألك ، قال : فأكرم
١٢٧	الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله

الصفحة	الحديث
٣٦٥	ألا أخبركم بمن يحرم على النار ، أو قال : بمن تحرم عليه النار ؟ تحرم على كل قريب هين سهل
٣٣٦	ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه
٣٣٣	ألا رجل يحملني إلى قومه ، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي
٢٣٩	الله أكبر ، قلتُم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى : ﴿ أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ ، لتركن سنن من قبلكم
٣٥٠	اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون
١٥٦	اللهم إنه كان لي أبوان شيخان كبيران ، وكنت لا أعقب قبلهما أهلاً ولا مالاً ، فنأى بي طلب الشجر يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما
٧٦	اللهم بارك لنا في ثمرنا ، وبارك لنا في مدينتنا ، وبارك لنا في صاعنا ، وبارك لنا في مدنا
٣٦٤	اللهم من ولي من أمي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولي من أمر أمي شيئاً فرفق بهم فارفق به
٧٦	إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها ، وحرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة ودعوت لها في مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم - <small>عليه السلام</small> - لمكة
١٤٩	إن أصحاب رسول الله - <small>ﷺ</small> - قالوا له : هلا حدثنا ، فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا ﴾
١٤٧	إن أصحاب رسول الله - <small>ﷺ</small> - ملوا ملة - أي : اعتراهم الملل في يوم من الأيام - فقالوا للرسول - <small>ﷺ</small> - : حدثنا ، فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا ﴾
٣٨٦	أن الرسول - <small>ﷺ</small> - كان مضطجعاً في بيتها ، وكان كاشفاً عن فخذه أو ساقيه ، فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال فتحدث
١٥٨	أن رسول الله - <small>ﷺ</small> - أصاب أم إبراهيم مارية في بيت بعض نسائه

الصفحة	الحديث
٤٠٤	أن رسول الله - ﷺ - جاءه الشيطان ليقطع عليه الصلاة ، فأخذه وخنقه ، حتى هم أن يربطه إلى أحد سوارى المسجد ليلعب به ولدان المدينة
٢٠٩	إن رسول الله - ﷺ - كان يتحولنا بالموعظة مخافة السامة علينا
٣٦٥	إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه
٣٦٤	إن شر الرعاة الحطمة
٢٢٥	إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه ، فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخطبة ، وإن من البيان لسحراً
١٨٢	إن الله حيي كريم يستحي إذا رفع العبد يديه أن يردهما صفراً خائبين
٣٧٤	إن من أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر
١٦٦ ، ١٦٢	إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل ، فسئل أي الناس أعلم ؟ فقال : أنا ، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه
٢٤١	إن موسى كان رجلاً حياً ستيراً لا يرى من جلده شيء ، فأذاه من آذاه من بني إسرائيل ، وقالوا : ما يستتر إلا من عيب بجلده
٢٢٧	أن النبي - ﷺ - أتى النساء ومعه بلال فوعظهن وذكرهن وأمرهن بالصدقة قال : فرأيتهن يهوين بأيديهن يقذفنه في ثوب بلال
٢٨٠ ، ٢٧٣	الأنبياء أبناء علات
٣١٧	انتدب لها رجل ذو عز ومنعة في قومه كأبي زمعة
٢٦٢	إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء
٣٥٣	إنما أنا لكم بمنزلة الوالد
٤٢٨	إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار
٦٥	إنه يحشر زيد بن عمر بن نفيل أمة وحده
٣٦٣	إني لم أبعث لعاناً ، إنما بعثت رحمة

الصفحة	الحديث
--------	--------

٤٢٨	إياكم أن تتخذوا دوابكم منابر ، فإن الله إنما سخرها لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس
٢٢٥	أيها الناس إنكم لن تطيقوا أو قال : لن تفعلوا كل ما أمرتم به ، ولكن سدوا وقاربوا وأبشروا وبشروا

حرف الباء

٤٢٩	بئس ما جزيتها إن حملك الله عليها ونجأك بها ثم تنحرينها؟! إنه لا نذر في معصية الله ، ولا فيما تملكين
٣٣٤	بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبد الله رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى
٣٥٠ ، ٣٦٣ ، ٣٧٩	بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً
٣٣٦	بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار
٤١٩	بينما رجل راكب على بقرة التفتت إليه فقالت : لم أُخْلَقْ لهذا ، خُلِقْتُ للحراثة

حرف التاء

٤٠٧	تحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج
١٥٠ ، ٣٥٣	تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما : كتاب الله وسنتي

حرف الخاء

٣٨٣ ، ٤٠٤	خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم
١٥٩	خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي

الصفحة	الحديث
--------	--------

حرف الراء

٣٩٩ ثروة من قومه
١٤١ رفع عن أمي الخطأ والنسيان

حرف السين

١٥٣ سألت النبي - ﷺ - أي العمل أحب إلى الله تعالى قال : الصلاة على وقتها . قلت : ثم أيّ ؟ قال : بر الوالدين . قلت : ثم أيّ ؟ قال : الجهاد في سبيل الله .
١٨٩ سألت جبريل : أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : أكملهما وأتمهما ، وفي رواية : أبرهما وأوفاهما .

حرف العين

٣٦٥ عليك بالرفق ، فإن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه
٣٥٣ عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة .
٤٠٤ عمار لقي الشيطان عند البئر فقاتله ، فما عدا أن رجعت فأخبرته فقال : ذاك الشيطان .

حرف الفاء

٢٠ فإن خُلق نبي الله - ﷺ - كان القرآن
١٥٣ فهل من والديك أحد حي ؟ قال : نعم ، بل كلاهما ، قال : فتبغي الأجر من الله تعالى قال : نعم : قال : فارجع إلى والديك فأحسن صحبتتهما .
٢٦٦ فيأتون نوحًا فيقولون : يا نوح ، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وسماك الله عبدًا شكورًا ، أما ترى إلى ما نحن فيه .

الصفحة	الحديث
--------	--------

حرف الكاف

٢٦٦	كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام
	كان رسول الله - ﷺ - لا يطيل الموعظة يوم الجمعة ، إنما هي كلمات
٢٢٤	يسيرات
٢٠٩	كان رسول الله - ﷺ - يتحولنا بالموعظة
	كان رسول الله - ﷺ - يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ، وبمكث
١٥٧	عندها
	كان رسول الله - ﷺ - يعوذ الحسن والحسين ، ويقول : إن أباكما
٧٦	كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق
٣٦٥	كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته
٢٢٤	كنت أصلي مع النبي - ﷺ - فكانت صلاته قصداً ، وخطبته قصداً . .

حرف اللام

٣١٩	لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا ، إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما
	أصابهم ، ثم تقنع بردائه وهو على الرحال
٣٧٥	لا تسألني باللات والعزى ، فوالله ما أبغضت شيئاً بغضهما
	لا تسألوا الآيات ، فقد سأها قوم صالح ، فكانت - يعني الناقة - ترد من
٣١٨	هذا الفج وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم ، فعقروها
٣٤٧	لا تسألوا الآيات ، فقد سأها قوم صالح فكانت
	﴿ لَا ذُلُولٌ ﴾ لم يذها العمل ، ﴿ تُثِيرُ الْأَرْضَ ﴾ : ليست بذلول تثير
٤١٨	الأرض ولا تعمل في الحرث
٢٦٢	لأستغفرن لك ما لم أنه عنك
٣٦٣	لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه
١٦٦	لم يجد موسى شيئاً من التعب حتى جاوز المكان الذي أمر به
٥٥	ليس الخبر كالمعاينة

الصفحة	الحديث
--------	--------

حرف الميم

- ٢٠٤ ما تقولون في هؤلاء الأسرى ؟
- ٢١٦ ما عظمت نعمة الله تعالى على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه ، فمن
تھاون عرض تلك النعمة للزوال
- ٣٨٤ مثل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له مع السفارة الكرام ، ومثل الذي يقرأ
القرآن ويتعاهده ، وهو عليه شديد فله أجران
- ١٥٧ من أحق الناس بحسن صحبتي ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك
قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك
- ٤٢٨ من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها إليها
- ٣٦٥ من يحرم الرفق يحرم الخير

حرف النون

- نعم ، الصلاة عليهما - يعني الدعاء لهما - ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ
عهدهما - أي وصيتهما من بعدهما - ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا
بهما ، وإكرام صديقيهما
- ١٥٤ نعم صلي أمك

حرف الهاء

- هذا جبل يحبنا ونحبه ، اللهم إن إبراهيم حرم مكة ، وإني أحرم ما بين
لابتيها
- ٧٧
- ١٥٩ هذه بتلك
- ١٥٤ هل بقي من والدك أحد ؟ قال : نعم ، أمي ، قال : قابل الله في برها
فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتزم ومجاهد

حرف الواو

- وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلّغت ،
وأديت ، ونصحت
- ٣٣٨

الصفحة	الحديث
--------	--------

وما تواضع أحد لله إلا رفعه ٨٥

حرف الياء

يا بني فهر ، يا بني عدي . . . لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل	
إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو	٣٧٦ ، ٣٣٢
يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني هاشم : أنقذوا	
أنفسكم من النار ، يا بني عبد المطلب : أنقذوا أنفسكم من النار	٢٦٣
يا عم : قل لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله	٢٦٢
يا معشر قريش : اشترُوا أنفسكم ، لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني	
عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً	٣٥٠
يرحم الله لوطاً ، لقد كان يأوي إلى ركن شديد	٣٩٨
يرحم الله موسى ، قد أوذى بأكثر من هذا فصير	٢١١
يرحم الله موسى ، لو كان صبر يقص الله علينا من أمرهما	١٧٢
يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا	٣٦٤
اليوم يوم الرحمة	٢٦٣



٢- فهرس الآثار

الآثار	الصفحة
--------	--------

حرف الألف

أربعة لا أقدر على مكافأهم : رجل بدأي بالسلام ، ورجل وسع لي في	
المجلس ، ورجل اغبرت قدماه في المشي في حاجتي	٢٢
أمر رسول الله - ﷺ - أن يقتدي بهداهم ، وكان يسجد في ص . . .	٧٩
أمر نبيكم أن يقتدي بداود - عليهما السلام -	٧٩
إن النبي - ﷺ - قد كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي وإلى	
كل جبار عنيد يدعوهم إلى الله - ﷻ -	٣٣٥
أن رجلين دخلا على داود ، أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب	
غنم ، فقال صاحب الحرث : إن هذا أرسل غنمه في حرثي فلم يبق من	
حرثي شيئاً	٩٤
إن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلاً وركاباً	٢٧٢
إن هذا كان صديقاً لعمر ، وإني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : إن	
من أبر البر صلة الرجل أهل وُدّ أبيه	١٥٥
إنك لتصل الرحم	٢٦٢
إياك وإملاال الناس وتقنيطهم	٢١٠
أيها الناس لا تبعضوا الله إلى عباده ، فقيل : كيف ذاك أصلحك الله ؟	
قال : يجلس أحدكم قاصاً فيطوّل على الناس حتى يبغض إليهم ما هم	
فيه	٢١٠

حرف الباء

بوانة : صنم تحضره قريش وتعظمه وتنسك له النساءك ، ويحلقون	
رؤوسهم عنده يوماً إلى الليل ، وذلك يوماً في السنة	٣٧٥

الأثر	الصفحة
-------	--------

حرف الحاء

- حدّث الناس كل جمعة مرةً ، فإن أكثرت فمرتين ، فإن أكثرت فثلاثاً
ولا تمل الناس من هذا القرآن ٢١٠
- حدّث الناس ما أقبلت عليك قلوبهم إذا حدّقوك بأبصارهم ، وإذا
انصرفت عنك قلوبهم فلا تحدّثهم ، وذلك إذا اتكأ بعضهم على بعض . ٢١٠

حرف السين

- سابقني رسول الله فسبقته ، وذلك قبل أن أحمل اللحم ، ثم سابقته
بعدهما حملت اللحم فسبقني فقال : هذه بتلك ١٥٩

حرف الصاد

- الصبر نصف الإيمان ٢٢٨

حرف الفاء

- فجاءته إحداهما تمشي على استحياء ، واضعة ثوبها على وجهها ليست
بسلفع من النساء حرّاجة ولأجة ، فقالت : إن أبي يدعوك ليجزيك أجر
ما سقيت لنا ١٨٣

حرف القاف

- قام النبي - ﷺ - يوم الفطر فصلى فبدأ بالصلاة ثم خطب ، فلما فرغ
نزل فأتى النساء فذكرهن وهو يتوكأ على بلال ، وبلال باسط ثوبه
يلقي فيه النساء الصدقة ٢٢٦

حرف الكاف

- كان النبي - ﷺ - يتحولنا بالموعظة كراهة السامة علينا ٢٢٦ ، ٢٠٩
- كان رسول الله - ﷺ - أحسن الناس ، وأجود الناس ، وأشجع الناس
كان سليمان ابن داود يوضع له ستمائة كرسي ، ثم يجيء أشرف
الإنس فيجلسون مما يليه ٤٠٦
- كل الرسل أولو عزم ٨٠

الصفحة	الأثر
٤٣٩	كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق
٣٧٧	كنا إذا أحمرَّ البأس ، ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله - ﷺ - فما يكون من أحد أدنى من القوم منه
حرف اللام	
١٢٤	لفي خطئك
حرف الميم	
٢٠٠	ما رأيت أحداً قط أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله - ﷺ - . . .
٢٢	ما رأيت رجلاً لي عنده معروف إلا أضاء ما بيني وبينه
٣٧٨	ما ضرب رسول الله - ﷺ - شيئاً قط بيده ، ولا امرأة ولا خادماً ، إلا أن يجاهد في سبيل الله
حرف الواو	
٢٧٢	وكانوا مع ذلك قد مشوا في الأرض كلها ، وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله



٤. فهرس الأعلام

العلم	الصفحة
حرف الألف	
أحمد بن حنبل	٣١
الأصمعي	٧٠
الألوسي	٤٧ ، ٥٠ ، ٧٠ ، ٧٧ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٧ ،
	٩٨ ، ١١٢ ، ١٤٤ ، ٤٠٣ ، ٤١٥ ،
	٤١٦ ، ٤٢٦
حرف الباء	
البخاري	٢١ ، ١٦١ ، ٢٢٦ ، ٣٠٠ ، ٣١٩ ،
	٣٣٤ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ،
البعوي	٣٣ ، ١٣٠ ،
أبو البقاء الكفوي	٢٧
حرف التاء	
ابن تيمية	٢٦ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ١٩٥ ، ٣٦٢ ،
حرف الجيم	
الجاحظ	٣٦٦ ، ٤١١ ،
الجرجاني	٢٩
الجوهري	٢٣
حرف الحاء	
الحسن البصري	١٧ ، ١٨٤ ، ٢٤١ ، ٢٤٧ ،
الحكم بن حزن الكلفي	٢٢٥
حميد الطويل	٢٧٢
أبو حيان	٢٢١ ، ٢٨٤ ، ٣١٦ ،

العلم	الصفحة
-------	--------

حرف الخاء

الخازن ٧١

الخليل بن أحمد الفراهيدي ٢٣

حرف الراء

الرازي ٣٣ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ١٠٤ ، ١١٧ ، ١٤٠ ،

١٤٣ ، ١٧٠ ، ٢٤٠ ، ٢٧٨ ، ٤٠٧ ،

٤٠٨ ، ٤٠٩ ،

الراغب الأصفهاني ٢٦ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٧٢ ، ٨٢ ، ٩٠ ، ٩١ ،

٩٥ ، ١٠٠ ، ١٢٣ ، ١٤١ ، ١٨١ ،

١٨٢ ، ٣١٣ ، ٣٦٧ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ،

٤٢٠ ، ٤٢٢ ،

رويم بن أحمد البغدادي ١٨

حرف الزاء

الزمنشيري ٥٢ ، ١٧٥ ، ١٨٨ ، ٢١٨ ، ٢٥٨ ،

٢٥٩ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ ،

٣٠٨ ، ٣٢٥ ، ٣٨٩ ، ٤١٦ ، ٤٢٤ ،

حرف السين

السعدي ١٠٩ ، ١٤٧ ،

سعيد بن جبير ١٦١

السفاري ٣٤

ابن السكيت ٢٤

السمين الحلبي ١٢٠ ، ٣١٤ ،

سيد قطب ٤٥ ، ٥٩ ، ٩٦ ، ١٠٧ ، ١١٤ ،

السير (وليام موير) ٤٤٣

العلم	الصفحة
-------	--------

حرف الشين

شقيق بن سلمة = أبو وائل ٢٠٩ ، ٢٢٥

الشوكاني ٦٩ ، ١٨٧

حرف الصاد

الصاغاني ٢٥ ، ٢١٧

حرف الطاء

الطبري = ابن جرير ٦٣ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٠ ، ٩٣ ،

١٠٣ ، ١١٥ ، ١٥٧ ، ٢٢١ ، ٢٣٥ ،

٢٧٢ ، ٢٧٦

حرف العين

ابن عاشور ٥٧ ، ٧٨ ، ٩٤ ، ١٥٠ ، ٢٣٣ ، ٢٤٦ ،

٣٢٧

عبد الله بن المبارك = ابن المبارك ١٨

عبد الملك بن مروان ٢١

حرف الفاء

ابن فارس ١٥ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٧٢ ، ٣١٣ ، ٣٦٦ ، ٣٨٩

الفيروز آبادي ١٥ ، ٢٤ ، ٢٥

الفيومي ٢٤

حرف القاف

قتادة ٦٥ ، ٩٠ ، ١٢٤ ، ٤٠٣

القرطبي ٣٠ ، ٣٣ ، ٧٤ ، ١٥٨ ، ١٦٥ ، ١٧٤ ،

١٧٥ ، ٢٣٨ ، ٣٢٦ ، ٣٩٠ ، ٤١٠

القطب الرازي ٧٨

ابن القيم ٧٥ ، ٢٠٥ ، ٢٢٩

العلم	الصفحة
-------	--------

حرف الكاف

ابن كثير	٤٦ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٧ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٠ ،
	١٠٤ ، ١٠٦ ، ١١١ ، ١٥٨ ، ١٦٩ ،
	٢٣٥ ، ٢٦٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ،
	٣٠٢ ، ٣١٠ ، ٣٤٥ ، ٣٦٠ ، ٣٩٠ ،
	٣٩٢ ، ٣٩٨ ، ٤٠٧ ، ٤١٠ ، ٤٢١ ،
	٤٢٢

الكسائي	٢٥
-------------------	----

حرف الميم

الماوردي	٢٤٨
المبرد	٣١٨
متمم بن نويرة	١١٨
مجاهد	٦٥ ، ٧٠ ، ٧٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ١٠٦ ،
	٣٩٥ ، ٤٠٩ ، ٤٢٢ ،

المرتضى الزبيدي	١٥
---------------------------	----

ابن منظور	٢٣ ، ٢٨
---------------------	---------

حرف النون

النوي	١٥٨ ، ١٧١ ، ٣٩٩
-----------------	-----------------

حرف الهاء

ابن الهمام	٣٠
----------------------	----

حرف الواو

الواحدي	٢٠٣ ، ٢٤٥
-------------------	-----------



فهرس الكلمات المشروحة

الصفحة	الكلمة
حرف الألف	
٤١١	أحاشي
٤١١	أحددها
٥	الأردان
٧	إطار
٢٠٣	أطن
٨٢	أفناء
حرف الباء	
٢٦٣	بلاها
حرف التاء	
٢٩٣	تتري
٤١١	تدمر
٤٢٨	تفرش
حرف الحاء	
٣٧٧	حرب الفجار
٤٢٤	الحكل
٤٢٨	حمرّة
حرف الخاء	
٤١١	خيس
حرف الذال	
٤٢٨	ذفراه

الصفحة	الكلمة
	حرف الراء
٣٧٣	ريون
	حرف السين
١٨٣	سلفع
	حرف الصاد
٤١١	الصفاح
	حرف العين
٤١١	العمد
	حرف الغين
٢٢٦	الغرقد
	حرف الفاء
٤١١	الفند
٤٠٤	الفهر
	حرف القاف
٢٣٩	القذة
	حرف اللام
٢٠٦	لامته
	حرف الميم
٢٢٦	المحصرة
	حرف النون
٤١٣	النورة
	حرف الواو
١٩٢	وقبته



٦- فهرس الأماكن والبلدان

الصفحة	المكان / البلد
حرف الألف	
٣٥٠	الأخشبان
حرف الباء	
٢٠٧	بعاث
حرف الجيم	
٢٠٧	الجرف
حرف السين	
٢٠٧	سلع



٧- فهرس الأبيات الشعرية

الصفحة	الشطر الثاني	الشطر الأول
	قافية الهمزة	
٤٤٦	والفضل ما شهدت به الأعداء	شهد الأنام بفضله حتى العدا
	قافية التاء	
٤٥٥	رب الفصاحة مصطفى الكلمات بطل حليف النصر في القارات وبسيفه انحى على الهامات من سابق أو لاحق أو آت	نعم المدبر والحكيم وأنه رجل الحجا رجل السياسة والدهى ببلاغة القرآن قد خلب النهى من دونه الأبطال في كل الورى
	قافية الدال	
٤١١	ولا أحاشي من الأقوام من أحد قم في البرية فاحدها عن الفند ينون تدمر بالصُّفَّاح والعمد	ولا أرى فاعلاً في الناس يشبهه إلا سليمان إذ قال الإله له وخيس الجنّ أني قد أذنت لهم وشهدت أنجية الأفاقة عالياً
١١٦	كعبي وأرداف الملوك شهود	
	قافية الراء	
١٩٨	والناس شرهم ما دونه وزر وما ترى بشراً لم يؤذه بشر!	شر السباع الضواري دونه وزر كم معشر سلموا لم يأذهم سبع
	قافية العين	
١١٨	ولكن نكاء القرع بالقرح أوجع	فلم تنسني أو في المصيبات بعده
	قافية الكاف	
١١٨	رفيقي لتذراف الدموع السوافك لقبر ثوى بين اللوى والدكادك فدعني فهذا كله قبر مالك	وقد لامني عند القبور على البكا فقال أتبكي كل قبر رأيتيه فقلت له : إن الأسى يبعث الأسى
	قافية اللام	
٢٠٩	سقاط حديد القين أخول أخولا	يساقط عنه روقه ضارياهما

الصفحة	الشطر الثاني	الشطر الأول
--------	--------------	-------------

قافية الميم

٣٥٧	فليقس أحياناً على من يرحم	فقسى ليزدجروا ومن يك حازماً
٤٤٨	حد فيعرب عنه ناطق بفم	فإن فضل رسول الله ليس له

قافية النون

٢١٤	سَمِعْنَا فِي مَجَالِسِنَا الْأَذِينَا	فَلَمْ نَشْعُرْ بِضَوْسِ الصُّبْحِ حَتَّى
-----	--	---

قافية الهاء

٣٦٠	فكيف بمن يتولاه ويناديه	يا من يتحبب إلى من يعاديه
-----	-------------------------	---------------------------

قافية الياء

١٢٠	يظنان كل الظن ألا تلاقيا	وقد يجمع الله الشتيتين بعدما
-----	--------------------------	------------------------------



٨ فهرس المصادر والمراجع

حرف الألف

- إتخاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ، للسيد محمد بن محمد الحسيني الزبيدي ، دار الفكر .
- إحياء علوم الدين ، لحجة الإسلام محمد بن محمد الغزالي (ت : ٥٠٥هـ) ، دار الكتب العلمية ، ودار المعرفة ، بيروت ، لبنان .
- الأخلاق الإسلامية وأسسها ، لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، دار القلم ، دمشق ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٧هـ .
- أخلاق النبي - ﷺ - في القرآن والسنة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤١٩هـ .
- الآداب الشرعية والمنح المرعية ، لأبي عبد الله محمد بن مفلح المقدسي ، دار ابن تيمية للطباعة والنشر ، القاهرة .
- أدب الدنيا والدين ، لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي (ت : ٤٥٠هـ) ، تحقيق : مصطفى السقا ، دار الفكر العربي .
- إرشاد الساري شرح صحيح البخاري ، لأبي العباس أحمد بن محمد القسطلاني (ت : ٩٢٣هـ) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .
- أسباب النزول ، للواحدي ، عالم الكتب ، بيروت .
- أسد الغابة في معرفة الصحابة ، لأبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- الإسلام والرسول في نظر منصفى الشرق والغرب ، لأحمد بن حجر آل بوطامي ،

الطبعة الثالثة ، ١٤٠٣هـ .

- الإصباح على المصباح في معرفة الملك الفتاح ، لإبراهيم بن محمد المؤيدي (ت : ١٠٨٣هـ) ، تحقيق : عبد الرحمن شاييم ، مؤسسة الإمام زايد ، صنعاء ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٠م .
- الأصل العربي للحضارات ، لوائل أحمد عبد القادر ، مكتبة الحرمين للعلوم النافعة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٨م .
- أصول التفسير ومناهجه ، للدكتور فهد بن عبد الرحمن الرومي ، الطبعة السابعة ، ١٤٢٤هـ .
- أصول الدعوة ، للدكتور عبد الكريم زيدان ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٧هـ .
- أصول الدين ، لعبد القاهر بن طاهر البغدادي (ت : ٤٢٩هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .
- أصول الدين الإسلامي ، لقحطان عبد الرحمن الدوري ورشدي عليان ، دار الفكر ، عمان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي ، إشراف بكر أبو زيد ، مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي بجدة ، نشر وتوزيع : دار العالم الفوائد للنشر والتوزيع ، مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٦هـ .
- أعلام النبوة ، للإمام أبي الحسن علي بن محمد الماوردي (ت : ٤٥٠هـ) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ .
- الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، لخير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، الطبعة السادسة عشرة ،

. ٢٠٠٥ م .

- أنبياء في القرآن تركوا آثاراً ، للدكتورة هدى حسن الطويل ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ١٤٢٧ هـ .
- أنوار التنزيل ، للبيضاوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، طبعة : ١٤٠٨ هـ ، وطبعة دار إحياء التراث ، تقديم : محمد المرعشلي ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨ هـ .

حرف الباء

- البحر المحيط وبهامشه النهر الماد من البحر وكتاب الدر اللقيط من البحر المحيط ، لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي (ت : ٧٥٤ هـ) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٤١١ هـ .
- البداية والنهاية ، لعقاد الدين إسماعيل بن كثير (ت : ٧٧٤ هـ) ، مطبعة السعادة ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٥١ هـ .
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، لمحمد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت : ٨١٧ هـ) ، تحقيق : محمد علي النجار ، المكتبة العلمية ، بيروت .
- بطل الأبطال ، لعبد الرحمن عزام ، الطبعة الثانية .
- بين الفلاسفة والمتكلمين ، لمحمد عبده ، تحقيق وتقديم : سليمان دنيا ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه .

حرف التاء

- تاج العروس من جواهر القاموس ، لمحمد الحسين المرتضى الزبيدي (ت : ١٢٠٥ هـ) ، مطبعة حكومة الكويت ، الكويت ، ١٩٦٦ م .
- تاريخ الخميس في أحوال أنفس نقيس ، لحسين بن محمد بن الحسن الديار بكري

(ت : ٩٦٦ هـ) .

- تاريخ بغداد ، لأحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي (ت : ٤٦٣ هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
- التحرير والتنوير ، لمحمد الطاهر بن عاشور ، دار سحنون للنشر والتوزيع ، تونس .
- تحفة المرید شرح جوهرة التوحيد ، لإبراهيم بن محمد بن أحمد البيجوري (ت : ١٢٧٧ هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م .
- تذكرة الحفاظ ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت : ٧٤٨ هـ) ، دار إحياء التراث العربي .
- التعريفات ، لعلي بن محمد بن علي الجرجاني (ت : ٨١٦ هـ) ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٧١ م .
- التفسير الوسيط ، لشيخ الأزهر د . سيد طنطاوي ، دار السعادة ، ١٤٢٤ هـ
- تفسير الجلالين ، لجلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي ، اعتنى به : أبو صهيب الكرمي ، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع ، الرياض ، ١٤١٩ هـ .
- تفسير القرآن العظيم ، لابن أبي حاتم (ت : ٣٢٧ هـ) ، تحقيق : أسعد محمد الطيب ، مكتبة نزار الباز ، مكة المكرمة ، الطبعة الثالثة ، ١٤٢٤ هـ .
- تفسير القرآن العظيم ، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير (ت : ٧٧٤ هـ) ، تحقيق : سامي السلامة ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، الرياض ، الطبعة الثالثة ، ١٤٢٦ هـ .
- التفسير الكبير ، للإمام الفخر الرازي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان ، الطبعة الرابعة ، ١٤٢٢ هـ .
- تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل ، لمحمود بن عمر الزمخشري (ت : ٥٣٨ هـ) ، دار المصحف ، القاهرة .

- تفسير المنار ، محمد رشيد رضا ، دار المعرفة للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية بالأوفست .
- تقريب التهذيب للحافظ ابن حجر العسقلاني (ت : ٨٥٢هـ) ، تحقيق : الدكتور بشار عواد ، والشيخ شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ .
- تهذيب الأخلاق ، لأبي عثمان عمر بن بحر الجاحظ ، دار الصحابة للتراث ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ .
- تهذيب الكمال ، لجمال الدين أبي الحجاج يوسف المزي (ت : ٦٥٤هـ) ، تحقيق : الدكتور بشار عواد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢هـ .
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، للشيخ عبد الرحمن السعدي ، تحقيق : عبد الرحمن اللويحق ، دار الرسالة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ .

حرف الجيم

- جامع البيان في تأويل آي القرآن ، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت : ٣١٠هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٤١٨هـ .
- الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت : ٢٧٩هـ) ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
- جامع بيان العلم وفضله ، لبي عمر يوسف بن عبد البر (ت : ٤٦٣هـ) ، تحقيق : أبي الأشبال الزهيري ، دار ابن الجوزي ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الخامسة ، ١٤٢٢هـ .
- الجامع لأحكام القرآن الكريم ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ،

تحقيق : عبد الرزاق المهدي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الخامسة ، ١٤٢٣هـ .

- جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام ، لابن القيم محمد بن أبي بكر ابن أيوب بن سعد الزرعي (ت : ٧٥١هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

حرف الحاء

- الحبائك في أخبار الملائك ، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت : ٩١١هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ .

- الحسبة في الإسلام ، لشيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن تيمية ، مطبعة المؤيد ، القاهرة ، الطبعة الأولى .

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، لأحمد بن عبد الله أبو نعيم الأصبهاني (ت : ٤٣٠هـ) ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٣٢م .

حرف الخاء

- الخالدون مائة أعظمهم محمد - ﷺ - ، لمايكل هارت ، ترجمة : أنيس منصور ، الزهراء للإعلام العربي ، الطبعة السابعة ، ١٩٨٦م .

- الخلق الكامل ، لأحمد محمد جاد المولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

- دائرة المعارف الإسلامية ، لفرنسك ، تعريب : الشنتاوي وآخرين ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، الطبعة الأولى .

حرف الدال

- الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، لجلال الدين السيوطي (ت : ٩١١هـ) ، تخريج : نجدت حبيب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ،

١٤٢١هـ .

- درء تعارض العقل والنقل ، لأحمد بن عبد الحلیم بن تیمیة (ت : ٧٢٨هـ —) ، تحقيق : محمد رشاد سالم ، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .
- دستور الأخلاق في القرآن ، للدكتور محمد عبد الله دراز ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٢هـ .
- الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها ، للدكتور أحمد ملوش ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٧هـ .
- الدعوة التامة ، للشيخ أبو علوي الحداد .
- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ، لأحمد بن الحسين البيهقي ، تحقيق : الدكتور عبد المعطي القلعجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ .
- ديوان النابغة الذبياني ، لحنا نصر ، دار الكتب العلمية ، طبعة ١٤١١هـ .
- ديوان عنتر بن شداد ، دار المكتبة العصرية .

حرف الذال

- الذريعة إلى مكارم الشريعة ، لأبي القاسم الحسين بن محمد بن المفصل المعروف بالراغب الأصفهاني (ت : ٥٠٢هـ) ، تحقيق : الدكتور أبو اليزيد العجمي ، دار السلام ، القاهرة ، الطبعة الأولى .
- ذيل نزهة الحفاظ ، لمحمد الأصبهاني المدني (ت : ٥٨١هـ) ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٠٦هـ .

حرف الراء

- الرسالة المحمدية ، للسيد سليمان الندوي ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠١هـ .
- الرسل والرسالات ، للدكتور عمر سليمان الأشقر ، دار النفائس للنشر والتوزيع ، الأردن ، الطبعة الرابعة عشرة ، ١٤٢٧هـ .
- الرسول القائد - ﷺ - ، للواء الركن محمد شيث خطاب ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، ١٣٩٤هـ .
- الرسول في كتابات المستشرقين ، لنذير حمدان ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٦هـ .
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، لشهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي (ت : ١٢٧٠هـ) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ .
- الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ، لأبي القاسم عبد الرحمن الخثعمي السهيلي (ت : ٥٨١هـ) ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٩٨هـ .
- روضة المحبين ونزهة المشتاقين ، لشمس الدين ابن قيم الجوزية ، مطبعة الفجالة الجديدة ، القاهرة .
- روضة المشتاقين في فضائل الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وشيء من أخبارهم ، لأبي عبد الله محمد العفيفي ، الفاروق الحديثية ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢هـ .

حرف الزاء

- زاد المعاد في هدي خير العباد ، لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية (ت : ٧٥١هـ) ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثالثة ، ١٤٢٣هـ .

حرف السين

- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها ، محمد ناصر الدين الألباني ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ١٩٩١ م .
- السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين ، لمحّب الدين أحمد بن عبد الله الطبري (ت : ٦٩٤هـ) ، دار الحديث .
- سنن أبي داود ، للإمام سليمان بن الأشعث السجستاني (ت : ٢٧٣هـ) ، مراجعة : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر للطباعة والنشر .
- سنن ابن ماجه ، لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني الشهير بابن ماجه (ت : ٢٧٣هـ) ، تعليق العلامة الألباني ، مكتبة المعارف ، الرياض ، الطبعة الأولى .
- سنن النسائي ، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي (ت : ٣٠٣هـ) ، تعليق العلامة الألباني ، مكتبة المعارف ، الرياض ، الطبعة الأولى .
- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن تيمية (ت : ٧٢٨هـ) ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ .
- سير أعلام النبلاء ، لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت : ٧٤٨هـ) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الحادية عشرة ، ١٤٢٢هـ .
- السيرة النبوية ، لأبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري (ت : ٢١٣هـ) ، تحقيق : مصطفى السقا وآخرون ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ١٤٢١هـ .

حرف الشين

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، لابن العماد الحنبلي (ت : ١٠٨٩هـ) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .
- شرح الأصول الخمسة ، لعبد الجبار بن أحمد الهمداني المعتزلي (ت : ٤١٥هـ) ،

- حققه : عبد الكريم عثمان ، تعليق : الإمام أحمد بن الحسين ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٨ م .
- شرح العقيدة الطحاوية ، لعلي بن محمد العز (ت : ٧٩٢هـ) ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الثامنة ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤ م .
- شرح الفقه الأكبر ، للملا علي القاري ، ابن محمد (ت : ١٠١٤هـ) ، دار النفائس ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧ م .
- شرح المقاصد ، لمسعود بن عمر التفتازاني (ت : ٧٩٣هـ) ، تحقيق : عبد الرحمن عميرة ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٩ م .
- شرح النسفية في العقيدة الإسلامية ، لعبد الملك السعدي ، مكتبة دار الأنبار ، بغداد ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨ م .
- الشفاء بتعريف حقوق المصطفى - ﷺ - ، للقاضي عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي (ت : ٧٧٤هـ) ، تحقيق : طه عبد الرؤوف سعد ، مطبعة حسان ، القاهرة .
- الشورى ، للدكتور عبد الله بن أحمد قادري ، دار الأصبهاني ، جدة ، نشر دار المجتمع ، سنة ١٤٠٦هـ .
- الشورى وأثرها في الديمقراطية ، للدكتور عبد الحميد الأنصاري ، دار الكتب العربية ، بيروت ، الطبعة الأولى .

حرف الصاد

- الصارم المسلمون على شاتم الرسول ، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية (ت : ٧٢٨هـ) ، تحقيق : محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، بيروت .
- الصبر في الإسلام ، للدكتور يوسف القرضاوي ، دار الكتب العربية ، بيروت .

- الصحاح تاج العربية وصحاح العربية ، لإسماعيل بن حماد الجوهري (ت : ٣٩٨هـ) ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، القاهرة ، الطبعة الثانية .
- صحيح البخاري ، تأليف : الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت : ٢٥٦هـ) ، مطبوعة عن النسخة اليونانية ، دار طوق النجاة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢هـ .
- صحيح قصص الأنبياء لأبي الفداء إسماعيل بن كثير ، لسليم الهلالي ، مؤسسة غراس ، الكويت ، الطبعة الحادية عشرة ، ، ١٤٢٧هـ .
- صحيح مسلم ، للإمام ابن الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (ت : ٢٦١هـ) ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦هـ .
- صور من أدب السلوك الاجتماعي في الإسلام ، لإبراهيم محمد العلي ، دار النفائس للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م .

حرف الطاء

- طبقات الشافعية الكبرى ، لأبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي (ت : ٧٧٣هـ) ، تحقيق : عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي ، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان ، الجزيرة ، مصر ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٢م .
- الطبقات الكبرى ، لمحمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري المعروف بابن سعد (ت : ٢٣٠هـ) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .
- طبقات المفسرين ، لمحمد بن علي الداودي (ت : ٩٤٥هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ .

حرف العين

- عالم الجن والإنس ، للدكتور عبد الكريم عبيدات ، دار كنوز أشبيليا ، الرياض ، الطبعة

الثالثة ، ١٤٢٦ هـ .

- عالم الملائكة الأبرار ، لعمر سليمان الأشقر ، مكتبة الفلاح ، الكويت .
- عرائس المجالس في بيان قصص الأنبياء ، لأبي إسحاق أحمد بن محمد النيسابوري المعروف بالثعالبي ، مطبعة الأمة ، القاهرة .
- العقيدة الإسلامية وأسسها ، لعبد الرحمن حسن حنكة الميداني ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٦ م ، وطبعة : دار القلم ، دمشق ، الطبعة الخامسة ، ١٤٠٤ هـ .
- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ ، لأحمد بن يوسف السمين الحلبي (ت : ٧٥٦ هـ) ، تحقيق : محمود محمد السيد الدغيم ، دار السيرة ، استانبول ، ١٤٠٧ هـ - ١٨٨٧ م .
- العين ، للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت : ١٧٤ هـ) ، تحقيق : مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي ، دار ومكتبة الهلال .

حرف الفاء

- فتح الباري شرح صحيح البخاري ، للحافظ ابن حجر العسقلاني ، ترقيم : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار السلام ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤٢١ هـ .
- فتح القدير ، لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت : ١٢٥٠ هـ) ، تحقيق : الدكتور عبد الرحمن عميرة ، دار الندوة العالمية للنشر والتوزيع ، الرياض ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، المنصور ، مصر ، الطبعة الثالثة ، ١٤٢٦ هـ .
- الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية ، لمحيي الدين أبي عبد الله محمد ابن علي بن محمد الطائي الأندلسي الحاتمي المعروف بابن عربي (ت : ٦٣٨ هـ) ، مكة ، ١٣٠٦ هـ .
- الفروق في أنوار البروق في أنواء الفروق ، لشهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس

- ابن عبد الرحمن القرافي (ت : ٦٨٤هـ) ، تحقيق : محمد أحمد سراج وعلي جمعة محمد ، دار السلام ، القاهرة ، ٢٠٠١م .
- فقه السيرة ، للشيخ محمد الغزالي ، تعليق : محمد ناصر الدين الألباني ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، الطبعة الثامنة ، ١٤٠٨هـ .
- في ظلال القرآن ، لسيد قطب ، دار الشروق ، بيروت ، الطبعة الحادية والعشرون ، ١٤١٤هـ .

حرف القاف

- القاموس المحيط ، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت : ٨١٧هـ) ، دار العلم للجميع ، بيروت ، لبنان .
- قصص الأنبياء ، لعبد الوهاب النجار ، دار إحياء التراث العربي .
- القصص القرآني ، للدكتور صلاح الخالدي ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩هـ .
- قيادة الرسول - ﷺ - السياسية والعسكرية ، لأحمد عرموش ، دار النفائس للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ .

حرف الكاف

- كبرى اليقينيات الكونية ، لمحمد سعيد رمضان البوطي ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثالثة .
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم الأقاويل في وجوه التأويل ، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت : ٥٣٨هـ) ، اعتنى به وخرَّج أحاديثه : خليل مأمون شيحا ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٣هـ .

- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت : ١٠٩٤هـ) ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، سورية ، ١٩٧٤م .

حرف اللام

- لسان العرب ، لمحمد بن مكرم ابن منظور (ت : ٧١١هـ) ، دار صادر ، بيروت .
- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرّة المضية في عقيدة الفرقة المرضية ، لمحمد بن أحمد السفاريني (ت : ١١٨٨هـ) ، مؤسسة الخافقين ومكبتها ، دمشق ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

حرف الميم

- المبسوط في القراءات العشر ، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن مهران الأصبهاني (ت : ٢٩٥هـ) ، تحقيق : سبيع حمزة حاكمي ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق .
- المثل الأعلى في الأنبياء ، لخوجة كمال الدين ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، لبنان .
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، للحافظ نور الدين الهيثمي (ت : ٨٠٧هـ) ، تحرير الحافظين : العراقي ، وابن حجر ، مؤسسة المعارف ، بيروت ، ١٤٠٦هـ .
- مجمل اللغة ، لأبي الحسين أحمد بن زكريا بن فارس (ت : ٣٩٥هـ) ، دراسة وتحقيق : زهير عبد المحسن ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية .
- مجموع الفتاوى ، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت : ٧٢٨هـ) ، جمع وترتيب : عبد الرحمن بن قاسم ، مكتبة النهضة الحديثة ، مكة المكرمة ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .
- محاسن التأويل ، لمحمد جمال الدين القاسمي ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، اعتنى به وصححه : الشيخ هشام سمير البخاري ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

- محمد رسول الله - ﷺ - ، محمد الصادق عرجون ، دار العلم ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ .
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، لشمس الدين أبي بكر ابن قسيم الجوزية (ت : ٧٥١هـ) ، مطبعة السنة المحمدية ، ١٣٧٥هـ .
- المدهش ، للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت : ٥٩٧هـ) ، تحقيق : خيرى السيد ، مكتبة الكوثر .
- المستدرک على الصحيحين ، للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ .
- المسند ، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت : ٢٤١هـ) ، بيت الأفكار الدولية ، الرياض ، ١٩٩٨م .
- مشارق أنوار العقول ، لعبد الله بن حميد السالمي ، تعليق : أحمد الخليلي ، تحقيق : عبد المنعم العاني ، دار الحكمة ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م .
- المصباح المنير ، لأحمد بن محمد بن المقرئ الفيومي (ت : ٧٧٠هـ) ، دار المعارف ، القاهرة .
- مع الأنبياء في القرآن الكريم ، لفيف طبارة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة التاسعة عشرة ، ١٩٩٦م .
- معارج التفكير ودقائق التدبر ، لعبد الرحمن حبنكة ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ .
- معارج القدس في مدارج معرفة النفس ، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي (ت : ٥٠٥هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ .

- معالم التنزيل ، لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت : ٥١٦هـ) ، تحقيق : محمد عبد الله النمر ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٣هـ .
- المعجم الأوسط ، للحافظ الطبراني (ت : ٣٦٠هـ) ، تحقيق : الدكتور محمود الطحان ، مكتبة المعارف ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ .
- معجم البلدان ، لياقوت بن عبد الرحمن الحموي ، دار صادر ، بيروت ، ١٤٠٤هـ .
- المعجم الكبير ، للحافظ الطبراني (ت : ٣٦٠هـ) ، تحقيق : حمدي السلفي ، دار إحياء التراث العربي .
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد عبد الباقي ، المكتبة الإسلامية ، استانبول ، ١٩٨٢م .
- المعجم الوسيط ، لإبراهيم أنيس ، القاهرة ، مصر ، ١٩٨٢م .
- المغني في أبواب العدل والتوحيد ، لعبد الجبار بن أحمد الهمداني المعتزلي (ت : ٤١٥هـ) ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م .
- مفردات ألفاظ القرآن الكريم ، للراغب الأصفهاني ، تحقيق : صفوان داودي ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الثالثة ، ١٤٢٣هـ .
- المفردات في غريب القرآن ، للحسين بن محمد الراغب الأصفهاني (ت : ٥٠٢هـ) ، تحقيق : محمد خليل عيتاني ، دار المعرفة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .
- مقاييس اللغة ، لأحمد بن فارس بن زكريا ، تحقيق : شهاب الدين أبو عمرو ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ .
- مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها ومرضيتها ، لأبي بكر محمد بن جعفر السامري الخرائطي (ت : ٣٢٧هـ) ، تحقيق : الدكتور سعاد سليمان إدريس ،

- مطبعة المدني ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ .
- من أخلاق النبي - ﷺ - ، للدكتور أحمد محمد الحوفي ، مطبعة فخر مصر ، ١٩٨٩م .
- من بلاغة القرآن ، لأحمد أحمد بدوي ، مكتبة نهضة مصر للطبع والنشر ، الفجالة ، القاهرة ، الطبعة الثالثة .
- مناهل العرفان في علوم القرآن ، لمحمد عبد العظيم الزرقاني ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي .
- منهاج السنة النبوية ، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلیم بن تیمية (ت : ٧٢٨هـ) ، تحقيق : محمد رشاد سالم ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، بهامش الصحيح ، لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي (ت : ٦٧٦هـ) ، المطبعة المصرية .
- المواقف بشرحه ، لعبد الرحمن بن أحمد بن عبد الفتاح عضد الدين الإيجي (ت : ٧٥٦هـ) ، تحقيق : عبد الرحمن عميرة ، دار الجيل ، بيروت ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م .
- موسوعة أخلاق القرآن ، للدكتور أحمد الشرياص ، دار الرائد العربي ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٧هـ .
- الموطأ ، للإمام مالك بن أنس (ت : ٩٣هـ) ، تحقيق : أبو عبد الرحمن الأخطري ، الإمامة للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ .

حرف النون

- النبوات ، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلیم بن تیمية (ت : ٧٢٨هـ) ، دار الكتب

العلمية ، بيروت ، ١٤٠٥هـ .

- النبوة والأنبياء ، محمد بن علي الصابوني ، مكتبة الغزالي ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٠ م .
- النكت والعيون (تفسير الماوردي) ، لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي (ت : ٣٦٤هـ) ، تعليق : السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحمن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
- نهاية الأرب في فنون الأدب ، لحمد بن عبد الوهاب النويري (ت : ٧٣٣هـ —) ، تحقيق : محمد رفعت فتح الله وآخرون ، القاهرة .
- النهاية في غريب الحديث والأثر ، لمجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن الجزري المعروف بابن الأثير ، اعتنى به : رائد صبري بن أبي علفة ، بيت الأفكار الدولية .

حرف الواو

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت : ٦٨٠هـ) ، تحقيق : إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٦٨ م ، ودار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٣٩٧هـ .



٩- فهرس المحتويات

الصفحة	المحتوى
٣	المقدمة
٧	أسباب الكتابة في هذا الموضوع وأهميته
٨	خطة البحث
١١	منهج البحث
١٤	التمهيد
١٥	المطلب الأول : حقيقة الأدب ، ومنزلته ، وأنواعه
١٥	أ- معنى الأدب لغة واصطلاحاً
١٧	ب- منزلة الأدب ومحاسنه ووسائل تحقيقه
١٩	ج- أنواع الأدب وأصوله ومصادره
٢٣	المطلب الثاني : حقيقة النبوة والأنبياء
٢٣	أ- معنى النبوة ، والفرق بينها وبين الرسالة
٣٥	ب- منزلة الأنبياء وخصائصهم
٣٧	ج- مجالات أدب الأنبياء في القرآن
٣٨	الباب الأول : أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مع الموافقين
٣٩	تمهيد من هم الموافقون ؟
٤٠	الفصل الأول : أدبهم - عليهم الصلاة والسلام - بعضهم لبعض
٤١	المبحث الأول : الاحترام والتعظيم
٦١	المبحث الثاني : الاقتداء واتباع المنهج والطريق
٨٢	المبحث الثالث : التواضع وتراحمهم فيما بينهم
	الفصل الثاني : أدبهم - عليهم الصلاة والسلام - مع خاصتهم وأتباعهم
٩٩	من أقوامهم ومن غيرهم

الصفحة	المحتوى
١٠٠	المبحث الأول : أدبهم - عليهم الصلاة والسلام - مع ذوي القربى
	المبحث الثاني : أدبهم - عليهم الصلاة والسلام - مع الأتباع من أقوامهم
١٦١	ومن غيرهم
١٩١	الفصل الثالث : أدبهم - عليهم الصلاة والسلام - في دعوتهم للموافقين .
١٩٢	المبحث الأول : مشورتهم في الأمور العامة
١٩٢	تعريف المشورة في اللغة والاصطلاح
٢٠٩	المبحث الثاني : التخول بالموعظة والمناصحة
٢٢٨	المبحث الثالث : الصبر والصفح عن المقصرين
٢٢٨	تعريف الصبر في اللغة والاصطلاح
٢٤٩	الباب الثاني : أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مع المخالفين . . .
٢٥٠	تمهيد : من هم المخالفون ؟
٢٥١	الفصل الأول : أدبهم في المعاملة
	المبحث الأول : أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مع المشركين من
٢٥٢	ذوي القربى
	المبحث الثاني : أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مع المشركين من
٢٦٥	أقوامهم
٢٦٦	نوح وقومه
٢٧١	هود وقومه
٢٧٨	صالح وقومه
٢٨٤	لوط وقومه
٢٩٠	الفصل الثاني : أدبهم في الدعوة
٢٩٦	المبحث الأول : البلاغ والجدل بالحسنى
٢٩٨	بلاغ نوح - <small>عليه السلام</small> - لقومه
٣٠٤	بلاغ هود - <small>عليه السلام</small> - لقومه

الصفحة	المحتوى
٣٠٩	بلاغ صالح - عليّ عليه السلام - لقومه ثمود
٣٢٠	بلاغ الخليل - عليّ عليه السلام - دعوة ربه ورسالته
٣٢٣	بلاغ شعيب - عليّ عليه السلام - دعوته لقومه
٣٢٩	بلاغ نبينا محمد - ﷺ - دعوته لقومه وعشيرته
٣٣٩	المبحث الثاني : الحرص على الهداية
٣٥٥	المبحث الثالث : الرفق في الأقوال والأفعال
٣٥٥	تعريف الرفق في اللغة والاصطلاح
٣٦٦	المبحث الرابع : الشجاعة والجرأة في قول الحق
	الباب الثاثلث : أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مع غير البشر ،
٣٨٠	وأثر هذا الأدب
٣٨١	الفصل الأول : أدبهم - عليهم الصلاة والسلام - مع غير البشر
٣٨٢	المبحث الأول : أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مع الملائكة
٣٨٦	الملائكة مع إبراهيم - عليّ عليه السلام -
٣٩٠	لوط - عليّ عليه السلام - مع أضيافه الملائكة
٤٠١	المبحث الثاني : أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مع الجن
٤١٥	المبحث الثالث : أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مع الحيوان
٤٣٠	الفصل الثاني : أثر أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -
٤٣١	المبحث الأول : أثر أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - على الموافقين
٤٣٣	الافتداء بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -
٤٣٩	المبحث الثاني : أثر أدب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - على المخالفين
٤٤٧	الخاتمة
٤٥٣	الفهارس
٤٥٤	١- فهرس الآيات القرآنية
٥١٤	٢- فهرس الأحاديث النبوية

الصفحة	المحتوى
٥٢٢	٣- فهرس الآثار
٥٢٥	٤- فهرس الأعلام
٥٢٩	٥- فهرس الكلمات المشروحة
٥٣١	٦- فهرس الأماكن والبلدان
٥٣٢	٧- فهرس الأبيات الشعرية
٥٣٤	٨- فهرس المصادر والمراجع
٥٥٢	٩- فهرس المحتويات

